الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثانی عشر

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 5

الجزء الثاني عشر

تتمة سورة الأعراف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 6

سورة الأعراف مكيّة و آياتها 206

[سورة الأعراف (7): الآيات 170 الى 180]

وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170) وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (175) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (178) وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (179)

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (180)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 8

وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170).

هنا «الكتاب» هو كتاب الشرعة الربانية أيا كان و أيان، و كلما كان الكتاب أعلى محتدا و أغلى قدوة، كان التمسيك به أوجب و أحرى.

و التمسيك الطليق هنا بطليق الكتاب يحلّق على كل تمسيك لواجب الحق الحقيق بالاتباع علميا و عقيديا و أخلاقيا و عمليا و ما أشبه.

كما و يحلق على التمسيك به باجتهاد طليق، أو تقليدا اجتهادي سليم، أم عوان بينهما لفيق.

إذا ف «الذين» يشمل كافة المكلفين بكتاب الشرعة أن تكون لهم منه حظوة ممسّكة لكل محبور في شرعة اللّه، و عن كل محظور فيها.

أجل، و على الورثة المجتهدين أن يجدوا السير في ذلك التمسيك لأنفسهم و لسائر المكلفين، كما و على الورثة التقليدين أن يجيدوا تقليدهم تبنيا للكتاب كأصل أصيل، سائلين أهل الذكر بالبينات و الزبر دون تقليد أعمى و كما يقول اللّه تعالى: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ» (16: 44) سؤالا بالبينات و الزبر المعصومة الخالصة وحيا، و كما أن أهل الذكر لا أهلية لهم في تلك المسؤولية إلا بالبينات و الزبر.

و هنا «أَقامُوا الصَّلاةَ» بعد «يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ»، إشارة إلى أن الصلاة وجه الدين حينما الدين هو الكتاب و كما يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «لكل شي‏ء وجه و وجه دينكم الصلاة فلا يشينن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 9

أحدكم وجه دينه» «1».

فكما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان كذلك الصلاة يعرف بها جملة الدين المستفادة من الكتاب، لأنها أظهر العبادات و أشهر المفروضات.

فورثة الكتاب، الدارسون ما فيه، الممسّكون به كأصل أصيل بين كل الفروع و الأصول، إنهم هم المصلحون، و كلما كان الكتاب الرباني أعلى محتدا، كان التمسيك به أغلى، و تركه أنحى و أنكى، فإذا كان‏ «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً» (62: 5) فما ذا يكون- إذا- مثل الذين حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه، أليس أشد و أمثل من مثل الحمار الحامل للأسفار؟!.

و هنا «يمسّكون» تفعيلا دون «يمسكون» فعلا، يدلنا على أن واجب ورثة الكتاب أن يمسكوا أنفسهم و سائر الأمة- في حقل الإيمان بمواده الصادقة الأصيلة الصافية- يمسكون كل ذلك بالكتاب في كل حقول المعرفة و العقيدة دون إبقاء، تمسيكا مسيكا بوفرة و كثرة و تلاحق، دون ترك له أو إهمال إياه و لا لفترة قصيرة.

أجل، و بالكتاب يمسّك أهلوه في الحق من كل زلة و ضلّة، و من أية تخلّفة و علة و اختلاف، إلى كل تألّف و صحة و ائتلاف.

و هنا يندد الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بالذين اختلفوا عن القرآن و في القرآن، و تركوه وراءهم ظهريا، ممسكين بكل ممسك إلّا الكتاب، إلّا إذا فسر كما يهوون قائلا:

«و إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شي‏ء أخفى من الحق، و لا أظهر من الباطل، و لا أكثر من الكذب على الله و رسوله- و ليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (132).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 10

تلاوته، و لا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه، و لا في البلاد شي‏ء أنكر من المعروف و لا أعرف من المنكر- فقد نبذ الكتاب حملته، و تناساه حفظته، فالكتاب يومئذ و أهله طريدان منفيان، و صاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو- فالكتاب و أهله في ذلك الزمان في الناس و ليسا فيهم، و معهم و ليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى و إن اجتمعا- فاجتمع القوم على الفرقة، و افترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب و ليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، و لا يعرفون إلا خطه و زبره، و من قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، و سموا صدقهم على الله فرية، و جعلوا في الحسنة عقوبة السيئة، و إنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم، و تغيب آجالهم، حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة، و ترفع عنه التوبة، و تحل معه القارعة و النقمة» (الخطبة 147).

ذلك و القرآن هو الخليفة الوحيدة للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أم هو الكبرى اعتبارا بالسنة و هي لا تعرف إلا بموافقته، فقد «قبضه (صلى الله عليه و آله و سلم) إليه كريما، و خلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملا، بغير طريق واضح، و لا علم قائم- كتاب ربكم، مبينا حلاله و حرامه، و فرائضه و فضائله، و ناسخه و منسوخه، و رخصه و عزائمه، و خاصه و عامه، و عبره و أمثاله، و مرسله و محدوده، و محكمه و متشابهه، مفسرا جمله، و مبينا غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، و موسع على العباد في جهله، و بين مثبت في الكتاب فرضه، و معلوم في السنة نسخه- و هو نسخ العموم أو الإطلاق- و واجب في السنة أخذه، و مرخص في الكتاب تركه- و هو بين منسوخ بأصله أم في عمومه و إطلاقه- و بين واجب بوقته، و زائل في مستقبله، و مباين بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 11

محارمه، من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، و بين مقبول في أدناه، و موسع في أقصاه» (الخطبة 1).

ذلك، فالممسّك بالكتاب ليس ليقبل ما يخالفه، فانه تمسيك بغير الكتاب لرفضه، «وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً» (18: 27) و «فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (43: 43) و «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ» (10:) 15) «وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» (10: 109) و «إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» (4: 105) و ما أشبه، هذه من عساكر البراهين القرآنية الدالة على أصالة القرآن، و انه لا ينسخ أو يخالف بأية مخالفة بالحديث مهما كان متواترا.

فلا يقبل من أي حديث أن ينسخ الكتاب بتباين كلي أو جزئي مثل التعميم و التخصيص، و التطليق و التقييد، سواء أ كان العام و المطلق الكتابيان نصين في العموم و الإطلاق أم ظاهرين فيهما، اللّهم إلّا إذا كانا مهملين في العموم و الإطلاق، صريحين في الإهمال أو ظاهرين فيه، لحدّ يعلم أن هناك في الكتاب أو السنة ما يخصّص أو يقيّد ذلك العام و المطلق المهملين، المذكورين كضابطة من الضوابط المرسلة، فهنا لا مخالفة بين مقطوع التخصيص أو التقييد، بل و نستقبل ما نعرف بإجمال من تخصيص أو تقييد شرط أن يكون معلوم الصدور عن مصدر الوحي، نقية عن التقية أماهيه من موهنات.

و هكذا لا نصدق حديثا يطارد ظاهر الوجوب من الأمر و ظاهر الحرمة من النهي، و سائر الظواهر البواهر في القرآن العظيم، ككل ما يخالف موضوعات الأحكام و سواها، توسيعا لها، أو تضييقا إياها، أم إلقاء لخصوصياتها، زيادة عليها أو نقيضة فيها.

و الأحاديث التأويلية إنما تصدّق على كتاب اللّه إذا كانت موافقة في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 12

خط النص أو الظاهر من الآيات حيث تقبل إلغاء خصوصيات كآية صلاة الخوف تلحيقا لصلاة السفر بها بمعونة مثل‏ «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ».

ذلك و هنا «أَقامُوا الصَّلاةَ» دون ما سواها مما في الكتاب، ليدل على أنها عمود الدين و عماد اليقين، فالذين يقيمون الصلاة حقا هم المؤمنون حقا «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» (29: 45).

ثم هذه الصيغة السائغة «يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ» تصوّر لنا بالغ الصورة الصالحة للقبض على الكتاب بكل قوة وجدية و صرامة، خارجة عن كل هوة و عرامة في غير ما تعنّت و لا تزمّت و تنطّع، إنما هو تطلّع على ما فيه بكل إتقان و إيقان، دون تحميل عليه رأيا، «إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» فالممسّكون بغير الكتاب رفضا، أم فرضا عليه ما ينافيه، أو تحميلا عليه ما لا يوافيه، إنهم هم المفسدون مهما غربلوا آراء من روايات و شهرات و إجماعات مضادة للکتاب.

و في الحق إن الحوزات العلمية المسماة بالإسلامية هي كلها مندد بها في الطامة الكبرى و هاهنا، إذ «قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» (25: 30)، أو ليس القرآن مهجورا في حوزاتنا، فلا هو متن لها و لا هامش على متونها، لحد قد يفتي بخلاف نصه العلي أو ظاهره الجلي!.

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171).

«وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (2: 63)- «وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ» (4: 154).

فقد كان رفع الطور نتقا و قلعا عن الأرض فإطارة في الفضاء على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 13

رؤوسهم، فهو

«طير طار مرة لم يطر قبلها و لا بعدها» «1»،

و هنا «واقِعٌ بِهِمْ» دون «عليهم» إشارة إلى أن وقوعه عليهم لم يكن إلّا بهم، بسبب تمردهم عن شرعة التوراة.

«خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ» القلوب و الأبدان‏ «2» فتنكير «قوة» يعرّفنا أنها تحلّق على كلّ قوة، فالمفروض- إذا- تكريس كافة القوات و الإمكانيات لأخذ التوراة، أخذا علميا و عقيديا و عمليا: شخصيا و جماعيا، دون أن يترك في أيّ حقل من هذه الحقول سدى و هملا.

«خذوا» و ليس يكفى مطلق أخذه بل‏ «وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ» فليكن ما فيه من أوامر اللّه و نواهيه ذكرى لكم تعيشونها على كل حال، و في كل حلّ و ترحال‏ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» كل المحاظير المذكورة فيه، ذلك، فأخذ ما في كتاب اللّه بقوة و ذكر ما فيه، هما جناحان للوصول إلى حق التقوى، خروجا عن كل طغوى.

و أهم ما في كتب اللّه تعالى هو التوحيد الحق و حق التوحيد بدرجاته، فقد يذكرنا اللّه فيها بما كتب في الفطر و العقول و سائر الآيات في كتابات الآفاق و الأنفس، فليست كتب الدعوة الربانية إلّا شروحا و تفاصيل ربانية على كتاب اللّه في الفطر و ما أشبه من سجلات الآيات، مهما كانت فيها زيادات لتعبديات من طقوس و شكليات العبادات.

لذلك فيما يلي يذكرنا اللّه تعالى بما سجله في كتاب الفطرة الذرية و الذرية الفطرة، حيث هما واحد في الحق مهما اختلفا في العبارة، و لقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 13: 213- 6 عن أبي بصير قال سأل طاوس اليماني الباقر (عليه السلام) عن طير ذكره اللّه في القرآن ما هو؟ فقال: طور سيناء أطاره اللّه عزّ و جلّ على بني إسرائيل حين أظلهم بجناح منه فيه ألوان العذاب حتى قبلوا التوراة و ذلك قوله عزّ و جل:

و إذ نتقنا الجبل.

(2)

المصدر 13: 226- 2 عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قوله اللّه: خذوا ما آتيناكم بقوة «أ قوة في الأبدان أم قوة في القلوب؟ قال: فيها جميعا»،

و

فيه عنه (عليه السلام) قال: و اذكروا ما فيه «و اذكروا ما في تركه من العقوبة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 14

فصلنا القول في أحكام الفطرة على ضوء آية الفطرة في الروم، ما يكمل البحث حول آية الذرية.

إذا فالإنسان يعيش عهودا ربانية، بفطرته و عقليته و بشرعة اللّه ككل و ببنود خاصة راصة من شرعته، لا يستطيع نكران هذه العهود، و لا سيما عهد الفطرة المندغم فيها من ذي قبل.

و لأن آيتي الفطرة و الذرية بينهما تلاحم الوحدة، و قصوى الغاية، فلننظر إليهما نظرة عميقة أنيقة:

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173).

فهنا تعرض قضية التوحيد من زاوية الفطرة بصيغة الذرية، و لأن الفطرة هي ذرية الروح كما النطفة الجرثومية للجسم.

في درس سابق لهذه الآية شهدنا مشهد الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل: «وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (171)- و هنا تتابعه قصة الميثاق الأكبر الذي أخذه اللّه على الذرية: الفطرة، في مشهد لا يدانيه أو يساميه شي‏ء في روعة و جلالة مشهد الجبل المنتوق و سائر المشهد، فهو ميثاق هو أوثق من كافة المواثيق حيث تتبناه كأصل.

إنها قضية توحيد الفطرة في صورة مشهد التساءل، و لا تساءل بين الإنسان و ربه حال ذرّه، إلّا ما أودعه اللّه فيه من الغيب المكنون، المستكن في: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» التي تصاغ هنا بصيغة الذرية، فهو عرض للواقع الحق من التكوين الفطري للإنسان بصورة التساءل و التقاول كما هي دأب القرآن في تجسيم الحقائق البعيدة عن الإحساس، حيث يصورها بصورة المحسوس قولا و سواه.

و قد وردت روايات حول الذر و عالمه متهافتة متضادة مع بعض،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 15

معارضة مع الآية، و بجنبها أقوال و آراء غريبة قلّما يقرب منها منطوق الآية.

لذلك، و لكي نكون على بصيرة في مغزى الآية، علينا أن ننظر إلى «عالم الذرية» من زاوية الآية نفسها بكل إمعان و دقة: مع العلم المسبق أن «الذر» هي النمل، و ليست الذرية! و لا نجد في القرآن كله إلّا «ذرة» و «ذرية» و هما من أصل واحد، مهما اختصت الثانية بقبيل الإنسان، فقد أوغلوا في الخطأ في تفسير آية الذرية لفظيا و معنويا.

قد يشهد بعض بالآية أن هناك قبل خلق الإنسان له كيان الذر، و عالمه عالم الذر، لمكان المسائلة: «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قال الشريف المرتضى في أماليه (1: 28) و قد ظن من لا بصيرة له و لا فطنة عنده أن تأويل هذه الآية أن اللّه تعالى استخرج من ظهر آدم (عليه السلام) جميع ذريته و هم في خلق الذر، فقررهم بمعرفته، و أشهدهم على أنفسهم! و هذا التأويل- مع أن العقل يبطله و يحيله- مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه لأن اللّه تعالى قال: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» و لم يقل «من آدم» و قال «من ظهورهم» و لم يقل من ظهره، و قال: «ذريتهم» و لم يقل «ذريته» ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا يوم القيامة: إنهم كانوا عن ذلك لغافلين، أو يعتذروا بشرك آباءهم، و أنهم نشئوا على دينهم و سنتهم و هذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم (عليه السلام) لصلبه و أنها إنما تناولت من كان له آباء مشركون، و هنا يدل على اختصاصها ببعض ذرية بني آدم فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويلهم- فأما شهادة العقول فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم (عليه السلام) فخوطبت و قررت من أن تكون كاملة العقول، مستوفية لشروط التكليف أو لا تكون كذلك فإن كانت بالصفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم و إنشائهم و إكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال و ما قرروا به و استشهدوا عليه، لأن العاقل لا ينسى ما جرى هذا المجرى، و إن بعد العهد و طال الزمان، و لهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا في بلد من البلدان و هو عاقل كامل فينسى مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم و سائر أحواله، و ليس أيضا لتخلل الموت بين الحالين تأثير، لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر لكان تخلل النوم و السكر و الجنون و الإغماء بين أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم لأن سائر ما عددناه مما ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 16

و لكنما التأنّق في سائر مضمونها يدلنا إلى أن تلك المقاولة المسائلة ليست هي ظاهرها الواقع، بل هي من مسارح الحقيقة أن لو كانت هنالك مسائلة لكانت كما هيه، و هذه هي طريقة القرآن، الفريدة في تبين الحقائق، تصويرا بصورة المسائلة ليعقلها العالمون، و كما «قال‏ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» (41: 11) «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (36: 82) «وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ. فَكَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ» (10: 29) مع العلم أن الأصنام و الأوثان و النبات و الحيوان، بين شركاءهم، ليست لتتكلم، و إنما هو قالها الحال.

و إن الكيان الإنساني ليرتعش من أعماقه حين يتحلى ذلك المشهد الرائع الباهر، و يتملّى اختجالا أمام ربه حين يسأل: أ لست بربكم- و إجابة «بلى» سابقة سابغة حيث يرى فطرته الذرية مصبوغة بها، فلما ذا أنكرها بعد إلى خلافها؟

و لأنها آية مسائلة الذرية فلنجعلها في مسائلة حول ما هي الذرية و مسائلته؟ سرا و تقسيما دلاليا، و بضمنها ردا أو قبولا لما ورد حول الذرية من روايات و آراء.

لماذا «أخذ ربك» دون «اللّه» أم «رب العالمين»؟ علّه لأن ذلك الأخذ هو في موقف تربوي خاص، و الهدف الأسمى و الغاية القصوى هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- الباب، و ليس لهم أن يقولوا: إذا جاز في العقل الكامل أن ينسى ما كان عليه في حال الطفولة جاز ما ذكرناه، و ذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادّعوه إذا كملت عقولهم من حيث جرى لهم و هم كاملوا العقول، و لو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه، على أن تجويز النسيان عليهم ينقض الفرض في الآية و ذلك أن اللّه تعالى أخبر بأنه إنما قررهم و أشهدهم لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك، و سقوط الحجة عنهم فيه، فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر إلى سقوط الحجة و زوالها، و إن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل و شرائط التكليف قبح خطابهم و تقريرهم و إشهادهم و صار ذلك عبثا قبيحا يتعالى اللّه عنه ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 17

التربية المحمدية (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كأعلى نموذج تربوي بين ملاء العالمين! و ليكون نبراسا ينير الدرب على السالكين إلى اللّه على ضوء التربية المحمدية عليه أفضل صلاة و تحية. فهذا الرسول الألمعي الابطحي هو المحور الأصيل في الحقل التربوي الربوبي، و في ظلاله العالمون على درجاتهم قبولا أم دركاتهم ردا، ف «ربك» لمحة إلى ذلك و ان‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» هي ظرف ظريف طريف لكل تربية ربوبية أسماها و أسناها ما اختص به الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) دون معاناة أحد أو مساماته معه، مهما اختلفت المحاولات التربوية للناس و ما يختارها اللّه للمختارين من عباده الصالحين.

ذلك «و إذ» هنا متعلقة ب «اذكر» و ما أشبه، فليذكر محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ذلك الميثاق‏ «مِنْ بَنِي آدَمَ» برمتهم، فليس يعني «إذ» إذا زمنا خاصا مضى، بل هو كل زمن خلقة بني آدم عن بكرتهم، و قد عبر عنها ب «إذ» كزمن واحد، لوحدة ذلك الأخذ الفطري دونما تخلّف لأيّ منهم فيه.

و لمكان «ربك» خطابا للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نتلمح أن تفهّم معنى الآية بحاجة إلى نبوة في التفكير، فلنقف وراء ساحة النبوة القدسية بنبوة قدسية حتى نعرف القصد من ذلك الأخذ، و ليس باب تفهم أمثال هذه الآية مسدودة على غير من خوطب بها، إلا على من سدّ على نفسه منافذ المعرفة، أمن لم يبلغ بالغ الاستعداد لتفهمها.

و ليس هنا قصور دلالي، إنما هو قصور المستدل، غير البالغ مبلغ العلم القرآني، فعلى أهل القرآن، العائشين إياه معرفيا، أن يتدبروا آياته الغامضة، فإنها وامضة مشرقة لمن استشرق منها.

و لقد نجد الآيات التي تحمل لفظة «ربك» كلها دقيقة المعنى، رقيقة المغزى، لخاصة الخطاب الموجه إلى أعرف العارفين‏ «1» و لأن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مثل قوله تعالى: «وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (2: 30)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 18

القرآن- ككل- بيان للناس، إلا الخاص منه كمفاتيح سور و تأويلات أحكام غير مذكورة في القرآن، فمجال تفهم خاصة الخطابات- كهذه- مفسوح لمن تدبر فيها حقه، مهما لا يصل إلى حاقها.

فكتاب التدوين: القرآن، هو ككتاب التكوين، هما للناس كافة بمختلف درجاتهم في الاستعدادات الخلقية، و التي تنبو قضية درجات المساعي قدرها، لكلّ حسب سعيه و قدره.

ذلك، و من آيات القرآن ما هي لائحة لمن يعرف لغة القرآن، و هي قدر الواجب من معرفة الشرعة، و منها ما يختص بالمعصومين كتأويلات الآيات، و منها عوان بين ذلك و هي تختلف ظهورا و غموضا حسب مختلف الاستعدادات و القابليات و الفاعليات.

فترى «إذ أخذ» حكاية عن زمان سابق لواقع ذلك الأخذ؟ و «بني آدم» لمّا يخلقوا عن آخرهم حتى يعنى هنا سابق الأخذ!.

إنه أخذ علمي في الصميم في حقل خلق الإنسان، أنه يخلق على طول الخط بهذه الفطرة التوحيدية، أخذا ربانيا في العلم، يحذوه أخذ في الخلق دونما استثناء.

ف «إذ» هنا حكاية عن العلم المصمّم دون طليقه، فإنه أزلي ليس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» (5: 67) «وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا» (6: 115) «وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» (6: 126) «خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ» (11: 107- 108) «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ» (7: 16) «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» (10:) 99) «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» (11: 118) «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (15: 99) «ادْعُ إِلى‏ سَبِيلِ رَبِّكَ» (16: 125) «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» (19:) 71) «وَ الْمَلَكُ عَلى‏ أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (69: 17) «وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» (89: 22) «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» (99:).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 19

له زمان، بل هو صميم العلم منذ بدء خلق هذا النوع.

و «أخذ» حكاية عن أصيلة خلق الإنسان بحصيلته التوحيدية الفطرية، فهو- إذا- مأخوذ بحكم الفطرة التي فطره اللّه عليها و «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

و ترى بعد أن «ذريتهم» مأخوذة من ظهر آدم كما تقول رواية؟ و هي تطارد نص الآية: «مِنْ بَنِي آدَمَ- مِنْ ظُهُورِهِمْ- ذُرِّيَّتَهُمْ» دون «من آدم- من ظهره‏ «1»- ذريته»؟ فما آدم نفسه مأخوذا من ظهره شي‏ء في هذه المعركة!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي باسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» قال: اخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم و أراهم نفسه و لو لا ذلك لم يعرف أحد ربه‏ و رواه مثله في التوحيد عن عمر بن أذينة عنه (عليه السلام).

و

مثله في غوالي اللئالي و قال (عليه السلام) أخذ اللّه الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالنور ثم كلمهم و تلا «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏».

أقول: هذا التفسير خلاف نص الآية فهو مدسوس على الإمام (عليه السلام)! و

أخرج ما في معناه في الدر المنثور 3: 143 عن جماعة عن مسلم بن يسار و الجهني‏ أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ» فقال: سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) سئل عنها فقال: إن اللّه خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون تم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار و يعمل أهل النار يعملون فقال الرجل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ففيم العمل فقال: إن اللّه إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله اللّه الجنة و إذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله اللّه النار

أقول: و هو إضافة إلى مخالفة الآية في أخذ الذرية مخالفة للضرورة حيث يصرح بالجبر في عمل أهل الجنة و أهل النار، و مثله روايات أخر رواها في الدر المنثور عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كلها مردودة بمخالفة القرآن.

و فيه ما يوافق الآية في أخذ الذرية من ظهر بني آدم في 143-

عن جماعة عن هشام بن حكم‏ أن رجلا أتى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال أ تبتدء الأعمال أم قد قضي-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 20

ثم ترى «بني آدم» هم ولده الأولون دون مفاصلة، و ذريتهم هم ولدهم إلى يوم القيامة، فهم- فقط- أشهدوا على أنفسهم في هذه المسائلة دون آبائهم؟ و لم يأت «بني آدم» في آياتها الست الأخرى لهم‏ «1»، إلّا للناس أجمعين من ذرية آدم! و لم يكن بنوه الأوّلون مشركين و لا واحد منهم- مهما قتل قابيل هابيل- حتى تصح الحجة لو لا الإشهاد و المسائلة «إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ»!.

أم إن «بني آدم» هنا بعضهم الأعم منهم بمن فيهم من مشركين؟

و التبعيض بحاجة إلى قرينة هي هنا منفية! و «أَنْ تَقُولُوا» هي خطاب التنديد بعامة المشركين، فيشمل الآباء كما الأبناء طول التاريخ الإنساني منذ البداية حتى النهاية، دون خصوص الأبناء! و لا خصوص الآباء، بأولاد ليسوا بآباء لآخرين، فإنها حجة- لو صحت- لعامة المشركين.

ثم و من الآباء موحدون و أبناء منهم مشركون، كما منهم مشركون و أبناء منهم موحدون، أم مشرك من مشرك أو موحد من موحد! و ما من أبناء إلّا و هم آباء لآخرين إلّا قليلين هم في عقم عن إيلاد، و ليس يختص الشرك بأولاد ليسوا بآباء لآخرين، فإنّها حجة- لو صحت- لعامة المشركين.

إذا ف «بني آدم» هم كلهم منذ أوّل من ولّده آدم حتى آخر من يولد من ذريته إلى يوم القيامة دونما استثناء.

ثم من هم «ذريتهم» المأخوذون‏ «مِنْ ظُهُورِهِمْ»؟ أهم ولدهم بعد؟! و قد شملتهم «بني آدم»! استغراقا لذرية آدم على طول الخط! أم هم آباءهم؟ فكذلك الأمر إضافة إلى أن الآباء ليسوا بذرية!، و إلى سائر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

القضاء فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم اشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كيفية فقال هؤلاء في الجنة و هؤلاء في النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة و أهل النار ميسرون لعمل أهل النار»

أقول صدر الحديث فقط يوافق الآية.

(1). و هذه الست الأخرى هي: 7: 19- 26- 27- 31- 35 و 17: 70 و 36: 60.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 21

المحاظير المشار إليها من ذي قبل.

إنهم هم أنفسهم إضافة لهم إلى أنفسهم كما ذريتهم في الفلك المشحون: «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (36:) 41) و قد فسرتها آية الحاقة: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ» (69: 11) فذريتهم هم أنفسهم حالكونهم ذرية.

فقد- و اللّه أعلم- «أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» أخذ «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ» أولا: بني آدم- ذريتهم‏ «عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» فالمأخوذون هم بنو آدم بأسرهم، لا كما هم بعد خلقهم، و إنما «من ظهورهم» إيحاء إلى الأصل الأصيل من كيانهم و هو «ذريتهم»، دون الفصيل من ولدهم و ليكونوا في ذلك الأخذ كائنين بظهورهم، فليس- إذا- في كون قبل كونهم.

و ترى إذا «من ذريتهم» هم من أنفسهم بأرواحهم و أجسادهم كما هم بعد خلقهم؟ و ليسوا هم هكذا ذرية لأنفسهم! و إنما هو كون لهم قبل كونهم، فهم- إذا- آباء أنفسهم! أم كون أوّل لهم قبل كونهم الأخير؟ فلا يصح القول‏ «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» حيث يتطلب كونهم الحالي قبل كونهم الحالي، تقدم الشي‏ء على نفسه!.

ثم من هذا الذي يذكر ذلك التساءل و حتى أفضل المؤمنين فضلا عن أدناهم أو المشركين؟ فلهم الحجة- إذا- «إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ»! ثم أنى لهم من آباء و هم كل «بني آدم» دونما استثناء! حيث يعم كل الآباء و الأبناء في الطول التأريخي الإنساني، فلا حجة إذا للمشركين منهم لو لا المسائلة «أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ».

أو ترى «ذريتهم» هم بأبدانهم دون أرواح، نطفأ أم كما هم الآن؟

و «ذريتهم» ليست هي كل أبدانهم! و النطف دون أرواح لا تعقل حتى تشهد على أنفسها أم تتساءل عن وحدة إلهها! حقيقة أو تقديريا و «هم» المربع في كلمات الآية: الأربع «ظهورهم- ذريتهم- أشهدهم- على أنفسهم» دليل الحياة العقلية هناك حينذاك! و لا يرجع ضمير العاقل إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 22

الجسم الإنساني إلا اعتبارا بروحه الكائن فيه، أو كان أم سوف يكون.

أم هي ذرية الأبدان: «النطف» مع أرواح تعقل و تشهد؟ و لا تسمى هذه المجموعة ذرية بل هي الآباء الأصول و هم الذرية الفروع.

ثم و «بني آدم» كلهم عن ذلك الإشهاد و تلك المسائلة غافلون، إذا فلهم الحجة: «إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ» دون فارق بين ما لو كانت هذه مسائلة واقعة أم لم تكن! فهل أخذت ذرية الأبدان بأرواح عاقلة مكلفة تثبتا لما ليست بحجة على أية حال، إذ لا يذكره أحد من بني آدم حتى أفضل المؤمنين فضلا عن المشركين!.

ثم و آية الإنشاء «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» (43: 14) و آيات كأضرابها، تضرب بخلق الأرواح قبل الأجساد ضرب الحائط!.

أم إن «ذريتهم» هي فطرهم فإنها ذريات الأرواح، فكما النطف هي ذريات الأجسام و أصولها، كذلك الفطر هي ذريات الأرواح و أصولها، و إنما كيان الإنسان بروحه، و كيان الروح بفطرته‏ «الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» فهي الأصيل الأوّل من بعدي الإنسان الأصيلين الجذريين، فللجسم بعد الأصل النطفة الذرية و بعد الفرع، سائر الأجزاء المتفرعة عليها، و للروح بعد الأصل الفطرة الذرية، و بعد الفرع سائر الروح المتفرعة عليها، فأحرى بالفطرة أن يعنيها «هم» هنا و هناك.

فما لم يشهدوا على أنفسهم فيعرفوها، لا يصح أن يشهدوا على أنفسهم فيعترفوا بحكم فطرتها

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»

فليعرف الإنسان نفسه بفطرته ليعرف على غرارها ربّه، فإن معرفة النفس أقرب ما يعرفه الإنسان من مطلق الكون، فلا يعذر أحد في جهله نفسه‏ «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا».

و السؤال: أ لست بربكم- تقديري أن جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه- و ذلك السؤال نفسي و خارجي، فلو تعنت الإنسان في الإجابة الصحيحة عن ذلك السؤال فهو بينه و بين نفسه يجيب «بلى» لا سيما إذا تقطعت الأسباب و حارت دونه الألباب، إذ يراه يتعلق قلبه بسبب واحد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 23

خفي و هو اللّه تعالى شأنه العزيز! «قالُوا بَلى‏ شَهِدْنا» شهودا فطريا، ثم فكريّا.

فقد أخذ اللّه فطرة كل إنسان و هناك الإشهاد و المسائلة؟

و كيف تؤخذ الفطرة التي فطر الناس عليها قبل خلق الناس بروح و جسم، و الفطرة هي أعمق أعماق الروح، و قد خلقت الأرواح بأعماقها بعد الأجساد كما تقوله آية الإنشاء؟

و ترى «من» هنا تبعيضية تعني أن المأخوذ هنا هو البعض من بني آدم، فهل هو البعض من الكلي و هم جمع منهم؟ و هذه الحجة مأخوذة على كلهم! ثم «ذريتهم» دون «ذرياتهم» تؤكد أن ذلك البعض هو البعض من كل واحد منهم.

أم هي نشوية تعني نشوء ذلك الأخذ من منشإ بني آدم ثم المأخوذ هو «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» عناية إلى فطرهم التي هي ذريات الأرواح و أصولها، أم هي بيانية تبين المأخوذ انه ليس بني آدم من كل منهم كله، و إنما هو «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» و هي أصول أرواحهم و فطرهم.

و على أية حال المأخوذ منهم في ذلك العرض للحجة الذاتية هو الأصل المعطى لهم‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

ف «أخذ» هنا حكاية عن كيان تكوينه بصورة المسائلة- و ليست في الحق مسائلة ماضية- بل هي تقديرية أنه إذا سئل أجاب «بلى» فقد خلق في حاق ذاته على قول «بلى».

و جوابا عن سؤال: لماذا هذا التعبير الغامض عن حجة الفطرة، و هي مذكورة في آية الفطرة ببساطة؟

نقول: آية الفطرة تتحدث عن أصالتها و بسالتها في أحكامها، و آية الذرية تبين مكان الفطرة بمكانتها، أنها ذرية الروح و أصله و أثافيّه، و لأن المخاطب فيها أولا هو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فلا ضير في أجمالها بعرضها إياها بذلك الجمال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 24

أجل هناك‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» تقرير لأصالة الفطرة في كيان الإنسان، و هنا «مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أنها من ظهر الروح، تعبيران متجاوبان يتحدثان عن أصل كيان الإنسان و أثافيّه.

فقد تعني «ذريتهم» هذه- و اللّه أعلم- فطرهم‏ «1»، دون أرواحهم ككل و لا أجسادهم في جزء و لا كلّ، و الفطرة من كل إنسان هي أصله الأصيل، فإنها «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» و هي حجر الأساس لإنسانية الإنسان.

فالإشهاد و المسائلة لا تعنيان إلّا قضية الفطرة لبني آدم على طول الخط دون زمن خاص واحد، بل بمستمر زمن الخلقة لذلك النوع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

فيه روايات كما في نور الثقلين 4: 184 ح 53 عن أصول الكافي باسناده إلى أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ» ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام فطرهم اللّه حين أخذ ميثاقهم على التوحيد «قال‏ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ» و فيه المؤمن و الكافر.

و

فيه 2: 96 ح 352 عن التوحيد باسناده المتصل عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام) أصلحك اللّه قول اللّه في كتابه‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ»؟ قال: فطرهم على التوحيد عند الميثاق و على معرفة أنه ربهم، قلت: و خاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثم قال: لو لا ذلك لم يعلموا من ربهم و لا من رازقهم،

أقول: طأطأة الرأس نكران أن يكون هناك قال فانه لا يضمن المعرفة، و إنما حال الفطرة ذاتية هي التي تضمن المعرفة.

و

فيه 2: 97 عن التوحيد باسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له أخبرني عن اللّه عزّ و جلّ هل يراه المؤمن يوم القيامة؟ قال: نعم قد رأوه قبل يوم القيامة! فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: أ لست بربكم قالوا بلى ثم سكت ساعة ثم قال: و ان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، أ لست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا- فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، و ليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى اللّه عما يصفه المشبهون الملحدون.

أقول: و رؤيتهم قبل القيامة هي رؤية المعرفة الفطرية دون رؤية المقاولة المشافهة و قد تكون للمنافقين أكثر!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 25

الإنساني، و كما في آيات خطاب السماء و الأرض‏ «فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» (41: 11) و عديدة من آيات التكوين:

«إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (36: 82).

ف «إذ» لا تعني زمنا سابقا على خلقة «بني آدم» و لا «أخذ» تعني واقع أخذ الفطر من ظهور الأرواح، و لا «أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» تعني إشهادا واقعا قبل خلقهم، و لا «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ» سؤال لفظي عن الفطر، و لا «قالُوا بَلى‏» إجابة في قوله باللسان.

فقد تعني «إذ» كل زمن خلق و يخلق فيه من بني آدم، و هو مثلث الزمان إلى يوم القيام و «أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» تصوير فني منقطع النظير لما يفعله تعالى ببني آدم حين يخلقهم، أنه يتبنى العصمة في أعمق أعماق كيان الإنسان كإنسان، و الأفعال الماضية هنا تشمل مثلث: زمن الخلق لبني آدم، و من مضى منهم لمضيّه، و من يستقبل لتحقق وقوعه كمضيه، فلم تكن مسائلة قبل خلقهم، فإنما، و على حد

المروي عن الصادق (عليه السلام): جوابا عن سؤال: كيف أجابوا و هم ذر قال: «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه» «1»

فالتساؤل- إذا- تقديري‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي و تفسير العياشي عن أبي بصير قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) كيف أجابوا و هم ذر؟ قال: و كان محمد أول من قال بلى، قال: كانت رؤيته معاينة فأثبت المعرفة في قلوبهم و نسوا ذلك الميثاق و سيذكرونه بعد و لو لا ذلك لم يدر أحد من خالقه و لا من رازقه‏ (البرهان 2: 50 ح 26).

و

في المحاسن عن زرارة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه تعالى: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» قال: كلّ ذلك معاينة فأنساهم المعاينة و أثبت الإقرار في صدورهم و لو لا ذلك ما عرف أحد خالقه و إلا رازقه و هو قوله تعالى: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ».

ذلك، و

المروي عن علي (عليه السّلام): «إني لأذكر الوقت الذي أخذ الله على فيه الميثاق»

كما

أخرجه ابن المغازلي في المناقب (100) بسنده عنه (عليه السلام) انه قرء عليه أصبغ بن نباتة هذه الآية فبكى (عليه السلام)

أقول: انه قد يعني الميثاق الخاص، أم و ميثاق الفطرة معرفة كاملة، دون عالم قبل خلقه يسمى الذر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 26

لا واقع له قبل خلقهم، فهو تصوير فني عما قدر في ذات الإنسان بصورة المسائلة و ليس بها.

ثم‏ «وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» كخلفية لهذا الأخذ: أنهم شهدوا أنفسهم دون ستار، فعرفوها دون غبار، فأشهدوا على أنفسهم بحكم الفطرة أنه تعالى ربهم، حيث تصرخ الفطرة من أعماقها عند السؤال‏ «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ»- تصرخ صارحة: «بَلى‏ شَهِدْنا» شهدنا أنفسنا و شهدنا على أنفسنا أنها في حاق ذاتها موحدة للّه تعالى! و لقد

«صنع منهم ما اكتفى به» «1»

حجة لوحدانيته عليهم، و علّ الأخذ تعني ذلك الصنع، و هو «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» و قد يعنيه‏

المروي عن الصادق (عليه السلام) تفسيرا للآية: «نعم لله الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق هكذا و قبض يده» «2»

فالأخذ هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

فيه 362 عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه: «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ» قالوا بألسنتهم؟ قال: نعم و بقلوبهم فقلت و أي شي‏ء كانوا يومئذ؟ قال:

صنع منهم ما اكتفى به.

أقول «و بقلوبهم» عله تفسير لقوله: نعم بألسنتهم حيث يعني لسان الحال، الذي يبدو في أحبائه في المقال و «صنع منهم ما اكتفى به» هو اكتفاء الحجة حيث صنع فيهم الفطرة التي تحكم في ذاتها بتوحيد اللّه.

و

في تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في آية الميثاق قلت: معاينة كان هذا؟ قال: نعم فثبتت المعرفة و نسوا الموقف و سيذكرونه.

(2) و في تفسير العياشي عن زرارة قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه‏ «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 27

الأخذ الصنع الحجة، فهم في قبضته فطريا بميثاقهم دون تلفّت عنه و لا تفلّت إلّا من ظلم نفسه.

«أخذ ذريتهم» حيث أخذ يخلق أرواحهم، أخذا في أخذ دون أي وخز، و أين أخذ من أخذ؟! و هذه هي الحجة الوحيدة الذاتية، غير الوهيدة على أية حال، تقطع أية عاذرة في الأنفس و الآفاق، و من الأولى الغفلة الذاتية الفطرية للنفس:

«أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ» حيث الغفلة الفطرية العاذرة تعذر صاحبها في غفلة عقلية، فتغافلا عن تذكيرات الرسالات الإلهية، و أما اليقظة الفطرية فصاحبها غير معذور و إن لم يعقل، مهما كانت الحجة عليه قدر حكم الفطرة.

فما لم يتزود الإنسان في أعماق ذاته بحجة التوحيد، المعصومة، و العقول ليست معصومة و لا- بأحرى- عاصمة دون أخطاء، و الشرعة الإلهية لا تقبل إلّا بحجة معصومة، فالإنسان معذور في ترك الشرعة، و له الحجة- إذا-: «إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ»-: غافلين عن أن اللّه ربنا! إذ لم يكتب في ذواتنا كلمة التوحيد.

و من الثانية عامل التربية، فلو لا الفطرة المفطورة على التوحيد، فلمن يشرك باللّه، خاويا عن حجة ذاتية، عائشا في جو الشرك، في تربية شركية بين الآباء، أم أي مجتمع شركي، إن له عذرا في إشراكه باللّه، لقصوره الذاتي، و الواقع الخارجي.

و لا يقطع الأعذار الأنفسية و الآفاقية، إلّا حجة ذاتية فطرية، و هي الدين حنيفا، حيث أمرنا بإقامة وجوهنا إليها: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30). حجة قيمة قائمة على كل نفس بما كسبت، لا تبدّل لها و لا تبديل، قاطعة كل عذر إلّا الجنون، أماذا من قصور دون تقصير، فالفطرة بنفسها ليست حجة كاملة ما لم يساندها العقل فيستند إليها، ثم الشرعة الإلهية تتبنى العقول كوسائط و الفطر كأصول،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 28

و هنالك تتم الحجة البالغة الإلهية.

صحيح أن العقل الإنساني حجة رسمية راسمة لتكاليف الشرعة، حاسمة كل عاذرة أمام الشرعة، و لكن الذي لا يعقل كما الإنسان العاقل، يكلّف قدر تمييزه مهما لم يكن كتكليف العاقل، فإذا كانت الدواب كلها تحشر لتطبيق الجزاء الوفاق: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (6: 38).

فبأحرى الإنسان سفيها أو مجنونا أو قاصرا أن يكون مسئولا قدر تمييزه، و كما «إن الله يداق العباد في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم» كذلك الدقة في الحساب للدواب و غير العقلاء من الإنسان على قدر تمييزهم! ذلك‏ «وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ» أنفسية كما نفصلها آفاقية «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» إليها بادئين بآيات الفطرة، حيث تتبنى الإنسانية كأول خطوة.

ذلك هو التجاوب المفهوم بين آيتي الفطرة و الذرية، فإذا كانت الثانية متشابهة فالأولى المشرقة بنسبتها تفسرها، و نصدق فيها تفسير الروايات الملائمة لها، و نكذب المخالفة لصراحة أو ظهور مستقر فيهما، و نرد المشكوك إلى قائله دون رد و لا قبول.

و ذلك هو العهد الأول، المعهود في الفطرة، حيث يندّد بهم اللّه في نقضه: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (36: 60) فالعهد إليهم كلهم ليس إلّا عهد الفطرة، حيث المجانين و العائشين في الفترة و القصّر خارجون عن عهد الشرعة، ثابتا فيهم عهد الفطرة.

كذلك‏ «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» (7: 102). عهد لزام الفطرة، هو حزام صارم لذوي الفطرة، لا يعذرون في إشراكهم باللّه على أية حال، و على حد

تعبير الإمام الصادق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 29

(عليه السلام): صنع منهم ما اكتفى به‏ «1»

و كفى بحكم الفطرة حجة.

ذلك هو التفسير المفهوم للآية المقبول لدى العقول، و هو القدر المتيقن بما تعنيه، مهما روي بجنبه عالم آخر هو الآخر يسمى الذر لا نعرف معناها و مغزاها «2» إلّا البعض مما تضاد الآية، و الواقع المعقول بحق القبول.

و هنا يتجلى الحق في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) فما فوق الشرك هو الإلحاد في اللّه بنكران وجوده فبأحرى لا يغفر أن ينكر إذا لا يغفر أن يشرك به، و ما دون ذلك هي كافة المعاصي دون الشرك، يغفرها على شروطها، و طبعا عدم الغفران لمن يشرك به ليس في حياة التكليف، إنما هو من مات على الشرك.

لا يغفر أن يشرك به لأنه خلاف حكم الفطرة من زاوية، و خلاف حكم العقل من أخرى، حيث التصديق بوجود الإله الخالق و الإشراك به في شأن من شؤون الألوهية لخلق من خلقه، إنه تسوية برب العالمين و ذلك هو الضلال المبين: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98) فكيف إذا ترك عبودية اللّه إلى عبودية غير اللّه، فإنه أظلم من تلك التسوية الظالمة الضالة ما أظلمه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

قد مضى حديثه أخيرا تحت الرقم (1) حول هوامش تفسير الذر بالفطرة و في تفسير العياشي عن رفاعة قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»؟ قال: نعم للّه الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق و هكذا و قبض بيده.

(2) و

في تفسير البرهان 2: 49 ح 20- ابن بابويه بإسناد متصل عن الفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) في حديث طويل قال‏ قال اللّه عزّ و جلّ لجميع أرواح بني آدم: أ لست بربكم قالوا بلى، كان أول من قال بلى محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فصار بسبقه إلى بلى سيد الأولين و الآخرين و أفضل الأنبياء و المرسلين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 30

رجعة أخرى إلى الآية في نبرات‏

: 1 «ربك» هنا تلمح لرباط عريق بين ما «أخذ ربك» في ذلك العرض الفطري، فكما رباك «ربك» التربية القمة العالية، كذلك «ربك» ربى «بني آدم» ككل تربية الفطرة المعصومة، فهنا لك عصمتان اثنتان، عصمة ربانية أولى للإنسان هي لفطرت اللّه التي فطر الناس عليها، و عصمة ربانية ثانية هي للمرسلين و من يحذون محذاهم من أئمة الدين المعصومين، و بينهما العصمة الإنسانية قدر المساعي المبذولة للحصول عليها، و هي في مثلث من الأضلاع: الفطرة- العقل- الشرع، فالعقل السليم يأخذ كأصل أوّل من الفطرة السليمة، ثم يأخذ من شرعة اللّه كأصل ثان، فيتكامل قدر معطياته و مساعيه.

2 ثم ضمائر الجمع في «ظهورهم- ذريتهم- اشهدهم- أنفسهم- ربكم- قالوا» هذه الستة تعني كل «بني آدم» دونما استثناء.

3 ثم تتضيق الدائرة في «أن تقولوا» حيث تختص بالمشركين و الملحدين على مدار الزمن، لاختصاص هذه القولة بالمنحرفين عن توحيد اللّه، اعتذارا بالغفلة القاصرة.

ثم تضيّق ثان في‏ «أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» فإنها تختص بقسم من المشركين و هم الذين لهم آباء مشركون فهم أولاء «ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» لمقابلة الذرية بالآباء، فهم ذرية مشركة دون آباء مشركين.

4 «أخذ» تلمح إلى ما أعطاه اللّه تعالى «بني آدم» و الأخذ هو أخذ الميثاق على فطرهم بما فطرها على معرفته بتوحيده.

5 و هنا «أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» دون «أشهدهم أنفسهم» أو «أشهدهم لأنفسهم» شاهد لا مرد له أن القصد من ذلك هو الإشهاد «على» احتجاجا بالمشهود به: «الفطرة» على المشهود عليه: «بني آدم».

فالفطرة التوحيدية- إذا- حجة ناظرة حاضرة ربانية في أعمق أعماق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 31

الروح، ليست لتنفصل عن الإنسان أيّا كان، فهو بين غافل عنها تقصيرا:

«أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ» و لا تعذره هذه الغفلة المقصرة، أو ذاكر لها بدرجاته، فمؤمن باللّه.

ثم لا نجد من هو غافل عنها قصورا، مهما كان قاصرا عن عقلية التكليف أم مجنونا، و إن كان اللّه لا يعذب غير المكلفين رحمة منه.

فالفطرة الحاضرة مع الإنسان ما هو كائن على أية حال، هي الحجة العاصمة المعصومة الربانية، و هي مع العقلية التكليفية تصبحان حجتين داخليتين، لا يقبل أي عذر بعدهما أبدا.

فمهما غفل الإنسان أو تغافل عما سواه و عمن سواه، ليس ليغفل عن نفسه الأصيلة و هي فطرته، إلا تغافلا مقصرا يخسر فيه نفسه فيخسر كل شي‏ء.

رجعة أخرى إلى آية الذر في ملاحظات‏

: 1 آية الفطرة تعم الناس من آدم و بنيه، فكيف اختصت آية الذرية ببني آدم، و الفطرة هي الفطرة و الميثاق هو الميثاق؟ و الآيتان تعنيان عهدا واحدا؟

«بني آدم» قد تعني آدم و بنيه، و هذه صورة رائعة عن سيرة كلامية رائجة؟ أو أن آدم نفسه استثنى في ذلك المسرح حيث الحجّة الثانية «أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» لا تشمله إذ لم يكن له أب أو آباء، و لم يكن ذرية من بعد آباء لكي تصح له هذه الحجة لو كان مشركا، و هذا أصح بل هو الصحيح لا سواه، ثم حجة الغفلة لآدم لو لا حجة الفطرة، غير قائمة بعد ما عهد اللّه إليه مهما نسى حين عصى:

«وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (20: 119).

و أما بنو آدم ككلّ فليسوا ممن يوحى إليه حتى يكون له عهد- غير الفطرة- بالوحي، إذا ف «بني آدم» صيغة قاصدة هادفة.

2 ما هو موقع‏ «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا» و تلك المسائلة الفطرية تطارد تلك القولة و هذه؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 32

جوابه أن هناك حذفا- ك: حذرا أن تقولوا- لئلا تقولوا و أشباهه، لأنه معلوم بقرينة المقام.

3 لو كان «ذريتهم» هي كيان لهم ذرّي قبل كونهم فيه يعقلون و يتساءلون، فالتعبير الصحيح «و إذ خلق ربك الإنسان ذرا قبل كونه الآن» دون حاجة إلى «بني آدم» فإنه يتطلب خلق آدم كما هو قبل ذلك الأخذ حتى يكون له بنون، و كذلك نسله «بني آدم» حتى تكون لهم ظهور فذرية، مما يدل على أن الأخذ كان ضمن تناسل آدم و بنيه، فهو إذا بعد كونهم الحالي دون كيان ذري قبل كونهم، فإنه كيان دون تناسل كما في الخلق الثاني يوم الآخرة، كما و روايات عالم الذر تقول كلمة واحدة- إلّا قليلا- أنه خلقهم أولا قبل خلقهم في تناسل، ثم ولد من ولد على غرار ما خلق أولا في ذرّ! إذا ف «بني آدم- ظهورهم- ذريتهم» ذلك المثلث الرائع مما يضاف إلى أدلة سابقة لنا سابغة أن «ذريتهم» في ذلك الأخذ هي‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

أجل إن كانت روايات الذر هذه تعني غير ما تعنيه الآية، دون صلة تفسيرية لها، فقد تقبل فيما يعقل و لا يطارد الضرورة القرآنية أم أية ضرورة، و لكن الأكثرية الساحقة منها تظهر في مظهر التفسير لآية الذر، فلا مجال لتصديقها أو ترد إلى قائليها.

4 ترى و ما هو الداعي لهكذا تعابير متشابهة في أفصح بيان و أبلغه حتى يختلف في تفسيرها الناظرون؟

على حدّ

تفسير الإمام الرضا (عليه السلام) للمتشابه: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله»

لا تشابه في متشابهات القرآن دلاليا حيث الدلالات مستقيمة كأقوم ما يكون و أقيمه، و إنما التشابه فيها معنوي لبعد البعيدين عن غوامض المعاني فمتشابهة، و قرب القريبين إليها على درجاتهم فمحكمة، و قد تنحصر المتشابهات في أسماء اللّه و صفاته و أفعاله المشتركة الاستعمال لفظيا بينه و بين خلقه كالسمع و البصر و اليد و ما أشبه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 33

حيث تسحب معانيها الخلقية عند المجاهيل إلى الخالق سبحانه، فلا بد من تجريدها عن المعاني الخلقية، كما لا بد من تجريد المستعملة في الخلق عن المعاني الخالقية كلفظ الخالق.

و لأن‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» تحمل معنى غامضا قلما يعيه المعنيون بها المخاطبون، لذلك صيغت آية الفطرة بصيغة المسائلة، و في تجاوب رائع بالغ بين الآيتين يلمع المعني منهما لمن أمعن النظر فيهما، ففي كلّ تشابه من جهة و إحكام من أخرى، توضّح كلّ تشابه الأخرى هي الأخرى في توضيح الأولى كما بينا، و اللّه أعلم بما يعنيه و ليس علينا و لا لنا إلّا الإمعان في القرآن لنتروى من معين معانيه.

ذلك، و الفطرة الإنسانية لا تشذ نسمة قط و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ما من نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة» «1»

«كل إنسان تلده أمه على الفطرة» «2»

«الحمد لله الذي هداك للفطرة» «3».

تلحيقة حول‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ»

: إن‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» هي الذاتية العريقة الإنسانية منذ «أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» و هو الروح الإنساني، و على مدار حياته صغيرا و كبيرا عالما و جاهلا عاقلا و مجنونا، فطالما العقل يأتي بعد ردح من خلق الروح، و قد يزول بالجنون، و لكن الفطرة الإنسانية ليست لتزول، فهي ما به الإنسان إنسان و ما أشبه من نفسياته، و مهما زال عن الإنسان أي شي‏ء منه ليست لتزول عنه الفطرة الإنسانية.

و لأن المعرفة الربانية الصالحة ليست إلا بذريعة العصمة الربانية، فالمعرفة الفطرية الخالصة هي الصالحة، و سائر المعرفة كالسة فالسة مهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (179) حم 3، 435، 4، 24.

(2) المصدر م قدر 25.

(3) المصدر في تفسير سورة 17، 3، أشربة 1، م اشربة 41، دى أشربة 1.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 34

كانت لا عقل العقلاء، إلّا إذا تبنى في معرفته فطرته الخالصة غير المحجوبة بأي حجاب، و هنا يعرف المعني من‏

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «من عرف نفسه فقد عرف ربه»

حيث المعروف من النفس، الذي يعرف به الرب ليس إلا أنفس أبعاد النفس الإنسانية و أمسها بذات الإنسان و هو «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» و على حد

تعبير الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» «1»

فطالما العقل- فضلا عن الحس- قد يخطأ حتى في المستقلات العقلية، فضلا عن غيرها، ليست الفطرة لتخطئ في المستقلات الفطرية، فهي كنز للعقل يتبناها في سلوكه إلى اللّه، مستنيرا من شرعة اللّه في تعاليه.

فقد يرسم هندسة الإنسانية الصالحة مثلث الفطرة و العقلية و الشرعة، فالعقلية الصالحة هي الوسيطة بين الفطرة كأصل الدين و أثافيّه، و بين الشرعة كتكملة له، فالعقل المستفيد بين مستفادين معصومين تكوينا هو الفطرة و تشريعا هو الشرعة، و كما لا تبديل لشرعة اللّه في أصلها، كذلك‏ «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ»: فطرت اللّه، و إنما العقل يتكامل بين هذين معرفيا و عمليا، كلما ازدادت المعرفة إزداد العمل الصالح، عدّة و عدّة، و كلما إزداد العمل الصالح بعدته وعدته، ازدادت المعرفة، فالمعرفة و العمل الصالح هما جناحان للطائر القدسي الإنساني براحلة العقل و زاد الفطرة و الشرعة، «و لا ينبئك مثل خيبر».

ذلك، فمن «عرف نفسه» هكذا «فقد عرف ربه» قدر المقدور و المقدر من صالح السلوك إلى اللّه، و من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه و لا سواه، حيث الجاهل بنفسه هو أجهل بغيره دون ريب، فمن ضل عن نفسه فقد ضل عن ربه و مربوبيه، فهو ضال عن الحياة الإنسانية عن بكرتها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ ك 23 ب 80 و 93، ك 65 سورة 30، ك 82 ب 3 مس- ك 46 ح 22- 25 بد- ك 39 ب 17 تر- ك 16 ح 52 حم- ثان ص 233 و 253 و 275 و 282 و 31 و 346 و 393 و 410 و 481، ثالث ص 253 و 435، رابع ص 24 ط- ح 2359 و 2433 قد- ص 361.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 35

ذلك، فسائر الطرق المختلقة المختلفة، فلسفية و عرفانية أمّا هيه، غير طريق الفطرة بالعقلية الصالحة و الشرعة الربانية، هي طرق ملتوية غير معصومة مهما كانت صالحة غير مدخولة، حيث التغاضي عن الفطرة كأصل تكويني معصوم، مع التغاضي عن الشرعة كأصل تشريعي معصوم، إنه تغاض مذموم مأثوم، و لا بد في سبيل معرفة اللّه من زاد معصوم هو الفطرة، و راحلة معصومة هي الشرعة، حتى يسلك سالك العقل سبيله الصالحة و صراطه المستقيم إلى اللّه.

و لا بد في ذلك السلوك من سلبيات و إيجابيات، سلبا للغشاوات عن الفطرة و العقلية التي تتبانا، و عن الشرعة فيما حرفت، و إيجابا لأحكام الفطرة إحكاما لأحكام العقل، و إيجابا للتعقل في استنباط الأحكام الفطرية، و إيجابا للشرعة تكملة للأحكام الفطرية و العقلية في مستقلاتها، و إبداعا في غير المستقلات فطرية و عقلية.

ذلك، و لو كانت معرفة اللّه بدرجاتها بحاجة إلى مقدمات منطقية و فلسفية و عرفانية و علمية مصطلحة، لكانت منحصرة في الأخصائيين في هذه الصلاحات، و هي في نفس الوقت غير معصومة عن الأخطاء قاصرة و مقصرة، و لكنما المعرفة الفطرية هي الكاملة الشاملة كل ذي فطرة، ثم و هي تتكامل بالعقلية الصالحة التي تتبناها كأصل أوّل، ثم تتبنى شرعة اللّه كأصل ثان، فهي- إذا- سائرة مسيرها إلى معرفة اللّه بجناحي الفطرة و الشرعة، مستزيدة في هذه السبيل بزائد التعقل فالمعرفة و العمل الصالح.

و مهما كان الإنسان قاصرا في سائر القوات المدركة بتقصير أو قصور، ليس هو قاصرا في فطرته، فمهما عاند في تكذيب آيات اللّه آفاقية و أنفسية، فليس له أن يعاند فطرته حين تظهر دون إختياره عند ما تنقطع كافة الأسباب الحيوية التي يعتمد عليها، حيث الذات الإنساني تتعلق بنقطة مجهولة مرموزة و هي نقطة الربوبية، و هنا يفحم الناكر لوجود اللّه و وحدانيته بكلمته الفطرة «بلى» إجابة عن‏ «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ» حيث هي محاكاة عن حكم الفطرة، دون مقاولة لفظية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 36

و لأنه لا يقدر الإنسان إلا على حجة بالغة إلهية ذاتية معصومة تبلغ به إلى حجته الشرعية، لذلك فطره على فطرته المعصومة في حدود أحكامها حيث لا تخطأ فيها إذا ظلت دون حجاب، دونما إذا ضلت بحجاب.

إذا فللّه الحجة البالغة على الإنسان أيا كان و أيان، و طالما يتغافل الإنسان عن ربه قضية الشهوة و الحيونة و المصلحية المادية لحد تصد عنه كل آيات اللّه البينات آفاقية و أنفسية، و حتى الفطرة حيث تحجب بحجاباتها، فليس في وقت من الأوقات فاضيا عن هذه الحجة الفائضة، فقد يبرزها اللّه عند الحجاب المطلق المطبق بقصور أم تقصير بما يقطع اللّه عنه كل الأسباب التي كان يعتمد عليها، فهنا لك يجد ربه وجدانا في أعمق أعماق نفسه المسمى ب «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

و لما اكتملت الحجة الأنفسية و الآفاقية لتوحيد اللّه، فلا عاذرة للإنسان أيّا كان و أيان في ضلاله عن التوحيد الحق و حق التوحيد: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ» عاذرة ذاتية، حيث الغفلة عن‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» هي غفلة مقصرة قاصدة، و ليست قاصرة ذاتية.

«أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» فإن جو الإشراك بآباء و سواهم، لا يعذر اتباع الذرية، التاركة لذواتها، التابعة لما يضادها.

ذلك، و كافة التذكيرات الأصيلة القرآنية تعني- فيما تعنيه- الذكرى الفطرية، المغشوة بغشاوات الأهواء الطائشة، فما دامت الفطرة خاملة غائبة فإنسانية الإنسان ككلّ هي غائبة، لأنها أصل الدين الحنيف، أمام كل جنيف.

ذلك، فدين الفطرة- كأصل- هو الذي يدان به للسالك إلى اللّه، دون دين الفلسفة و العرفان و ما أشبه، إذ لا عصمة فيها بما فيها من تقصيرات و قصورات فتضادات و تناقضات، و أنها- و لو كانت صحيحة صالحة للسالك إلى اللّه، لا تعم كافة المكلفين.

فالفلسفة التي تتبنى المنطق العلمي نجدها ببنائها خالطا غالطا، فأثافيّها المنطق العلمي- دون المنطق الفطري المؤيد بالكتاب و السنة- نجد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 37

فيه- لأقل تقدير- اختلافات بين علمائه عديد أبجدية «اللّه» (66) و كما استخرجها عيلم نحرير و علامة كبير كان في سلك الفلاسفة المنطقيين و العرفاء الرسميين، ثم أصبح من أكبر المعارضين لذلك الثالوث! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). انه استاذنا الأقدم بحر المعارف الربانية، المتحقق بحقيقة من المعرفة الشهودية المغفور له الحاج الميرزا مهدي الإصبهاني المشهد موطنا، و قد نقل عنه ذلك العدد بعض تلاميذه الكبار ننقله عنه بتصليحات أدبية و اختصارا:

اختلفوا في:

1 أن المنطق علم أم لا كما في منطق الإشارات.

2 و في أنه علم آلي أم استقلالي، و ينبعث منه الاختلاف في تعريف المنطق «المصدر».

3 و انه من الحكمة النظرية أو العملية.

4 ثم في أنه من الأصول أو الفروع: (منطق الشفاء).

5 و في موضوعه هل هو الألفاظ من حيث دلالتها على معانيها؟ أم هو نفس المعاني المدلولة بها؟ (شرح المطالع).

6 و في موضوعه و هو التصديق هل هو الحكم؟ أو ملازم له؟ أو مركب من أمور أربعة؟ أو مشروط بها؟ و أن المقسم للتصور و التصديق ما هو؟ (رسالة صدر المتألهين في التصور و التصديق المطبوع ذيل، جوهر النضيد في منطق التجريد).

7 و في أن الافتقار إلى المنطق هل هو إلى كل قوانينها؟ أم البعض الذي يكون بمنزلة الدعائم؟ و صدر المتألهين في هامشه على حكمة الإشراق- بعد نقض و إبرام كثير- يقول:

ما من مسألة من مسائل المنطق إلّا و لها دخل في العصمة من الخطأ، إما قريبا أو بعيدا و لأن في مسائله معركة متضادة الآراء فلا عصمة فيها أبدا.

8 و في أن اكتساب المجهولات التصورية بل و التصديقية هل هو ممكن أو ممتنع؟ و أول من أبدى هذا السؤال هو «مائن» و قد عرضه على سقراط و له في هذا المقام إشكالان ذكرهما شارح المطالع في أواخر مبحث الحدود، و قد أشار إليهما صدر المتألهين في هامش حكمة الإشراق في أواخر الضابط السابع، و أجاب عن الأول بما يرجع محصله إلى أن:

«لو أن العلم بوجه الشي‏ء هو العلم بالشي‏ء من ذلك الوجه» على ما ظنه من لا تحقيق له، لزم أن يكون جميع الأشياء معلومة لنا مع عدم اتجاه عقولنا إليها، و ذلك بيّن الاستحالة فكم بين كلامه و كلام الصور من المناقضة.

9 و في تعريف الفكر هل هو ترتيب أمر أو أمور؟ و منه ينبعث الاختلاف في أن التعريف بالفصل وحده و بالخاصة وحدها جائز أم لا، ثم تنازعوا في أن الشي‏ء هل هو مأخوذ في-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 38

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- المشتق أم لا، و قال المحقق الطوسي في «شرح الإشارات» و إنما قال: عن أمور و لم يقل عن أمر واحد؟ لأن المبادئ التي ينتقل عنها إلى المطاليب انتقالا صناعيا إنما تكون فرق الواحدة و هي أجزاء الأقوال الشارحة و مقدمات الحجج على ما سنبين.

فهذه حال أصل المنطق و موضوعه، و أما مباحثه فقد اختلفوا في: 10 أن الدلالة هل هي تابعة للإرادة كما قال الشيخ و أتباعه- و لذا لم يعتبروا فيه الحيثية في تعريف الدلالات- أم ليست بتابعة لها كما قال صاحب المطالع و شارحه، و لذلك اعتبروا هذا القيد لئلا ينتقض تعاريفها في صورة الاشتراك اللفظي، ثم إنه يعلم مراد الشيخ من الدلالة هل هي التصديقية أو التصورية؟

11 و في حقيقة الدلالة الالتزامية أن اللزوم الذهني كما الخارجي هل يعتبر فيها أم لا؟

فالشيخ الإشراقي يقول بعدم اعتباره، و أن المعتبر هو اللزوم الخارجي، فالنسبة بين دلالة المطابقة و الالتزام هي التساوي، إذ كلما تحققت المطابقة تحقق الالتزام و بالعكس، و أنه كلما تحقق التضمن تحقق الالتزام، فالنسبة بينهما عموم مطلق، و تبعه في أصل المبني شارح المطالع و شارح حكمة الإشراق، و قد ذهب كثير من المتأخرين إلى الإعتبار فخالفوا الشيخ الإشراقي في النسبة بين المطابقة و الالتزام، و كذا بين التضمن و الالتزام كما هي مشهورة عندهم.

12 و أن الدلالة الالتزامية هل هي مهجورة- فقط- في الحدود التامة؟ أم و في كل الحدود و الرسوم بقسميها؟ فذهب الشيخ و المحقق الطوسي إلى الأول، قال المحقق في شرح الإرشاد: و الحق فيه أن الالتزام في جواب ما هو و ما يجري مجراه من الحدود التامة، لا يجوز أن يستعمل، و أما في سائر المواضع فقد يعتبر، و لو لا اعتباره لم يستعمل في الحدود و الرسوم الناقصة الخالية من الأجناس، إذ هي لا تدل على ماهيات المحدودات إلّا بالالتزام، فإن الحد هو القول الدال على الماهية، و هذا اللفظ يقع بالاشتراك على الحد و الرسم التامّين و الناقصين، و أما صاحب المحاكمات فقد خالف الشيخ المحقق في ذلك و ذهب إلى عدم دلالة الحدّ الناقص و الرسم على الماهية فهو خالفهما في جواز استعمال الدلالة الالتزامية في الحدود الناقصة و الرسوم، و ذهب إلى عدم جوازه.

13 في أن النسب هل هي محصورة في الأربع المشهورة أم أزيد منها؟ و قد أشكل على الحصر فيها باللّاممكن بالإمكان العام و باللّاشي‏ء، حيث إن بينهما لا توجد واحدة منها، و شارح المطالع سلّم الإشكال و أنكر الحصر، ثم و أشكل في كون نقيضي المتساويين متساويين، و في أن نقيض الأعم المطلق أخصى مطلقا.

14 و اختلفوا في تعريف الكلي الطبيعي الذي هو معروض للمنطقي، و الشيخ عرّفه بما ينافي كلام المشهور (راجع شرح المطالع عند نقله كلام الشيخ في هذا الباب) ثم أشكل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 39

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- في انحصار تقسيم الكلي إلى الكليات الخمس إشكالات ست، في أنّ المقسم هل هو الكلي الفرد أو لا؟ (المصدر).

15 و في أن تعريف الجنس هل هو حدّ له أم رسم؟ فالشيخ و الإمام الرازي و شارح المطالع جعلوه حدا له، و صاحب المطالع و المشهور جعلوه رسما، و من هذا الاختلاف ينبعث الترديد في تقويم الجنس المنطقي أو الطبيعي أو العقلي (المصدر) و العجب أن بعض قدماء المنطقيين لم يفرقوا بين الجنس و الفصل، و الأعجب توهم جماعة منهم عند سماع: إن كل جنس معقول في جواب ما هو: أن كل منقول في جواب ما هو جنس، و لذلك أنكروا الحد التام، و قد تعرض الشيخ كلا الوهمين (راجع الإشارات).

كما و ذهب جمع منهم إلى أن كل ذاتي أعم يكون دالا على الماهية كالحساس بالنسبة إلى الإنسان، ورد الشيخ عليهم بأنه فصل الجنس و ليس بدال على الماهية إلّا بالالتزام، و الدلالة الالتزامية مهجورة في الحدود التامة دون غيرها، و قد عرفت أنه كان مختلفا فيه بين المحقق و الشيخ و صاحب المحاكمات.

16 و في تعريف النوع الإضافي، قال شارع المطالع: تعريف القوم فاسد، بل الأحسن أن يعرّف بأنه أخص كليين مقولين في جواب ما هو (راجع شرح المطالع ترى فيه إساءة أدب من الشيخ الرئيس إلى فرفوريوس صاحب إيساغوجي كما في الإشارات).

17 و أن النوع الإضافي هل هو أعم مطلقا من الحقيقي؟ كما نسبه شارح المطالع إلى الشيخ صريحا، أم هو أعم من وجه؟ كما هو مذهب صاحب المطالع و شارحه.

18 و في علائم الذاتي و خواصه بأنها ثلاثة كما ذهب إليه جمع من المنطقيين و قالوا: كلما يمتنع رفعه في الذهن فهو ذاتي، أو تكون محصورة في واحدة و هي السبق في التعقل كما ذهب إليه الشيخ و أتباعه، ورد عليهم بوجود اللوازم البينة التي يمتنع رفعها في الذهن.

19 و أن امتناع سلب الذاتي عن صاحبها هل هو على تقدير إخطار الماهية و الذاتي كليهما في البال؟ كما اختاره الشيخ الرئيس، أو هو على تقدير إخطار الماهيّة فحسب دون فاقة إلى إخطار الذاتي فيه؟ كما ذهب إليه جمع كثير من المنطقيين، و قال شارح المطالع:

كم فرق بين القولين! 20 و اختلف أرسطاطاليس مع الشيخ في أن ذكر مواد الأجناس العالية- فقط- هل هو واجب لتنبيه المتعلم كما هو مذهب أرسطو؟ أم لا؟ و إنما هو فضولي زائد، و إن ذكر فلتذكر موارد الأجناس المتوسطة كما هو مذهب الشيخ، و انتصر المحقق الطوسي في الإشارات لأرسطو، و لذلك تبعه في مسلكه في جوهر النضيد.

21 و اختلفوا في أن المعرّف هل يجب كونه مساويا في الصدق مع المعرّف؟ كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي و جمع كثير من المنطقيين، أم لا؟ بل يمكن كونه أعم منه أو أخص أو-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 40

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- مباينا له؟ كما اختاره شارح المطالع، و نقل كلام الشيخ الرئيس عن الشفاء، ثم قال:

و قد بان منه أن المساوات ليست مشروطة في مطلق التعريف، بل في التعريف التام.

23 و من جرّاءه اختلفوا في بيان الحدود التامة و الناقصة و الرسوم التامة و الناقصة اختلافا عظيما، فصار تقسيم التعريف إلى الأربعة عند الظاهريين تقسيما مخالفا لما هو عند المتوسطين، و قد قسم صاحب أساس الاقتباس تقسيما ثالثا يخالف كليهما، و لذلك فالحد التام عند بعض منهم حد ناقص عند الآخرين، و كذلك الرسم، كما يكون الحد و الرسم الناقصان عند بعض غير حد و لا رسم عند الآخرين.

23 و في أن الحد الناقص و الرسمين هل تدل على الماهية بالالتزام؟ كما ذهب إليه الشيخ و المحقق الطوسي، أم لا تدل عليها أصلا؟ كما ذهب إليه صاحب المحاكمات بقوله:

الحادّ بالحد الناقص لم يرد به ماهية المحدود، و لا الراسم ماهية المرسوم، و إلّا لكانا حدين تامين، بل لم يردا بهما إلّا مفهوميهما المطابقين و هو ظاهر.

24 و في جواز تركّب الماهية كالجنس العالي و الفصل الأخير من أمرين متساويين أو أمور متساوية كلّ منها فصل مع عدم كونه مميزا عن المشاركات الجنسية، كما ذهب إليه جماعة من متأخري المنطقيين على ما قال صاحب المحاكمات، و عدم جواز التركب كما ذهب إليه الشيخ و المحقق.

25 و في أن مناط الفصلية هل هو التميّز عن جميع المشاركات؟ كما يظهر من الشيخ و المحقق، أو عن بعضها؟ كما ذهب إليه صاحب المحاكمات و جمع كثير (راجع الإشارات و المحاكمات).

26 و في أن التعريف هل يجب أن يكون بأمور؟ كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي، و لهذا أنكر كون الناطق حدا ناقصا، و الضاحك رسما ناقصا، و ذهب أيضا إلى أن الفكر هو ترتيب أمور لا أمر واحد، أم يكفي كونه بأمر واحد كما ذهب إليه المتأخرون (راجع حكمة الإشراق).

27 و من هنا أنبعث خلاف آخر عظيم هو أنهم اختلفوا في إمكان معرفة البسائط كالأجناس العالية من طريق التعريف كما ذهب إليه صدر المتألهين، أو امتناعه كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي، و شدد النكير على المشائين بأن البسائط أي الفصول- لا يمكن معرفتها إلّا بأمور محسوسة ظاهرة للحس، أو من طريق الكشف و الشهود، و قد ذكر صدر المتألهين في هامشه على هذا المقام أن البسائط سواء أ كانت أجزاء الحدود أم لا قد تعرف بوجوه أخرى غير ما ذكره المصنف، منها ما ذكره الشيخ الرئيس بقوله في الحكمة المشرقية: أن الأشياء المركبة قد توجد لها حدود غير مركبة من الأجناس و الفصول، و بعض البسائط توجد لها لوازم يوصل الذهن تصورها إلى حاقّ الملزومات، و تعريفاتها لا تقصر عن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 41

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- التعريف بالحدود.

و خلاصته: أن البسائط قد تعرّف بمعرفة آثارها و لوازمها، كمعرفة العلة الموجبة للشي‏ء لذاتها من جهة معرفة معلولها، كما تعرف القوى بأفاعيلها، و كمعرفة المسخّنة كالنار من معرفة السخونة الشديدة، و معرفة الصورة المرطّبة من الرطوبة الشديدة، و كما يحصل من معرفة الإدراك للكليات معرفة الجوهر الناطق بما هو قوة دراكة، و منها طريق القسمة، و منها طريق التحليل، و الأول لأفلاطون، و الثاني لأرسطو، أقول: و هذان الطريقان لا يأتيان في البسائط كما هو المقصود في المقام، لعدم تركبهما من الذاتي الأعم و الأخص لكي يقسّم أو يحلّل.

و منها معرفته من عرض خاص له، أي مساو في العموم أعرف عند العقل من هذا المحدود، و منها أن يعرف الأعراض البسيطة بموضوعاتها تعريفا بما فيه زيادة للحد على المحدود في المعنى اضطرارا، كتعريف الأمور بالشي‏ء الذي- أي الجسم الذي- عرضه السواد (و هناك كلام لطيف عن الشيخ فليراجع إلى ذلك الهامش).

و منها تعريف الشي‏ء الخاص بمجموع أمور كلّ منها و إن كان عاما له و لغيره، و لكن المجموع مما يخصه، و منها أن الأمر الخاص قد يكون بديهي التصور، إما من الأوليات أو الحسيات، فلا حاجة إلى أن يكتسب من مفهوم آخر (انتهى ما أردنا نقله عن هذا الهامش ملخصا) و أقول: المنقول هنا عن الشيخ الرئيس في الحكمة المشرقية مردود منسوخ بما نقله في الأسفار عن تعليقاته حيث يقول: «لا نعرف حقيقة الجوهر، بل نعرف شيئا له هذه الخاصية» و الإنصاف أن الحق مع كلامه في التعليقات. إذ ما يكون خارجا عن حقيقة الشي‏ء كيف يوصلنا إلى حاق ذلك الشي‏ء. فبعد التفتيش التام يظهر أن الحق مع شيخ الإشراق المؤيد بالمنقول عن الشيخ الرئيس، و هذه كلها نبذات من اختلافاتهم في الحدود، و لهم اختلافات أخرى في سائر مباحث المنطق، حيث اختلفوا في:

28 أن حمل الجزئي الحقيقي على نفسه كهذا الكاتب على هذا الإنسان، جائز؟ كما ذهب إليه الفارابي و الصدر، أم لا؟ كما عليه جمهور المتأخرين (راجع هامش حكمة الإشراق في أواخر الضابط الأول من المقالة الثانية).

29 و في أن مادة العقود و عناصرها هل هي عين الجهات ذاتيا و غيرها اعتباريا كما عليه متأخروا المنطقيين، أم لا؟ بل هي غيرها ذاتيا كما هي اعتباريا، كما عليه قدمائهم، و هو التحقيق عند المتأخرين من الفلاسفة (راجع شرح المطالع و الشوارق في مبحث الماهية) و اضطربت الكلمة في أن الممكنة العامة هل هي من الموجّهات أم ليست بقضية أصلا (المصدر).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 42

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- 30 و في أن المطلقة العامة هل هي من الموجبات كما اختاره السبزواري في لتاليه؟ أم لا، بل هي متقابلة لها تقابل العدم و الملكة؟ كما هو التحقيق عندهم، و يرد عليهم بأنكم تذهبون إلى كون الدائمة المطلقة نقيضا للمطلقة العامة مع اشتراطكم في التناقض اختلاف الجهة، فكيف تجعلون الدائمة نقيضا لها مع أنه لا جهة فيها، قال الشيخ الإشراقي في آخر الضابط الثالث: كثر الخبط فيها، يعني من المشائين.

31 و في أن المواد مواد للموجبات فقط؟ أم و للسوالب أيضا؟ ذكره الصدر في بحث عدم كون العدم رابطيا في الأمور العامة من الأسفار.

و العجب أنه أنكر قوم من المناطقة الإمكان، لاستلزامه إما كون الواجب ممكن العدم، أو كونه ممتنع الوجود (راجع شرح المطالع) و قال الشيخ في الإشارات: «السؤال الذي يهول به قوم» قال شارحه: السؤال الذي ذكره مما استعظمه قوم من المنطقيين و هو مغالطة باشتراك الاسم- انتهى.

أقول: هذه غاية مدارك بعض المنطقيين، فكيف الاطمئنان بضوابطهم و قواعدهم؟

و الأعجب أن جمهورا من المنطقيين لم يفرقوا بين الضروري و الدائم لأن كل دائم كلي فهو ضروري (راجع شرح الإشارات في الضرورة و الدوام).

32 و في أن تعدد القضية هل هو بتعدد الحكم فقط؟ كما عليه المحققون، أم لا؟ كما ذهب إليه صاحب المطالع في الفصل السادس من مباحث التصديقات.

33 و في أن الوحدات المعتبرة في التناقض هل هي ثمان و لا يجوز إرجاعها إلى الموضوع و المحمول و الزمان؟ كما هو مختار الشيخ و المحقق في الإشارات و شرحه و مختار الجمهور، أم لا، بل يجوز الإرجاع؟ كما عليه الفارابي و الإمام الرازي (راجع شرح الإشارات و المطالع).

34 و في أن الوحدات الثمانية هل تكفي في تحقق التناقض؟ كما عليه جمهورهم و محققوهم كالشيخ الرئيس و المحقق الطوسي و أتباعهما، أم لا، بل تحتاج إلى وحدة الحمل ذاتيا و صناعيا؟ كما ذهب إليه الصدر و مقلدوه.

35 و في أنه هل يعتبر في تناقض المحصورات الاختلاف في الكمّ؟ كما عليه مشهور المنطقيين و محققوهم كالشيخ و المحقق و أتباعها؟ أم لا، بل لا بد من كون السلب واردا على عين القضية الموجبة؟ كما عليه شيخ الإشراق و شارح حكمة العين و الصدر، فيكون نقيض القضية عند القوم لازم النقيض عند هؤلاء.

و العجب أن الشيخ و أتباعه ذهبوا إلى أن السالبة الجزئية ليست بنقيض للموجبة الكلية، و كذلك العكس، بل هما لازما النقيض، و الشيخ و أتباعه جعلوها نقيضا صريحا، مع أن الجميع اتفقوا على أن التناقض يحصل بورود السلب على عين ما ورد الإيجاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 43

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- 36 و في أنه هل يعتبر في تناقض الموجبات الاختلاف في الجهة؟ كما عليه الشيخ الرئيس و أتباعه، و شنّع في الإشارات بقوله: إن الناس قد أفتوا على سبيل التحريف و قلة التأمل أن للمطلقة نقيضا من المطلقات أم لا؟، بل ليس الاختلاف فيها بمعتبر في نقائض الموجبات؟ كما عليه شيخ الإشراق و شارح حكمة الإشراق و الصدر و صاحب الكشف.

قال شيخ الإشراق: و لعلّه لا يحتاج إلى تعمق المشائيين، و قال الصدر: أرى كلام هذا الشيخ و هذا التحقيق من الشيخ يخلّص السالك عن ارتكاب كثير من التكلفات الشاقة، و يسهّل الطريق إلى طلب الحق.

37 و في أن عقد الوضع في القضاء هل هو بالفعل؟ كما عليه الشيخ، أو بالإمكان؟ كما عليه الفارابي، فعلى الأول لا عكس للممكنتين، و لا تنتج الصغرى الممكنة في الشكل الأول و الثالث، و تكون فعلية الصغرى شرطا في إنتاجهما، و لا تنعكس السالبة الضرورية المطلقة و الدائمة المطلقة و المشروطة العامة و العرفية العامة إلى أنفسها، و لا تنعكس الخاصتان إلى عامتهما مع قيد اللّادوام في البعض، بل عليه تنعكس الدائمتان إلى الدائمة المطلقة، و العامتان إلى العرفية العامة مع قيد اللّادوام في البعض، و الخاصتان إلى العرفية الخاصة.

و على الثاني للممكنتين عكس، و لا يشترط فعلية الصغرى في الشكل الأول، و ينعكس جميع هذه المذكورات إلى أنفسها، و يجرى دليل الخلف و العكس في جميعها، و قدماء المنطقيين اختاروا مذهب الفارابي، و إليه ذهب المحقق الطوسي في جوهر النضيد و اختار متأخروهم مذهب الشيخ و شنّعوا عليه، حيث أخذ عقد الوضع بالفعل، و لكن في مقام ترتيب الأحكام سلك مسلك القدماء بجعل السالبة الضرورية منعكسة كنفسها، و قد وجه شارح المطالع كلام الشيخ بتكلّف ثم قال: و يلوح في كلام الشيخ اضطراب و تشويش، و ذهب صاحب المطالع إلى انعكاس الدائمتين إلى الدائمة المطلقة، و انعكاس العامتين إلى أنفسهما، و انعكاس الخاصتين إلى عامتين مع قيد اللّادوام في البعض، و هذا المسلك كما ترى مذهب متوسط بين المذهبين.

38 و في أن السالبة لا تنعكس مطلقا كما عليه القدماء؟ أو في غير الخاصتين كما عليه المتأخرون؟ فهم بين فريقين متخالفين بالاختلاف السابق، فتبعه الفارابي، ذهبوا إلى انعكاسهما كنفسهما، و أتباع الشيخ إلى العرفية الخاصة، و قال العلامة في شرح جوهر النضيد: إن أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري عثر على انعكاسهما.

ثم ليعلم أنه قد أورد الشيخ الرئيس و المحقق الطوسي على مذهب الجمهور في انعكاس السوالب المطلقة كنفسها، و ارتضاه الصدر و استنصر للشيخ الإشراقي بأن مسلكه في العكوس أحسن من مسألة الجمهور. لأنه في فسحة و مندوحة عما يرد عليهم، ثم نقل عن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 44

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- الفارابي قياسا مؤلفا في انعكاس السالبة الكلية كنفسها (راجع هامش حكمة الإشراق).

39 و اختلف الشيخ الإشراقي مع جمهور المنطقيين في عكوس القضايا، إذ على مذهبه يكون جميع العكوس مع أصولها ضروريات بتأنة كلية، سواء أ كان الأصل موجبا أم سالبا، كليا أو جزئيا، مطلقا أو موجّها، و قد نسب الجمهور إلى الخبط في انعكاس الضروريات الموجبة.

40 و اختلفوا في لزوم تكرار الوسط بتمامه بلا زيادة و لا نقصان في القياس. كما عليه الجمهور، و لذلك وقعوا في الحيرة و تشتت الكلمة في قياس المساوات، أو عدم لزومه بالتمام كما عليه المحقق الطوسي و الصدر، أو أن التكرار ليس بلازم أبدا كما عليه شارح المطالع. و لا يخفى أن النزاع في المقام إنما هو في إنتاج القياس لا العلم به.

و أعلم أنه قد أورد أبو سعيد أبو الخير إيرادا على الشكل الأول بأنه دوري، و هو صعب الانحلال عند التفطن بمقصوده.

و قد أورد الشيخ شكا في اشتراط الإيجاب في صغرى الشكل الأول، و في اشتراط الكلية في كبراه، و لذلك زاد المحقق الطوسي في تعريف القياس قيد «بعينه» دفعا لهذا الشك.

ثم الشيخ لم يشترط خصوص الإيجاب في صغرى الشكل الأول، بل قال: يشترط أن تكون موجبة أو في قوة الموجبة كالسالبة اللّادائمة، و على مذهبه تكون القرائن المنتجة ثمانية، و على مذهب الجمهور أربعة، و على مذهب الشيخ الإشراقي واحدة.

41 و في أن الصغرى الممكنة في الشكل الأوّل لا تنتج أصلا كما هو مذهب جماعة منهم، أو تنتج كما هو مذهب الشيخ و المحقق و أتباعها، و احتجوا عليه بالخلق، و أجاب المانعون عن حجتهم.

42 ثم القائلون بالإنتاج اختلفوا في أن الصغرى الممكنة مع الكبرى الضرورية تنتج ممكنة؟ كما عليه جمهور القدماء، أو ضرورية كما عليه الشيخ و المحقق و من تابعهما؟

43 و هذا الاختلاف نشأ من اختلاف آخر بينهم هو أنهم اختلفوا في أن النتيجة في هذا الشكل هل تتبع أحسن المقدمتين في الكم و الكيف و الجهة جميعا كما عليه جمع منهم؟

أم هي تابعة في الكمية للصغرى، و في الكيفية و الجهة الكبرى إلا في موضعين كما عليه الشيخ و المحقق في الإشارات و شرحه؟

44 و اختلفوا في إنتاج القياس الشرطي الاقتراني المؤلّف من منفصلتين حقيقيتين فذهب الشيخ إلى عدم إنتاجه و خالفه صاحب المطالع و شارحه.

45 و في قياسية القياس الشرطي المؤلف من متصلتين اتفاقيتين، فمنع بعضهم قياسيته، و آخر عدّه قياسا مفيدا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 45

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- 46 و في أن القياس المركب من الحملية و المتصلة لا ينتج، كما عليه جماعة من متأخري قدمائهم، أو ينتج، كما عليه المحققون.

47 و في أن الضروب المنتجة في الشكل الرابع هل هي خمسة أو ثمانية، و أوّل من عثر على هذه الثلاثة الزائدة هو أثير الدين المفضل الأبهري.

48 و في شروط إنتاج الشكل الثاني بأنه يجب الاختلاف في الكم، و لو لم يكن حكم المقدمتين مختلفا، كما ظنه جمع منهم؟ أم لا بل يجب الاختلاف في الحكم كما عليه المحققون؟ و نبه على ذلك في شرح الإشارات.

49 و في شروط إنتاج الشكل الثالث من القسم الثالث من أقسام القياس الشرطي الاقتراني أي المركب من المتصلة و الحملية، فأشترط الشيخ و أتباعه إيجاب الحملية، و لم يشترط صاحب المطالع و شارحه و أتباعهما و أجابا عن إشكالات الشيخ.

50 و في شروط إنتاج الشكل الثاني من القسم الرابع من أقسام القياس الشرطي الاقتراني، فاشترط الشيخ وجوب موافقة الحملية لمقدم المتصلة في الكيف، و لم يشترطها صاحب المطالع و شارحه.

51 و في القسم الثاني من قسمي القياس الاقتراني، المركب من الحملية و المنفصلة، فقال الشيخ: إن الحملية الواحدة إن كانت صغرى لا تنتج في هذا القسم، و قال صاحب المطالع و شارحه بإنتاجهما سواء أ كانت صغرى أو كبرى.

52 و في أن المنفصلة الحقيقية إذا كانت موجبة جزئية و كبرى فهل تنتج مع المتصلة الموجبة الكلية المشاركة التالي كما عليه صاحب المطالع و شارحه؟ أم لا تنتج كما عليه الشيخ و أتباعه، و قد استدل الشيخ بما فسخه شارح المطالع.

ثم إنهم قد شكلوا في إنتاج الشرطية الاقترانية المؤلفة من المتصلتين كما أن الشيخ قد شك في الشكل الأول عن لزومية هذه الشرطية، و أجاب عنه في الشفاء، و قد أجاب عنه شارح المطالع أيضا بما قد ردّه الصدر في تعليقاته فراجع.

53 و في أن اعتبار الاتصال في الشرطية المتصلة هل هو بلحاظ نفس النقيضين، بلحاظ التوافق بينهما في الصدق (راجع شرح المطالع أواسط الفصل الثاني من التصديقات).

54 و في أن النسبة التي تكون جزء للقضية هل هي نسبة موضوعية الموضوع للمحمول أو نسبة محمولية المحمول إلى الموضوع و يثمر ثمرا عظيما في الموجبات، حيث إن الجهة هي كيفية النسبة، فما هذه النسبة المكيفة، فقولنا: الكاتب إنسان، نسبة موضوعية الموضوع فيها للمحمول إنما هي بالوجوب، و قد بين في شرح المطالع تغاير النسب.

و بالجملة هنا اختلاف عظيم بحيث قال شارع المطالع: اضطربت الأقوال فيها، ثم قال في آخر هذا الفصل: فحقّق هذا الموضوع على هذا النسق، و امح من بالك ما يقولون-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 46

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و يزخرفون، فلا شبهة بعد شروق الحق المبين.

55 و في أن كلّ متصلتين توافقنا في المقدم و الكم و تخالفتا في الكيف و تناقضا في التالي، تكونان متلازمتين و متعاكستين كما عليه القدماء منهم؟ أو لا تكونان متلازمتين و لا متعاكستين كما عليه متأخروهم؟ (راجع جوهر النضيد في بيان أقسام المتصلة و المنفصلة في أوّل مبحث القضايا).

56 و في اختصاص الشرطيات بالقياس الاستثنائي، و الحمليات بالقياس الاقتراني و عدم وجود قياس اقتراني شرطي كما عليه عامة الجمهور قبل الشيخ؟ و عليه ورود التعليم الأول أم لا، بل هناك اقترانات شرطية كما نبه عليه الشيخ و اختاره جمع آخرون.

57 و في جواز تركب مانعة الجمع و الخلو من أجزاء فوق اثنتين، كما عليه جمع كثير من متقدميهم و عليه شارح حكمة الإشراق و المحقق في جوهر النضيد، بل ظاهر عبارة المحقق تجويزه في المنفصلة الحقيقية أيضا، أم لا، بل لا يجوز في كل واحد من المنفصلات الثلاث إلّا التركّب من جزئين فقط، كما عليه الشيخ و صاحب المطالع و شارحه.

58 و في حقيقة القضية الحقيقية، و أنه ما الفرق بينها و بين الخارجية و هناك تفصيلات كثيرة تطلب من شرح المطالب.

59 و في حقيقة القضية الطبيعية بأنها شخصية أم لا؟ و هل هي داخلة في المهملة أم لا؟

(راجع الإشارات و شرح المطالع و تعليقات حكمة الإشراق في المحصورات).

60 و في اقتضاء الموجبات وجود الموضوع و إن كانت معدولة، دون السوالب إن كانت بسيطة كما عليه الشيخ الرئيس و المحقق الطوسي و الصدر و جمع كثير منهم، أو ليس بين الموجبات و السوالب فرق من هذه الجهة حسب الواقع أصلا، بل هما كلتاهما تقتضيان ثبوت الموضوع في الذهن أو في نفس الأمر كما عليه المحقق الدواني و جمع آخر منهم؟

بل و ذهب بعضهم إلى أنه إن لم تقتض السالبة وجود الموضوع لزم عدم إنتاج الضرب الثاني و الرابع من الشكل الأول (راجع شرح المطالع).

و من هنا نشأ الاختلاف في حقيقة القضايا التي تكون موضوعاتها من الممتنعات كشريك الباري و اجتماع النقيضين و المعدوم المطلق، و لهذا لجأ بعضهم إلى تصوير قضية أخرى مسماة بالموجبة السالبة المحمول.

ثم إن الفرقة الأولى- أي الشيخ و أتباعه- القائلين باقتضاء الموجبات دون السوالب قد افترقوا فرقتين، ففرقة ذهبت إلى أن التمايز بين الموجبات و السوالب فالاقتضاء و عدمه إنما يكون في الشخصيات و المحصورات كلتيهما، كالشيخ الرئيس و الصدر و جمع من المحققين، و فرقة أخرى ذهبت إلى انحصار التمايز في خصوص الشخصيات دون-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 47

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- المحصورات لاشتمالها على عقد وضع هو في قوة قضية إيجابية حملية بخلاف الشخصيات لعدم وجود عقد الوضع كالشيخ الإشراقي و من تبعه.

و هنا لك وقع الاختلاف بينه و بين الصدر في حقيقة عقد الوضع بأنه ما هو؟ (راجع الضابط السادس من المقالة الثانية من حكمة الإشراق عند قوله: و هاهنا دقيقة إشراقية).

61 و في وجود الموجبة السالبة المحمول و عدمها، و أنها هل هي قضية أخرى سوى البارقية أم لا؟ و على فرض كونها قضية، فهل تقتضي وجود الموضوع كما عليه صاحب المطالع و شارحها أم لا؟ تشبيها بالسوالب المحصلة كما ذهب إليه جماعة أخرى منهم السبزواري في لئاليه (راجع شرح المطالع عند بيان المعدومات).

62 و في تحليل قياس الخلف، ففرقة كالشيخين و من تبعهما خالفوا المتأخرين و عسر عليهم فهم التعليم الأول، و من هذا الاختلاف يختلف شرائط إنتاج قياس الخلف فيعسر الأمر في إنتاج الضروب المنتجة من الأشكال الثلاثة، إذ عمدة الدليل في تمييز المنتج منها عن غيره هو الخلف (راجع تعليقات حكمة الإشراق لدى بيان قياس الخلف).

63 و في أن مقدمات البرهان هل يجب أن تكون واجبات محضة- أي ضروريات- قبال الممكن و الممتنع، كما ذهب إليه الصدر تبعا للشيخ الإشراقي، و إليه ذهب قوم من قدمائهم تبعا لما ورد في التعليم الأوّل، أم لا؟ بل يمكن كون كلتيهما أو إحداهما ممكنة بل و ممتنعة كما ذهب إليه الشيخ الرئيس و أتباعه، فإنه بعد ما أبطل رأيهم نسبهم إلى تقليد المعلم الأول و هجى المعلم و قال: إن القوم تخبطوا في كثير من المواضع لأجل تقليدهم المعلم الأول.

64 و في أن المتواترات هل تكون حجة في المعقولات كما عليه المعلم الثاني الفارابي في كتابه: (الجمع بين الرأيين) أم لا بل تنحصر حجيتها في المحسوسات فقط كما عليه الشيخان و الصدر و المحقق الطوسي.

و من هنا ينبعث الخلاف في وجوب كون المتواترات قضايا جزئية مفيدة للحكم الجزئي كما هو لازم المذهب الثاني؟ أو عدم وجوبه بحيث يمكن إفادته رأيا كليا كما هو لازم المذهب الأوّل.

65 و في أن العلم الحاصل بالمتواترات نظرية كما ذهب إليه قوم على ما في جوهر النضيد، أم ضرورية كما عليه مشهور المناطقة.

66 و في تمايز برهان الّلم عن برهان الإنّ، فقد ذهب الشيخ الرئيس و الشيخ الإشراقي و المحقق الطوسي و صاحب المحاكمات و شرح المطالع و شارح حكمة الإشراق و الجمهور من المتأخرين إلى أن الأوسط في برهان الّلم هو الذي علة للوجود الرابط للأكبر في الخارج و في العقل، سواء أ كان معلولا لوجوده المحمولي أيضا أم لا، و في برهان الإنّ-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 48

ذلك المنطق العلمي الرسمي كمقدمة ضرورية لهذه الفلسفة، فضلا عن نفسها التي فيها مغالطات و مخالطات، و لا بد للسالك إلى اللّه من زاد معصوم و راحلة معصومة لكي تكون عاصمة، و ليست إلّا راحلة العقل السليم بزاد الفطرة السليمة، استضاءة من الشرعة الربانية، دون أية حاجة للورود في لجج المنطقيات و الفلسفيات و العرفانيات المصطلحة الحائدة عن الصراط المستقيم و الطريق القويم.

هذا! ف:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نهاية أقدام العقول عقال‏ |  | و أكثر سعي العالمين ضلال‏ |
| و كم قد رأينا من رجال و دولة |  | فبادوا جميعا مسرعين و زالوا |
| و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا |  | سوى أن جمعنا فيه قيل و قالوا «1» |

فمن أسس الفلسفة تلازم العلة و المعلول، و لأنهم يعتبرون اللّه علة يقولون بأزلية و أبدية الخلق لكونه معلولا له تعالى، و العلة هي والدة المعلول، و اللّه سبحانه لم يلد و لم يولد، فهو خالق بالإرادة و ليس والدا دون إرادة كما هو قضية العلية المصطلحة.

و منها مسانخة العلة و المعلول، إذا فهناك مسانخة ذاتية بين الخالق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- هو الذي يكون علة لوجود رابط الأكبر في العقل فقط، و أما الصدر فقد ذهب إلى أن برهان اللم ما كان الأوسط فيه علة للوجود و المحمول الذي للأكبر و لوجوده الرابط كليهما في العقل و الخارج كليهما أيضا، و برهان الإنّ ما كان الأوسط فيه علة لوجوده الرابط فقط في الخارج و العقل كليهما. و لهذا يختلط الأمر على هذين المذهبين كمال الاختلاط، إذ يكون أغلب البراهين اللّمية على المذهب الأوّل إنية على المذهب الثاني، و أنت تعلم أن طرفي الاختلاف في هذه المسألة من فحول الحكمة و المنطق و أساطينهما.

و حيث إن أعداد الاختلافات المذكورة بلغت إلى عدد «اللّه» أي: ست و ستين، و

قد ورد في الحديث: «إذا بلغ الكلام إلى الله فانصتوا»

ننصت و نسكت و نرجع إلى ما كنا من موهنات مسلك الفلاسفة.

(1). ينسب المبيدي شارح هداية المفضل الأبهري في شرحه على الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى فخر الدين الرازي هذه الأشعار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 49

و المخلوق، و هذا من أسس القول بوحدة حقيقة الوجود و إنما الاختلاف بالمراتب.

و منها أن الواحد لا يصد منه إلا واحد، فليس معلول اللّه عندهم إلّا واحد هو العقل الأوّل، ثم هو الخالق لسائر الخلق، و وحدة العقل الأول قضية وحدة العلة الأولى، هي وهدة في خلق سائر الخلق كوهدته تعالى عندهم عن خلق سائر الخلق.

هذه و ما أشبه خلطا بين الخالق و العلة مما أهواهم في هوّات جارفة، مما جعل الفلسفة الإلهية إلحادية أو إشراكية لا تشبه تصريحات الكتاب و السنة، و كما تجد المفاصلة التامة بينهما بطيات الآيات في حقول معرفة اللّه في هذا الفرقان.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (175) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176).

هنا عرض وجيز عن‏ «الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها» و هو منقطع النظير في القرآن كله، و قد ورد في مسرحه روايات متهافتة تحمل في الأكثر خرافات غريبة:- شرقية أو غربية- تفرض علينا تعمقا أنيقا في نص الآية ليسهل لنا الرد و القبول و اللّه المستعان.

ترى من هو صاحب المسرح؟ و ما هي الآيات التي أوتيها؟ و كيف انسلخ منها؟ و لا تؤتى الآيات المعجزات إلّا أهلوها الصالحون لها! «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».

إنه حسب روايات عدة «بلعم بن باعورا من بني إسرائيل» أم سواه‏ «1» و لم يكن نبيا و لا وصيا خلاف ما قد يروى، حيث العصمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 13: 377 عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الرضا (عليه السلام) أنه أعطي بلعم بن باعورا الاسم الأعظم و كان يدعو به فيستجيب له،-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 50

و لا سيما الرسالية اصطفاء و اجتباء، و كيف يصطفى و يجتبى من هو من الغاوين المخلدين إلى الأرض المتبعين أهواءهم لحد يمثّل بالكلب، و هو مكذب بآيات اللّه، فكيف يصطفيه إلّا الجاهل القاحل المغري للمجاهيل ويكأن اللّه يجهل حيث يجعل رسالته؟ و «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» فكيف جهل هنا موضع رسالته؟

إذا ف «آياتنا» هنا ليست هي من آيات العصمة رسالية و سواها و لا الآيات العامة المزيدة، بل هي التي قد تؤتى غير الصالحين لردح من الزمن امتحانا فامتهانا، و لكي نعلم أن الآيات الربانية ليست إلّا لمستحقيها بحق و الذين يعملون لها كما هيه، ليست إلّا هيه.

فسواء أ كانت «آياتنا» آية استجابة الدعوة كما يروى؟ و هي آية واحدة! أم و آيات آفاقية و أنفسية في سلك معرفة ربانية زائدة ابتلاء له و امتحانا؟ و قد تناسبه جمع «آياتنا» هي الآيات العوان بين الخاصة الرسالية و العامة السارية.

هنا «آياتنا» هي عوان بين الآيات المؤتيات لكافة المكلفين بمختلف قابلياتهم و فاعلياتهم، و بين الآيات الرسولية و الرسالية للمرسلين، فلا هي الخاصة ب «الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا» من الآيات العامة، حيث تعمه و سواه، و لا هي من الآيات الخاصة الرسالية لاختصاصها بالمصطفين، فهي- إذا- عوان بين قبيلي الآيات، أن زوّد فيما أوتي منها على سائر المكلفين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فمال إلى فرعون في طلب موسى (عليه السلام) و أصحابه، قال فرعون لبلعم: أدع اللّه على موسى و أصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمرّ في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها اللّه عزّ و جلّ فقالت: ويلك على ما تضربني؟ أ تريد أن أجي‏ء معك لتدعو على نبي اللّه و قوم مؤمنين؟ فلم يزل يضربها حتى قتلها، و انسلخ الاسم من لسانه و هو قوله: «فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ‏ ... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ» و هو مثل ضربه.

أقول: هذا الحمار هو كالحمار الذي اختلق هذه الرواية المخيّلة للناظر إليها كان اللّه مجبر في إجابة دعاء ابن باعورا، فلذلك امتنع عن المرور إلى موسى خوفة دعاءه و إجابته تعالى إياه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 51

مهما نقص عن المرسلين.

فهي- إذا- قوة زائدة في الفطرة و العقلية الإنسانية، و الطاقة الحسية، أماهيه في ذلك المثلث، و منها ظاهرة الكرامات بدعوات و سواها، قوة زائدة بين زائدة العصمة و الناقصة قدر الحاجة في قضية التكليف العام، و هذه القوة رحمة للذين يتذرعون بها رفعا لكيانهم المعرفي و العبودي، و زحمة للذين ينسلخون منها فيسقطون في هوّات الضلالة و المتاهة، و كأنهم ما أوتوا من آيات اللّه شيئا.

ذلك و لقوة البصيرة و النظر، و لنضوج العقل و البصر، و لمزيد العلوم و الفكر، إن لها نصيبا بالغا للسالك إلى اللّه في مزيد معرفة اللّه، و لكنه‏ «فَانْسَلَخَ مِنْها» و قد كانت تحوطه حيطة الجلد على البدن فسلخها عنه‏ «فَانْسَلَخَ مِنْها».

فرغم أن على الإنسان الاستزادة و الاستقواء من ذرائع مزيد المعرفة باللّه فالحب في اللّه، ترى ماذا تكون حال من‏ «آتَيْناهُ آياتِنا» دون محاولة منه إذا «فَانْسَلَخَ مِنْها» رغبة في الحياة الدنيا و الإخلاد إليها، قلبا لنعمة اللّه و الذريعة إلى معرفة اللّه، نقمة و نعمة و جهلا باللّه، و لذلك‏ «فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ» له و لنفسه و من سواه خالصا كالسا فالسا عما أوتي، «فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ» الهاوين، رغم الآيات التي أوتيها، إذ كفر بها.

و من هذه الآيات هي الباهرات على نبوة هذا النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، و هذه الآيات تحمل له بسوء صنيعه سبعا من أبواب جحيم الغوايات لهذا الذي‏ «آتَيْناهُ آياتِنا» إذ بدل نعمة اللّه كفرا و أحل نفسه دار البوار جهنم يصلاها و بئس القرار:

1 «فَانْسَلَخَ مِنْها» حيث عامل «آياتنا» معاملة الكفران و النكران، فعمل في انسلاخه منها عن بكرتها فأصبح أدنى ممن أوتي آيات اللّه ككل و هم عامة المكلفين.

2 «فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ» في انسلاخه حيث صار من أتباع الشيطان بعد ما أوتي آيات الرحمن، و لأن المفعول الثاني ل «أتبعه» محذوف، فهو إذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 52

المعروف بثالوثه، أتبعه نفسه الأمارة، فاتبعه إياه: الشيطان، و أتبعه جموعا يتابعونه.

3 «فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ» بذلك الانسلاخ فالإتباع الذي هو من خلفيات الانسلاخ، فحين ينسلخ الإنسان من آيات اللّه، فيصبح خاويا عنها جافيا، فهنالك إتباع الشيطان في ثالوث بخطواته الثلاث، و هنا تتم الغواية الطليقة «فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ» المحسوبين بحساب الشيطان: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15: 42) فإن له عليهم سلطانا ما كنا حيث يحتنكهم راكبا عليهم فهم- إذا- سيّقة الشيطان.

«وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها» رفعا من حالة الكرامة إلى هالة العصمة و ما أشبه.

4 «وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ» رغم ما أوتي من آيات ترفعه إلى السماء، «أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ»: أرض الشهوة و الحيونة و الإنية و الأنانية، أماهيه من أرضيات سافلة تافهة.

و «الأرض» هنا هي أرض الحياة المادية قبال الحياة الروحية، فالمخلد نفسه بكل حوله و قوته إلى الحياة المادية، لا يعني من الحياة ما هو حي إلّا الشهوات و الحيونات و إن كان موحدا فضلا عن ملحد أو مشرك، فمن الموحدين من لا يعني من الحياة إلا دنياها، و قد يتذرع بمظاهر إيمانية بغية الوصول إلى بغيته الأرضية منها.

ذلك، و الأرض هي الأرض بالنسبة لقبيلي الكفر و الإيمان، بفارق أن الكافر يبصر بها فتبصّره، و المؤمن يبصر إليها فتعميه، و على حد قول الإمام علي (عليه السلام) في صفة الدنيا: «من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته».

5 «وَ اتَّبَعَ هَواهُ» تخلفا عن أمر مولاه فهويّا في خضمّ هواه، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق.

6 «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ» بل و أضل سبيلا، حيث الكلب كلب له كلب كما خلق، و هو جعل نفسه كلبا يكلب بانسلاخه عن آيات اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 53

فانسلاخه عن إنسانيته، «كَمَثَلِ الْكَلْبِ» في‏ «إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ»: دالعا لسانه من العطش، فهو- إذا- دائم اللهث و كأنه ليس له قلب يضبطه لهثه حين لا تحمل عليه.

7 «ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا» و من مثلهم السوء حالة الكلب في حمل سواه.

ذلك، و باحتمال آخر قد تعني الآية أشخاصا أخر «1» و بثالث لا تعني شخصا أو أشخاصا خصوصا، إنما تعني الموصوف بهذه الأوصاف الخبيثة النحيسة على مدار الزمن‏ «2» و النص يحتمل كل هذه الثلاث فلنرسله كما أرسل دونما تحديد بواحدة من هذه.

فلقد أوتي من الآيات لحد كأنها أصبحت جلدا له يحفظه لمكان‏ «فَانْسَلَخَ مِنْها» انسلاخا بسوء صنيعه إذ لم يقل: فسلخه منها، ففاعل السلخ هو هو بما صنع، و هو اللّه جزاء بما ضيع فيما صنع.

و لأن هذا المسرح الغاوي الهاوي هو المجال الأجلي للشيطان، لذلك‏ «فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ» اتبعه نفسه إذ أصبح تابعا للشيطان تماما كما انسلخ من آيات اللّه تماما جزاء وفاقا: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» كما و أتبعه الشيطان نفسه بعد ما اتبعه نفسه الامارة، ثم اتبعه جموعا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هم بين أمية بن أبي الصلت و كان قد قرأ الكتب و علم أن اللّه مرسل رسولا في ذلك الوقت و رجا أن يكون هو فلما أرسل اللّه محمدا في ذلك الوقت و رجا أن يكون حسده ثم مات كافرا و لم يؤمن بالنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو الذي‏

قال فيه النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «آمن شعره و كفر قلبه»

عن عبد اللّه بن عمر و سعيد بن المسيب و زيد بن أسلم و أبو روق- و أبي عامر الراهب الذي سماه النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الفاسق كان يترهب في الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام و أمر المنافقين باتخاذ مسجد ضرار و أتى قيصر و استنجده على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فمات طريدا وحيدا و هو قول سعيد بن المسيب- و منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن الحسن و الأمم-

(2) و هو قول قتادة و عكرمة و أبي مسلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 54

يرأّسونه إذ أصبح من رؤساء الشيطنات‏ «فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ» نفسه و أتباعه، رغم ما أوتي من الآيات‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ».

«وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها» كما آتيناه إياها، لو أنه اتبعها و استفاد منها، «وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ» لازقا إياها، راضيا بالحياة الدنيا من الآخرة، تاركا آيات السماء وراءه ظهريا «وَ اتَّبَعَ هَواهُ» في إخلاده فلم ينج منه، فقد يرفع اللّه بآياته الذي يتذرعونها إلى الحق المرام قدر مسعاهم و مرماهم.

«فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ» اللّاهث‏ «إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ» هجوما ضاريا «يلهث»- «أو تتركه» مسالما «يلهث» و اللهث هو حال العطش، فمن الكلاب من تسوى له الحالتان ريّا و عطشا، فذلك الذي‏ «آتَيْناهُ آياتِنا» فأصبح ريا بها لا يعطش، و أخذ يلهث و عنده ما يغنيه منها، فقد آتاه اللّه العلم فأغناه عن التعرض لهذا الأركس الأدنى، و لكنه ألغاه إلقاء لنفسه فيما تشتهيه نفسه الخبيثة و طبيعته الخسيسة، دونما حاجة إلى الأرض بما عنده من آيات السماء، فسواء عليه إن أوتي «آياتنا» أم لم يؤت منها فإنه لاهث عطشان للحياة الأرضية الدانية الفانية، حيث يفدي للحصول عليها بآياتنا «ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا» و قد أوتوها انسلاخا منها «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»- فيا له من مشهد عجاب، إنسان آتاه اللّه آيات له بينات، خالعا عليه من فضله، كاسيا من علمه بفرصة كاملة شاملة للاهتداء و الارتفاع بها، و إذا هو ينسلخ منها و كأنما الآيات أديمت له متلبسة بلحمه، فهو ذا ينسلخ منها بعنف، انسلاخ الحي أمن أديمه اللّاصق بكيانه.

فمن هذه الآيات آية الفطرة: الذر التي فطر الناس عليها، حيث تلبس بها تلبس الجلد بالإنسان، تجردا و انسلاخا من الغطاء الواقي و الدرع الحامي، فيهبط من الأفق البارق إخلادا إلى الطين المحمى الحارق، فيصبح غرضا للشيطان، مخلدا إلى الأرض، ملتبسا ملوثا بطينها، ممسوخا كالكلب اللّاهث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 55

ثم آية العقل و سائر الآيات الأنفسية الواسطة بين العقل و الفطرة، و بينها و بين الآيات الآفاقية، من النبيين و كتاباتهم و آياتهم، و من الكائنات ككل، و في كل شي‏ء له آية تدل على أنه صانع.

فبقدر ما يؤتي الإنسان من آيات اللّه يرجى منه بنفس القدر أن يرتفع بها من الحياة الأرضية إلى الحياة السماوية، و لكنه أخلد إلى الأرض و اتبع هواه و كان أمره فرطا، فاحصا عن الحيونات، لاهثا وراء الفرعنات و النمردات.

و كم من عالم عيلم نراه على مدار التاريخ يعلم دين اللّه بزيادة بالغة و لكنه يزيغ عنه و يزيغ، إعلانا للبدع، و استخداما لشرعة اللّه في التحريفات المقصودة و الفتاوى المطلوبة أو المتطلّبة للأهواء و المصلحيات! منسلخا من آيات اللّه، منتهيا إلى كلب الكلاب بلهثات لا تنقطع كما الجحيم حيث يقول كما تقول: هل من مزيد؟.

إنهم يلهثون وراء هذا الأدني الأركس، وراء الحطام، وراء الشهوات و الأهواء، و لا حدود لهذه اللهثات و لا تنقطع أبدا إلّا بانقطاع أنفاسهم النحيسة البخيسة الخبيثة.

هؤلاء هم أشر خلق اللّه، و أخطر على دين اللّه من الكلاب اللاهثة الضارية في ضرايع الغنم!

كلام حول قصص القرآن‏

: «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» هنا، و «لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ» في يوسف (111) و «كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» (11:) 120) و «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ» (6: 57) و ما أشبه.

إنها تعريفات بالقصص القرآنية أنها تعني للرسول نفسه تثبيت فؤاده على بلاغه الرسالي دونما تلكؤّ و تهامل، أم يأس من فاعليها، و للمرسل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 56

إليهم عبرة و تذكرة و تفكرة، فإن كل إنسان تاريخ بنفسه فضلا عن كل جيل.

فدراسة القصص الحق هي كراسة للتفكير، و حراسة عن التهدير، و مراسة لسلوك صالح السبيل‏ «وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» و «عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ».

فليس القرآن كتاب العرض القصصي تخديرا لأعصاب متوترة، و إتلافا لأوقات ثمينة، إنما هو فتح لما مضى من كتاب الحياة الإنسانية، ممثلا كافة النتائج الواقعة، خيّرة و شرّيرة من قبل لفريقي الخير و الشر، فهو نبراس لمستقبل الحياة و متراس، إضافة إلى حاضرة العظات القرآنية، المحلقة على كل صنوف البراهين، مبشرة و منذرة.

و هذا هو المعني من السير في الأرض بتاريخها الجغرافي و جغرافياها التاريخي، تفكرا في خلق اللّه: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (29:) 20) و ذلك سير آفاقي و أنفسي متعاضدين مع بعضهما البعض للحصول على معرفة المبدء و المعاد، و سير آخر به يطلع على مسير المكذبين و مصيرهم: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» (27: 69).

و جامع السير هو النظر إلى كل عواقب الخير و الشر: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ» (30: 42).

فقد يضم السير في الأرض إلى كل إنسان تجربات ماضية لقبيل الإنسان، فالإنسان السائر في الأرض بنظرة واقعية إلى وقائع الأرض، يصبح كأنه التاريخ كله، يقبل إلى وارده و يدبر عن شارده فيصبح ابنا صالحا للتاريخ الواقع.

و لكي نحصل على حاق التاريخ دون ليّ وعيّ، علينا أن نكون واقعيين، لا خياليين تقليديين لكل ما قيل أو يقال، فننظر إلى واقع التاريخ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 57

المفتوح، دون المقفل المغلق المغفّل الذي اختلقته مصلحيات المترفين المسيطرين على الشعوب بالسيف و النار، فإنه تاريخ منكوس مركوس يصنع من السائر فيه نكسة و ركسة عن انسانيته.

فالإنسان الجاهل بالتاريخ هو ابن نفسه قدر نفسه خيّرة و شريرة، و العالم بالتاريخ هو ابن التاريخ إضافة إلى كونه ابن نفسه، حيث يجمع تجارب السابقين إلى تجاربه نفسه، ان في طريق الهدى أم طريق الردى.

و لأن النبوات هي بناة التاريخ الصالح، فالذي يدرس تاريخها بتقدماتها و عرقلاتها لتكون له نبراسا ينير الدرب إلى الحق المرام، و متراسا يترس به عما لا يرام، ذلك الإنسان يصبح ابن النبوات بحصائلها في وسائلها التي يدرسها.

و لا بد في عرض التاريخ من أرض صالحة لذلك العرض و هو القرآن، حيث تعني‏ «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» أرضه بعرضه لصالح التاريخ غير المدسوس و لا المغشوش.

و القرآن حافل للقصص التاريخي الصالح لإنشاء فكرة صالحة، بجنب ما هو حافل لسائر المواد التربوية الربانية.

إذا فلا فارق بين إنشاءات القرآن و إنباءاته، حيث الكل تعني بناية الإنسان كأصلح ما يرام في حقل التربية الربانية.

ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (177).

فقد رجع رجيع ظلمهم- بما كذبوا- إلى أنفسهم، فلن يضروا اللّه شيئا و لا آياته حيث الحق ليس ليتحول عن حاله بتواتر التكذيب، فإنما المتحول هو نفوس الظالمين حيث نزلوا أنفسهم عن كيانها الإنساني فهم‏ «كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ»:

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (178).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 58

و لا يهدي اللّه إلّا من هو في سبيل الاهتداء، ناحيا نحو الهدى، و أما الناحي نحو الردى، حيث يضل بما يهوى، فهو يضله مهما أوتي من آيات اللّه الدالة على حق الهدى.

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (179)- «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (25: 44)- «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» (47: 12).

إن القلوب تفقه كأصل من ناحيتين اثنتين، ذاتية أنفسية دون حاجة إلى أعين و آذان، و آفاقية هما فيها من الذرايع الإذاعية لها، فإن الصورة الصوتية المسموعة و غيرها المبصرة تنتقل إلى القلوب فتدرسها تقليبا لها ظهر بطن اصطفاء لأحسنها و أليقها تقبلا.

فالذين‏ «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها» ثم‏ «وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها» بصر الإنسان الواعي‏ «وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها» سمع الإنسان‏ «أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ» حيث لا تفقه فقه الإنسان و لا تبصر أو تسمع كما الإنسان، و لأن ذلك في الأنعام قصور دون تقصير، و هو في الإنسان تقصير دون قصور فليس- فقط- أولئك كالأنعام‏ «بَلْ هُمْ أَضَلُّ» حيث‏ «أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» بما غفلوا، و الأنعام غافلة عن ذكرى الإنسان كما خلقت.

و ترى كيف‏ «ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ»؟ و قد خلق الخلق للرحمة لا للعذاب، «لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (11: 119).

ثم‏ «لَهُمْ قُلُوبٌ» هل هي صفة الذرء الخلق؟ فما بالهم يؤنّبون و يعذّبون! أم صفة المخلوق بسوء اختياره؟ فكيف‏ «ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ»!.

الذرء ليس هو الخلق نفسه، بل هو إظهار ما خلق بمظهر أعمالهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 59

الصالحة أو الطالحة، كما «يذرؤكم فيه» (42: 11) و «مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ» (6: 136) هما إظهار ما خلق بمظهر آخر.

فكما أن مظاهر الخير هي من الخيّرين و هي من عند اللّه، كذلك مظاهر الشر هي من الشرّيرين و هي من عند اللّه، بمعنى أنهما منا بما نختار و نعمل، و هي من عند اللّه بما يجازي بالعمل.

و هنا ثالوث المواصفات «لهم قلوب لهم أعين لهم آذان» تقرر معنى الذرء، فنسبة الذرء إليه تعالى لا تعني أنهم خلقوا لجهنم، بل هم الكثير كما القليل خلقوا للرحمة، و لكنهم بسوء صنيعهم بهذه الذرايع إلى الرحمة، هيّئوا أنفسهم لجهنم.

فلما ذا «ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» لأن‏ «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها» و قد أمروا بالفقه و الإبصار و السماع و هو مهيّئ لهم أسبابها الآفاقية و الأنفسية، فهو يذرؤهم- إذا- إظهارا بمظهر الخير الذي لم يعملوه بمظهر الشر الذي عملوه، فذلك ذرأهم أولاء لجهنم، و كما ذرأ قليلا للجنة و هم أولئك الذين لهم قلوب يفقهون بها و لهم أعين يبصرون بها و لهم آذان يسمعون بها، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»: «وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ» (67: 10).

ذلك، فإنما الإنسان هو القلب الفقيه و العين البصيرة و الأذن السميعة بما لها من درجات، و من سواه ليس من الناس، بل هو من النسناس بماله من دركات.

فقد خلق اللّه الإنسان للرحمة، ثم ذرأ الصالحين للجنة و الطالحين للنار بما ذرأوا أنفسهم، و كما يحضر الزارع الحبّ فيذرء صالحه لزرعه و يذرأ طالحه لما دون ذلك، و هكذا يذرأ الإنسان كما يزرع في مزرعة الدنيا «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

ذلك، و قد يعني «ذرأنا» هنا إلى ما قدمناه، ذرء العلم، أن الأكثرية من الجن و الإنس هم سائرون إلى جهنم بما يختارون على علم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 60

من‏ «قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها» و ليس العلم قبل واقع المعلوم سببا للمعلوم، إنما هو كاشف عنه، سواء أ كان سببا له إلى كونه كاشفا، أم ليس هو السبب بل إنما هو كاشف، و هكذا «لقد ذرأنا».

و في احتمال ثالث قد يصح «ذرأنا» بما ذرأ اللّه وسائل النار و الذرايع إليها كما ذرأ الذرايع إلى الجنة، و لكنها كما العلم بها ليست مسيّرة لهما إلى عمل الجنة و لا عمل النار.

فقد خلقنا اللّه مختارين و هدانا النجدين خيرا و شرا، و خلق ما نختاره من خير أو شر، و لم يسيّرنا لا إلى أسباب الجنة و لا إلى أسباب النار، ثم و ذرائع الجنة هي أكثر بكثير من ذرائع النار، فلا خلقه هذه الذرايع و إيانا و لا خيرنا تسيير، و لا علمه بما سوف نعمله تسيير، فإنه «لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين».

[سورة الأعراف (7): الآيات 181 الى 189]

وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (181) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (182) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ أَنْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (187) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 61

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (181).

لقد تحدثنا عن‏ «الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» على ضوء آيات الأسرى (110) و طه (8) و الحشر (24) و هنا زيادة «يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» نتحدث- فقط- عنها دون زيادة أخرى اللّهم إلّا شطرا.

كما أن ذات اللّه هي الحسنى بين الذوات، بل و لا حسن لها أمام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 62

قدسية هذه الذات، كذلك‏ «لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» ذاتية و فعلية، و ذوات المقربين و السابقين التي هي من أحسن الأسماء الفعلية «1» و كذلك الأسماء اللفظية التي تعني مثلث الأسماء هذه‏ «فَادْعُوهُ بِها» لا سواها.

و الإلحاد في أسماء، منه أن تختلق له أسماء من أيّ الأربعة، أم تفسر بغير معانيها، أم يدعى بها خلاف المرسوم أو المطلوب بها في أي دعاء: استدعاء و نداء و معرفة و توصلا و ما أشبه.

و الإلحاد في أسماءه تعالى وجاه التوحيد فيها يعني كلا الإشراك و الإلحاد، و كافة التخلفات عما رسمه اللّه من دعوته بها كما هو المسرود في القرآن و السنة.

و من الإلحاد في أسماءه تسمية غيره بها كما هو يدعى، تركا له سبحانه فإلحاد أم إشراكا به فإشراك، و منه تحسّب عناية أسماءه معاني زائدة على ذاته في أسماءه الذاتية، و تحسّب عديدها واقعيا، و ما أشبه من تخلفات عن شرعة التوحيد الحق و حق التوحيد في‏ «الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏»- «وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» من تخلفات عن رسم التوحيد فيها و توحيدها.

و احسن أسماءه الحسنى اللفظية و أجمعها هو الاسم الظاهر: «اللّه» و هو الاسم الباطن: «هو» ف «اللّه» ليس له سميّ حتى عند المشركين و الملحدين: «فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» (19:) 65)؟.

و الأسماء اللفظية الحسنى حسب المذكور في القرآن مائة و خمسة و أربعون‏ «2» و الروايات القائلة إنها تسعة و تسعون بين مطروحة- إذا- أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 103 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال في الآية: نحن و اللّه الأسماء الحسنى التي لا يقبل اللّه عملا إلا بمعرفتنا.

(2) إليكم هذه الأسماء حسب ترتيب حرف التهجي: سواء المذكورة بألفاظها أو المستفادة من صيغها:

ألف اللّه- الإله- الأحد- الأوّل- الآخر- الأعلى- الأكرم- الأعلم- أرحم الراحمين-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 63

مأوّلة برجوع الزائدة عليها من عديد القرآن إلى تسعة و تسعين، و كما يروى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- أحكم الحاكمين- أحسن الخالقين- أهل التقوى- أهل المغفرة- الأقرب- الأبقى- أسرع الحاسبين- أسرع مكرا- ب- البارئ- الباطن- البديع- البر- البصير- الباقي- ت- التواب- التائب.

ج- الجبار- الجامع- ح- الحكيم- الحليم- الحي- الحق- الحميد- الحسيب- الحفيظ- الحفي- خ- الخبير- الخالق- الخلاق- الخير- خير الماكرين- خير الرازقين- خير الفاصلين- خير الحاكمين- خير الفاتحين- خير الغافرين- خير الوارثين- خير الراحمين- خير المنزلين.

ذ- ذو العرش- ذو الطول- ذو الانتقام- ذو الفضل العظيم- ذو الرحمة- ذو القوة- ذو الجلال و الإكرام- ذو المعارج- ذو المغفرة.

ر- الرحمان- الرحيم- الرؤوف- الرب- رفيع الدرجات- الرازق- الرقيب- رب الفلق- س- السميع- السلام- سريع الحساب- سريع العقاب- أسرع الحاسبين- أسرع مكرا- ش- الشهيد- الشاهد- الشاكر- الشكور- شديد العقاب- شديد المحال- شديد القوى- شديد العذاب- ص- الصمد- ظ- الظاهر- ع- العليم- العزيز- العفو- العلي- العظيم- علام الغيوب- عالم الغيب و الشهادة- غ- الغني- الغفور- الغالب- غافر الذنب- الغفار- ف- فالق الإصباح- فالق الحب و النوى- الفاطر- الفتاح- ق- القوي- القدوس- القيوم- القاهر- القهار- القريب- القادر- القدير- قابل التوب- القائم على كل نفس بما كسبت- ك- الكبير- الكريم- الكافي- ل- اللطيف- م- الملك- المؤمن- المهيمن- المتكبر- المصور- المجيد- المجيب- المبين- المولى- المحيط- المقيت- المتعال- المحيي- المميت- المتين- المقتدر- المستعان- المبدي- مالك الملك- مالك يوم الدين- ن- النصير- خير الناصرين- النور- و- الوهاب- الواحد- الولي- الوالي- الواسع- الوكيل- الودود- الوفي- المتوفي- ه- الهادي- هو-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 64

عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هي في القرآن‏ «1».

و ظاهر التعبير في الكتاب و السنة عن‏ «الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» أنها توقيفية لا يجوز الزيادة فيها و لا النقص عنها، بل و هما من الإلحاد في أسماءه تعالى، كمثل «العلة» «علة العلل» «واجب الوجود» و ما أشبه‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 16) و أسماء اللّه تعالى هي توصيفات له سبحانه،

«ان الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه و أنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه و الأوهام أن تناله و الخطرات أن تحده و الأبصار عن الإحاطة به جل عما يصفه الواصفون و تعالى عما ينعته الناعتون» «2».

ذلك، و كما أن اشتقاق أسماء للخلق من أسماءه الخاصة هو من الإلحاد في أسماءه تعالى، كإلهة من الإله و ما أشبه‏ «3» «وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» جهلا بغير علم، فالذي يلحد في أسماءه بغير علم يشرك و هو لا يعلم و يكفر به، و هو يظن أنه يحسن، و لذلك قال: و ما يؤمن أكثرهم باللّه إلّا و هم مشركون‏

«فهم الذين يلحدون في أسماءه بغير علم فيضعونها غير مواضعها» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 148- أخرج أبو نعيم عن ابن عباس و ابن عمر قالا قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): تسعة و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنة و هي في القرآن، أقول: و هذه التسعة و التسعون لما تطابق بما ذكرناه من المائة و خمسة و أربعين، نجدها فيها و الستة و الأربعون هي من المكررات الراجعة إلى التسعة و التسعين،

و قد نقل هذا العدد عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في بخ- ك 54 ب 18، ك 80 ب 68، ك 97 ب 12 مس- ك 48 ح 5 و 6- تر- ك 45 ب 82- مج- ك 34 ب 10 حم- ثان ص 258 و 267 و 314 و 427 و 499 و 503 و 516.

(2) نور الثقلين 2: 103 في أصول الكافي عن أبي الحسن (عليه السلام) أنه قال:

(3) و قد حرف المشركون في الجزيرة من أسماء اللّه الحسنى فسموا بها آلهتهم المدعاة فحرفوا «اللّه» فسموا به «اللات»، و «العزيز» فسموا به العزى.

(4) المصدر عن كتاب التوحيد للصدوق باسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 65

و برجعة أخرى إلى آية «الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» ننتبه بما يلي:

1 في تقديم «للّه» على‏ «الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» عناية لحصرها فيه سبحانه و تعالى، فليس- إذا- لغيره أسماء حسنى حيث هم بجنبه فقراء و لا حسن فيهم إلا كيان الفقر و الافتقار إليه و كما

يروى عن أحسن أسمائه الفعلية أن «الفقر فخري».

فليس لغير اللّه شي‏ء من هذه الأسماء الحسنى في أيّ من حقولها، و لا أي نصيب منها.

2 الأسماء الحسنى لأنها خاصة باللّه، فلا تعني الأسماء العامة المستعملة في اللّه و ما سواه، إذا ف «شي‏ء- موجود» و ما أشبه و إن استعملت في اللّه و لكنها ليست من أسماءه الحسنى، و حين تستعمل في اللّه تجرد عن ميزات ما سوى اللّه بذلك الاستعمال، و قد يصح كونها من أسماءه الحسنى.

3 «فَادْعُوهُ بِها» يدلنا انه تعالى لا يدعى إلا بها، فدعوته تعالى بغيرها أم دون اسم منها إلحاد فيها.

4 «يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» مما يدلنا على توقيفية الأسماء الحسنى حيث «الأسماء» تعني المعهودة و طبعا هي في الكتاب و السنة، و لو لم تكن توقيفية لما كان للإلحاد في الأسماء اللفظية معنى.

5 قضية الدعوة بها أن يعرف من معانيها ما يصح أن يدعى بها، و هنا ركنان ركينان لتلك الدعوة هما معرفة ذل العبودية و عز الربوبية.

6 و لأن الإلحاد هو الميل عن الحق، إذا «يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» هو الميل عن الحق في كلا الأسماء و الدعوة بها، إلحادان اثنان هما ركنان للمعني من‏ «يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ».

و من الإلحاد في أسماءه إطلاقها على غير اللّه كما يطلق على اللّه، و منه تسمية تعالى و دعوته بغير هذه الأسماء، و منه عناية المعاني غير اللائقة بساحته منها، و ما أشبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 66

ذلك، و من مجامع الأسماء الحسنى سلبيا و إيجابيا، كتابا و سنة، محلقة عليها كلها، و شارحة لمعانيها و مغازيها، مبرهنة عليها، موضحة إياها، إن منها الخطبة التوحيدية الجامعة لكل شؤونها ذاتيا و صفاتيا و أفعاليا، للإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ما لا تجمعه غيرها من الخطب:

«ما وحده من كيّفه، و لا حقيقته أصاب من مثّله، و لا إيّاه عنى من شبّهه، و لا حمده من أشار إليه و توهمه، كل معروف بنفسه مصنوع، و كل قائم في سواه معلول، فاعل لا باضطراب آلة، مقدّر لا بجول فكره، غني لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات، و لا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، و العدم وجوده، و الابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، و بمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له، و بمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضادّ النور بالظلمة، و الوضوح بالبهمة، و الجمود بالبلل، و الحرور بالصّرد، مؤلف بين متعادياتها، مقارن بين متبايناتها، مقرب بين متباعداتها، مفرق بين متدايناتها، لا يشمل بحد، و لا يحسب بعدّ، و إنما تحد الأدوات أنفسها، و تشير الآلات إلى نظائرها، منعتها منذ القدمة، و حمتها قد الأزلية، و جنّبتها لو لا التكملة، بها تجلى صانعها للعقول، و بها امتنع عن نظر العيون، لا يجري عليه السكون و الحركة، و كيف يجري عليه ما هو أجراه، و يعود فيه ما هو أبداه، و يحدث فيه ما هو أحدثه، إذا لتفاوتت ذاته، و لتجزّأ كنهه، و لامتنع من الأزل معناه، و لكان له وراء إذا وجد له أمام، و لا لتمس التمام إذ لزمه النقصان، و إذا لقامت آية المصنوع فيه، و لتحول دليلا بعد أن كان مدلولا عليه، و خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره، الذي لا يحول و لا يزول و لا يجوز عليه الأفول، لم يلد فيكون مولودا، و لم يولد فيصير محدودا، جل عن اتخاذ الأبناء، و طهر عن ملامسة النساء، لا تناله الأوهام فتقدره، و لا تتوهمه الفطن فتصوره، و لا تدركه الحواس فتحسه، و لا تلمسه الأيدي فتمسّه، و لا يتغيّر بحال، و لا يتبدل في الأحوال، و لا تبليه الليالي و الأيام، و لا تغيره الضياء و الظلام، و لا يوصف بشي‏ء من الأجزاء، و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 67

بالجوارح و الأعضاء، و لا بعرض من الأعراض، و لا بالغيرية و الأبعاض، و لا يقال له حد و لا نهاية، و لا انقطاع و لا غاية، و لا أن الأشياء تحويه، فتقله أو تهويه، أو أن شيئا يحمله فيميله أو يعدله، و ليس في الأشياء بوالج، و لا عنها بخارج، يخبر لا بلسان و لهوات، و يسمع لا بخروق و أدوات، يقول و لا يلفظ، و يحفظ و لا يتحفّظ، و يريد و لا يضمر، يحب و يرضى من غير رقة، و يبغض و يغضب من غير مشقة، يقول لمن أراد كونه كن فيكون، لا بصوت يقرع، و لا بنداء يسمع، و إنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، و مثله لم يكن من قبل ذلك كائنا، و لو كان قديما لكان إلها ثانيا- لا يقال: كان بعد أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات، و لا يكون بينها و بينه فصل، و لا له عليها فضل، فيستوي الصانع و المصنوع، و يتكافأ المبتدع و البديع- خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره، و لم يستعن على خلقها بأحد من خلقه خضعت الأشياء له، و ذلت مستكينة لعظمته، لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه و ضره، و لا كف‏ء له فيكافئه، و لا نظير له فيساويه، هو المغني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها، و ليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشاءها و اختراعها، و كيف و لو اجتمع جميع حيوانها من طيرها و بهائمها، و ما كان من فراحها و سائمها، و أصناف أسناخها و أجناسها، و متلبّدة أممها و أكياسها على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، و لا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، و لتحيرت عقولها في علم ذلك و تاهت، و عجزت قواها و تناهت و رجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقهورة، مقرة بالعجز عن إنشاءها مذعنة بالضعف عن إفناءها- و إن اللّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شي‏ء معه كما كان قبل ابتداءها، كذلك يكون بعد فناءها بلا وقت و لا مكان و لا حين و لا زمان، عدمت عند ذلك الآجال و الأوقات، و زالت السنون و الساعات، فلا شي‏ء إلّا اللّه الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور، بلا قدرة منها كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 68

ابتداء خلقها، و بغير امتناع منها كان فناءها، و لو قدرت على الامتناع لدام بقاءها، لم يتكأده صنع شي‏ء منها إذ صنعه، و لم يؤده منها خلق ما برأه و خلقه، و لم يكوّنها لتشديد سلطان، و لا لخوف من زوال و نقصان، و لا للاستعانة بها على ندّ مكاثر، و لا للإقرار بها من ضدّ مثاور، و لا للازدياد بها في ملكه، و لا لمكاثرة شريك في شركه، و لا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها، ثم هو يفنيها بعد تكوينها، لا لسأم دخل عليه في تصريفها، و تدبيرها، و لا لراحة واصلة إليه، و لا لثقل شي‏ء منها عليه، و لا يملّه طول بقاءها فيدعوه إلى سرعة إفناءها، لكنه سبحانه دبّرها بلطفه، و أمسكها بأمره، و أتقنها بقدرته، ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها، و لا استعانة بشي‏ء عليها، و لا لانصراف من حال وحشة إلى حال استئناس، و لا من حال جهل و عمى إلى حال علم و التماس، و لا من فقر و حاجة إلى غنى و كثرة، و لا من ذل و ضعة إلى عزّ و قدرة منا ما لا نملك و من أنفسنا، و أخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، و أعطانا البصيرة بعد العمى» (الخطبة 228).

وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (182).

هنا «يهدون» حالا و استقبالا قد تختص بالأمة الإسلامية، كما «وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» و كما

يروى عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «هذه أمتي بالحق يحكمون و يقضون و يأخذون و يعطون» «1».

هذا، و من أهدى هداة الأمة الإسلامية هو علي (عليه السلام) و كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 149- أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريح في الآية قال: ذكر لنا أن نبي اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: هذه أمتي‏

و

فيه عن قتادة في الآية قال: بلغنا أن نبي اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان يقول‏ إذا قرأها: هذه لكم و قد أعطي القوم بين أيديكم مثلها: «وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏»

و

فيه عن الربيع في الآية قال: قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 69

يروى بطرق عدة أن هذه الأمة

.«هم علي و شيعته» «1»

ذلك و قد تهدي الآية بطليق نصها أن‏ «أُمَّةٌ يَهْدُونَ» تشمل الأمة الهادية العادلة من كل أمة، و هم من هذه الأمة «خَيْرَ أُمَّةٍ» إذ «كُنْتُم‏ خیرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»:

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (183).

«فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (68: 45) «2» و عذاب الاستدراج- و هو طلب الدرج في حزب الشيطان خطوة خطوة- إنه أخطر عذاب يوم الدنيا، و من ظروفه‏ «وَ أُمْلِي لَهُمْ» إمهالا في بوتقة العصيان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

السيوطي في الدر المنثور (3: 149) أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة يقول اللّه: «وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» فهذه التي تنجو من هذه الأمة،

و

الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (52) بسند قال علي كرم اللّه وجهه‏ و هم أنا و شيعتي، و القندوزي في ينابيع المودة (109)

عنه (عليه السلام): و هم أنا و محييّ و أتباعي،

و

ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (95) عنه: «هم أنا و شيعتي»

كما

في ملحقات إحقاق الحق 3: 413 و فيه 14: 344 عن البدخشي في مفتاح النجا (42) و أخرج زادان عن علي كرم اللّه وجهه مثله: «هم أنا و شيعتي»

و الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 204 بسند عن ابن عباس في الآية قال: يعني من أمة محمد أمة، يعني علي بن أبي طالب‏ «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» يعني: يدعون بعدك يا محمد إلى الحق‏ «وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» في الخلافة بعدك، و معنى الأمة العلم في الخير نظيرها: «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً» يعني علما في الخير، معلما للخير.

(2) القول الفصل حول الاستدراج مدرج في تفسير آيته الأخرى في «القلم» فراجع.

نور الثقلين 2: 105 في أصول الكافي عن سفيان بن السمط قال قال أبو عبد اللّه (عليه السلام): و هو قول اللّه عزّ و جلّ: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ» بالنعم عند المعاصي،

و

فيه عن سماعة بن مهران قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه عزّ و جلّ: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ» قال: هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب، و عنه (عليه السلام) مثله بزيادة: هو مستدرج من حيث لا يعلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 70

إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ‏ مكين لا ينجو منه‏ «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا» أبدا.

و هكذا

«إن الله إذا أراد بعبد خيرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة و يذكره الاستغفار، و إذا أراد بعبد شرا فأذنب ذنبا أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار و يتمادى بها» «1».

أجل‏ «لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» (3: 197) «ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا» (7: 95) «فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ» (9: 55).

و هؤلاء المستدرجين من حيث لا يعلمون هم من المعنيين ب «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104).

«كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه، و كم من مستدرج يستر الله عليه، و كم من مفتون بثناء الناس عليه»

و

«إنه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا» «2».

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (185) ألم ينظروا إلى عقليته البارعة المنقطعة النظير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام): و فيه عن روضة الكافي خطبة طويلة مسندة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيها: ثم إنه يأتي عليكم من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شي‏ء أخفى من الحق و لا أظهر من الباطل و لا أكثر من الكذب على الله و رسوله (صلى الله عليه و آله و سلم)- إلى أن قال-: يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالسا حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك و من ولاية ملك إلى ولاية ملك و من طاعة ملك إلى طاعة ملك و من عهود ملك إلى عهود ملك فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون و ان كيده متين بالأمل و الرجاء.

(2) المصدر عن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) و الثاني فيه عن نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 71

«أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ» فقد صاحبهم صاحبهم عمرا من قبله بكلّ رزانة عقل و رحابة صدر و رصانة قدر: «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (10: 16).

كيف و قد صاحبكم صاحبكم طوال أربعين عاما أمينا متينا عاقلا لحد سميتموه محمد الأمين، فالآن تتهمونه بالجنة لأنه يأمركم بالمعروف و ينهاكم عن المنكر «1» و «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» هويته في النذارة الرسالية بعقلية الوحي الصارم: «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ» (23: 70)- «كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (51: 52).

ذلك لأن الرسالات الربانية تعارض الجاهليات و الهمجيات المجنونة، و هذه طبيعة الحال أن المجانين يحسبون من يخالفهم في جنّتهم مجانين و هم أولاء عقلاء! «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا»؟ و هكذا يدق عليهم اللّه دقّاته المتواترة علّهم ينتبهون عن غفلتهم و يستيقظون عن غفوتهم، إيقاظا لهم بإيعاظ بالغ من تحت الركام الطامّ المسيطر على فطرهم و عقولهم.

و لأن الإنسان بين عاقل و مجنون، و هم صاحبوا المجانين و صاحبوا صاحبهم هذا الذي يقولون إنه لمجنون، فهل رأوا فيه جنّة كسائر المجانين، الخالطين في أقوالهم و أفعالهم، المتناقضين في كل حالاتهم؟

و لم يدّع أحد من هؤلاء أنه رأى فيه ما كان يراه في المجانين، بل و لا أنه رأى وزان ما رآه منه بين سائر العقلاء، إذا فهو فوق العقلاء بعقلية الوحي بعد العقلية الإنسانية الناضجة التي كانوا يعترفون بها فيه في العمر الذي لبث فيهم قبل الرسالة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 149 عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قام على الصفا فدعا قريشا فحذا فحذا من قريش فقال: يا بني فلان يا بني فلان و كان يحذرهم بأس اللّه و وقائع اللّه إلى الصباح حتى قال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت حتى أصبح فأنزل اللّه هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 72

و عل «ما» هنا تعني مع النفي- نفيا لجنة- الموصول، فتعني: الذي بصاحبهم من جنة، مجاراة في قولة الجنون، «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا» جنته المدّعاة ما هي جنة، «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» ينذر العقلاء عما يناحر العقل و الفطرة الإنسانية فضلا عن عقلية الوحي، فلو كانت به جنة كما تدعون فما هي مادتها بين مواد الجنة التي هي معروفة عن المجانين؟

ذلك، و القرآن يحث دوما على التفكير، مادحا المفكرين، قادحا غير المفكرين، الذين لا يستعملون عقولهم: «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (7: 176) «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (16:) 11) «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى‏ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (3: 191).

أجل و

«تفكرك يفيدك الإستبصار و يكسبك الإعتبار» «1»

«و التفكر حياة قلب البصير» «2»

و

«الفكر مرآة صافية» «3»

و

«طول الفكر يحمد العواقب و يستدرك فساد الأمور» «4»

و

«من أسهر كنه فكرته بلغ كنه همته» «5»

و

«ركعتان خفيفتان في تفكر خير من قيام ليلة» «6»

و

«لا عبادة كالتفكر في صنعة الله» «7».

أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ أَنْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (186).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). غرر الحكم 157 عن الإمام علي (عليه السلام).

(2) الكافي 1: 28 الامام الصادق عنه (عليه السلام).

(3) نهج البلاغة 1090.

(4) غرر الحكم 208 عنه (عليه السلام).

(5) غرر الحكم 288 عنه (عليه السلام).

(6) ثواب الأعمال 68 عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(7) أمال الطوسي 1/ 145 عن الإمام علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 73

و إذا لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة «أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ» ليعرفوا أنه لا إله إلّا هو و أن محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) رسوله.

ذلك، و لأن التعرف إلى العقلية الرسالية له بابان اثنان، 1 التفكر في قالات الرسول و حالاته و فعالاته و كما عناها رسل المسيح ردا على الناكرين: «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (36: 16) حيث وجهوهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم، ثم النظر في ملكوت السماوات و الأرض حيث يوصل إلى معرفة اللّه، و ضرورة الرسالة من اللّه، و الرجوع إلى اللّه، ثم إذا تفكروا في صاحبهم وجدوه رسولا من اللّه يحمل تفاصيل هذه الأصول و سائر الفروع.

و من ثم‏ «وَ أَنْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ» فليتقوا ربهم قبل فجأة الأجل‏ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»: بعد اللّه إلها و بعد محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) رسول الإله، و بعد القرآن كتاب اللّه؟

و الدلائل القاصعة قاطعة كل شك و ريبة عن ساحة هذه الرسالة التوحيدية.

و الحديث يعم الحادث الذات و الصفات و الأفعال، و حادث الذكر الذي يتحدث عنه، فالقرآن و رسول القرآن حديثان ذاتا و ذكرا، و اللّه تعالى حديث يتحدث عنه في كافة الحقول المعرفية فإيمانا أو نكرانا، فكما أن آيات اللّه حديث يتحدث عنها في الاستدلال بها على اللّه، كذلك اللّه و هو رأس كل حديث: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ» (45: 6).

ذلك، و الملكوت في حقل النظر المعرفي لها درجات أعلاها هي المختصة باللّه، و هي الحيطة العلمية الحقيقية: «فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (36: 83) و أدناها هي العامة لكل السالكين إلى اللّه على درجاتهم فدرجاتها، و هي المأمور بها هنا و فيما أشبه أن‏ «يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ» فيهما تذرعا بها إلى معرفة اللّه كما هنا، و أوسطها هي الخاصة بالرعيل الأعلى من السابقين و المقربين المكرمين كمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 74

و المحمديين من عترته المعصومين (عليهم السلام)، ثم من دونهم كإبراهيم الخليل في مثل‏ «أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» حيث تطلّب كيفية الإحياء و هي ملكوت فعل اللّه، و قد أوتيها قدر ما يمكن لمن سوى اللّه على قدر المعرفة و الكيان الإبراهيميين، و في قصة رؤية الكوكب و القمر و الشمس: «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» (6: 75).

فالخلق كله بمراتبه مجال فاسح للنظر في ملكوته للحصول على معرفة اللّه بدرجاته، و النظر المأمور به إليه عبارة عن تحديق حدقة العقل و الفطرة إليه إبصارا إلى كيانه أزلية أم حدوثا، ثم من الحدوث إلى المحدث و هو اللّه تعالى شأنه العزيز «1».

أجل إن كتابي التكوين و التدوين التشريع هما من كاتب واحد، يدل عليه التجاوب التام بينهما، فكما «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» (67: 4) كذلك كتاب التدوين‏ «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82) ثم و لا نجد بين الكتابين أنفسهما اختلافا لو أننا أجدنا النظر و اعتبرنا بالعبر.

إن التوازن المقصود ملحوظ في خلق الرحمن حين نتفكر في ملكوت السماوات و الأرض و ما خلق اللّه من شي‏ء، ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرّة، و لو اختل قيد شعرة لفسد الخلق عن بكرته،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للاطلاع الوسع على مراتب الملكوت راجع إلى تفسير آية الأنعام، و

في الدر المنثور 3:

150 عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): رأيت ليلة أسري بي فلما انتهينا إلى السماء السابعة نظرت فوقي فإذا أنا برعد و برق و صواعق قال: و أتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني فإذا أنا برهج و دخان و أصوات فقلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذه الشياطين يحرجون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات و الأرض و لو لا ذلك لرأوا العجائب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 75

حيث ننظر بالقلب المفتوح و البصيرة المتفتحة إلى ملكوته.

ذلك، و أما الملحدون المصلحيون الجدد، أصحاب الاشتراكية العلمية، فهم مسوخ مشوّهو الفطر، بل هم ناكروها عند ما يلجئون إلى تقبل أحكامها، فعند ما يصعدون إلى الفضاء و ينزلون على القمر فيشهدون مشاهد الكون الرائع أمامهم، و مشهد الكرة الأرضية معلقة في الفضاء هتفت فطرهم ما الذي خلقها و علّقها في فضاءها، و لكنهم حين هبوطهم إلى الأرض أمام إرهاب الدولة، و إرهاب المصلحيات المادية، يقول أحدهم إنه لم يجد اللّه هناك، كاتما إلحاح فطرته و إلماع فكرته أمام ظاهرة من ملكوت السماوات و الأرض! أجل و:

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (187).

و هو لا يضل إلّا من ضل على علم و تجاهل، فإضلاله هو إدلاله فيما هو فيه، و مدّه في ضلاله باستدراج «فلا هادي» له، إذا «وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» و هذا هو جانب من إضلاله تعالى أنه يكلهم إلى أنفسهم دون مدّ إلى الهدى، و هم ممدودون إلى الردى جزاء وفاقا، فإنهم هم الذين أغلقوا أبصارهم و بصائرهم، و عطلوا قلوبهم و عقولهم، فغفلوا عن ملكوت السماوات و الأرض و أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فيذرهم- إذا- في طغيانهم يعمهون، و في غيّهم يترددون.

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (188).

«يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها، إِلى‏ رَبِّكَ مُنْتَهاها» (79: 44)- «يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» (33: 63) «الساعة» في هذه الثلاث و في الأربعين الأخرى هي من أسماء القيامة الكبرى، و أصل الساعة هو الزوال و الضياع و يقال لجزء خاص من الزمان «ساعة» لتصرّمه و ضياعه فهي- إذا- حين تضيع الكائنات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 76

و تزول عن كينونتها الحالية، فالساعة هي منتهى الحياة الدنيا منذ قيامة الإماتة إلى قيامة الإحياء.

و «مرساها» هي ثباتها، ثباتا لذلك الضياع و الزوال، و بداية ليوم القيامة إماتة و إحياء «1».

و كل هذه الآيات الثلاث و الأربعون تؤكد على اختصاص علم الساعة باللّه، إجابة عن كافة الأسئولة عنها:

«قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي» حيث رباني بهذه التربية القمة الرسالية، و لكنه ما علمني إياها لاختصاصها بحضرته تعالى، و ليس فقط «إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي» بل و «لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ» تجلية الإعلام عند وقوعها، و تجلية التحقيق لها، فلا حظّ لي على محتدي الرسالي العظيم و التربوي العميم من هذه الثلاث، فلا علم لي بها أبدا و لا تجلية لها أبدا.

«ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» علما و إعلاما و تحقيقا و تحققا، ثقلا لا تتحمله السماوات و الأرض و حتى من شاء اللّه ألّا يصعق عندها: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68) و منهم هذا النبي العظيم الذي هو أثقل من السماوات و الأرض، فقد «ثقلت» الساعة عليه علما و إعلاما و تجلية بكل أبعادها، و أما غير «مَنْ شاءَ اللَّهُ» فهم فانون عند الساعة فكيف يعلمون مرساها؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 150- أخرج الطبراني و ابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن الساعة و أنا شاهد فقال: لا يعلمها إلا اللّه و لا يجليها لوقتها إلا هو و لكن سأخبركم بمشاريطها و ما بين يديها من الفتن و الهرج فقال رجل: و ما الهرج يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال بلسان الحبشة: القتل و ان تجف قلوب الناس و يلقى بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحدا و يرفع ذو الحجار و يبقى جراحة من الناس لا يعرفون معروفا و لا ينكرون منكرا.

و

فيه عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه فلا يلوكها و لا يسيغها و لا يلفظها و على رجلين قد نشرا بينهما ثوبا يتبايعانه فلا يطويانه و لا يتبايعانه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 77

و من ثقل الساعة في السماوات و الأرض وطئتها و وقعتها القارعة حيث تنفطران: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (14: 48)، «لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً» مهما جاءت أشراطها، فإن أشراطها تشير إلى قربها دون إشارة إلى مرساها «1».

«يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها» و ما أنت بحفي عنها «إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» و الحفي من الحفاوة هو الرحمة و الحنان: «إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» (19: 47)، و هو العلم، فهو يائيا التنزع في الإلحاح في المطالبة «إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا» (47: 37) أو في البحث عن تعرف الحال، و أصله من أحفيت الدابة جعلتها حافيا أي منسجح الحافر و البعير جعلته منسجح الخف من المشي حتى يرق، فما هو المناسب هنا من هذه المعاني؟

«عنها» هنا قد تستثني العلم بها حيث الصحيح- إذا- حفي بها، و كذلك الإلحاح حيث الملحّ هو السائل دون المسؤول، اللهم إلّا أن يعني الحفي المفعول يعني أنت ملحّ عنها؟ و الإلحاح في السؤال عنها عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أمر واقع مكرور فكيف‏ «كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها»! اللّهم إلا أن تعني أنك عالم تلحّ في السؤال عنها حتى تعترف بجهلك بها أو تجيبهم بشي‏ء حتى يكذبون‏ «2»، أم حين تسكت يقولون: أنت ضنين بها «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 106 عن تفسير القمي في الآية أن قريشا بعثت العاص بن وائل السهمي و النضر بن الحارث من كلدة و عقبة بن أبي معيط إلى نجران ليتعلموا من علماء اليهود مسائل يسألونها رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كان فيها: سلوا محمدا متى يقوم الساعة فإن ادعى العلم فهو كاذب فإن قيام الساعة لم يطلع اللّه عليه ملكا مقربا و لا نبيا مرسلا فلما سألوا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) متى تقوم الساعة أنزل اللّه تبارك و تعالى: يسألونك عن الساعة.

(2)

الدر المنثور 3: 150 عن قتادة قال‏ قالت قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا و بينك من القرابة، قال: يسألونك كأنك حفي عنها.

(3)

الدر المنثور 3: 150- أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس قال قال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 78

و قد يناسب المقام أن تعني الحفيّ الخفيّ: كأنك خفي عنها بمعنى أن ربك أخفاك عنها و كان له أن يعلمك إياها لأنه «ربك» فكيف يضنّ بإعلامك إياها؟! أو كأنك ملح في السؤال عنها ربك فمخبرك إياها إذا كرر عليك السؤال عنها، أو كأنك أخبرت عنها بالحاحك في السؤال عنها أو كأنك حاف عنها راجل عن العلم بهذه المهمة العظمى فكيف- إذا- أنت رسوله الأعظم و نبيه الأكرم و أنت حاف لا تقدر أن تمشي مشية الرسالة الصالحة حيث تجهل الساعة.

«قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» فإذا لمح‏ «إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي» إمكانية أن تعلّمها بتلك التربية الطليقة فهنا بصيغة أخرى‏ «إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» تقضي على هذه الإمكانية بأسرها «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»- «إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» فلذلك يحفونك في السؤال عنها كأنك حفي عنها.

فذلك السؤال المكرور الإلحاح الإحفاء كان القصد منه إحراج الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حتى يعترف بجهله! أم انه بخيل عن الإجابة، أو ربه بخيل عن تعليمه إياها أو يدعى العلم بها فهو إذا كاذب كما سولت لهم اليهود. إزراء بساحته و مسا من كرامته، فجاء جواب حاسم لا حول عنه‏ «قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ».

فالساعة غيب مغيّب من غيوب اللّه الخاصة حيث استأثر اللّه بعلمه، و لكن المشركين يحفون في السؤال عنها بين اختبار الامتحان و الامتهان، و سؤال المستعجب المستقرب، و سؤال المستهين المستغرب.

و الجواب الحاسم جهله و جهل من في السماوات و الأرض بها «قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ».

أجل: «ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ» و كيف لا تثقل؟:

«حتى إذا تصرمت الأمور، و تفضت الدهور، و أزف النشور،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حمل ابن أبي قشير و سمول بن زيد لرسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا كما تقول فإنا نعلم ما هي، فأنزل الله هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 79

أخرجهم من ضرائح القبور، و أوكار الطيور، و أوجرة السباع، و مطارح المهالك، سراعا إلى أمره مهطعين إلى معاده، رعيلا صموتا، قياما صفوفا، ينفذهم البصر، و يسمعهم الداعي، عليهم لبوس الاستطانة، و ضرع الاستسلام و الذلة، قد ضلت الحيل، و انقطع الأمل، و هوت الأفئدة كاظمة، و خشعت الأصوات مهيمنة، و ألجم العرق، و عظم الشفق، و أرعدت الأسماع لزبرة الداعي إلى فصل الخطاب، و مقايضة الجزاء، و نكال العقاب، و نوال الثواب- عباد مخلوقون اقتدارا، و مربوبون اقتسارا، و مقبوضون احتضارا، و مضمنون أجداثا، و كائنون رفاتا، و مبعوثون أفرادا، و مدينون جزاء، و مميزون حسابا» (81)- «حتى إذا بلغ الكتاب أجله، و الأمر مقاديره، و ألحق آخر الخلق بأوله، و جاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد السماء و فطرها، و أرج الأرض و أرجفها، و قلع جبالها و نسفها، و دك بعضها بعضا من هيبة جلالته، و مخوف سطوته، و أخرج من فيها فجددهم بعد إخلاقهم، و جمعهم بعد تفريقهم، ثم ميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال، و خبايا الأفعال، و جعلهم فريقين، أنعم على هؤلاء، و انتقم من هؤلاء» (107).

وي «و كأن الصيحة قد أتتكم، و الساعة قد غشيتكم، و برزتم لفصل القضاء، قد زاحت عنكم الأباطيل، و اضمحلت عنكم العلل، و استحقت بكم الحقائق، و صدرت بكم الأمور مصادرها ..» (155)-

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (189).

آية صريحة لا حول عنها في أنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا يعلم الغيب كأصل، اللّهم إلّا ما يعلّمه اللّه تعالى قضية ضرورة الرسالة الربانية: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 80

رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً. لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً» (72:) 28) «1».

و هنا «الغيب» هو الغيب المطلق الذي لا يتحوّل شهودا لمن سوى اللّه، فما ورد متظافرا «أن الأئمة يعلمون علم ما كان و ما يكون و ما هو كائن إلى يوم القيامة» مطروح أو مأوّل ببعض الغيب، و هو المرتبط بالوحي الرسالي، فحين لا يعلم الرسل غيب الآيات الرسالية التي تجري بذوات أيديهم، فكيف يعلمون سائر الغيب التي ليست لتجري على ألسنتهم و أيديهم كغيب الساعة و ما أشبه.

و هنا «لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا» تعم ملك العلم و القدرة، «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ» تستثني ملك بعض النفع و الضر، سواء أ كان غيبا أم شهودا، أو كان مقدورا عاديا أم سواه، فقد يصدق انه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- فضلا عمن سواه- لا يعلم الغيب المطلق مهما علّم مطلق الغيب حيث يستثنيه‏ «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ».

ثم‏ «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ» تحيل له علم الغيب عن بكرته ذاتيا أم تعلما من اللّه حيث الاستكثار من الخير لا يختص بذاتية علم الغيب، بل العلم ذاتيا أم عرضيا بالغيب ينتج الاستكثار من الخير و عدم مس السوء حيث الإيجابية العملية و سلبيتها و جاه الخير و الشر، هما من خلفيات طليق العلم بالغيب.

«قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ» (6: 50)- «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها» (6: 59)- «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ» (10: 20) «وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (11: 123).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في الفرقان 29: 201- 206.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 81

و ترى‏ «لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا» تسلب عنه- و بأحرى ممن سواه- الإختيار في جلب النفع و سلب الضر؟ كلّا لمكان‏ «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ» حيث تثبت له ملكا للنفع و الضر بمشيئة اللّه، و هي عبارة أخرى عن الأمر بين أمرين، فنحن لا نملك نفعا و لا ضرا مستقلين عن إرادة اللّه، و اللّه لا ينزّل علينا نفعا و لا ضرا دون عمل و محاولة منا اللّهم إلا ما لا يحصل بعمل و ما أشبه، فقد يشاء اللّه ما نشاء حسب الصالح من حكمته تعالى و تقدس ف- «ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» و ما أشبه دليل واقع المشية منا في خير أو شر، و لكنها مربوطة بإذن اللّه.

«إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» فقد انحصر كياني في هذه السلبية و الإيجابية الرساليتين في حقل رسالتي من اللّه، دون أية ولاية تكوينية أو تشريعية، و لا أي علم لا تقتضيه الرسالة الربانية لزاما أو رجحانا.

ذلك، و

قد يروى عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «و الله ما أدري و أنا رسول ما يفعل بي»

نسخة طبق الأصل: «قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (46: 9).

[سورة الأعراف (7): الآيات 190 الى 198]

فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى‏ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (194)

أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى‏ لا يَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ (198)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 83

هذه الآيات هي قبل صحيح التأمل فيها قد تكون متسرّبا لوثنيات مفتريات على أبينا الأول أول المرسلين المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين، لحد يختلق‏

عن خاتم المرسلين (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أنه قال: «خدعهما مرتين» «1»

يعني الشيطان، فالخدعة الأولى حيث أضلهما في الجنة و جاه الشجرة المنهية، و الثانية لما «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما» كما هنا!! ذلك رغم أن اللّه اجتباه بعد ما هبط إلى الأرض، و كيف يقع اجتباءه على من يشرك به و قد علّمه الأسماء كلها؟! أ جهلا بما يشرك، أم اجتباء لمن يشرك! فكيف بالإمكان للذي علّم الأسماء كلها، و قد عرّفه اللّه الشيطان إذ هما في الجنة، كيف له أن ينخدع مرة أخرى هي أفضح من الأولى أن يسمي بعض أولاده أسماء شركية؟ فهل ضاقت عليه الأسماء بما رحبت فلم يجد لولده اسما إلّا ما يختاره عدوه المعروف لديه؟

ذلك، و ليس في مسرح هذه الآيات ذكر من الشيطان، و لو كان هو المقصود من‏ «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ» لكان النص «جعلا له شريكا» لوحدة هذا الشيطان، ثم‏ «ما لا يَخْلُقُ» كان «من لا يخلق» اعتبارا بأن الشيطان من ذوي العقول.

و بعد ذلك كله فضمائر الجمع التي هي هنا بضع و عشرون و في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 155- أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: ولد لآدم ولد فسماه عبد اللّه فأتاهما إبليس ما سميتما ابنكما هذا؟ قال: عبد اللّه، و كان ولد لهما قبل ذلك ولد فسمياه عبد اللّه فقال إبليس: أ تظنان أن اللّه تارك عبده عند كما و اللّه ليذهبن به كما ذهب بالآخر و لكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمّياه عبد شمس فسمّياه فذلك قوله تعالى: أ يشركون ما لا يخلق شيئا الشمس لا تخلق شيئا إنما هي مخلوقة، قال و قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): خدعهما مرتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 84

أفعال مستقبلة! لا تناسب خصوص أبوينا الأولين، فلو كانا هما المقصودين لكان حق النص التثنية الماضية، لا سيما و أن الحق في اجتثاث جذور الوثنية عن بكرتها منذ بزوغها أن يركز على أول المشركين، فلو كان أبوانا هما اللذان أشركا باللّه قبل كل المشركين! لكان الحق تركيز الضمائر في ذلك التنديد المديد عليهما، دون أولادهما اللذين لم يولدوا بعد و الذي ولد لمّا يبلغ الحلم حتى يكلّف فيندّد بشركه.

ذلك خلاف ما يروى أنه بعد مرات عدة لم تكن زوجه موفقة حيث ولدت ناقصا لا يعيش‏ «1»! فإنها من الإسرائيليات المسيحية و المسيحيات الإسرائيلية التي تلقي كل عصان على آدم و زوجه، و هنا «مرت به» أي الحمل، هو المرور كعادة بلا ثقل حيث لا تحس ذلك الحمل.

فالعلاقة الأولية بين الزوج و مسكنه هي التغشي حبا و شهوة و إنجابا للمماثل، و التغشي هو أحسن تعبير عن ذلك اللقاء اللقاح حيث يغشى كيانها ككل فتحشر فيه بكلها روحا و جسما، فهو التقاء روحين بجسدين و جسدين بروحين، كما الزواج هو الالتقاء المثنّى و أهمها الروح إذ هو الذي يدرك المسكن، و هذه صورة إنسانية في تلك المباشرة بعيدة عن الحيوانية الخالصة الكالسة الفالسة، قريبة إلى الإنسانية الصالحة، إنجابا لصالح.

«فَلَمَّا أَثْقَلَتْ» بحملها «دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما» الذي رباهما و حملها «لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً» يصلح للحياة الإنسانية «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» المخلصين لك الدين.

فقد تبين الحمل و تعلقت به قلوبهما و جاء دور الأطماع فيه، المختصرة في صيغة (صالحا) و هو الصلاح الظاهر عند الولادة لمكان‏ «فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً» حيث الصلاح الظاهر عند الولادة ليس إلا الظاهر في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 151 عن سمرة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس و كان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان و أمره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 85

الحياة الإنسانية، دون الباطن الذي لا يظهر إلّا عند بلوغ الحلم، لا سيما و أن الطبيعة الإنسانية المائلة إلى الإشراك لا تنحو نحو صلاح الباطن.

فهذه قصة واقعية عامة بين بني الإنسان تصويرا لمدارج الانحراف في النفس الإنساني من معارج الفطرة التي فطرهم اللّه عليها:

«فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً» يعيش عيشة صالحة «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» و هنا «شركاء» دون «شريك» لا ينطبق على الشيطان، كما أن «يشركون» جمعا لا ينطبق عليهما، إذا فهما كل أبوين من هذا النسل، أنهما عند اثقالها يدعوان اللّه‏ «لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» و لكنهما ينسيان صالح ما آتاهما اللّه إلى طالح الإشراك به حيث‏ «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما» إذ يخيل إليهما أن لغير اللّه مدخلا في صالح الولد.

و هذه طبيعة الإنسان الغفلان النسيان إلّا من هداه اللّه و وقاه، تخلفا عما فطره اللّه عليه كما و يكرر قصّ ذلك التخلف في القرآن بصورة عدة:

«وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (10:) 12)- «وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ» (31: 32) «وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» (30: 34).

و هكذا ينقطع الإنسان فطريا إلى ربه حين تنقطع الأسباب التي كان يعيشها، فلما كشف عنه ضره رجع إلى نفس الأسباب معتبرا إياها كأنها الكاشفة له ضره، فقد يمرض مرضا هالكا فلا ينفعه أي طبيب و لا دواء، فلمّا يعافى ينسب عافيته إلى كل شي‏ء إلّا اللّه! هذا، و القول إن «يشركون» و ما أشبه جمعا لا ينافي تثنية الأبوين، فإن دأب القرآن الدائب هو التعميم بعد التخصيص إعطاء للضابطة، مردود

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 86

بظاهر الجمع الراجع إلى صاحبي القصة، إلّا إذا دلت قرينة كما فيما تقولون، و لو كانت هنا قرينة كسائر الموارد «نَفْسٍ واحِدَةٍ»- لأقل تقدير- لا تعني- فقط- آدم (عليه السلام) مهما كان محتملا، و لكن الاحتمال ليس بناء الاستدلال، ففرية الإشراك على أبوينا الأولين لا سناد لها هنا، و الأسناد القرآنية الأخرى تترى على أنهما كانا موحدين، مهما عصيا في الجنة: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 122) و كيف يقع اجتباء اللّه على من يشرك باللّه فيما يعلم منه و «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» و لا يلمح القرآن بعد عصيان آدم في الجنة أية لمحة لتخلف منه صغير طيلة حياته و هو رسول، فضلا عن هكذا الإشراك باللّه، و عوذا باللّه من هذه المختلقات الزور الغرور التي يزوّرها لأهليها الغرور، «أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ‏ لهم‏ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ» إشراكا به في صالح ما آتاهم من ولد؟ «وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ»؟

«وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى‏ لا يَتَّبِعُوكُمْ» و هنا الخطاب الجمع برهان آخر مع عساكر البراهين الأخرى أن التنديد غير وارد على أبوينا الأولين‏ «سَواءٌ عَلَيْكُمْ» أنتم المشركون على مدار الزمن‏ «أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ» فهؤلاء الذين تدعونهم من دون اللّه من حي و ميت هم في ضلال لا يهتدون فكيف يتخذون شركاء للّه‏ «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (10: 35)!.

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أيا كانوا و حتى الملائكة و النبيين هم «عباد» للّه‏ «أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» أنهم ليسوا أمثالكم بل هم آلهة كما اللّه.

«ألهم» أولاء الأموات منهم الذين تعبدونهم‏ «أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ» و حتى الذين لهم أرجل و أيد طائلة و أعين مبصرة و آذان سامعة، لا يستطيعون نصركم بل و لا أنفسهم ينصرون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 87

ذلك، فاحتمال أن النفس الواحدة هنا أبو البشر، فضلا عن ظهور الآية أو صراحتها فيه كما الخصم يدعيه لا يأتي بشي‏ء ينال من كرامة آدم (عليه السلام) إلّا باحتمالات أخرى لو ثبت:

الأول: رجوع ضمير الغائب في «ليسكن» و «تغشاها» إلى خصوص النفس الواحدة هذه، و هو خلاف الأدب الفصيح و الصحيح أن يرجع الضمير المذكر إلى مرجع مؤنث هو «نَفْسٍ واحِدَةٍ» فالصحيح هنا لو عنيت نفس النفس الواحدة «لِيَسْكُنَ إِلَيْها» و «فَلَمَّا تَغَشَّاها» بضميري التأنيث كما في ضميري‏ «مِنْها زَوْجَها» حيث هما راجعان إلى‏ «نَفْسٍ واحِدَةٍ» وفقا لتأنيثها، إذا فلا تعني «ليسكن و تغشى» إلّا جنس النفس الواحدة من ذكور بني الإنسان دون شخصها، و ليس من المحتمل رجوع ضمير المذكر هنا إلى «زوجها» لأنوثتها الحقيقية، و لأن الزوج هو الذي يسكن إلى زوجته من الأتعاب كما «وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها» (30: 21).

الثاني: أن تعني «شركاء» شخص إبليس حسب الرواية المختلقة، و الجمع لا يناسبه، فهم- إذا- الشركاء المعبودون لجنس بني الإنسان.

الثالث: رجوع ضمير الجمع في «يشركون» و ما أشبه من بضع و عشرين إلى خصوص آدم و زوجه و الفصيح الصحيح رجوعه إلى الجمع دون المثنى، إضافة إلى استقبال تلكم الجموع، و المثنى ماض فقد رجع الضمير المفرد الغائب في «ليسكن و تغشاها» إلى نوع مرجعه و هو كل ذكر من ذلك النوع لا شخصه، استخداما لطيفا في ذلك الإرجاع.

و هكذا ترجع ضمائر الجمع أيضا من «يشركون» و ما أشبه إلى جمع الأزواج من نوع الإنسان، أي يشركون هؤلاء الأزواج، استخداما لطيفا حيث هو من المجازات الحسنة اللطيفة.

ثم من قال لكم- بعد- إن‏ «نَفْسٍ واحِدَةٍ» هنا هي شخص آدم إلّا على وجه أن «من» في‏ «مِنْها زَوْجَها» نشوية لا جنسية، و الجنسية هي المعنية هنا للذكورة في «ليسكن و تغشاها» و الجمعية في بضع و عشرين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 88

فلا تدل الآية على ما تستدل به الجمعية المرسلون الأمريكيون إلّا على احتمال اختصاص‏ «نَفْسٍ واحِدَةٍ» بآدم، و رجوع ضمير الذكورة إلى مؤنث‏ «نَفْسٍ واحِدَةٍ» و رجوع ضمائر الجمع هنا إلى مثناهما رغم استقبال افعالها، ثالوث من الاحتمالات التي لا تحتملها هذه الآيات، اللّهم إلا أولاها دون الأخريين.

ذلك، فالقصة كما ترى تتحدث عن سيرة عامة لأفراد هذا النوع إلّا من رحمه اللّه و هداه، أنهم مهتمون بنقض مواثيقهم و خلف مواعيدهم مع اللّه نقضا لنداء الفطرة و العقلية السليمة: «فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و الذي غفل عنه كلا الناقدين، و الموجهين للآية بوجوه غير وجيهة و لا مرضية، هو تحسّب أن هذه الآيات عرض عن الحالة الوالدية لأبوينا الأولين، و هي بعيدة عنها كل البعد.

ذلك لأن «خلقكم» تعم كل بني الإنسان، و «نَفْسٍ واحِدَةٍ» هنا هي الوالد لكل مولود منهم‏ «وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها» قد تعني و الحال انه تعالى جعل من جنسها زوجها فخلقكم منهما اعتبارا بأصالة زائدة بين الأصلين للزوج الوالد على الزوجة الوالدة، «جعل ليسكن إليها»: «وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» (30: 21) فالأصل في التقاء الزوجين هو السكن ليظل السكون و الأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب: فليس لمجرد اللذة، إلا ذريعة تجذبهما إلى هذه العشرة العشيرة على أتعابها و أسغابها، فاللذة العابرة و النزوة العارضة هما اللتان تتغلبان على كل الحوادث و الكوارث في ذلك الالتقاء.

«فَلَمَّا تَغَشَّاها» جماعا «حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً» هو النطفة الجرثومية «فمرت به» و ذلك هو الحمل الأول فهي تبين حال الأبوين من النوع الإنساني في انجابهما أولادهما باعتبار العام النوعي دون اختصاص بالأولين، و لا جمع خاص من الأبوين، و لا شمولهما للأولين، حيث تعني أن كل إنسان وليد أبويه: «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى‏» (13: 49).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 89

و الغالب على حال الأبوين- و هما محبان مشفقان شغفان على ولدهما- أن ينقطعا في أمرهم إلى اللّه قبل ولادهم، دون التفات إلى تفصيل ذلك الانقطاع، و كما ينقطع راكب البحر- إذا التطمت أمواجه و أخذت تلعب به- إلى اللّه، فالإنسان في هذه الحالة المضطربة ينقطع في لب ذاته إلى ربه و إن لم يكن موحدا و لا معترفا بأصل الألوهة، و لكنه ينسى ربه أو يتناساه بعد ما نجى: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» (29: 65).

كذلك للأبوين- نوعيا- انقطاع إلى ربهما في أمر الأولاد، يريدان صلاح الولادة و يشترطان بطبيعة الحال أن يكونا له شاكرين، فلما أجيبت دعوتهما إذا هما يشركان باللّه و ينثلان ما عاهدا عليه اللّه، و هذه حالة النوع الإنساني إلّا من عصمه اللّه كآدم و سائر المعصومين و الصالحين الموحدين على طول الخط.

إذا ففرية الشرك على أبوينا الأولين مبنية على فرية أخرى هي الخلط و عدم التناسب بين هذه الضمائر و مراجعها، و هل ترى عاقلا منصفا يزيف المعني من مقالة صادقة لا لشي‏ء إلا الخبط و الخلط في لفظية التفسير، كاعتبار المؤنث مذكرا في حالة و مؤنثا في أخرى، و اعتبار التثنية جمعا أو الجمع تثنية و الشريك الواحد شركاء و الشركاء واحدا! و هكذا «إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ» نزل الكتاب هدى للصالحين و هو بنفسه دون شركاء يتولى الصالحين‏ «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» أيا كانوا «لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ.

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى‏ لا يَسْمَعُوا» هؤلاء المشركون، كمثل شركائهم‏ «وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ» ك، كرسول تدعو إلى الهدى، إنما يبصرون شركاءهم فهم عليها عاكفون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 90

فهذه الآيات- بالرغم من روايات شيطانية «1» و تخيّلات واهية- لا تدل- و لا لمحة- على ما يمس من الكرامة التوحيدية لأبوينا الأولين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 108 في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن محمد بن النعمان الأحول عن بريد العجلي عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: لما علقت حوا من آدم (عليهما السلام) و تحرك ولدها في بطنها فقالت لآدم: إن في بطني شيئا يتحرك فقال لها آدم: أبشري إن الذي في بطنك نطفة مني استقرت في رحمك يخلق اللّه منها خلقا ليبلونا فيه فأتاها إبليس فقال لها: كيف أنتم؟ فقالت له: أما إني قد علقت و في بطني من آدم ولد يتحرك، فقال لها إبليس: إما إنك إن نويت أن تسميه عبد الحارث ولدتيه غلاما و بقي و عاش، و إن لم تنوي أن تسميه عبد الحارث مات بعد ما تلدينه بستة أيام، فوقع في نفسها مما قال لها شي‏ء فأخبرت بما قال لها آدم فقال لها آدم: قد جاءك الخبيث لا تقبلي منه فإني أرجو أن يبقى لنا و يكون خلاف ما قال لك و وقع في نفس آدم مثل ما وقع في نفس حوا من مقالة الخبيث، فلما وضعته لم يعش إلا ستة أيام حتى مات فقالت لآدم قد جاءك الذي قال لنا الحارث فيه، و دخلهما من قول الخبيث ما شككهما فلم تلبث أن علقت من آدم حملا آخر فأتاها إبليس فقال لها: كيف أنتم؟ فقالت له: قد ولدت غلاما و لكنه مات يوم السادس، فقال لها الخبيث: أما إنك لو كنت نويت أن تسميه عبد الحارث لعاش، و ان ما هو الذي في بطنك كبعض ما في بطون هذه الأنغام التي بحضرتكم، إما بقرة و إما ناقة و إما ضأن و إما معز، فدخلها من قول الخبيث ما استمالها إلى تصديقه و الركون إلى ما أخبرها الذي كان تقدم إليها في الحمل الأول، فأخبرت بمقالته لآدم فوقع في قلبه من قول الخبيث مثل ما وقع في قلب حوا «فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً» أي لم تلد ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزا فأتاها الخبيث فقال لها: كيف أنتم؟ فقالت له: قد أثقلت و قربت ولادتي، فقال: أما إنك ستلدين و ترين من الذي في بطنك ما تكرهين، و يدخل آدم منك و من ولدك شي‏ء لو قد ولدتيه ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزا لكان أحسن، فاستمالها إلى طاعته و القبول لقوله، ثم قال لها: اعلمي إن أنت نويت أن تسميه عبد الحارث و جعلت لي فيه نصيبا ولدتيه غلاما سويا و عاش و بقي لكم، فقالت: فإني قد نويت أن أجعل لك فيه نصيبا، فقال لها الخبيث: لا تدعين آدم حتى ينوي مثل ما نويت و يجعل لي فيه نصيبا و يسميه عبد الحارث، فقالت له: نعم، فأقبلت على آدم فأخبرته بمقالة الحارث و بما قال لها فوقع في قلب آدم من مقالة إبليس ما خافه فركن إلى مقاتلة إبليس و قالت حوا لآدم لئن أنت لم تنو أن تسميه عبد الحارث و تجعل للحارث فيه نصيبا لم أدعك تقرني و لا تغشاني و لم يكن بيني و بينك مودة، فلما سمع منها آدم قال لها: أما إنك سبب المعصية-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 91

«نَفْسٍ واحِدَةٍ» كما تحتمل آدم (عليه السلام) حيث خلق منه الجميع برمتهم، كذلك تحتمل كل والد من هذا النوع حيث خلق منهم المجموع، كل من كلّ على الأبدال، و تحتملهما- أيضا- معا، أن خلق المجموع من نفس واحدة كما خلق الجميع من نفس واحدة، مهما اختلف خلق عن خلق، في تسلسل الانتشاء كما من آدم، أم فرديته كما من كل ذكر لهذا النوع.

ثم‏ «جَعَلَ مِنْها زَوْجَها» كما تحتمل أمّنا الأولى أن جعلت من أبينا خلقا منه، ثم جعلت له زوجا، كذلك تحتمل كافة الأمهات حيث جعلت في الخلق كالآباء في المجانسة الإنسانية المؤاتية للزواج، و جعلت في التشريع محلّلة لذلك التزاوج.

ف «من» في الأول نشوية حيث انتشأت الأم الأولى من الأب الأول، و الجعل يعم التكوين و التشريع، و هي في الثانية جنسية و الجعل نفس الجعل حيث يعمهما.

ثم‏ «لِيَسْكُنَ إِلَيْها» الحاملة ضمير المذكر- كما في- تغشاها- لا تعني تغشية خاصة بأبوينا الأولين، حيث المرجع و هو «نَفْسٍ واحِدَةٍ» تستحق أنوثة الراجع إليه قضية الأدب الصحيح أو الفصيح، و لكيلا يشتبه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الأولى و سيدليك الغرور، قد تابعتك و أجبت إلى أن أجعل للحارث فيه نصيبا و أن أسميه عبد الحارث، فأسرّ النية بينهما بذلك فلما وضعته سويا فرحا بذلك و أمنا ما كانا خافا من أن يكون ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزا وابلا أن يعيش لهما و يبقى و لا يموت يوم السادس، فلما كان يوم السابع سمياه عبد الحارث.

أقول: هذه من الروايات الشيطانية التي اختلقها عباد الحارث و نسبوها إلى أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، و عوذا باللّه من هذه الهرطقات الزور و الغرور التي دسها في أحاديثنا الغرور، نعوذ باللّه منه و من أتباعه.

ذلك، و قد افترى مثلها على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كما

في الدر المنثور 3:

151 عن سمرة بن جندب عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس و كان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان و أمره. أقول: بل نفس الرواية هي من وحي الشيطان.!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 92

أمر العناية من ذلك التغشي بما بعده من‏ «جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ».

و من ثم‏ «فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ» تحمل الحمل الأوّل لأقل تقدير، فلا تحمل على الحمل غير الأول كما حملتها روايات شيطانية تشيطن أبوينا في حقل الحمل! ثم «يشركون» و ما بعدها من الجموع المستقبلة لمن يشركون، تدل بجمعيتها و استقبالها أنها ليست لتعني أبوينا الأولين، لأنهما اثنان ماضيان دون جمع مستقبل.

كما و «شركاء» و ما بعدها من الجموع لا تناسب شخص الشيطان المضلل إياهما في هذه الرواية الشيطانية.

فسواء أ كانت «نفس واحدة و زوجها» هما خصوص أبوينا الأولين، أم و بأحرى كل الآباء و الأمهات، أم المجموع من الأولين و سائر الآباء و الأمهات، ف «ليسكن- تغشاها» و ما تتلوها من عرض لما استعرض، لا تناسب إلّا نسل الإنسان ككلّ و بطبيعة الحال، إلا من رحم اللّه.

فذلك- إذا- عرض للحالة التي عليها الأكثرية الساحقة من هذا النوع‏ «1»، و كما «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ» وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 107 في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) عند المأمون في عصمة الأنبياء عن علي بن محمد الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون يا بن رسول اللّه أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول اللّه عزّ و جلّ: «فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما»؟ قال: إن حوا ولدت لآدم خمسمائة بطن في كل بطن ذكر و أنثى و إن آدم و حوا عاهدا اللّه تعالى و دعواه و قالا: لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين.

فلما آتاهما صالحا من النسل خلقا سويا بريئا من الزمانة و العاهة كان ما آتاهما صنفين:

صنفا ذكرانا و صنفا إناثا فجعل الصنفان للّه تعالى ذكره شركاء في ما آتاهما «و لم يشكرا» كشكر أبويهما له عزّ و جلّ، قال اللّه تعالى: «فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» فقال المأمون:

«أشهد أنك ابن رسول الله حقا»

و في الدر المنثور 3: 152 عن ابن عباس قال: «ما أشرك آدم، إن أولها شكر و آخرها مثل ضربه لمن بعده». و فيه عن السدي في قوله تعالى: «فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» هذه فصل بين آية آدم، «خاصة في آلهة العرب»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 93

«إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏» «إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً» فانها و ما أشبه تقرر الأصل الأكثري بطبيعة الحال لقبيل الإنسان‏ «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ» «و إلا».

فلا تعني الآية أبوينا الأولين بلا كرامة حتى في إشراك طاعة «1» فضلا عن إشراك عبادة.

فليست هذه الآيات الكريمة لتمس من كرامة أبوينا الأوّلين إلّا بتأويلات عليلة مختلقة لا تناسب أدب اللفظ و لا حدب المعنى لهذه الآيات.

و ليس إقحام أمثال هذه المختلقات الزور التي دسها الغرور في رواياتنا إلا من شيطنات الشياطين، عمدا و علما و عنادا من الذين يعلمون، و جهالة و حماقة من بسطاء المسلمين مؤلفين و سواهم.

فحذار حذار من تنقل هذه الروايات الشيطانية، التي تبزر آيات من القرآن كأنها آيات شيطانية، اللّهم إلا تزييفا لها حين تنقل‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و فيه عن أبي مالك في الآية قال: هذه مفصولة أطاعاه في الولد «فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» هذه لقوم محمد «و قال الحسن: هم اليهود و النصارى رزقهم الله أولادا فهودوا و نصروا، و عنه أيضا قال: يعني بها ذرية آدم و من أشرك منهم بعده، و قال: هذا في الكفار يدعون الله فإذا آتاهما صالحا هودا و نصرا».

(1).

المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية قال: هو آدم و حواء و إنما كان شركهما شرك طاعة و لم يكن شرك عبادة فأنزل اللّه على رسوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ- إلى قوله- فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» قال: جعلا للحارث نصيبا في خلق اللّه و لم يكن شركاء إبليس في عباده، ثم قال:

أ يشركون مالا يخلق شيئا و هم يخلقون.

(2) و من جراء هذه الروايات الشيطانية تؤلف كتابات شيطانية تسمي القرآن «آيات شيطانية» تناصرا من شيطانين اثنين في هذا البين، شيطان العناد و التزييف لساحة القرآن العظيم من ملحدين، و شيطان الحماقة ممن يتسمون مسلمين و اللّه منهما براء على سواء، إن لم تكن الشيطنة الثانية أشطن حيث تفسح مجالات لهذه الشيطنات، و تخيّل إلى بسطاء المسلمين كأنها صادرة عن مصدر الوحي المعصوم!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 94

[سورة الأعراف (7): الآيات 199 الى 206]

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (199) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (202) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى‏ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (206)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 95

«خذ» هنا لا تختص برسول الهدى و لا سيما «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ» و هو معصوم عن نزغ الشيطان فإنه من أفضل المخلصين و قد «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (38:) 83) و نزغ الشيطان إغواء تسمو عنه ساحة الرسالة القدسية.

إذا ف «خذ» هي لأقل تقدير تعم كافة المكلفين، ثم يستثنى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن نزغ الشيطان.

و ترى ما هو «العفو» الذي يؤمر هنا بأخذه؟ أهو- فقط- العفو عمن ظلمك؟ و صيغته الخاصة: أعف عمن ظلمك، و لأن العفو تستعمل بمختلف المتعلّقات أم دون متعلّق، و هي هنا طليقة عن أي تعلق، فالقصد منها هنا كل معانيها المناسبة للأخذ: ف «عفاه» تعني قصده متناولا ما عنده، و عفت الريح الدار قصدتها متناولة آثارها، و عفوت عنه قصدت إزالة ذنبه، و العفو هو الزيادة كما في‏ «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (2: 219) أي الزائد عن الحاجة، و من العفو الوسط، إذا «خُذِ الْعَفْوَ» قد تعم أخذ العفو من الأموال، «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً» (9:) 103) قد تقيدها بالزكوات المفروضة المقررة بأنصبتها كضريبة مستقيمة، و لكن‏ «خُذِ الْعَفْوَ» تعني أخذ الزائد عن الحاجة من الأموال و هو ضريبة غير مستقيمة، كما و تعني أخذ هذه الطريقة لنفسه أن ينفق الزائد من ماله للمحاويج.

ثم‏ «خُذِ الْعَفْوَ» عن الناس، أن تعفو عمن ظلمك‏ «1» و العفو في الأمور هو الوسط فيها دون إفراط و لا تفريط. و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أنه قال‏ لما نزلت هذه الآية: أمرت أن آخذ العفو من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 155، أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق وهب بن جرير عن أبيه قال: كنت جالسا عند الحسن إذ جاء رجل فقال: يا أبا سعيد ما تقول في العبد يذنب الذنب ثم يتوب؟ قال: لم يزدد بتوبته من اللّه إلا دنوا، قال: ثم عاد في ذنبه ثم تاب؟ قال: لم يزدد بتوبته إلا شرفا عند اللّه، قال ثم قال لي: ألم تسمع ما قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قلت: و ما قال؟ قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 96

أخلاق الناس‏ «1»

إذ قد تعني بين الإفراط و التفريط.

ثم‏ «وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ» قد تعني نفس الأمر عرفا كما الأمر بالعرف، فليكن الأمر عرفا دون نكر، عرفا في مادة الأمر و كيفيته، و عرفا من الآمر أن يكون هو نفسه مؤتمرا به ثم ليكن أمرا بالعرف، فالباء في الأولى للمصاحبة و في الثانية للتعدية و هما معا معنيّان.

«وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ» إعراضا عن ملاحقتهم لجهلهم القاحل، و إعراضا عن مصاحبتهم للجهل المتجاهل العارف، و إعراضا عن إتباعهم مسايرة جهلهم، فالجهل في مثلث التعامل تتركز عليه نقطة الإعراض، إبرازا للمفاصلة بين غير الجاهلين و الجاهلين، و نهيا جاهرا عن منكر الجهل الجهالة.

و هنا الأخذ بالعفو الإغماض هو كأصل ما لم يعارض ملابسات تفرض عدم العفو، كأن يعفى عن الظالم الذي يزداده العفو عتوا على المظلوم و نفورا عن العدل، سواء كان المظلوم هو العافي فهو ظالم مرتين، أم المطّلع على ظلم أخيه فهو ظالم مرة.

كما و أن الإعراض عن الجاهلين لا تعنى- فيما تعنيه- الإعراض عن تعليم و تأديب الجهال الذين هم في تحرّي العلم و المعرفة، أم هم غافلون عن جهلهم أو واجب تعلمهم، فعلى العالم أن يظهر علمه اللّهم إلّا فيما يهدر أو يهدّر فإنه- إذا- ظلم بالعلم و رعيله.

و من الترتيب التربوي بين هذه الثلاثة أن الأصل الأوّل هو الأخذ بالعفو مالا و حالا و أعمالا في نفسك و ذويك و سائر الناس، و من العفو في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر- أخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن إبراهيم بن أدهم قال: لما أنزل اللّه و

في نور الثقلين 2: 111 في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) ان اللّه أدب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: «يا محمد خذ العفو و أمر بالعرف و اعرض عن الجاهلين» قال: خذ منهم ما ظهر و ما تيسر و العفو الوسط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 97

الدعوة هو الوسط بين الإفراط و التفريط، فإذا تخلف متخلف بعد بلوغ الحجة «أْمُرْ بِالْعُرْفِ» ثم إذا جهل جاهل إصرارا على جهله‏ «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ».

و هكذا يصدق‏

المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) انه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية «1».

فهنا في ختام السورة يؤمر صاحب الدعوة بمن معه- و هم بعد في مكة- أن يواجهوا تلك الجاهلية العريقة الحميقة بكل سماحة و يسر، أخذا بالعفو الميسّر و رفضا لكل معسّر إلّا إذا لزم الأمر كما في حقل النهي و الأمر، تغاضيا عما يقبل في عشرة الناس، دونما تنازل عما قرره اللّه من شرعته حيث لا تقبل التنازل كما ليس فيها تعاضل.

فالأعضاء عن الضعف البشري، و العطف عليه، و السماح معه، كل ذلك واجب الداعية، فالتعامل مع مختلف النفوس البشرية بغية هداها يقتضي رحابة صدر و سماحة طبع، في غير تهاون و لا تفريط في شرعة اللّه.

ثم الأمر بالعرف هو عرف ذلك الأمر في شرعة اللّه، و العرف المأمور به هو المعروف لدى الفطرة و العقلية الإنسانية و الشرعة الربانية، معروفا لا ينكر و لا يتنكر، و هذه هي الخطوة الأولى في حقل الأمر، و من ثم خطوات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 154- أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ألا أدلك على خير أخلاق الأولين و الآخرين؟ قلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نعم قال: تعطي من حرمك و تعفو عمن ظلمك و تصل من قطعك، أقول و قد تظافرت الروايات عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال مقالته تلك بعد نزول هذه الآية و بمناسبتها.

و

في نور الثقلين 2: 111 في عيون الأخبار باسناده إلى الحارث بن الولهاث مولى الرضا (عليه السلام) قال: سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون فيه ثلاث خصال سنة من ربه و سنة من نبيه و سنة من وليه- إلى قوله: و أما السنة من نبيه فمداراة الناس فإن اللّه أمر نبيه بمداراة الناس فقال: خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 98

أخرى إلى أعراف أخرى تلحقها.

ثم الإعراض عن الجاهلين في حقلي الأخذ بالعفو و الأمر بالعرف، و من الإعراض عنهم هو الإعراض عن عفوهم إلى مجازاتهم، و الإعراض عن أمرهم إلى إلزامهم.

ذلك، و تعريفا بالجاهلية

عن لسان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» «1»

و

«كل دم و مال كان في الجاهلية تحت قدمي هاتين» «2»

و

«كل ربا في الجاهلية موضوع» «3»

و

«كل دين في الجاهلية موضوع» «4»

و

«دعوى الجاهلية حرام» «5».

و

قد يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحيانا و تستقيم أحيانا و في ذلك تكبر فإذا صدها صاحبها حمد أمره كما حمد صاحب السنبلة بره ثم قرء هذه الآية «6».

احذروا أيها الناس من الذنوب و المعاصي ما قد نهاكم اللّه عنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة عن بخ- ك 61 ب 1، مس- ك 43 ح 168، ك 44 ح 149 مى- المقدمة ب 23، حم- ثان ص 657 و 260 و 391 و 431 و 438 و 485 3 و 498 و 524 و 539، ثالث ص 367 و 383، رابع ص 101 ط- ح 2476 قا، قد- ص 424.

(2) المصدر عن بد- ك 38 ب 17 و 24، تر- ك 44 سورة 9 ح 2، مج- ك 21 ب 5 حم- ثان ص 11 و 103 و 187 و 187 و 207، رابع ص 32، خامس ص 72 و 411، ط- خ 227 هش- ص 698، قد- ص 338.

(3) المصدر عن بد- ك 22 ب 5، مى- ك 18 ب 3.

(4) المصدر عن حم- ثان ص 103.

(5) المصدر عن بخ- ك 23 ب 36 و 39 و 40، ك 61 ب 8، ك 65 سورة 63 ب 5، حم- ثالث ص 338 و 385 و 392، رابع ص 130 و 202، خامس ص 344، ط- ح 1162.

(6) الدر المنثور 3: 154- أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزلت «خذ العفو» قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و

فيه عن ابن مسعود عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه و نفثه و نفخه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 99

و حذركموها في كتابه الصادق بالبيان الناطق فلا تأمنوا مكر اللّه و تحذيره عند ما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات و اللذات في هذه الدنيا فإن اللّه عزّ و جلّ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ» فأشعروا قلوبكم خوف اللّه و تذكروا ما قد وعدكم اللّه في مرجعكم إليه من حسن ثوابه كما قد خوفكم من شديد العقاب‏ «1»

ذلك! و من الجاهلين الماحلين الذين يحسبونهم عارفين فالحين من‏

يصفهم الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في عظة له: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، و يرجئ التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، و يعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، و إن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، و يبتغي الزيادة فيما بقي، ينهى و لا ينتهي، و يأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين و لا يعمل عملهم، و يبغض المذنبين و هو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، و يقيم ما يكره الموت له، إن سقم ظل نادما، و إن صح امن لاهيا، يعجب بنفسه إذا عوفي، و يقنط إذا أبتلي، إن أصابه بلاء دعى مضطرا، و ان ناله رجاء أعرض مغترّا، تغلبه نفسه على ما يظن، و لا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، و يرجو لنفسه بأكثر من عمله، إن استغنى بطر و فتن، و إن افتقر قنط و وهن، يقصّر إذا عمل، و يبالغ إذا سأل، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية، و سوّف التوبة، و إن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة، يصف العبرة و لا يعتبر، و يبالغ في الموعظة و لا يتعظ، فهو بالقول مدلّ، و من العمل مقلّ، ينافس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 112 في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ و الزهد في الدنيا يقول فيه: و

فيه عن الخصال عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: ثلاثة من أشد ما عمل: إنصاف المؤمن نفسه و مواساة المؤاخاة و ذكر اللّه على كل حال و هو أن يذكر اللّه عند المعصية و هو قول اللّه عزّ و جلّ: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا»

: و

فيه عن الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ: «إذا مسهم» قال: هو العبد يهم بالذنب ثم يتذكر فيمسك فلذلك قوله: «تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 100

فيما يفنى، و يسامح فيما يبقى، يرى الغنم مغرما و الغرم مغنما، يخشى الموت و لا يبادر الفوت، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، و يستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، و لنفسه مداهن، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقهاء، يحكم على غيره لنفسه، و لا يحكم عليها لغيره، و يرشد غيره و يغوي نفسه، فهو يطاع و يعصي، و يستوفي و لا يوفي، و يخشى الخلق في غير ربه، و لا يخشى ربه في خلقه‏ (الحكمة 143).

و هنا

يقول رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «كيف يا رب و الغضب»؟ غضبي عليهم لعنادهم و غضبهم علي حيث أدعوهم و آمرهم و أنهاهم خلاف أهواءهم، فيجاب:

وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200).

النزغ هو دخول في أمر لإفساده، و هكذا يتدخل الشيطان في صالح أمورنا لإفسادها، و منه تدخّله في هذه المكارم الأخلاقية و العلاج بعد كلّ القدرات المقاومة «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» ليعيذك من نزغ الشيطان، و لا بد فيها من قال مع حال و أعمال لمكان‏ «إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» فهو «سميع» لقالات المستعيذين، «عليم» حالاتهم و فعالاتهم المستعيذة، كما هو «سَمِيعٌ عَلِيمٌ» قالات و فعالات المتخلفين عن شرعة اللّه.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (201).

مسّ طائف من الشيطان يعمي على الممسوس طريقه، فإذا تذكروا فإذا هم مبصرون و المس هنا مس للصدر فالقلب و ما قبلهما من الفطرة و العقلية و ما بعدهما من اللب و الفؤاد حيث الشياطين يطوفون على كل مواضع اليقظة تعمية لها، إلّا «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (16: 99) استعاذة و سواها «1».

وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (202).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 96 و قال جعفر الصادق رضي اللّه عنه: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 101

إنه لا يقتصر «طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ» على مسهم المسيس، بل‏ «وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ» المس‏ «ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» أولاء و هؤلاء في مسهم اللعين المتقين، فاليقظة اليقظة للذين اتقوا تذكرا باستعاذة باستنجازة حتى يبصروا مسيرهم إلى مصيرهم و لا يصطادوا إلى فخ الشيطان.

وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى‏ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203).

«إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ» يقترحونها أو يرتقبونها كما أوتي رسل اللّه، «قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها» كأنه هو المجتبي لآيات اللّه كما يحب و يرضى‏ «قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى‏ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي» دون ما أهواه أم تهوونه أنتم، إنما أتبعه لا سواه، سواء في وحي الرسالة أم آيتها الخالدة، فلا أنتظر من ربي آية سواها، و لن أقترح عليه آية سواها، بل و الاقتراح على ربي في حقل رسالتي تجاوز عن أدب الرسالة إلى حدب الربوبية، ثم ليست الآيات الربانية إلّا بصائر من ربكم و «هذا» القرآن العظيم‏ «بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» فقد جمع آية القرآن بوحدتها كلّ البصائر الربانية، حيث تبصّر ما يبصر ببصيرة أم بصر «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ»- «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ».

أجل إنه «بصائر» تبصر و تبصّر «و هدى» تهدي «و رحمة» تحمل كل الرحمات‏ «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» «بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» تحلّق بصائره على كافة المكلفين، و لكن البصيرة ليست إلّا الطريقة المثلى، فليست- إذا- «هُدىً وَ رَحْمَةٌ» إلّا «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» بالبصائر، دون هؤلاء الحماقى الذين‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14): «قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» (6: 104)- «هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (45:) 20)- «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى‏ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي» (12:) 108).

هنا «لَوْ لا اجْتَبَيْتَها» تعجيز إلى سخرية، و كأنه مدع إمكانية إتيانه بآيات يجتبيها، و «هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» ثم الويل كل الويل لهؤلاء الذين يضلون الناس و يعمونهم بتلك البصائر، تذرعا بالقرآن إلى ضده علميا أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 102

عمليا، و كما يندّد بهم فيما أوحي إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «1».

و هؤلاء هم المعنيون من خطاب علي (عليه السلام) العتاب:

«أريد اداويكم و أنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة و هو يعلم أن ضلعها معها، اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي، و كلت النزعة بأشطان الركي» (الخطبة 120).

أجل‏ «قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ» هي القرآن نفسه، دون حاجة له إلى بصائر أخرى تفسره، ف «فيه الحجة و النور و البرهان، كلام الله غض جديد طري شاهد، و حكم عادل، قائد بحلاله و حرامه، بصير به، قاض به، مضموم فيه، يقوم غدا فيحاج أقواما فتزل أقدامهم عن الصراط» «2» و «القرآن غنى لا غنى دونه و لا فقر بعده» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 155- أخرج الحكيم الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: أتاني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» من قوله: أتاني جبرئيل آنفا فقال: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» قلت:

أجل فإنا للّه و إنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبرئيل؟ فقال: إن أمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: و من أين ذاك و أنا تارك فيهم كتاب اللّه؟ قال: بكتاب اللّه يضلّون و أوّل ذلك من قبل قرائهم و أمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون، و تتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا تقصرون، قلت: يا جبرئيل! فبم يسلم من سلم منهم؟ قال:

بالكف و الصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه و إن منعوه تركوه.

(2)

جامع أحاديث الشيعة للمغفور له استاذنا الأقدم في الفقه السيد البروجردي، ج 15: 7، السيد علي بن طاووس في الطرف عن كتاب الوصية لأبي ضرير عيسى بن المستفاد من أصحاب الكاظم (عليه السلام) عنه عن أبيه (عليهما السلام) في حديث أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال‏ للأنصار أيام وفاته فيما أوصى به إليهم: كتاب اللّه و أهل بيتي، فإن الكتاب هو القرآن و فيه الحجة.

(3) المصدر عن المجمع 15 ج 1- أنس بن مالك عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 103

و

قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ما من مؤمن ذكر أو أنثى، حرّ أو مملوك إلا و للّه عليه حق واجب أن يتعلم من القرآن و يتفقه فيه ثم قرأ: «وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» (3: 79) «1».

فلا تحصل الربانية العلمية و التربوية إلّا على ضوء دراسة الكتاب و تعليمه و كما

قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «إن أردتم عيش السعداء و موت الشهداء و النجاة يوم الحشر و الظل يوم الحرور و الهدي يوم الضلالة فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن و حرز من الشيطان و رجحان في الميزان» «2».

و

قال: «حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبسون نور الله، المعلمون كلام الله، من عاداهم فقد عادى الله و من والاهم فقد والى الله» «3».

ذلك و هؤلاء ممن يكون «القرآن حديثه» «4» و «شعاره» «5» و «لا يعذب الله قلبا وعى القرآن» «6» و قد كان كلام الامام الرضا (عليه السلام) كله و جوابه و تمثله انتزاعات من القرآن‏ «7».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2) المصدر، أبو الفتوح الرازي في تفسير عن عبد اللّه بن عباس عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و عن معاذ بن جبل عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(3) المصدر 25 عن تفسير أبي الفتوح الرازي.

(4) المصدر 30 في رواية جامع الأخبار:

(5)

المصدر 29 قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «أولئك قوم اتخذوا مساجد الله بساطا و القرآن شعارا.»

(6) المصدر 35- أمالي ابن الشيخ بسند متصل عن عقبة بن عامر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و

فيه عن جامع الأخبار للصدوق عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): اقرءوا القرآن و استظهروه فإن اللّه تعالى لا يعذب قلبا و عن القرآن.

(7)

المصدر 67 عن العيون 2: 180 عن إبراهيم بن العباس يقول: ما رأيت الرضا (عليه السلام) يسأل عن شي‏ء قط إلا علم، و لا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان الأول إلى وقته و عصره، و كان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شي‏ء فيجيب فيه، و كان كلامه كله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 104

أسألك بمعاقد العز من عرشك و منتهى الرحمة من كتابك، أسألك أن تصلي على محمد و آل محمد و أن ترزقني حفظ القرآن و أصناف العلم، و أن تثبتها في قلبي و سمعي و بصري، و أن تخالط بها لحمي و دمي و عظامي و مخي، و تستعمل بها ليلي و نهاري برحمتك و قدرتك فإنه لا حول و لا قوة إلا بك يا حي يا قيوم‏ «1».

«اللهم ارحمني بترك معاصيك أبدا ما أبقيتني، و ارحمني من تكلف ما لا يعنيني، و ارزقني حسن المنظر فيما يرضيك عني، و ألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، و ارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم نور بكتابك بصري، و اشرح به صدري، فرح به قلبي، و أطلق به لساني، و استعمل به بدني، و قوني على ذلك، و أعني عليه إنه لا معين عليه إلا أنت» «2».

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204).

هنا «قرئ القرآن» موضوع لواجب الاستماع له و الإنصات‏ «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» و النتيجة الصريحة لسلبية الاستماع و الإنصات له هي زوال الرحمة- و طبعا- إلى خلاف الرحمة و هو العذاب الزحمة، فإن اللّه لا يخلى عباده من رحمة أو زحمة جزاء وفاقا بأسبابهما، و هنا السبب لزوال الرحمة إلى الزحمة هو ترك الاستماع و الإنصات للقرآن حين يقرء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

المصدر 38 عن الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: تقول: اللهم إني أسألك و لم يسأل العباد مثلك، أسألك بحق محمد نبيك و رسولك و إبراهيم خليلك و صفيك و موسى كليمك و نجيّك و عيسى كلمتك و روحك، و أسألك بصحف إبراهيم و توراة موسى و زبور داود و إنجيل عيسى و قرآن محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و بكل وحي أوحيته و قضاء أمضيته و حق قضيته و غني أغنيته و ضال هديته، و أسألك باسمك الذي وضعته على الليل فأظلم، و باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، و باسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت و دعمت به السماوات فاستقلت، و وضعته على الجبال فرست، و باسمك الذي بثثت به الأرزاق، و أسألك باسمك الذي تحيي به الموتى، و أسألك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 105

أ ترى بعد أن «قرئ» تختص بقراءة حية للحمد و السورة و من قارئ مسلم يكلف، أم و أنت في صلاة جماعة مؤتما به كما قد يروى؟ و قد روي إطلاق فرض الاستماع و الإنصات للقرآن أيضا «1»، و «القرآن»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 113 في التهذيب عن معاوية بن وهب عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ سألته عن الرجل يؤم القوم و أنت لا ترضى به في صلاة يجهر فيها بالقراءة؟ فقال:

إذا سمعت كتاب اللّه يتلى فأنصت له فقلت: إنه يشهد علي بالشرك! قال: إن عصى اللّه فأطع اللّه فرددت عليه فأبى أن يرخص لي قال: فقلت له: أصلي إذا في بيتي ثم أخرج إليه؟ فقال: أنت و ذاك و قال: إن عليا (عليه السلام) كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا و هو خلفه‏ «وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» فأنصت علي تعظيما للقرآن حتى فرغ من الآية ثم عاد في قراءته ثم عاد ابن الكوا فأنصت علي (عليه السلام) أيضا ثم قرأ فأعاد ابن الكوا و انصت علي (عليه السلام) ثم قال له: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ» ثم أتم السورة ثم ركع و رواه العياشي عن أبي كهمش عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) من قوله: «قرأ ابن الكوا»، أقول، و رواه العياشي في تفسيره عن أبي كهمش عنه (عليه السلام) و القمي 2: 160 قال: كان علي (عليه السلام) و الجعفريات عنه (عليه السلام) و ابن شهر آشوب في المناقب 2: 113 مثله.

أقول: علّ قراءته (عليه السلام) هذه الآية كان بعد الفاتحة في نفس السورة التي فيها الآية، ثم يلمح له «تم أتم السورة ثم ركع» حيث السورة هنا ليست هي الفاتحة لمكان «ثم ركع» بل هي سورة بعدها.

و

فيه عن تفسير العياشي (2: 44) عن زرارة قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: يجب الإنصات للقرآن في الصلاة و غيرها و إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات و الاستماع،

و

فيه عن المجمع 4: 515 عن عبد اللّه بن أبي يعفور عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له: الرجل يقرأ القرآن أ يجب علي من سمعه الإنصات له و الاستماع؟ قال: «نعم إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات و الاستماع».

(البحار 92: 222 جامع البزنطي نقلا عن خط بعض الأفاضل عن جميل عن زرارة قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الرجل يقرأ القرآن (و ذكر نحوه).

و

روى الإمام أحمد و أهل السنن و قال الترمذي عنه: هذا حديث حسن و صححه أبو حاتم الرازي من حديث الزهري عن أبي أكثمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول اللّه (صلّى اللّه-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 106

ليس ليعني سورة خاصة في صورة خاصة، مهما نزلت هذه الآية فيما كان المسلمون يتكلمون في الصلاة و الإمام: النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) جاهر بالقراءة! فمهما كان ذلك سببا لنزولها و لكنه ليس سببا لاختصاصها بذلك السبب، و لو أن القرآن مات بموت سبب نزوله لمات القرآن كله، فإنما العبرة بعموم النص لا بخصوص سبب نزوله، و لو كان قرآن خاص موضوعا للحكم لجي‏ء بخصوصه، و لا سيما في‏ «بَيانٌ لِلنَّاسِ» أفترى القائل: إذا رأيت مسلما فسلّم عليه، و هو في مقام البيان، فهل يصلح تقييده بمسلم خاص؟ و بأحرى القرآن لمّا يقول: «إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ» فالموضوع هو مطلق القرآن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليه و آله و سلم) انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرء أحد منكم معي آنفا به؟ قال رجل: نعم يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: إني أقول: مالي أنازع القرآن، فانتهى الناس عن القراءة مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

أقول: ليس يعني هذا اختصاص وجوب الاستماع بالصلاة الجهرية للمأمومين و إنما هي الظرف الأهم لواجب الاستماع حيث الامام يتحمل عن المأموم القراءة إضافة إلى واجب الاستماع إلى القرآن بصورة مطلقة، فلا معارضة بين أدلة وجوب الاستماع في الجهرية و الأخرى الطليقة فيه و لا سيما الآية حيث ركز الأمر على «القرآن» و ليس من الفصيح بل هو من القبيح.

و

في بحار الأنوار 89: 222 عن جامع البزنطي نقلا عن خط بعض الأفاضل عن جميل عن زرارة قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الرجل يقرأ القرآن يجب على من يسمعه الإنصات له و الاستماع له؟ قال: نعم، إذا قرئ القرآن عندك فقد وجب عليك الاستماع و الإنصات.

و

في جامع أحاديث الشيعة 15: 163 عن كتاب العلا عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: يستحب الإنصات و الاستماع في الصلاة و غيرها للقرآن،

أقول:

لا يعني الاستحباب هنا إلا الوجوب لمكان «في الصلاة» ففي «غيرها» أيضا لوحدة التعبير، ثم و ليس الاستحباب نصا أو ظاهرا فيما اصطلح عليه، بل هو مشترك في استحباب الواجب و الندب اللّهم إلا بقرينة تخص أحدهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 107

و عناية قرآن الحمد في جهرية الجماعة، جناية في التعبير، لا تقبلها كلام اللطيف الخبير، أن تعنى الحمد من «القرآن» الذي يحوى زهاء ألف ضعف من آياتها السبع! إنما «القرآن» هو القرآن كله ما صدق عليه، كلمة أو جملة أو آية أو سورة، و مجهولية «قرئ» تجهّل تخصيص القارئ بما قد يخصّص به من كونه مسلما بالغا حالة القراءة الجهرية للصلاة، أو كونها قراءة حية، فلا يجب الاستماع و الإنصات للقراءة المسجلة «1».

ذلك، و قد هدد التارك للسجود حين يقرء القرآن بعدم الإيمان حيث يعني السجود غاية الخضوع، لا فقط سجود التلاوة لمكان «القرآن» دون خصوص آيات التلاوة منه: «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ» (84: 21) «قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً» (17:) 109) «إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا» (19:) 58).

ذلك، و حتى لو لم يكن في القرآن نصوص كهذه التي تدل على فرض الاستماع لكان ذلك فرضا أدبيا و فطريا و عقليا، فحين يكلمك عظيم من العظماء لصالحه هو دونك فهل يجدر بك أن تلهو عنه إلى غيره؟

فمالك حين يقرء القرآن لا تستمع له و لا تنصت ملتهيا إلى سواه؟ و هو لصالحك فقط دون صالح اللّه! صحيح أنك حين تشتغل بواجب يشغلك عما سواه لا يفرض عليك استماع القرآن حيث يزول وجوبه إما حرجا أم تقديما لواجب أهم منه عليه كأن تصلي قارئا لواجباتها، اللّهم إلّا إذا أمكن الجمع كما فعله علي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان 30: 249- 253 تجد تفصيلا لبحث حول حكم استماع القرآن على ضوء هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 108

(عليه السلام) حيث سكت في صلاته مرات ثلاث احتراما للقرآن إذ كان يقرأه ابن الكوا و هو يندد به في آية الإشراك! فمثل استماع القرآن كمثل سائر الواجبات التي تختلف حالاتها في دوران الأمر بينها و بين الأهم منها، أم في حالة الحرج و ما أشبه.

ذلك، فالقرآن ككلّ أيا كان و من أيّ كان يجب الاستماع له، لا فقط سمعه، و إنما «فَاسْتَمِعُوا لَهُ» تقصّدا بسمع الأذن سمع القلب حتى يحلّق صوته ثم صيته على كيانك كله، ثم «و انصتوا» فالاستماع دون إنصات كما الإنصات دونما استماع ليس هو كامل الفرض، فإنه الجمع بينهما حيث القصد توحيد الاتجاه إلى القرآن لمّا يقرء، كما توحد اللّه في الربوبية.

فهنا توحيد في الاستماع و الإنصات للقرآن هو المأمور به، و هناك إلحاد ألا يستمع له و لا ينصت، و بينهما اشتراك أن يستمع له و ينصت مع استماع لغيره و إنصات، أو استماع دون إنصات أم إنصات دون استمتاع.

ثم‏ «فَاسْتَمِعُوا لَهُ» دون «إليه» أو «استمعوه» مما يدلنا على مغزى الاستماع، فقد يستمع إليه و لا يستمع له كأن يسمع الصوت دون تأمل في معناه، حيث القصد من الاستماع إليه هو الاستماع له، فقد يستمع إلى كتاب اللّه هزء و تحريفا و تجديفا أم لا له و لا عليه، و «فَاسْتَمِعُوا لَهُ» تعني استماعا يليق بالقرآن و لصالحه إيمانا و تصديقا و تدبرا و تذكرا و تطبيقا، أن يصبح المستمع له استماعا له بكل آذانه، و إنصاتا بكل كيانه، و الإنصات ذريعة صالحة لصالح الاستماع له، فإن «له» تعني اختصاص ذلك الاستماع بالقرآن، دون إشراك له بسواه، بل هو توحيد الاستماع بعد توحيده الإنصات‏ «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» قدر الاستماع و الإنصات له‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

لا كمن‏ «يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ» (2:) 75) «وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ» (8: 21) و «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» (21: 2)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 109

«وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ» (6: 25) «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً» (47: 16).

فإنما القصد من‏ «فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا» هو افتعال سمع الأذن لصالح التصديق و التطبيق، فمن سمع الأذن إلى سمع الصدر و القلب و اللب و الفؤاد، و إلى سمع الأقوال و الأحوال و الأفعال كلها، حتى تصبح بكيانك ككلّ القرآن كلّه، و كما أمر الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن يسمعهم هكذا: «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63).

و هذا هو المعني من السجود للقرآن حيث يندد بتركه المشركون‏ «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ» فإنه عناية الخضوع استماعا و قراءة و في كافة الحقول الأنفسية و الآفاقية.

و في رجعة أخرى إلى الآية نجد المناسبة التامة بين طامة الاستماع و الإنصات الواجب للقرآن لمكان‏ «هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ» فكما أن «هذا» يعني القرآن كله، فإنه بصائر كله، فلا بد من انفتاح الأبصار لرؤيته، فالبصر عند قراءته استماعه و الإنصات له، ثم سائر الأبصار لسائر الإبصار حتى تحلّق بصائره على كل الأبصار.

و أما أن هناك القرآن البصائر «رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» و هو هنا عله رحمة إن استمعوا له و أنصتوا: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» حيث الرحمة الأولى هي المبدئية للذين به يؤمنون، ثم الرحمة المترقّبة هي الزائدة قدر المزيد من الاستماع و الإنصات له، فالقول إن الآية تخاطب فقط- «الَّذِينَ كَفَرُوا» إنه كفر بها، لا سيما و أنها في عداد الأوامر المتواترة المتتالية للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الذين معه! و الروايات المتظافرة انها نزلت بشأن الاستماع و الإنصات في الصلوات الجهرية.

و من الأحكام الفقهية المستفادة من الآية بعد وجوب الاستماع و الإنصات له بصورة عامة، أنه لا تجوز القراءة خلف الإمام الجاهر بها حيث تسمعها، فإن واجب الاستماع و الإنصات ليس لمجرد القراءة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 110

حيث الإخفاتية خارجة عن حقل الاستماع، فحين يمكن الاستماع للقرآن في صلاة و سواها وجب الاستماع، و أما الهمهمة غير المسمعة للقرآن فليس استماعها استماعا للقرآن حتى يجب، اللّهم إلا تفتيشا عما يسمع منه فيسمع.

ذلك، و إذا دار الأمر بين واجب الاستماع و واجب القراءة كما في الصلاة و ما أشبه، فالأهم هو الأهم إن لم يمكن الجمع بينهما، كأن تقرء في صلاتك نفس ما يقرءه غيرك جهارا، فهناك تقرء مستمعا لما يقرء.

أم تقرء غير ما يقرأه غيرك مع إمكانية الجمع بين قراءتك و استماعك فكذلك الأمر، هذا، و لكن المفروض- قدر الإمكان- التجنب عن هذه المآزق، ابتعادا في قراءتك المفروضة عن مسمع سائر القراءة، أم تأخيرا لصلاتك حين لا تتمكن من الابتعاد.

ذلك، و في تساوي الفرضين يتساوى الفرضان حيث تتخير بينهما، و إذا تكرر فالتراوح قضية الاحتياط، بل هو المفروض، تقديما لأحدهما مرة و للآخر أخرى.

و قد يجوز الأمر بإخفات القارئ لتجد أنت مجالا لتحقيق فرضك، فإن قراءتك مفروضة، و ليست قراءته في أصلها- فضلا عن الجهر بها- مفروضة، و قضية تقديم الأهم على المهم هي الأمر بإخفات تلك القراءة غير المفروضة التي تناحر قراءتك المفروضة.

ذلك، و في رجعة ثالثة إلى الآية نجد في «له» اختصاصا في ذلك الاستماع بالقرآن، ألا يشرك في استماعه غيره أيا كان و أيان، اللهم إلا و جاه الأهم أم في ظروف محرجة مخرجة عن إمكانية الاستماع في وسع.

و هكذا الإنصات فإنه أيضا «له» قضية العطف، فليكن المؤمن بالقرآن، حين يقرء جهرا يسمع، مستمعا له و منصتا له بكل كيانه، و الخطوة الأولى هي الاستماع بظاهر الأذن و الإنصات بلسانه، ثم استماعا و إنصاتا بإذن الفطرة و العقلية السليمة، و إلى اللب و القلب و الفؤاد، و لحدّ يصبح بكيانه كله استماعا له و إنصاتا له، و هنا تتحقق الرحمة الطليقة قدر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 111

الاستماع و الإنصات الطليقين، و

قد سئل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن قوله تعالى: «وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» قال: يعني حركوا به القلوب، و لا تتحرك القلوب بحراك القرآن إلا قضية صالح الاستماع له و الإنصات له.

ذلك و إن الناس ليخسرون الخسارة العظمى التي لا يعوضها شي‏ء بالانصراف عن القرآن، فإن العكوف على هذا القرآن في استماع و إنصات فوعي و تدبر، لينشئ في العقل و القلب من الرؤية البصيرة الواضحة، البعيدة المدى، القريبة الهدى، ما لا تدانيه رياضة أخرى في أية روضة من الرياض.

و هنا «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» تعني رحمة زائدة متزايدة على ضوء الزيادة و التزايد من الاستماع للقرآن و الإنصات له.

ذلك و «قراء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة و استدر به الملوك و استطال به على الناس، و رجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده، و رجل قرأ القرآن و وضع دواء القرآن على دائه و أسهر به ليله و أظمأ به نهاره، و أقام به في مساجده، و تجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله عز و جل البلاء، و بأولئك يديل الله من الأعداء، و بأولئك ينزل الله الغيث من السماء، فو الله لهؤلاء في قراء القرآن أعز من الكبريت الأحمر» «1».

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205).

هنا «في نفسك» ذكر موعل في النفس، محلّق عليها كلّها بحيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 89: 178 عن أبي جعفر (عليهما السلام)، و فيه 179 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: القراء ثلاثة: قارئ قرء ليستدر به الملوك و يستطيل به على الناس فذاك من أهل النار، و قارئ قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده فذاك من أهل النار، و قارئ قرء فاستتر به تحت برنسه فهو يعمل بمحكمه و يؤمن بمتشابهه و يقيم فرائضه و يحل حلاله و يحرم حرامه فهذا ممن ينقذه اللّه من مضلات الفتن و هو من أهل الجنة و يشفّع فيمن شاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 112

تحشر النفس «ذكر ربك» فهذا هو موطن الذكر و مأمنه، ثم‏ «تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ» يحوّله إلى قال و حال أخرى، قال دون الجهر اللّهم إلّا إذا لزم الأمر كجهرية الصلاة، أو رجح كأن تتذكر به أكثر أو تعلّم من سواك، و كقراءة القرآن حيث يرجح الجهر بها إسماعا فاستماعا، فالضابطة الأصيلة فيه هي‏ «دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ» إذ لا تذكر أصم فتسمعه بجهر من القول، و عل «اذكر» هنا هو خاص الذكر لخصوص المكلفين، و القرآن و الأذان و ما أشبه هي من عامة الذكر الدعائي، فليقرء القرآن جهارا لا إسرارا كما الأذان فإنه للإعلام، و هكذا المواعظ و المدائح و الخطابات المذكرة و أضرابها.

فلئن كان القصد من الجهر بذكر ربك رئاء الناس أم إسماع اللّه فمحظور محظور، و إن كان إسماع الناس ليتذكروا كما أنت، أم تعليما لهم أم إعلاما فمحبور محبور.

و الأصل في ذكر ربك- تغاضيا عن ملابسات تفرض أو ترجح الجهرية- هو تحريك اللسان دون الجهر من القول مع حركة القلب، فإذا نبست الشفاة مع الأرواح، فليكن ذلك في صورة و سيرة لا تخدش الخشوع و لا تناقض الضراعة و البخوع، بل هو صوت خفيض حفيظ دون صراخ و ضجّة، أو مكاء و تصدية أو غناء و تطرية، و إنما هو ذكر يناسب «عند ربك» و كما يرضاه دون ما ترضاه و تهواه.

و «بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ» علهما زاويتان أصيلتان للأوقات كلها، فإنهما بداية اليقظة و نهايتها و قد فرضت الصلاة أوّل فرضها فيهما ثم ازدادت في غيرهما، أم هما عبارتان عن كافة الأوقات.

هذا قاله، و أما حاله الأخرى بعد «في نفسك» فهي «تضرعا» أمام ربك بضراعة و تذلل و تبتّل «و خيفة» مما قدمت يداك، و من نفسك غير اللائقة بذلك الذكر، و تلك الدعوة أمام ربك‏ «وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ» في أي وقت من أوقاتك، فليحشرك ذكر ربك قالا و حالا و أعمالا على أية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 113

حال‏ «1» ف:

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (206).

و هنا «عند ربك» تعني عندية الزلفى كما تناسب ربوبيته العليا لمكان «ربك» فهؤلاء السابقون المقربون هم «عند ربك» مكانة لا مكانا أو زمانا، فلا مكانة لهم إلّا «عند ربك» و لا قال لهم و لا حال و لا أعمال إلّا «عند ربك» فهم ليسوا حضورا عند شي‏ء أو عند أحد أم و عند أنفسهم إلا «عند ربك» فقد تخلّوا عما سوى «ربك» فتحلّوا ب «عند ربك» فهم‏ «لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ» بذكره في أنفسهم تضرعا و خيفة و دون الجهر من القول بالغدو و الآصال «و ليسوا هم من الغافلين».

«و يسبحونه» دائبين «و له» لا لسواه «يسجدون» منقطعين إليه في غاية التذلل بكل كيانهم.

و هذه هي من آيات السجدة التي لا تحصر فيما حصروه في أربع، بل هي بضع عشرة آية فإحدى عشرة سجدة «2» و لا سيما التي تأمر بالسجدة، و عل الأربع هي مهامها ثم تمامها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 157- أخرج البزار و الطبراني عن ابن مسعود عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ذاكر اللّه في الغافلين كالمقاتل عن الفارين،

و

فيه عن ابن عمرو أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الغفلة في ثلاث عن ذكر اللّه و من حين يصلّى الصبح إلى طلوع الشمس و ان يغفل الرجل عن نفسه في الدين حتى يركبه.

(2) المصدر

أخرج ابن ماجة و البيهقي في سننه عن أبي الدرداء قال: سجدت مع النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شي‏ء: الأعراف و النحل و بني إسرائيل و مريم و الحج سجدة و الفرقان و سليمان سورة النمل و السجدة و ص و سجدة الحواميم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 114

سورة الأنفال مدنيّة

و هي خمس و سبعون اية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 115

[سورة الأنفال (8): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 116

«سورة الأنفال» سمّيت بها حيث‏ «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ» و إنها هي الوحيدة في القرآن حول الأنفال، ما تختص بالقيادة الإسلامية السامية، و ليست لتختص بأشخاص خصوص حكومة أو شعبا، إنما هي لصالح الحكم الإسلامي حيث تصرف في المصالح العامة الراجعة- ككل- إلى الكتلة المؤمنة.

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1).

هنا «يسألونك» مضارعة، دون «سألوك» ماضية، مما تلمح لاستمرارية السؤال عن الأنفال، منذ السؤال الأول حتى يوم الدين، و الجواب: «قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» إجابة وافية للمتساءلين حوله إلى يوم الدين.

فالضرائب المستقيمة الإسلامية حسب القرآن هي أربع: هنا الأنفال فقط «لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» صرفا في الدعاية التوحيدية و الرسولية، و تحكيما لعراهما، ثم الفي‏ء الذي عديد مستحقيه هو كعديد مستحقي الخمس- إن كان الخمس حقا سوى الزكاة-: «وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ. ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى‏ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» (59: 7).

فمقسم الفي‏ء و الخمس هو الستة، و مقسم الأنفال اثنان، ثم مقسم الزكاة ثمانية، و لا اشتراك بينها و بين ست الخمس إلا في المساكين و ابن السبيل، فتبقى ستة من مقسم الزكاة غير مذكورة في مقسم الخمس، كما أن أربعة من مقسم الخمس غير مذكورة في الزكاة، أم إن الخمس ضريبة أخيرة من أنصبة الزكاة نسختها و كما يأتي تفصيله في آية الخمس.

فعلى أية حال قد تختلف الأنفال عن سائر الضرائب مصرفا و عديدا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 117

كما اختلفت مادة و مديدا.

فمادة الأنفال- و هي الزوائد من الأموال التي لا تختص بناس خصوص على أية حال- هي البحار و الأنهار و الصحاري و الغابات و بطون الأودية و الجبال‏ «1» و ما أشبه من عامة الأموال، التي لم تحصل بسعي، بل هي من خلق اللّه كما خلق، أم لا مالك له بالفعل مهما حصل بسعي سابق لمالك سابق.

فمن الأنفال ميراث من لا وارث له‏ «2»، كما منها الأموال المتروكة المعرض عنها «3» و ما أشبههما مما حصل بسعي و ليس له مالك بالفعل، و الأراضي المفتوحة عنوة بغير قتال مهما كانت- كأصل- من الأنفال، و لكنها مخصصة بآية الفي‏ء، و تبقى الأراضي و ما أشبه، التي تركها أهلوها، خربت أم هي بعد عامرة.

إذا فنحن مع حرفية النص «الأنفال» نمشي معها كما تمشي، فإنها هي الأموال الزائدة، غير المفروضة لأحد، حيث الأموال الخاصة هي مفروضة لأصحابها، فلا تدخل في عامة الأموال و أنفالها حتى تختص بصالح القيادة الرسولية و الرسالية.

و ترى «يسألونك» سؤال لأخذ الأنفال لمكان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 118 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل و لا ركاب أو قوم صالحوا أو قوم أعطوا بأيديهم و كل أرض خربة و بطون الأودية فهو لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو للإمام بعده يضعه حيث يشاء.

(2)

المصدر عن الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الرجل يموت و لا وارث له و لا مولى قال: هو أهل هذه الآية «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ» و في أخرى عنه (عليه السلام) قال: من مات ليس له مولى فماله من الأنفال.

(3)

المصدر عن إسحاق بن عمار قال‏ سألت أبا عبد اللّه عن الأنفال فقال: هي القرى التي قد خربت و انجلى أهلها فهي للّه و الرسول و ما كان للملوك فهو للإمام و ما كان من أرض خربة لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب و كل أرض لا رب لها و المعادن و من مات و ليس له مولى فماله من الأنفال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 118

«أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ»؟ «1» و صيغته‏ «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ»! أم سؤال عن مادة الأنفال و حكمها و مصرفها؟ و «قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» تلمح انه سؤال لأخذ الأنفال!، أم مصرفها.

علّ السؤال- قضية الأمرين- هو عن الأمرين، و «عن» يؤكد السؤال عن مادة الأنفال و حكمها و مصرفها مهما كان- أيضا- سؤالا إياها، قضية «وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ» فلأن الأنفال كانت معلومة المادة و مجهولة المورد و الحكم، لذلك اختص الجواب بالثاني، و قد تعني لام التعريف تعريفا بأنفال سالفة الذكر على لسان الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، فصحيح أن الأنفال مطلقة تشمل كل زائد عن حاجيات الحياة، إلا أن تعريفها يعرّفها أن لها عهدا بين المسلمين و لا نجد لها عهدا إلّا في الأموال التي ليس لها أصحاب خصوص، ففي كل حاجة من حاجيات الحياة فرائض و أنفال، و لكن المعني من الأنفال هنا ما عنته السنة و عرّفته دون سائر الأنفال.

و لأن «الأنفال» من النفل و هو الزائد، فالأنفال في حقل الأموال هي الزائدة عن المساعي كالتي لا مالك لها خاصا، أم عايدة بمساعي و سواها ثم طرء عليها عدم مالك لها كميراث من لا وارث له، أم الأموال التي أعرض عنها أصحابها «2» و أما الزوائد عن الحاجات المتعودة فيما حصلت بمساعي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 2: 117 في تهذيب الأحكام في مرفوعة بعض أصحابنا «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ» أن تعطيهم منه قال «قل الأنفال لله و للرسول و ليس هو يسألونك عن الأنفال».

أقول: علّه ينفي اختصاص السؤال بمادة السؤال، و لقد غلط من قال قد صح أن قراءة أهل البيت‏ «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ» كما في البحار (19: 211) و في جامع الجوامع للطبرسي.

قرأ ابن مسعود و علي بن الحسين زين العابدين و الباقر و الصادق (عليهم السلام): يسألونك الأنفال.

(2) مما يوافق الآية

موثقة إسحاق بن عمار المروية في تفسير القمي عن الأنفال فقال: هي القرى التي قد خربت و انجلى أهلها فهي اللّه و للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ما كان للملوك فهو للإمام و ما كان من الأرض الخربة لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب و كل أرض لا رب لها و المعادن منها من مات و ليس له مولى فماله من الأنفال،

و

المروي في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 119

كما عنتها «العفو» في: «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (2: 219) فلأنها غير محصورة ب «لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» فلأصحابها إنفاقها في مختلف الحاجات و المحاويج فلا تشملها «الأنفال» بدليل اختصاصها باللّه و الرسول.

و هل المعادن من الأنفال؟ كونها من واقع الأنفال يحسبها منها، و مختلف الرواية حولها معروض على عموم الآية، فليست المعادن- إذا- مما يجب فيه الخمس، بل هي كسائر الأنفال للّه و الرسول.

و هكذا الكنوز و ما أشبه من أموال لا يعرف لها مالك خاص، فانحساب المعادن و الكنوز مما يجب فيه الخمس يطارد آية الأنفال.

و قطائع الملوك هي من الأنفال فإنهم لا يملكونها لكونها من الأنفال أم مجهولة المالكين‏ «1»، و كذلك الأراضي أو البلاد التي سلّم للمسلمين دون حرب، إذا فبين الفي‏ء و الأنفال و الخمس بون، حيث يختص الفي‏ء بما لم يوجف عليه بخيل و لا ركاب و الأنفال تعم كل الأنفال، و الخمس بما غنمتم من شي‏ء، فالمعادن و الكنوز ليست من موارد الخمس.

و ليست آية الخمس- الآتية- بالتي تنسخ آية الأنفال، بل هي تخصّص بها بغير الأنفال، لا سيما و أن المحتمل قويا- كما يأتي- كون الخمس ضريبة ناسخة لأنصبة الزكوة في السنة كما لا تنسخها آية الفي‏ء، فالأنفال عامة لعموم آيتها، ثم تخصص بالفي‏ء كما تتخصص بها الخمس خروجا للمعادن و الكنوز عنه إلى الأنفال.

إن موضوع الخمس‏ «أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» و الغنيمة تباين «الأنفال»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- تفسير العياشي عن أبي بصير و ما الأنفال؟ قال: منها المعادن و الآجام- الحديث.

و مما يخالفها هي التي تعد المعادن مما يجب فيه الخمس، كما

عن تفسير النعماني باسناده عن علي (عليه السلام) قال: الخمس يجري من أربعة وجوه من الغنائم التي يصيبها المسلمون من المشركين و من المعادن و من الكنوز و من الغوص.

(1). و تدل عليه‏

صحيحة داود بن فرقد قال قال أبو عبد اللّه (عليه السلام): «قطائع الملوك كلها للإمام و ليس للناس فيها شي‏ء» (التهذيب 1: 388).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 120

فإنها خارجة عن المساعي مغنما سواه، و موضوع الفي‏ء هو الفي‏ء، فلا تناسخ- إذا- بين هذه الثلاثة، و إنما لكلّ موضوعه الخاص و حكمه دون تدخل لبعض في بعض أو تداخل.

إذا ف «الأنفال»- باستثناء الفي‏ء- هي كلها للّه و الرسول، تصرف في صالح الدعوة التوحيدية و الرسولية و الرسالية، فهي بيد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يصرفها في صالح الرسالة الإسلامية كما يراه صالحا، ثم خلفاءه المعصومون (عليهم السلام) كلّ تلو الآخر، و من ثم الشورى من الرعيل الأعلى في العلماء الربانيين، فالمصرف هو المصرف مهما كان الصارف في مثلث مترتب تلو بعض.

و مهما نزلت سورة الأنفال في جو بدر الكبرى و غزوته بملابساتها الخاصة، و لكنها ليست- على أية حال- بأنفال بدر فقط، قضية جمعها المحلى باللّام حيث يفيد الاستغراق.

ذلك‏ «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ» و ذلك هتاف عطاف لهذه القلوب المتنازعة المتفللة غير المتنفلة حول الأنفال، من هؤلاء الأغفال الذين كانوا يتهافتون على الأنفال.

و من حصائل تقوى اللّه و إصلاح ذات البين طاعة اللّه و رسوله:

«وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» باللّه و رسوله، و متقين حرمات اللّه و رسوله.

و إصلاح ذات البين هو من هامة الفرائض الإيمانية، محاولة جماهيرية من كافة الأطراف المعنية لإصلاح الفاسد فيما بينهم حيث بزغ الشيطان و نزغ بينكم، «قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ» (17: 53). «وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» (4:) 128).

و اللّه هو المصلح بيننا بما نسعى و نصلح في الآخرة «1» و الأولى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 3: 162 عن أنس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إذا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 121

و لكنه‏ «لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» و قد تعني‏ «ذاتَ بَيْنِكُمْ» إلى مختلف الأطراف المتنازعة، ذوات الأنفس، حيث الاختلاف بين العقل و النفس، بل و إصلاح النفس هو قبل إصلاح ذات البين لآخرين.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2).

هنا مثلث وجل القلوب، و زيادة الإيمان، و التوكل على الرب، هي المحاصيل الأصيلة لصالح الإيمان.

1 «إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» حيث يدخل ذكر اللّه من مسامعهم إلى عقولهم و منها إلى قلوبهم فهي وجلة من عظم الموقف من ربهم حيث يجدونه حاضرا في قلوبهم، فيغيب عنها كل ما سوى اللّه حيث احتل مجالاتها ذكر اللّه.

و ترى كيف‏ «وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ»؟ و الإذاعة القرآنية تعلن‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»! هنا «تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ» إلى اللّه، و هناك‏ «وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» عما سوى اللّه، حيث تجلت بذكر اللّه، و جل من أن تحل في قلوبهم ذكر غير اللّه مع اللّه، و وجل من عظمة اللّه، ثم تجلّ كامل فيها لذكر اللّه، فاطمئنان- إذا- بذكر اللّه، كما «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ» (39: 23).

فالوجل و القشعريرة هما حالتان سلبيتان للقلوب تخلية لها عما سوى اللّه، ثم الاطمئنان لها بذكر اللّه حالة إيجابية تمثيلا للكلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» مهما كان للوجل حالة أخرى إيجابية تجتمع مع الاطمئنان و هي الشعور بعظم الموقف الرهيب أمام اللّه.

فليس اللّه ليوجل و يخاف إلا من عدله و من عظم محتده، و ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كان يوم القيامة نادى مناد يا أهل التوحيد إن اللّه قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض و عليّ الثواب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 122

الوجل الثاني هو الوسيط بين الأول و بين اطمئنان القلوب بذكر اللّه، و هو يعيش ذلك الاطمئنان و من حصائل ذلك الوجل الجلل و الطمأنة:

2 «وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً» حيث تجلو القلوب بتلاوة آيات اللّه إذ تحل فيها و تحتل القمة منها «زادَتْهُمْ إِيماناً» على إيمانهم، «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17) بتلاوة آياته سمعا و عقلا و علما و طاعة بكاملها.

هنا «تليت» و ليست «قرأت» مما يلمح بأن ذلك من خواص التلاوة المتبعة، كما و ان مهمة الرسالة الإسلامية هي‏ «وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ» دون «أقرء» حيث التلاوة هي المتابعة.

و قد تعني‏ «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63) هذه التلاوة الصالحة المصلحة التي يتلوها «زادَتْهُمْ إِيماناً».

فقد يحصل حاصل الإيمان الزائد بفاعلية «تليت» و قابلية القلب المتلوّ عليه، فأما إذا فقد القابلية بسوء الاستقبال أم عدم تصميمه في صميمه فلا محصل للقلب قطعا، و في القابلية- و حتى مع نقص الفاعلية- له محصل مهما اختلفت الدرجات، فوا ويلاه إذا ضعف الطالب و المطلوب، نقصانا في الفاعلية و القابلية.

و «آياته» جمعا مضافا تستغرق إلى الآيات التدوينية، الأخرى التكوينية، فحين تتلى تبينا عليه هذه الآيات زادته إيمانا كما زادته آياته التشريعية إيمانا.

و هذه التلاوة المباركة لطليق آياته تسمعه ما يحرضه على زائد الإيمان سمعا ثم عقلا و تدبرا ثم علما ثم عقيدة ثم تطبيقا شخصيا ثم نشرا و بلاغا.

3 و من ثم‏ «وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» في الحصول على مزيد الإيمان و صالح أعمال الإيمان، دونما اتكالية خاوية عن مساعي، أم توكل دون معداته.

و

لقد ذكر الإمام أمير المؤمنين لأهل الذكر ذكرا جميلا ما أجمله، قاله عند تلاوته‏ «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»: إن اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 123

سبحانه و تعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، و تبصر به بعد الغشوة، و تنقاد به بعد المعاندة، و ما برح للّه- عزت آلاءه- في البرهة بعد البرهة، و في أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم، و كلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار و الأسماع و الأفئدة، يذكّرون بأيام اللّه و يخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، و بشروه بالنجاة، و من أخذ يمينا و شمالا ذمّوا إليه الطريق، و حذروه من الهلكة، و كانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات، و أدلة تلك الشبهات- و إن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا، فلم تشغلهم تجارة و لا بيع، يقطعون به أيام الحياة، و يهتفون بالزواجر عن محارم اللّه في أسماع الغافلين، يأمرون بالقسط و يأتمرون به و ينهون عن المنكر و يتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة و هم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، و حققت القيامة عليهم عذابهم، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، و يسمعون ما لا يسمعون‏ (الخطبة 213).

و لأن أصل الذكر هو في القلوب فخير الذكر هو في أوعى القلوب و كما

قال لكميل بن زياد: «يا كميل! إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة، فعالم رباني، و متعلم على سبيل نجاة، و همج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا ينور العلم، و لم يلجأوا إلى ركن وثيق- اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهرا مشهورا، و أما خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله و بيناته، و كم ذا و أين؟

أولئك و الله الأقلون عددا، و الأعظمون عند الله قدرا، يحفظ الله بهم حججه و بيناته حتى يودعوها نظراءهم، و يزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، و باشروا روح اليقين، و استلانوا ما استوعره المترفون، و أنسوا بما استوحش منه الجاهلون، و صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلقاء الله في أرضه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 124

و الدعاة إلى دينه، آه آه شوقا إلى رؤيتهم، انصرف يا كميل إذا شئت» «1» يا كميل! العلم خير من المال، العلم يحرسك و أنت تحرس المال، و المال تنقصه النفقة و العلم يزكو على الإنفاق، و صنيع المال يزول بزواله- يا كميل بن زياد! معرفة العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، و جميل الأحدوثة بعد وفاته، و العلم حاكم و المال محكوم عليه- يا كميل بن زياد! هلك خزان الأموال و هم أحياء، و العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، و أمثالهم في القلوب موجودة، ها أن هاهنا لعلما جما لو أصبت له حملة، بلى أصبت لقنا غير مأمون عليه مستعملا آلة الدين للدنيا، و مستظهرا بنعم اللّه على عباده، و بحججه على أولياءه، أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، ألا لا ذا و لا ذاك، أو منهوما باللّذة، سلس القياد للشهوة، أو مغرما بالجمع و الادخار، ليسا من رعاة الدين في شي‏ء شبها بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه-

«إنما» هؤلاء الأكارم هم «المؤمنون» شرط أن يكونوا من:

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3).

رباط أوّل باللّه بإقام الصلاة التي هي عمود الدين و عماد اليقين، و رباط ثان بالإنفاق لأهل اللّه في اللّه‏ «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ» ما يمكن إنفاقه مالا و حالا: علما و عملا صالحا و عقيدة «ينفقون» دون رجاء لجزاء أو شكور إلا ابتغاء وجه اللّه، ف:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الحكمة 140 قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فأخرجني إلى الجبّان، فلما أصحو تنفس الصّعداء ثم قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 125

أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (4).

فحق الإيمان و حاقّه و درجات عند الرب و مغفرة و رزق كريم، ليست إلّا على ضوء الواقع من ذلك المخمس البارع، ثم من دون هؤلاء هم دونهم في الإيمان و الدرجات و المغفرة و الرزق الكريم‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» و

«بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة و بالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله و بالنقصان دخل المفرطون النار» «1».

و لقد تقدمت هنا أفعال القلوب الثلاث على أفعال القوالب الإثنين في الذكر، قضية تقدمها في صالح الترتيب واقعيا، فما لم يعمّر القلب لم يعمّر القالب.

فالخطوة الأولى من الأولى هي‏ «وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» بجانبي السلب و الإيجاب، و الثانية «زادَتْهُمْ إِيماناً» و هي جانب الإيجاب، و الثالثة «عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» في كلا السلب و الإيجاب، ابتداء بذكر اللّه و انتهاء إلى التوكل على اللّه، و هم على طول الخط يعيشون الإيمان باللّه، متكاملا متكافلا على مدار الحياة في سبيل اللّه.

و من محاصيل هذه الخطوات القلبية الثلاث كظاهرة أولى في العمل: إقام الصلاة. و من ثم الإنفاق من رزق اللّه، «أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 121 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) أنه قال: ...

و

في الدر المنثور 3: 162- أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري‏ انه مر برسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال له كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: انظر ما تقول فإن لكل شي‏ء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي و اظمأت نهاري و كأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها و كأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، قال: يا حارث عرفت فالزم ثلاثا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 126

و قد تختصر هذه الخمس في: «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» كما العكس هو عكسه: «وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ» (22: 51).

و هنا- قضية مختلف الدرجات لذلك المخمس و عامليها «دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» مقسّمة فيما بينهم حسب درجاتهم في هذه الخطوات الخمس دونما فوضى جزاف، كما و العندية الزلفى أيضا «درجات» درجات حسب الدرجات و لا يظلمون فتيلا.

[سورة الأنفال (8): الآيات 5 الى 13]

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (5) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)

وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى‏ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى‏ قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (12) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (13)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 127

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (5).

ترى و إلى م يرجع التشبيه في‏ «كَما أَخْرَجَكَ» ثم الذين كفروا هم الذين أحرجوه حتى أخرجوه بالباطل، فكيف- إذا- «أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ»؟: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ» (9: 40)! لأن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان في أعلى قمم التقوى، و جلا قلبه بذكر اللّه، زائدا إيمانه إذا تليت عليه آيات اللّه أو تلي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 128

آيات اللّه، متوكلا- على أية حال- على اللّه، مقيما للصلاة و منفقا مما رزقه اللّه في اللّه، لذلك فعلى اللّه ألا يكله إلى نفسه و ان يرعاه بخاصة رعايته، و إخراجه من بيته مهما كان بإخراج المشركين تصميما لقتله، و لكن- من ناحية أخرى- إخراج من اللّه إلى الغار حيث أعماهم كيلا يروه، خلاصا عن قتلهم إياه، و إلى المدينة حتى بعد عدّته، و يمضي مدته خلال عشرة كاملة فيرجع إلى بيته عزيزا منتصرا، ثم إخراجا منه للبدر الكبرى كانتصار أول له بعد الهجرة، فمهما كان ذلك الإخراج من المشركين بالباطل قضية تصميمهم على قتله، فقد كان من اللّه بالحق، بل إنهم ما أخرجوه في مكرهم اللعين، بل صمموا على قتله فأخرجه اللّه تخليصا له عن كيدهم أولا، و تأسيسا لدولة الإسلام في مهجره أخيرا، ثم رجوعا إلى العاصمة منتصرا.

فنسبة الإخراج إلى الذين كفروا نسبية فإنه- فقط- إحراج بتصميم قتله فأخرجه اللّه، ثم نسبته إلى اللّه واقعية حقيقية حيث نجاه به من بأسهم.

فهو- إذا- إخراج من ربك بالحق، قضية التربية القمة الخاصة بك، حيث يريد اللّه تكميل رسالتك و بلاغ دعوتك، و لأنها لم تكن لتتم في ذلك الجو المحرج المكي، فقد أخرجه اللّه إلى المدينة استتماما لدعوته و استكمالا لبقيته، و كما أخرجك ربك من بيتك بالحق يوم بدر.

ذلك، رغم‏ «إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ» ذلك الإخراج، بقصر النظر إلى ظاهر الإحراج و حاضره الوبي‏ء، دون نظرة إلى صالح الحاضر فرارا عن بأسهم، و صالح المستقبل استرجاعا للعاصمة بكل قوة.

فحين يرى الداعية أن جو الدعوة الحاضر صعب صلب صلت، و قد يقضى على دعوته فيه أو يصد عنها، فصالح الدعوة أن يتنقل بحياته و حياة الدعوة إلى جو آخر يستكمل فيه عدته و عدته لردح صالح من الزمن، ثم إذا رأى كفاحا صارما في بنيته بأنصاره يرجع إلى عاصمة الدعوة قويا صارما منتصرا و كما فعله الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بما أخرجه اللّه من بيته بالحق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 129

ذلك إخراج بالحق هجرة، ثم إخراجات أخرى كما أخرجك ربّك من المدينة لحرب بدر «وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ» كراهة لمعركة دموية خطيرة، حيث يرون عدم المكافحة في عدة و لا عدة، فإنهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا و المشركون ألف أو يزيدون، و كما كانوا كارهين اختصاص الأنفال باللّه و الرسول، فبين الكراهتين تشابه موردهما في الحق لصالحهم أنفسهم.

«كَما أَخْرَجَكَ» في التأويل الأول، هي كما أخرجناه، و في الثاني قد يعني: أن اللّه خصك بعد نفسه تعالى بالأنفال، كما خصّك أن‏ «أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ». فلو لا أن اللّه أخرجه يوم بدر لم يحصل ذلك الفتح المبين، جبرا لكسر إخراجه من العاصمة بعد ثمانية عشر شهرا من مهجره.

يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (6).

هؤلاء الكثيرة الكارهة لخروجك عن العاصمة عند الهجرة، و خروجك عن المدينة إلى بدر «يُجادِلُونَكَ فِي» ذلك‏ «الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ» لهم بما أخرجك ربك وحيا فارضا «كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ» حيث يرونهم قلة و أعداءهم كثرة كثيرة «وَ هُمْ يَنْظُرُونَ» إلى مضاجعهم في هذه الحرب الحرجة الخطيرة المرجة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روي الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره باسناده عن ابن أيوب الأنصاري قال: قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و نحن بالمدينة: إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل اللّه أن يغنمناها؟ فقلنا: نعم فخرج و خرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم؟ فقلنا: لا و اللّه ما لنا طاقة بقتال العدو، و لكنا أردنا العير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذن لا نقول لك يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كما قال قوم موسى لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ» فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد بن عمر أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل اللّه على رسوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «كَما أَخْرَجَكَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 130

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في البحار 19: 215 قال أصحاب السير و ذكر أبو حمزة و علي بن إبراهيم في تفسيرهما دخل حديث بعضهم في بعض: أقبل أبو سفيان بعير قريش من الشام و فيها أموالهم و هي اللطيمة فيها أربعون راكبا من قريش فندب النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أصحابه للخروج إليها ليأخذوها و قال: لعل اللّه أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم و ثقل بعضهم و لم يظنوا أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يلقى كيدا و لا حربا، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان و الركب لا يرونها إلا غنيمة لهم فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة و أمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم و يخبرهم أن محمدا قد تعرض لعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعا إلى مكة و كانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال أن رجلا أقبل على بعير له ينادي يا آل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبي قبيس فأخذ حجرا فدهدهه من الجبل فما ترك دارا من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك فأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة هذه مصيبة في قريش و فشت الرؤيا فيهم و بلغ ذلك أبا جهل فقال: هذه بنية ثانية في بني عبد المطلب و اللات و العزى لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقا و إلا لنكتبن كتابا بيننا انه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالا و لا نساء من بني هاشم، فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت يا آل غالب يا آل غالب اللطيمة اللطيمة العير العير أدركوا و ما أراكم تدركون، ان محمدا و الصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم فتهيأوا للخروج و ما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالا لتجهيز الجيش و قالوا: من لم يخرج نهدم داره، و خرج معهم العباس بن عبد المطلب و عقيل بن أبي طالب و نوفل بن الحارث بن عبد المطلب و عقيل بن أبي طالب و اخرجوا معهم القيان يضربون الدفوف و خرج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا فلما كان بقرب بدر أخذ عينا للقوم فأخبره بهم-

و

في حديث أبي حمزة الثمالي‏ بعث رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عينا له على العير اسمه عدي فلما قدم على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأخبره أين فارق العير نزل جبرئيل على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأخبره بنفير المشركين من مكة فاستشار أصحابه في طلب العير و حرب النفير فقام أبو بكر فقال: يا رسول اللّه إنها قريش و خيلاءها ما آمنت منذ كفرت و لا ذلت منذ عزت و لم تخرج على أهبة الحرب ..

و أنا عالم بهذا الطريق فارق عديّ العير بكذا و كذا و ساروا و سرنا فنحن و القوم على بدر يوم كذا و كذا كأنّا فرسا رهان، فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أجلس فجلس ثم قام-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 131

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- المقداد فقال: يا رسول اللّه إنها قريش و خيلاءها و قد آمنا بك و صدقنا و شهدنا أن ما جئت به حق و اللّه لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا و شوك الهراس لخضناه معك، و اللّه لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى‏ «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ» و لكنا نقول:

امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون فجزاه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على قوله ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس- و إنما يريد الأنصار- لأن أكثر الناس منهم و لأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: إنا براء من ذمتك حتى نصل إلى دارنا، ثم أنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع آباءنا و نساءنا فكان يتخوف أن لا يكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدو و أن ليس عليهم أن ينصروه بخارج المدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت و أمي يا رسول اللّه كأنك أردتنا؟ فقال: نعم، فقال: بأبي أنت و أمي يا رسول اللّه إنا قد آمنا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جئت به حق من عند اللّه فمرنا بما شئت و خذ من أموالنا ما شئت و أترك منها ما شئت و اللّه لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك و لعل اللّه أن يريك ما تقربه عينك، فسر بنا على بركة اللّه ففرح بذلك رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قال: سيروا على بركة اللّه فإن اللّه وعدني إحدى الطائفتين و لن يخلف اللّه وعده و اللّه لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام و عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و فلان و فلان و أمر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالرحيل و خرج إلى بدر و هو بئر- و أقبلت قريش و بعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش، قالوا: فأين العير؟

قالوا: لا علم لنا بالعير، فأقبلوا يضربونهم و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يصلي فانفتل من صلاته و قال: إن صدقوكم ضربتموهم و ان كذبوكم تركتموهم فأتوه بهم فقال لهم: من أنتم؟ قالوا يا محمد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟ قالوا: لا علم لنا بعددكم قال: كم ينحرون كل يوم من جزور؟ قالوا: تسعة إلى عشرة، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): القوم تسعمائة إلى ألف رجل فأمر (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بهم فحبسوا و بلغ ذلك قريشا ففزعوا و ندموا على مسيرهم و لقى عتبة بن ربيعة أبا البختري بن هشام فقال: أما ترى هذا البغي و اللّه ما أبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا و قد أفلتت فجئنا بغيا و عدوانا و اللّه ما أفلح قوم بغوا قط و لوددت ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهبت و لم نسر هذا المسير فقال له أبو البختري: إنك سيد من سادات قريش فسر في الناس و تحمل العير التي أصابها محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أصحابه بنخلة و دم ابن الحضرمي فإنه حليفك، فقال له: علي ذلك و ما على-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 132

و هنا نعرف أن التكتيكات الحربية إلى سائر التصرفات الرسالية، كانت كلها بوحي من اللّه و كما قال اللّه‏ «إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» (4: 105) فحاكميته الرسالية في كل حقولها ليست إلّا بما أراه اللّه دون رأيه أم آراء المسلمين.

و مهما استشار الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في ظاهر الحال أصحابه في مواجهة النفير أو العير و أكثرهم كانوا مع العير خائفين عن النفير كأبي بكر و أضرابه، و لكن قلة قليلة كمقداد و أضرابه تقول «امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون» و لكنه كان ماضيا بأمر اللّه على أية حال حيث‏ «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

ذلك و المجادلة بين محظورة و محبورة «1» و المحظورة هي المجادلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلة يعني أبا جهل، فصر إليه و أعلمه أني حمّلت العير و دم ابن الحضرمي و هو حليفي و علي عقله، قال: فقصدت خباه و أبلغته ذلك فقال: ان عتبة يتعصب لمحمد فإنه من بني عبد مناف و ابنه معه و يريد أن يخذل بين الناس، لا و اللّات و العزى حتى نقحم عليهم يثرب، أو نأخذهم أسارى فندخلهم مكة و تتسامع العرب بذلك و كان أبو حذيفة بن عتبة مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كان أبو سفيان لما جاز بالعير بعث إلى قريش قد نجى اللّه عيركم فارجعوا و دعوا محمدا و العرب و ادفعوه بالراح ما اندفع و ان لم ترجعوا فردّوا القيان، فلحقهم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الجحفة فأراد عتبة أن يرجع فأبى أبو جهل و بنو مخزوم وردوا القيان من الجحفة، قال: و فزع أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لما بلغهم كثرة قريش و استغاثوا و تضرعوا فأنزل اللّه: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ».

(1).

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أنه قال: «نحن المجادلون في دين الله»

و قد نهي عن الجدل و الاختلاف، و هو الجدل في الحق لإبطاله أو التشكيك فيه دون عناية لإيضاحه و تحقيقه كما في مفتاح كنوز السنة تحت عنوان «النهي عن الجدل و الاختلاف» عن بخ- ك 96 ب 2 و 3 و 26، مس- ك 43 ح 132 و 134، ك 48 ح 5، بد- ك 39 ب 4، قا 18، مج- المقدمة ب 7 و 10، مي- المقدمة ب 28 و 34، حم- أول ص 457، ثان ص 317.

و تحت عنوان «ما يهدم الإسلام من الجدل» عن مى- المقدمة ب 22، و تحت عنوان ما-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 133

في الحق نكرانا له، و المحبورة هي المجادلة تصديقا إياه.

و المجادلة في الحق بعد التبين أشد حظرا منها بغير علم كما «يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ» و من ثم بغير علم: «ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» (3: 66) و أنحس منهما المجادلة لدحض الحق: «وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» (18: 56).

و كما للمجادلة المحظورة دركات، كذلك للمحبورة درجات أحسنها أحسنها: «وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (16: 125) و طالما الجدال نوعان، لكنما المراء محرم على أية حال‏ «1».

«كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ»! «فإن الموت هادم لذاتكم، و مكدر شهواتكم، و مباعد طياتكم، زائر غير محبوب، و قرن غير مغلوب، و واتر غير مطلوب، قد أعلقتكم حبائله، و تكفتكم غوائله، و أقصدتكم معابله، و عظمت فيكم سطوته، و تتابعت عليكم عدوته، و قلت عنكم نبوته، فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلله، و احتدام علله، و حنادس غمراته، و غواشي سكراته، و أليم إزهاقه، و دجو إطباقه، و جشوبة مذاقه، فكان قد أتاكم بغتة فأسكت نجيكم، و فرق نديكم، و عفى آثاركم، و عطل دياركم، و بعث وراثكم يقتسمون تراثكم، بين حميم خاص لم ينفع، و قريب محزون لم يمنع، و آخر شامت لم يجزع» (الخطبة 221).

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (7).

«الطائفتين» هنا هما العير و النفير «2» عير كبير من الشام إلى مكة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- ضل قوم بعد هدي إلا أوتوا الجدل عن مس- ك 43 ح 130 و 131 حم- خامس ص 252 و 256.

(1، 2). و

عن أبي الدرداء و أبي أمامة و واثلة و أنس قالوا: خرج علينا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 134

مثقلة بأموال ضخمة، و نفير من مكة مثقلة بعتاد للحرب ضخمة يريدون حرب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قد وعد اللّه المؤمنين إحدى الطائفتين «أنها تكون لكم» تغلّبا على العير أم على النفير، و النفير هي بطبيعة الحال ذات الشوكة الحربية القوية عدة و عدة، و المسلمون ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا في قلة من عدة و عدة، فأنتم‏ «تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ» خوفا عن الشائكة، و اغتناما للغنيمة دونما حرب، و لكن‏ «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ» بهزيمتهم العظيمة رغم كثرتهم الكثيرة في عدة و عدة.

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8).

و حيث لا يضمن التغلب على العير إحقاق الحق و إبطال الباطل إلا تغلبا اقتصاديا، و لكن التغلب على النفير يضمن كل تغلب للحق على الباطل، لذلك أراد اللّه أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة، تحقيقا للحق و قطعا لدابر الكفر، تضعيفا لساعده و مساعده لردح بعيد من الزمن.

و هكذا حاك في نفوس كثير من المؤمنين كراهة القتال حتى ليقول اللّه عنهم: «يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ» رغم تبين الحق و أن اللّه وعدهم إحدى الطائفتين، مقدرا لهم إحداهما كما يريد لا كما يريدون.

فقد قدر اللّه لهم إحدى الطائفتين أولا على سبيل الإجمال كائنة ما كانت عيرا أو نفيرا، القوية ذات الشوكة و الشائكة، أو الأخرى غير ذات الشوكة، و هم يريدون حاضر العير دون تعب، و اللّه يريد حاذر النفير بتعب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و آله و سلم) «و نحن نتمارى في شي‏ء من أمر الدين فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة: في رياضها و أوسطها و أعلاها لمن ترك المراء و هو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء» (العوالم 2- 3: 432).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 135

و ليحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين، بضمان رباني «انها تكون لكم» مهما كان في أمر مواجهتهم من إمر «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» فأين ما أراده اللّه لهم مما أرادوه، فلقد كانت تمضي- لو كانت لهم غير ذات الشوكة- قصة غنيمة فحسب، فأما قصة بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة صامدة للمؤمنين، و عقدة كافرة عاندة للكافرين، قصة انتصار القلوب حين تتصل باللّه انفصالا عما سوى اللّه و تخلصا من ضعفها الذاتي، فقد خاضت المعركة بنصر اللّه و كفة الكفر راجحة في الظاهر، فقلبت كفة الإيمان بيقينها ميزان الظاهر فغلبت عليها ذلك الغلب الباهر.

و لقد حقق اللّه وعده في أنها تكون لكم: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ‏ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ» (3: 12) و 127).

ذلك، و هنا تفاصيل هامة عن وقعة بدر الكبرى امتنانا على الرسول و على المؤمنين و ليأخذوا درسا عن روحية التكتيك في قتال أعداد اللّه على مدار الجبهات الإسلامية السامية دونما استثناء.

لقد نسمع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في غائلة بدر يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف ربه مادا يديه حتى سقط رداءه من منكبه فأنزل اللّه‏ «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ» «1» و يقول: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم انهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 19: 221 قال ابن عباس: لما كان يوم بدر و اصطف القوم للقتال قال أبو جهل:

اللّهم أولانا بالنصر فانصره، و استغاث المسلمون فنزلت الملائكة و نزل قوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ»

و

قيل: إن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لما نظر إلى كثرة عدد المشركين و قلة عدد المسلمين استقبل القبلة و قال: اللّهم ..

(2)

المغازي للواقدي 1: 26 و السنن الكبرى للبيهقي عن عبد اللّه بن عمر أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) دعا بهذا الدعاء رافعا يديه إلى السماء حين خرج بعدة البدر من المؤنثة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 136

ذلك، و

قد دعاهم رسول اللّه- مبتدرا بينهم- إلى بدر لمواجهة النفير دون العير فقال: هلموا إلى بدر فإن هناك الملتقى و المحشر، و هناك البلاء الأكبر، لأضع قدمي على مواضع مصارعهم، ثم ستجدونها لا تزيد و لا تنقص و لا تتغير و لا تتقدم و لا تتأخر لحظة و لا قليلا و لا كثيرا فلم يخف ذلك على أحد منهم و لم يجبه إلا علي بن أبي طالب (عليه السلام) وحده و قال: نعم- بسم اللّه فقال الباقون: نحن نحتاج إلى مركوب و آلات و نفقات و لا يمكننا الخروج إلى هناك و هو مسيرة أيام فخطا القوم خطوة ثم الثانية فإذا هم عند بئر بدر فعجبوا فجاء رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: اجعلوا البئر العلامة و اذرعوا من عندها كذا ذراعا فذرعوا فلما انتهوا إلى آخرها قال: هذا مصرع أبي جهل يجرحه فلان الأنصاري و يجهز عليه عبد اللّه بن مسعود ضعف أصحابي، ثم قال:

اذرعوا من البئر من جانب آخر ثم جانب آخر ثم جانب آخر كذا و كذا ذراعا و ذراعا- و ذكر أعداد الأذرع مختلفة- فلما انتهى كل عدد إلى آخره قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذا مصرع عتبة، و ذلك مصرع الوليد، و هذا مصرع شيبة، و سيقتل فلان و فلان، إلى أن سمى تمام سبعين منهم بأسمائهم، و سيؤسر فلان و فلان، إلى أن ذكر سبعين منهم بأسمائهم و أسماء آباءهم و صفاتهم، و نسب المنسوبين إلى الآباء منهم، و نسب الموالي منهم إلى مواليهم، ثم قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أوقفتم على ما أخبرتكم به، قالوا: بلى، قال: «إن ذلك لحق كائن بعد ثمانية و عشرين يوما من اليوم التاسع و العشرين وعدا من الله مفعولا و قضاء حتما لازما» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 19: 265 م ج بالإسناد إلى أبي محمد العسكري (عليه السلام) قال: أرسل أبو جهل بعد الهجرة رسالة إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هي أن قال:

يا محمد إن الخيوط التي في رأسك هي التي ضيقت عليك مكة و رمت بك إلى يثرب و انها لا تزال بك حتى تنفرك، و تحثك على ما يفسدك و يتلفك إلى أن تفسدها على أهلها و تصليهم حر نار و تعدّيت طورك، و ما أرى ذلك إلا و سيؤل إلى أن تثور عليك قريش ثورة رجل واحد لقصد آثارك و دفع ضررك و بلائك فتلقاهم بسفهائك المغترين بك و يساعدك-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 137

فهؤلاء القتلى السبعون و الأسرى السبعون من المشركين الذين كانوا ألفا أو يزيدون، و أما الشهداء من المؤمنين فأربعة عشر بين ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

على ذلك من هو كافر بك مبغض لك فيلجئه إلى مساعدتك و مظافرتك خوفه لأن يهلك بهلاكك و يعطب عياله بعطبك و يفتقر هو و من يليه بفقرك و بفقر شيعتك إذ يعتقدون أن أعداءك إذا قهروك و دخلوا ديارهم عنوة لم يفرقوا بين من والاك و عاداك و اصطلموهم باصطلامهم لك و أتوا على عيالاتهم و أموالهم بالسبي و النهب كما يأتون على أموالك و عيالك و قد أعذر من أنذر و بالغ من أوضح- فأديت هذه الرسالة إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو بظاهر المدينة بحضرة كافة أصحابه و عامة الكفار من يهود بني إسرائيل و هكذا أمر الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ليجّبن المؤمنين و يغري بالوثوب عليه سائر من هناك من الكافرين- فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) للرسول:

قد أطريت مقالتك و استكملت رسالتك؟ قال: بلى. قال: فاسمع الجواب: إن أبا جهل بالمكاره و العطب يتهددني و رب العالمين بالنصر و الظفر يعدني و خبر اللّه أصدق و القبول من اللّه أحق، لن يضر محمدا من خذله أو يغتصب عليه بعد أن ينصره اللّه و يتفضل بجوده و كرمه عليه، قل له: يا أبا جهل إنك راسلتني بما ألقاه في خلدك الشيطان، و أنا أجيبك بما ألقاء في خاطري الرحمن، إن الحرب بيننا و بينك كائنة إلى تسعة و عشرين و ان اللّه سيقتلك فيها بأضعف أصحابي و ستلقى أنت و عتبة و شيبة و الوليد و فلان و فلان- و ذكر عددا من قريش- في قليب بدر مقتلين، أقتل منكم سبعين و آسر منكم سبعين، أحملهم على الفداء الثقيل، ثم نادى جماعة من بحضرته من المؤمنين و اليهود و سائر الأخلاط ألا تحبون أن أريكم مصرع كل واحد من هؤلاء؟ قالوا بلى، قال: هلموا إلى بدر فان هناك الملتقى و المحشر فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لسائر اليهود: فأنتم ماذا تقولون؟ قالوا: نحن نريد أن نستقر في بيوتنا و لا حاجة لنا في مشاهدة ما أنت في ادعائه محيل، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): لا نصب عليكم بالمصير إلى هناك، اخطوا خطوة واحدة فان اللّه يطوي الأرض لكم و يوصلكم في الخطوة الثانية إلى هناك، قال المؤمنون: صدق رسول اللّه فنتشرف بهذه الآية و قال الكافرون و المنافقون: سوف نمتحن هذا الكذاب ليقطع عذر محمد و يصير دعواه حجة واضحة عليه و فاضحة له في كذبه، قال: فخطى القوم خطوة.

(1). في مجمع البيان و كانت المسلمون ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، سبعة و سبعون رجلا من المهاجرين و مائتان و سنة و ثلاثون رجلا من الأنصار و كان صاحب لواء رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و المهاجرين-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 138

و هذه هي الحرب الأولى بعد الهجرة بين الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و المشركين، و قد كسرت سواعدهم و بترت عوائدهم، و ذلك بعد مكاتبة بين أبي جهل و الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مما يدل على مدى تخوف آباء الجهالات بعد هجرة النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و المؤمنين، و

مما أجابه الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «إن أبا جهل بالمكاره و العطب يتهددني و رب العالمين بالنصر و الظفر يعدني».

ذلك، و إلى هامة المسارح لبدر حسب ما يقصه القرآن:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى‏ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10).

إنها المعركة التي دارت بأمر اللّه، شاخصة بحركاتها و خطراتها من خلال هذه الآيات المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان كأنه هو الآن، و لندرسها في كل زمان كأنها ماثلة بين أعيننا آنا بعد آن.

و علّ الإستغاثة هنا من كلا الغوث و الغيث، فأغاثهم بألف من الملائكة، و أغاثهم من السماء ماء، فقد استغاثوا ربهم في حالة الخطر الناجم الهاجم، بهالة الإيمان القائم بما وعد اللّه، و كان الإمداد بألف من الملائكة مردفين، حيث يخيل إلى المشركين أن قد واجههم أكثر منهم عديدا و مديدا فخافوا على شوكتهم و شائكتهم ضد المؤمنين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- علي بن أبي طالب (عليه السلام) و صاحب راية الأنصار سعد بن عبادة و كانت الإبل في جيش رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) سبعين بعيرا و الخيل فرسين فرس للمقداد بن الأسود و فرس لمرثد بن أبي مرثد و كان معهم من السلاح ستة أدرع و ثمانية سيوف و جمع من استشهد يومئذ أربعة عشر ستة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار و كان المشركون ألفا و خيلهم مائة فرس و كان حرب بدر أوّل مشهد شهده رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 139

و هنا «مردفين» قد تعني- فيما عنت- إرداف الألف غيرهم من بقية الثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف المردفين في آل عمران: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ. بَلى‏ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى‏ لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (126).

ذلك، و قد يلمح‏ «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» (3: 13) إرداف ألف آخر فقط، فالجميع ألفان مع ثلاثمأة و ثلاثة عشر رجلا، و المجموع يرى مثلي ألف المشركين‏ «1»، و لم تدل‏ «أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ» أنه أنزل ثلاثة آلاف، و لا «يمددكم» أنه أنزل خمسة آلاف، لمكان الشرط الفاقد في ثانيهما إذ لم يأتوهم من فورهم هذا، و عدم البتّ في الأول، و هنا البتّ في «ألف‏ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ» حيث‏ «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ».

ذلك، إضافة إلى أن قضية طليق الإرداف هي إرداف مماثل في العديد، و إذ لم يكن عديد المؤمنين ألفا فليكن المردفون هم ألف من الملائكة آخرون.

و لو أراد اللّه نصرهم دون هؤلاء الألف المردفين لفعل، و لكن «بشرى» لهم بحق النصر بظاهر من أسبابه‏ «وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ» «وَ مَا النَّصْرُ» على أية حال- بظاهر من معداته و دونه- «إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «2».

و تراهم حاربوا المشركين مع المؤمنين؟ «وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى‏ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ» تنفيها، ثم‏ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ‏ يثبت ذلك النفي،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في البحار 19: 223 في حديث القمي و أبي حمزة في مردفين أي متبعين ألفا آخر بعضهم في أثر بعض.

(2) راجع آيات البدر في آل عمران تجد الملائمة بين «ألف‏ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ» و «ثلاثة آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ» و «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» فلا نعيد هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 140

و كما الوارد في الآثار أن عليا (عليه السلام) قتل النصف أو الثلث من السبعين، و قتل الباقين سائر المؤمنين، و لم يذكر و لا مرة يتيمة أن أحدا من القتلى هو قتيل الملائكة المردفين.

«وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» و ليس- فقط- بعدّة و عدة الحرب و التكتيكات الحربية، فقد أراد اللّه يوم بدر أن تقيس الكتلة المؤمنة قوتها الحقيقية المستمدة من قوة اللّه إلى قوة أعدائها، فتعلم أنما النصر إنما هو قدر اتصال القلوب بقوة اللّه التي لا تقف لها قوّات العباد، تجربة واقعية تكون لهم نبراسا و متراسا في كافة الحروب الإيمانية، تزودا بهذه التجربة في الحرب الأولى الإسلامية لمستقبلاتها كلّها، «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (2: 49).

و أول المستغيثين و أولاهم كان هو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حيث‏

رفع يديه و سأل ما سأل و استجيب فيما سأل و كان يقول:

«و الله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» «1».

ذلك‏ «فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ» و استجاب لكم و نصركم بما يلي:

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى‏ قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (11).

هنا «يُغَشِّيكُمُ- النُّعاسَ- أَمَنَةً مِنْهُ» تلقي ظلا لطيفا حفيفا شفيفا على المشهد، مما يطمئنهم عن كل بأس و بؤس.

فلقد نعسوا في المصاف ثم غشاهم اللّه النعاس و هي كامل النوم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 168- أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس في حديث له طويل عن قصة بدر. و فيه «ثم قال (صلى الله عليه و آله و سلم) سيروا و أبشروا فان الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 141

حيث يتم و يطم، فقد تنام العين و لا ينام الأذن و القلب، و إذا نام الأذن مع العين فقد نام القلب و هنا تغشية النعاس، إذا فنوم العين نعاس و نوم الأذن إمارة لتغشية النعاس الباطن إلى الظاهر، و هي من الحديث الأصغر، فما لم يغشي النعاس كل الحواس لم يكن حدثا.

و

في المروي عن الإمام علي (عليه السلام) قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد و لقد رأيتنا و ما فينا إلا نائم إلا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يصلي تحت الشجرة حتى أصبح» «1».

و تلك التغشية كانت ربانية «أمنة منه» تأمنكم من تعب النضال و خوف القتال، عدة لكم لإصباح الحرب، و هذه أمنة من اللّه حيث غشاكم النعاس، فضمير الغائب إذا ذو مرجعين اثنين، و تغشية النعاس في جبهات الحرب، و لا سيما هذه الخطرة الضاربة، إنها من نصر اللّه، حيث المضطرب لا يأتيه النوم بطبيعة الحال، فهذه التغشية لم تكن إلا من اللّه «أمنة منه»: من اللّه، من العدو حتى غشاهم النعاس.

ذلك و الخطر ناجم و العطش هاجم، و تغلب المشركين على الحوض قائم، و تسويل الشيطان- إذا- هائم، فالتوتر مداوم، فكيف- إذا- النعاس فضلا عن تغشيته، اللّهم إلّا بفضله و رحمته! «وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ» و لو لا حدثية تغشية النعاس لم يكن في «ليطهركم» هنا دور، إذ لم يسبق ذلك التطهير نجاسة خبثية، أم حدثية أخرى لكي «يطهركم به» ثم‏ «يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ» منه حدث ثان، و طبعا لبعض النائمين، و ليس إلا الجنابة، حيث النوم لا يحمل إلا نفسه حدثا أصغر ككل، أم ما قد تحصل فيه من جنابة و هي حدث أكبر.

و القول إن حدثية النوم ليست إلا لخروج الريح ضمنه حيث لا يملك النائم نفسه، مردود بعدم قاطعية ذلك الخروج، فهذا الإخراج لا يناسب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 171- أخرج أبو يعلي و البيهقي في الدلائل عن علي رضي اللّه عنه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 142

حدثية تغشية النعاس، و أما حدثية الجنابة- و هي أحيانية في النوم- فهي مذكورة بنفسها «رِجْزَ الشَّيْطانِ» دون الريح غير المذكورة إلا تغشية النعاس التي تضمنها أحيانا، ثم و إرسال‏ «لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ» بعد «يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ» رسل المسلمات، دليل باهر أن حدثية النوم في السنة كانت حينذاك من المسلمات، فاختلاف الفقهاء في حدثية النوم بشرط الاضطجاع و ما أشبه أم دون شرط، معروض على طليق «يغشيكم» الشاملة لحالتي النوم.

ذلك، و من رجز الشيطان ما وسوس في صدورهم في تلك الحالة الحرجة المرجة من عطش بإعواز ماء الشرب، و أنهم كانوا مرمّلين تغوص فيه الأرجل و يرتفع منه الغبار، فأذهب اللّه رجز الجنابة الجسمية و رجز الخوفة النفسية بذلك الماء.

ذلك، ثم‏ «وَ لِيَرْبِطَ عَلى‏ قُلُوبِكُمْ» طمأنة بتلك الطهارة، و برودة الهواء، و ثلوجة الأكباد الحرّى بشرب الماء، و إزالة الغبار، و تمكين الأرض ل «يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ» في الرمال المبتلة و في النضال‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في نور الثقلين 2: 127 في تفسير علي بن إبراهيم حيث يستمر في قصة بدر قوله: و بلغ أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كثرة القريش ففزعوا فزعا شديدا و بكوا و استغاثوا فأنزل اللّه عزّ و جلّ على رسوله‏ «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ» فلما أمسى قابل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و جنه الليل ألقى اللّه على أصحابه النعاس حتى ناموا و أنزل اللّه تبارك و تعالى عليهم السماء و كان نزول رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في موضع لا يثبت فيه القدم فأنزل عليهم السماء و لبد الأرض حتى ثبتت أقدامهم و هو قول اللّه تعالى: «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ» و ذلك أن بعض أصحاب النبي احتلم، و ليربط على قلوبكم و يثبت به الأقدام و كان المطر على قريش مثل العزالى و كان على أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) رذاذا بقدر ما لبد الأرض و خافت قريش خوفا شديدا فأقبلوا يتحارسون يخافون البيات.

و

في الدر المنثور 3: 171- أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ من طريق ابن جريح عن ابن عباس‏ أن المشركين غلبوا المسلمين في أوّل أمرهم على الماء فظمئ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين فكانت بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن و قال: أ تزعمون أن فيكم نبيا و إنكم أولياء اللّه و تصلون مجنبين محدثين فأنزل اللّه من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء فشرب المسلمون و تطهروا و ثبتت أقدامهم و ذهبت وسوسته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 143

فلقد كانوا في الرمل بعطشهم غير ثابتي الأقدام في الإقدام على الحرب نفسيا، و إقدام الأقدام رمليا، فثبتت أقدامهم، و بت إقدامهم.

و رجز آخر هو وسوسة الشيطان أن كيف- و أنتم على حق- يعطشكم ربكم و يروى أعداءكم، و ثبتت أقدامهم متربا، و يوهيها لكم مرملا، فقد عكس المطر كل المحاسبات الشيطانية الدخيلة في صدور البعض من المؤمنين.

و هذه التغشية المطمئنة بإنزال الماء من السماء كانت بعد ما سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل فأحدثوا نائمين بنوم ككلّ، و بجنابة بعضا، فوسوس إليهم الشيطان أن عدوكم سبقكم الماء و أنتم محرومون عنه، فأمطر اللّه عليهم فتطهروا و تلبّدت به أرضهم إيحالا لأرض العدو و إيغالا له في أوحال إذ لم يكونوا مرملين.

ذلك، و ان غزوة بدر الكبرى بملابساتها الخطرة الوعرة مضت في تاريخ الإنسان مشرقة باهرة، ظاهرة قاهرة من مظاهر الإيمان على الكفر دون مكافحة ظاهرة، تقريرا قريرا لدستور النصر و الهزيمة، و كشفا عن أسباب النصر و أسباب الهزيمة، كتابا مفتوحا تقرءه الأجيال طول الزمان و عرض المكان، دون تبدل لدلالتها، و لا تغير بطبيعتها، فإنها من آيات اللّه الكبرى على مدار الزمن.

و لقد تمتد بدر بمداد الإيمان الصالح، تمتد متجاوزة الجزيرة العربية إلى سائر الأرض، و زمن الرسول إلى سائر الزمن، ما دامت شروطات النصر الإيماني مستمرة، و شريطات الملابسات بين المتحاربين مسموعة متسامعة.

و لأن حرب بدر الكبرى هي الأولى بعد الهجرة بردح قليل من الزمن، فقد كمنت تحديا قويا قويما لجانب الكفر أن يحاسب حسابه بغير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و

فيه أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال: كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يصلي تلك الليلة ليلة بدر و يقول: اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد و أصابهم تلك الليلة مطر شديد فذلك قوله: و ليثبت به الأقدام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 144

وجه العدّة و العدّة الظاهرة، و ليفكر كيف أن فئة قليلة مهاجرة من العاصمة خوفة القضاء عليها برسولها، عائشة في غربة عن الوطن المألوف، فاقدة لكل عدة و عدة لتلك الحرب غير المتكافئة، كيف تتغلب هذه الفئة القليلة على تلك الفئة الكثيرة، فتقتل منهم كثيرا و تأسر نفس العدد، و لا يقتل منها إلّا أربعة عشر و هم خمس قتلاهم، و لم يكونوا إلّا ثلثهم عددا و معشاراتهم في ظاهرة العدد! و هنا مثلث في تاريخ الإنسان من هذا العدد الكريم، فقبل الإسلام عديد جند طالوت حيث هم أمام جالوت القدّار الغدّار «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثم في بدر الكبرى بصورة أجلى و ملابسات أعجب و أعلى، و من قدسيتها:

«أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) سافر إلى بدر في رمضان و افتتح مكة في رمضان» «1».

و من ثم في دولة القائم المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف حيث يتغلب بأصحاب ألويته- و هم نفس العدد- على كافة الكفار و المشاغبين! إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (12).

«و يريد الله أن يحق الحق إذ تستغيثون ربكم إذ يغشيكم النعاس و يثبت به الأقدام إذ يوحي ربك» تحقيقا لوعده سبحانه‏ «أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ».

«إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ» الألف المردفين «أني معكم» معية خاصة في مسرح بدر لتكونوا مع هؤلاء المؤمنين حضورا كأنكم بشر أمثالهم محاربين‏ «فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا» أقدامهم على النضال، و إقدامهم على القتال أن تحدثوهم بذلك التثبيت حتى يثبتوا، فقد ثبّتهم اللّه بما أنزل من السماء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 19: 273 عن الرضا عن آبائه (عليهم السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 145

ماء و وعدهم النصر، و زاد في تثبيتهم بما أوحي للملائكة المردفين أن «ثبتوا الَّذِينَ آمَنُوا».

و ترى كيف ثبتهم الملائكة و هم لا يرونهم و لا يسمعونهم؟ «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا و لا تحزنوا و ابشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياءكم في الحياة الدنيا و في الآخرة» (41: 31).

ذلك، و بأحرى في مسرح بدر الذي هو مصرح الإيمان المنقطع النظير، فقد يكون تنزلهم عليهم يوم بدر متميزا عن سائر تنزلهم على سائر المستقيمين من المؤمنين، أن تحولوا إلى صور الآدميين و تحدثوا معهم كما يحدث بعضهم بعضا و هم عارفون أنهم من ملائكة اللّه المردفين.

و حين يلقي الشيطان بأوليائه في قلوب أولياءه الشياطين ما يضلهم، فبأحرى أن يلقي الرحمن بنفسه و بملائكته في قلوب أولياءه المؤمنين ما يهديهم.

ثم إن‏ «سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» فطمأنة قلوب المؤمنين على قلتهم، و تمكن الرعب في قلوب الذين كفروا على كثرتهم، هما من الملابسات المعبّدة لتغلّب الأولين على الآخرين، و إذا:

«فأضربوا» أنتم المؤمنين‏ «فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ».

و لماذا هنا «فَوْقَ الْأَعْناقِ» دون الرؤوس؟ علّه لأنهم ما كانت لهم رؤوس إنسانية بما كفروا، فاستبدل بالرؤوس‏ «فَوْقَ الْأَعْناقِ»، و علّه يعني بما عناه من ب «فَوْقَ الْأَعْناقِ» فوق أعناق المشركين إذ لم يكونوا عنقا واحدا، ففوق الأعناق هم الأعناق الفوقية بينهم، فهم رؤوس الكفر و الضلال و كما قتل منهم كبار الأعناق بيد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و علي (عليه السلام) و المؤمنين.

ثم‏ «وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» قد تعني إلى بنان الأيدي و الأرجل و ما أشبه بنان مختلف الأيادي، أن اضربوا- بما تضربون فوق الأعناق- كل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 146

الأيادي و الطاقات المجرمة و الوسائل المعادية فيما بينهم و كما وعد اللّه:

«وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ» حتى لا يقوم منهم- بعد- قائم و لا يحوم حوم الحرب منهم حائم إلّا آثم.

لم يكن في بدر دور للألف المردفين من الملائكة إلّا حضورا بأشخاصهم و تثبيتا لقلوب المؤمنين، و أما ضرب فوق الأعناق و كل بنان فقد كان من المؤمنين‏ «1».

و هنا في الضفّة المؤمنة نصر من اللّه و تثبيت من الملائكة لهم بإذن اللّه، ثم في الضفة الكافرة: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 3: 172 عن ابن عباس في حديث بدر الكبرى‏ و نفر النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) بجميع المسلمين و هم يومئذ ثلاثمائة و ثلاث عشر رجلا و سيد المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة لكبر سنه فقال عتبة يا معشر قريش إني لكم ناصح و عليكم مشفق لا أدخر النصيحة لكم بعد اليوم و قد بلغتم الذي تريدون و قد نجا أبو سفيان فارجعوا و أنتم سالمون فان يكن محمد صادقا فأنتم أسعد الناس بصدقه و ان بك كاذبا فأنتم أحق من حقن دمه، فالتفت إليه أبو جهل فشتمه و فج وجهه و قال له: قد امتلأت أحشاءك رعبا، فقال له عتبة: سيعلم اليوم من الجبان المفسد لقومه، فنزل عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة حتى إذا كانوا أقرب أسنة المسلمين قالوا: ابعثوا إلينا عدتنا منكم نقاتلهم، فقام غلمة من بني الخزرج فأجلسهم النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) ثم قال: يا بني هاشم أ تبعثون إلى أخويكم و النبي منكم غلمة بني الخزرج فقام حمزة بن عبد المطلب و علي بن أبي طالب و عبيدة بن الحارث فمشوا إليهم في الحديدة فقال عتبة تكلموا نعرفكم فان تكونوا أكفاءنا نقاتلكم فقال حمزة أنا أسد الله و أسد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال عتبة كفؤ كريم فوثب إليه شيبة فاختلفا ضربتين فضربه حمزة فقتله ثم قام علي بن أبي طالب إلى الوليد بن عتبة، فاختلفا ضربتين فضربه علي (عليه السلام) فقتله ثم قام عبيدة فخرج إليه عتبة فاختلفا ضربتين فجرح كل واحد منهما صاحبه و كر حمزة على عتبة فقتله فقام النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: اللهم ربنا نزلت علي الكتاب و أمرتني بالقتال و وعدتني النصر و لا تخلف الميعاد فأتاه جبرئيل (عليه السلام) فأنزل عليه: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين فأوحى الله إلى الملائكة «اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق و اضربوا منهم كل بنان، فقتل أبو جهل في تسعة و ستين رجلا و أسر عقبة بن معيط فقتل صبرا فوفى ذلك سبعين و أسر سبعين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 147

عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (8: 48).

فقد و اللّه إنه الأمر الهائل، معية اللّه للمؤمنين بنفسه و بملائكته في المعركة، فهنا قلوب مطمئنة مؤمنة مرجفة، و هناك جوار الشيطان للكافرين فقلوب واجفة راجفة، و أهم الأسلحة في النضال هو سلاح طمأنة القلوب، و

قد يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) رمى كفا من حصباء الوادي في وجوه القوم و قال:

شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه و فمه و منخريه منها شي‏ء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم و كانت تلك الرمية سبب هزيمتهم‏ «1»

و كما لمح اللّه تعالى‏ «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ» نرى أنهم ضربوا فوق الأعناق و هم كبار المشركين فقتل علي (عليه السلام) منهم شطر شطيرا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في المجمع ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس و غيره‏ أن جبرائيل قال للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم بدر خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لما التقى الجمعان لعلي (عليه السلام) أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفا من حصا عليه تراب.

و

في المغازي للواقدي: أمر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم بدر بالقليب، أن تغور ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسمنا انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): اتركوه فأقروه و ألقوا عليه من التراب و الحجارة ما غيبه، ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلا رجلا: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقا بئس القوم كنتم لنبيكم كذبتموني و صدقني الناس و أخرجتموني و آواني الناس و قاتلتموني و نصرني الناس.

فقالوا: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أ تنادي قوما قد ماتوا؟ فقال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم و لكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

و

في الأمالي باسناده عن ابن عباس قال: وقف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على قتلى بدر فقال: جزاكم اللّه من عصابة شرا لقد كذبتموني صادقا و خونتم أمينا، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال: ان هذا أعتى على اللّه من فرعون إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد اللّه و ان هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللّات و العزّى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 148

و الباقون الشطر الأخير و قتلى المحاربين معدودون بأسمائهم‏ «1».

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (13)

[سورة الأنفال (8): الآيات 14 الى 19]

ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (14) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (15) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى‏ فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏ وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (18)

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الإرشاد انه قد أثبتت رواة العامة و الخاصة معا أسماء الذين تولى أمير المؤمنين (عليه السلام) قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك و اصطلاح فكان-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 149

ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (14).

«ذلك» الخزي لهم أولاء الكافرين و «ذلك» النصر لهؤلاء المؤمنين «بأنهم» أولاء المشاغبين‏ «شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» جعلوا أنفسهم في شق فذّ، و جعلوا اللّه و رسوله في شق آخر، فأخذوا يشاقون اللّه و رسوله، إذا «فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ».

«ذلك» العقاب يوم الدنيا «فذوقوه» و كضابطة شاملة «ان (عليه السلام) ثم الشهداء الأربعة عشر معروفون بأسمائهم‏ «1».

للكافرين» بدركاتهم‏ «عَذابَ النَّارِ» يوم القيامة، ولات حين فرار.

ذلك، و قتلى بدر السبعين قتل شطر منهم كبير بيد أمير المؤمنين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- ممن سموه: الوليد بن عتبة و كان شجاعا جريّا وقّاحا فتاكاتها به الرجال، و العاص بن سعيد و كان هولا عظيما تهابه الأبطال، و طعيمة بن عدي بن نوفل و كان من رؤوس أهل الضلال، و نوفل بن خويلد و كان من أشد المشركين عداوة لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كانت قريش تقدمه و تعظمه و تطبعه و

لما عرف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حضوره بدرا سأل اللّه أن يكفيه أمره فقال: اللهم اكفني نوفل بن خويلد فقتله أمير المؤمنين (عليه السلام)-

و زمعة بن الأسود و الحارث بن زمعة و النضر بن الحارث و عمير بن عثمان و عثمان و مالك ابنا عبيد اللّه أخوا طلحة بن عبيد اللّه و مسعود بن أبي أمية بن المغيرة و قيس بن الفاكهة بن المغيرة و حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة و أبو قيس بن الوليد بن المغيرة و حنظلة بن أبي سفيان و عمرو بن مخزوم و أبو منذر بن أبي رفاعة و منبّه بن الحجاج السهمي و العاص بن منبّه و علقمة بن كلدة و أبو العاص بن قيس بن عدي و معاوية بن المغيرة و لوذان بن ربيعة و عبد اللّه بن المنذر و مسعود بن أمية و حاجب بن السائب بن عويمر و سعيد بن وهب و معاوية بن عبد القيس و عبد اللّه بن جميل و السائب بن مالك و أبو الحكم بن الأخنس و هشام بن أبي أمية بن المغيرة- فذلك خمسة و ثلاثون رجلا سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين (عليه السلام) فيه غيره و هم أكثر من شطر المقتولين.

(1).

في البحار عن الواقدي قال: حدثني عبد اللّه بن جعفر قال‏ سألت الزهري كم استشهد من المسلمين بيدر قال: أربعة عشر: ستة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار قال: فمن بني عبد المطلب عبيدة بن الحارث قتله عتبة أو شيبة فدفنه النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالصفراء، و من بني زهرة عمير بن أبي وقاص قتله عمرو بن عبدود فارس الأحزاب و عمير بن عبدود ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتلة أبو أسامة الجشمي، و من بني عدي-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 150

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (15).

تكتيكات حربية إسلامية يذكر منها هنا شطرات هامة لمسارح الزحف، إذا طبّقت كانت من قضاياها الإنتصار إلى جنب ما على المحاربين المسلمين من سائر الشروطات المسرودة في الكتاب و السنة.

و «الَّذِينَ آمَنُوا» خطاب لعامة المؤمنين أيا كانوا و أيان، كما «الَّذِينَ كَفَرُوا» يعمهم كلهم دون اختصاص ببدر و سواها زمن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أم سواه.

و هنا اللقاء زحفا هو موضوع لشديد النهي عن تولية الأدبار، و صحيح أن الضابطة الثابتة في لقاء العدو هي حرمة الفرار إلّا و لكن اللقاء زحفا هو أهم مواضيع الحكم.

و الزحف هو الدنو رويدا على مهل، من الذين كفروا إلى الذين آمنوا أم منهم إليهم، أو الزّاحف منهما، و لأن اللقاء زحفا ليس إلا بحساب من الزاحف و تحسّب من المزحف إليه، تحاسب حسب الملابسات المحيطة بالطرفين، فالأصل فيه حرمة تولي الأدبار، و هو من السبع الموبقات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عاقل بن أبي البكير حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهير، و مهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي و من بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عدي- و من الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور و سعد بن خيثمة قتله عمرو بن عبدود و يقال طعيمة بن عدي و من بني عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله، و من بني مالك بن النجار عوف و معوذ ابنا عفراء قتلهما أبو جهل، و من بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم و من بني زريق رافع بن المعلى قتله عكرمة بن أبي جهل، و من بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

(1).

نور الثقلين 2: 128 في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا (عليه السلام) إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: و حرم اللّه تعالى الفرار من الزحف لما فيه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 151

ذلك، و لأنه دون مبرر منصوص مرصوص فتّ لعضد الإسلام و ثلم لكرامته، و

«لما فيه من الوهن في الدين و الاستخفاف بالرسل و الأئمة العادلة (عليهم السلام) و ترك نصرتهم على الأعداء و العقوبة لهم على انكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية و إظهار العدل و ترك الجور و إماتة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين و ما يكون من السبي و القتل و إبطال دين الله عز و جل و غيره من الفساد» «1».

ذلك و

«أن الرعب و الخوف من جهاد المستحق للجهاد و المتوازرين على الضلال، إنه ضلال في الدين و سلب في الدنيا مع الذل و الصغار، و فيه استيجاب النار بالفرار من الزحف بحضرة القتال» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و

فيه في الخصال في مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) و تعدادها قال: و أما الثالثة و الستون فإني لم أفر من الزحف قط و لم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه،

و

فيه عن العياشي عن زرارة عن أحدهما (عليهما السلام) قال‏ قلت: الزبير شهد بدرا؟ قال:

نعم و لكنه فر يوم الجمل، فإن كان قاتل المؤمنين فقد هلك بقتاله إياهم و ان كان قاتل كفارا فقد باء بغضب من اللّه حين و لا هم دبره.

(1). تفسير البرهان 2: 69 عن الكليني بسند متصل عن عقيل الخزاعي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: قال اللّه:

(2) لقد تواردت الروايات حول اختصاص حرمة الفرار من الزحف ببدر و عدمه و من الثاني وفقا لطليق الآية في الدر المنثور 3: 174،

أخرج ابن مردويه عن أمامة مولاة النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قالت‏ كنت أوضئ النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أفرغ على يديه إذ دخل عليه رجل فقال يا رسول اللّه أريد اللحوق بأهلي فأوصني بوصية أحفظها عنك قال: لا تفر يوم الزحف فإنه من فر يوم الزحف فقد باء بغضب من اللّه و مأواه جهنم و بئس المصير،

و

فيه عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية قال لنا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قاتلوا كما قال اللّه:

و

فيه‏ انه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان يدعو بهؤلاء الكلمات السبع يقول: اللّهم إني أعوذ بك و أعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا،

و

روى البخاري و مسلم في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ما هن؟ قال: الشرك باللّه و السحر و قتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق و أكل الربا و أكل مال اليتيم و التولي يوم الزحف و قذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 152

و هنا «إذا لقيتم» تضيق دائرة حرمة الفرار هذه، فحين يهاجم العدو، و لا مكافئة في البين، فقد يجوز أو يجب الفرار حفاظا على نفوس محترمة محرّمة أن تهدر دون سبب مبرّر.

و هل تحدّد آية التخفيف حرمة الفرار من الزحف بالمكافئة المضاعفة لجيش العدو؟: «الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (8: 66).

علّها نعم، فإنها تحمل ضابطة للمكافئة؟ و علّها لا، حيث إن حقل حرمة الفرار هو مسرح لقاء العدو زحفا، فأما وجوب لقاءه بما دون المكافئة، أم حرمة الفرار عند الهجمة المباغتة و لا مكافئة، فلا! و قد يأتي تفصيل البحث عند آية التخفيف.

و أما في اللقاء زحفا منهما أو من إحداهما فالحكم كلمة واحدة حرمة الفرار إلّا.

و من غريب الوفق عديدا في القرآن أن كلا من «الجهاد» و «المسلمين» بمختلف صيغهما هو (41) مرة، مما يلمح أن الإسلام لزامه الجهاد في سبيله.

و

من وصايا إمام المجاهدين علي أمير المؤمنين بشأن الحروب: «تزول الجبال و لا تزول، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم و غض بصرك، و اعلم أن النصر من عند الله سبحانه» (الخطبة 11).

معاشر المسلمين! استشعروا الخشية، و تجلببوا السكينة، و عضوا على النواجذ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، و أكملوا اللامة- الدرع- و قلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها، و الحظوا الخزر، و اطعنوا الشزر، و نافخوا بالظّبا، وصلوا السيوف بالخطى، و اعلموا أنكم بعين اللّه ..

فعاودوا الكرّ، و استحيوا من الفرّ، فإنه عار في الأعقاب و نار يوم الحساب، و طيّبوا عن أنفسكم نفسا، و امشوا إلى الموت مشيا سجحا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 153

سهلا- فصمدا صمدا حتى ينجلي لكم عمود الدين و أنتم الأعلون و اللّه معكم و لن يتركم أعمالكم‏ (خ 64).

«فقدموا الدارع و أخروا الحاسر، و عضوا على الأضراس فانه أنبى للسيوف عن الهام، و التووا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة، و غضوا الأبصار فإنه أربط للجأش و أسكن للقلوب، و أميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل، و رايتكم فلا تميلوها و لا تخلوها، و لا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، و المانعين الذمار منكم و أيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة إن في الفرار موجدة الله، و الذل اللازم و العار الباقي، و إن الفار لغير مزيد في عمره، و لا محجوز بينه و بين يومه» (خ 121).

«و أي امرء منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء و رأى من أحد من إخوانه فشلا فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله، إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، و لا يعجزه الهارب، إن أكرم الموت القتل، و الذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش»

ذلك:

وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى‏ فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (16).

فالتحرف لقتال و التحيز إلى فئة هما فرار للقرار فلا عار فيهما و لا بوار، فلا تشتدن عليكم فرّة بعدها كرة و لا جولة بعدها حملة، و وطئوا للجيوب مصارعها، و إذ مروا أنفسكم على الطعن الدّعسي- الشديد- و الضرب الطلحفي- القوي- (255).

فتولي الدبر في المصاف الزاحف محظور كضابطة، و هو محبور كتصبره في مجالين اثنين: 1 «مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ»: متطردا يريد الكرة عليهم تحولا إلى قتال أمكن و أقوى. 2 «أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى‏ فِئَةٍ» من المؤمنين، متأخرا إلى أصحابه من غير هزيمة، ضمالهم إليهم إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 154

المواجهة، أم و كل قوة يحصل عليها في ذلك التولي، فأما التولي فرارا، أم و التولي دون عائدة في الرجوع، فغير مسموح للمناضل بتّا.

«من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله» «1».

و هنا لمحة من الضمائر المفردة أن استثناء المنع عن تولي الدبر ليس يشمل توليه جميعا، بل هو تولي الأفراد تحرفا لقتال أو تحيزا إلى فئة.

و ترى هنا «باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» ليست لتستثنى؟ و لقد عفى اللّه عنهم يوم أحد: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» (3: 155) و يوم حنين: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (9:) 46).

إذا فالفرار من الزحف هو كسائر الكبائر من موارد المغفرة بالتوبة الصالحة «2».

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏ وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير العياشي عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) في الآية و ذكر هذه الجمل الثلاث المذكورة في المتن.

(2) و

قد روى أحمد و أصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فحاص الناس حيصة و كنت فيمن حاص فقلنا: كيف نصنع و قد فررنا من الزحف و بؤنا بالغضب، ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا نفوسنا على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإن كان لنا توبة و إلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: من الفرارون؟ فقلنا:

نحن الفرارون، قال: بل أنتم العكارون، أنا فئتكم و فئة المسلمين، قال: فأتيناه حتى قبلنا يده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 155

بعد هذه الخوارق لعادات الحرب و تكتيكاتها، في هذه الهزيمة العظيمة للمشركين الكثرة بالمؤمنين القلة، لم يكن عاملها و عامل هزيمتهم لا الرسول و لا المؤمنون‏ «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» في الحق بطاقاتكم البشرية العاديّة «وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ» بما نصركم في حلقات ظاهرة و باطنة.

«وَ ما رَمَيْتَ» رمية الحرب و ما أشبه‏ «إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏» حيث هداك و نصرك و عبّد لك طريق النصر، هذه الشائكة الخطرة الملتوية، «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ»- «وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ»- «وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ» بذلك القتل الرباني و ليبلى‏ «بَلاءً حَسَناً» حتى يلمسوا نصر اللّه، تحقيقا لوعد اللّه و استغاثتكم‏ «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ذلك، و مع أنا لا نجد قتلات و رميات للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في هذه المعركة، نجد الرمية- و كأنها هي الوحيدة- خاصة بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في هذه التصريحة اليتيمة، فما هي هذه الرمية البارزة بين كل رمية.

إنه ليس الواجب الهام على قائد القوات المسلحة أن يتولى القتلة و الرمية بنفسه، فإنما مهمته قيادته الحكيمة و خطته العاقلة في كل رمية و قتلة، و إذا تصح نسبة كل المحاصيل الحربية إلى القائد نفسه، رغم عدم خوضه لأصل المعركة بنفسه، أم و عدم حضوره فيها، فضلا عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الخائض بنفسه هذه الحرب، مخططا لها بنفسه منذ خروجه من المدينة حتى الإنتصار الكامل.

و هنا اختصاص الرمية المنفية بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و تعميم القتلة المؤمنين معه، دليل اختصاص الرمية القيادية به، رميا للقوات الإيمانية إلى صفوف المشركين بما رمى.

ففي نقطة الانطلاق نجد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هو البادئ و المحرض‏ «كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ» ثم قبل المواجهة «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ» (43) و عند الإستغاثة غوثا و غيثا هو المستغيث أولا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 156

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف به مادا يديه حتى سقط رداءه من منكبه فنزل»

إذ تستغيثون.

و من قبل هو الذي أراهم قبل الخروج و المواجهة مصارع القوم بما أراه اللّه حتى رأوها بأم أعينهم، ثم هو الذي كان يثبتهم و يرشدهم و يخطط لهم خطوة خطوة حتى النهاية:

و لما أصبح رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم بدر عبأ أصحابه فكان في عسكره فرسان فرس للزبير بن العوام و فرس للمقداد بن الأسود و كان في عسكره سبعون جملا يتعاقبون عليها، و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و علي بن أبي طالب و مرثد بن أبي مرثد يتعاقبون على جمل لمرثد فنظر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى عبيدة بن الحارث- و كان له يومئذ سبعون سنة- فقال: قم يا عبيدة، و نظر إلى حمزة فقال: قم يا حمزة ثم نظر إلى علي (عليه السلام) فقال: قم يا علي و كان أصغر القوم- فاطلبوا بحقكم الذي جعله اللّه لكم فقد جاءت قريش بخيلائها و فخرها تريد أن تطفئ نور اللّه، و قال لحمزة عليك بشيبة و قال لعلي (عليه السلام) عليك بالوليد.

و هكذا نجده من خلال هذه الحرب يقودهم روحيا و حربيا خطوة خطوة دون أن تغيب عنه حركته، إذ كانت كافة الحركات و التكتيكات بقيادته الشخصية، و من ناحية أخرى لما يرى العدو فاعلية القوات المسلحة- القوية الصارمة- بتلك القيادة الحكيمة، فهم يحسبون ألف حساب لقائد القوات ليسوا ليحسبوها لو أنه هو الداخل بنفسه في القتال، لذلك فأصل الرمي في هذه الحرب كان من أصل القيادة الرسولية، ثم اللّه ينفيه عنه- أيضا- ناسبا له إلى نفسه- كما القتل العام-، إذ هو الذي أيدهم بنصره ما لولاه لكانوا خطف ساعة! إذا فسلب القتل عنهم: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ» سلب واقع لا مرد له إذ لم يكونوا يقتلون- بل يقتلون- لو لا الشروطات الإيجابية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 157

و السلبية الربانية لتلك القتلة الخارقة للعادة، فهم في أنفسهم صفر الأيدي عن تلك القتلة الغالبة المنقطعة النظير، فقد قتلهم بما طمأن اللّه قلوب المؤمنين، و أنزل عليهم من السماء ماء فوطّد رملتهم أولاء و أوحل طينتهم هؤلاء ففشلوا في مواطئهم، و أنزل ألفا من الملائكة مردفين‏ «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» ففشلوا و وهنوا في ذوات أنفسهم، ثم و ألقى الرعب في قلوبهم، إذا فمن هو الذي قتلهم إلّا اللّه، مهما ظهرت مظاهر المقاتل؟

ثم إثبات الرمي له (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بعد سلبه لامح إلى ميّزة خاصة و دور متميّز للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قائدا للقوات المسلحة، حيث رمى ما رماه في قيادته الحربية بكل بسالة و شطارة، إضافة إلى الأهداف الواصلة هي إليها التي كانت هي الأخرى من النصرة الربانية في ذلك المسرح، مصرحا لمدى الفاعلية و القابلية لقائد القوات المسلحة الرسولي.

فلأن القائد هنا له دوران اثنان فقد يصدق أنه «رمى» حال انه ما رمى‏ «وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏» و لم يكن للمؤمنين إلّا دور واحد أنهم كانوا مقودين صالحين بتلك القيادة، فقد يصدق أنهم ما قتلوهم و لكن اللّه قتلهم.

و ترى أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- فقط- رمى‏ «إِذْ رَمَيْتَ» و لم يقتل؟ المهم لدوره كقائد القوات هو الرمي، لأنه يعني- بما عنت- رمي الحصباء إلى وجوه الكفار قائلا: شاهت الوجود، فارتموا و ارتبكوا حتى لم يكونوا ليروا واقع عديد المؤمنين القلة، و لم يروا إلّا قلتهم أنفسهم فهزيمتهم، فلذلك فقدوا عزيمتهم و تناسوا عظيمتهم، و كل ذلك من اللّه، فان مجرد رمي التراب لا يخلف تلك الهزيمة العظيمة، و مهما كانت صورة الرمية منك فسيرتها و مصيرتها هما من اللّه.

فكما في المسيح (عليه السلام): «إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي» إذ يسلب عنه واقع الإحياء إلى ظاهرة من فعله المأذون، حيث أذن اللّه في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 158

حياة الموتى قرنا لفعله (عليه السلام) غير الفاعل تلك الفعلة الربانية، كذلك أنت يا قائد القوات‏ «ما رَمَيْتَ» رمية الغلبة هذه الخارقة للعادة «وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏» إياها، إيصالا لكف من التراب إلى ألفي عين، و إيغالا لأصحابها فيما أوغل، و كأن ذلك التراب غازات كيماوية تعمي العيون ثم و ترعب القلوب.

ذلك، إلى سائر رميات الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) التكتيكية في بدر الكبرى، فقد انحصرت رمياته في مظاهر ثلاثة: رمية القتل، و رمية الحصى، و سائر الرمية الحربية بتكتيكاتها، و لكن الفاعلية الواقعية في هذه الرميات لم تكن إلّا من اللّه ما لولاه لم يحصل ما حصل لصالح المؤمنين.

ذلك، و الرمية الأصلية هي رمية التراب حيث‏

قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أمام معسكر العدو: اللّهم إنك أمرتني بالقتال، و وعدتني النصر و لا خلف لوعدك، و أخذ قبضة من حصى فرمى بها في وجوههم فانهزموا بإذن اللّه فذلك قوله: «وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏» «1»- «فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء» «2»،

و أما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 174- أخرج ابن عساكر عن مكحول قال: لما كرّ عليّ و حمزة على شيبة بن ربيعة غضب المشركون و قالوا اثنان بواحد فاشتعل القتال فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

و

فيه عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست و رمى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بتلك الحصباء و قال: شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله تعالى‏ «وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ».

(2)

المصدر أخرج الطبراني و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فنزلت هذه الآية، و أخرجه مثله الحمويني بسنده المتصل عن ابن عباس عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) (ملحقات إحقاق الحق 3: 545).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 159

«و ما قتلتموهم» فلأنهم استغلوا عميان العيون بهذه الرمية فاغتالوهم‏ «1».

ذلك، فحقا «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏» حيث العدد و العدد للمشركين كانا أضعاف ما للمسلمين، فالعدد ثلاثة أضعاف، و الخيل مأتا ضعف، و السيوف خمسمائة ضعف، و الحالة السابقة للمشركين غلبهم عليهم حيث أخرجوهم قبل أشهر من العاصمة، و لم يكن من المسلمين إلّا رمية الحصباء من النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بدعاء النصر، فشملهم المؤمنون قتلا و حصرا و أسرا فبطلت مكيدتهم، و سكنت أجراسهم، و خمدت أنفاسهم، فهم بين قتيل و جريح و أسير و حصير و فرير!: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» في بدر، فلما ذا- إذا- تولي الأدبار! «2».

ذلك، جبرا لكسرهم في هجرتهم الهاجرة، و إعلاء لكلمة الحق إحقاقا لها و إخفاقا للباطل‏ «وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً» تأكيدا لهم أن سيروا و عين اللّه يرعاكم‏ «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» مقالهم و مقال أعدائهم «عليم» بحالهم و حال أعداءهم و ما هو الصالح في ذلك المسرح الوطيد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس و محمد بن كعب القرظي قالا: لما دنى القوم بعضهم من بعض أخذ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم و قال: شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم و أقبل أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقتلونهم و كانت هزيمتهم في رمية رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأنزل اللّه‏ «وَ ما رَمَيْتَ».

(2) في تفسير الفخر الرازي 15: 136 قال مجاهد: اختلفوا في بدر فقال هذا أنا قتلت و قال الآخر أنا قتلت فأنزل اللّه هذه الآية، و

روى‏ أنه لما طلعت قريش قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذه قريش قد جاء بخيلائها و فخرها يكذبون رسولك: اللّهم إني اسألك ما وعدتني، فنزل جبرئيل و قال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي (عليه السلام) أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم و قال: شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 160

ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (18).

«ذلكم» اللّه ربكم إن تنصروه ينصركم، و «ذلكم» الغلب الخارق لمألوف الحروب هو من بلاءه الحسن «ذلكم» فاعتبروا يا أولي الأبصار «وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ» كما أوهنه ب «ذلكم» الرمية و القتلة.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19).

و هل المخاطبون هنا هم المشركون حيث استفتح أبو جهلهم بقوله:

«اللهم ربنا ديننا القديم و دين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم» فقد جاءكم الفتح، حيث فتح عليكم للمؤمنين لأنهم أحب إليه و أرضى عنده.

جاءكم الفتح المرضي عند اللّه لصالح الأحب إلى اللّه و الأرضى، فجعل الدائرة عليكم تحقيقا لاستفتاحكم، فعليكم- إذا- أن تنتهوا عن غيكم و جهلكم إلى رشدكم إيمانا بهذه الرسالة السامية، «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» و ما أنتم عليه شرّ لكم.

«وَ إِنْ تَعُودُوا» إلى غيكم و محاربة المؤمنين «نعد» إلى نصرهم و هزيمتكم‏ «وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ» عدّة و عدّة «شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ» كما لم تغن عنكم يوم بدر «وَ أَنَّ اللَّهَ» على أية حال‏ «مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» ما داموا معه، فالمعركة- إذا- بين الفريقين غير مكافئة حيث المؤمنون- و معهم اللّه- هم منتصرون دائما، و الكافرون منهزمون كذلك، معركة مقررة المصير، إلا عند تخلف المؤمنين عن المسير، إذا فمصيرهم مصير من سواهم بسجال الحرب.

ذلك، و إلى واجهة أخرى علّها معنية مع الأولى: «إِنْ تَسْتَفْتِحُوا» أنتم المؤمنين فتح الفتوح، رجوعا إلى العاصمة الرسالية، و كما كانوا يستفتحون منذ الهجرة: «وَ أُخْرى‏ تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (61: 13).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 161

«إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ» هنا في بدر، كبادرة للفتح المبين و أنتم أذلة و قلة «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» و سوف يأتيكم- بأحرى- بعد ردح إذا كنتم كما أنتم و بأحرى و أقوى، فقد تشمل‏ «جاءَكُمُ الْفَتْحُ» الفتح المستقبل إلى الماضي قضية تحقق وقوعه بما وعد اللّه.

ثم تحول الخطاب إلى الفرق الآخر «وَ إِنْ تَنْتَهُوا» أم و قد يشمل المؤمنين‏ «إِنْ تَنْتَهُوا» عما لا يليق بالمؤمنين‏ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» أو «تنتهوا» عن استعجال الفتح المبين حيث يأتي اللّه لكم حتى حين‏ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» «وَ إِنْ تَعُودُوا» لهذه الحالة و الهالة الإيمانية التي اقتضت غلبكم عليهم «نعد» إلى نصركم، و لكن اعلموا أنه: «وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ» لو لا واقع الإيمان، كما لم تغن يوم أحد حيث تركتم المواقع المقررة لكم طمعا في الغنيمة، و على أية حال‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» قدر إيمانهم.

و ما أجمله جمعا بين الخطابين بمثنى الاستفتاحين المتعاكسين، ثم‏ «وَ إِنْ تَنْتَهُوا» أنتم المشركين عما أنتم عليه‏ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» توبة إلى اللّه أم تركا لمحاربة المؤمنين باللّه، «وَ إِنْ تَعُودُوا» إلى تلك المحاربة «نعد» إلى ذلك الاستفتاح، و اعلم أن‏ «لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ» عدّة و عدّة عن اللّه «شيئا» ما دام اللّه مع المؤمنين‏ «وَ لَوْ كَثُرَتْ» كما كثرت‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ».

أم‏ «إِنْ تَنْتَهُوا» أنتم المؤمنين عن القتال استفزازا للكفار، أم عن الاستفتاح العاجل، أم عما لا يليق بالمؤمنين‏ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» «وَ إِنْ تَعُودُوا» إلى صالح الإيمان «نعد» إلى الفتح لصالح الأمان، و اعلموا أنه‏ «لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً» إن كانت لكم فئة «وَ لَوْ كَثُرَتْ» لو لم يكن اللّه ناصركم‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ».

فقد حملت الآية نذارة للكافرين و بشارة للمؤمنين دونما اختصاص في خطابها فريقا دون آخرين، قضية أدب اللفظ و حدب المعنى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 162

[سورة الأنفال (8): الآيات 20 الى 30]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (22) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (23) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (25) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (30)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 163

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ (21).

«أَطِيعُوا اللَّهَ» فيما يأمركم و ينهاكم «و رسوله» فيما يحمل إليكم من طاعة اللّه‏ «وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ»: عن اللّه أصالة و عن رسوله رسالة، فإفراد الضمير قاصد إلى تلك الأصالة أن ليست طاعة الرسول مستقلة أو مشتغلة عن طاعة اللّه، «وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ» أنباء ما قد سلف من المتولين عن اللّه و رسوله، و المطيعين اللّه و رسوله، و «تسمعون» أوامر اللّه تترى في كتابه و على لسان رسوله.

«وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا» كالمنافقين‏ «وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ» عقيديا و عمليا، فإنما يسمعون سمع النفاق دون وفاق، و كالكفار المستهزئين بما يسمعون: «وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا» (8: 31) فهم‏ «لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها» (7:) 179) كافرين أو منافقين‏ «وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ» (67: 10) أم و مؤمنين متخلفين قدر ما هم يشابهونهما في عدم سمعهم لما يسمعون.

فقد تعني‏ «وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ» جمعا من المكيين الذين آمنوا أوّل مرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 164

ثم أخرجوا مع المشركين إلى بدر التحاقا إلى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أم نظرة الالتحاق بالفرقة الغالبة، فلما رأوا قلة المسلمين قال نفر منهم‏ «غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ» و أما الذين خرجوا إلى بدر مع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فهم خلّص ذو خلّط مهما كانوا درجات.

و حين تكون طاعة الرسول كطاعة اللّه مفروضة طليقة و التولي عنه كالتولي عن اللّه مرفوض طليق فما هو الجواب عن «حيلولة عمر بينه (صلى الله عليه و آله و سلم) و بين كتابة وصيته (صلى الله عليه و آله و سلم) في مرض وفاته» «1»؟ و الوصية حق لكل مسلم فضلا عن النبي الذي يعني في وصيته تحويل هامة الأمور الرسالية إلى من يرضاه اللّه! و «لقد لد في مرضه و هو غير راض» «2».

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (22).

إن الشرّ المعني هنا ليس إلّا في حقل التكليف الإنساني و من أشبه، فالتعبير هنا ب: «الدواب» دون «الناس» أو «الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ» تنديد بهؤلاء النسناس الذين هم في الحق دوابّ بل هم أضل: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179).

ف «الدواب» هنا طليعة تشمل خيرها و شرها، من حيوانها و إنسانها و غيرهما، و الشر الطليق بينها «الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» شرا بين خير من الدواب أو شر بقصور أم تقصير.

فطالما البهائم لها آذان و لكنها ليست لتسمع سمع الإنسان، و هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 3 ب 39 قاك 58 ب 6، ك 64 ب 83 ك 75 ب 17 ك 96 ب 26 مس- ك 25 ب 22 قد- ج 2 ق 2 ص 36 و 324 و 336 قا حم- أوّل ص 232 و 293 و 324 و 336 قا 355 ثالث ص 346.

(2) المصدر- ك 76 ب 21 مس- ك 39 ح 85 و 86 عد- ج 2 ق 2 ص 31 حم- أول ص 209 سادس ص 53 و 118 و 438 هش- ص 1007.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 165

مهتدية بفطرتها كما فطر اللّه و لكن هؤلاء الدواب الناس النسناس لهم آذان و ألسنة و هم بسوء صنيعهم لا يسمعون إنسانيا و لا ينطقون، فقد قطعوا عن أنفسهم النفسية الإنسانية النفيسة إلى نفسية نحيسة بئيسة تعيسة جعلتهم‏ «شَرَّ الدَّوَابِّ» بصورة طليقة! حيث سدوا منافذ الإدراك ظاهرا على آذانهم، و اذاعتها على ألسنتهم، و باطنا على قلوبهم، و أهم الواردات المعرفية هي الواردة من الأسماع: «وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ» (67: 10).

و شر الدواب هؤلاء الأنكاد لهم «الصورة صورة إنسان و القلب قلب حيوان و ذلك ميت الأحياء» (85/ 155)- أولئك «لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، و لم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، و الصخور القاسية» (106 و 40)- «منهوما باللذة، سلس القياد للشهوة، أو مغرما بالجمع و الادخار، ليسا من رعاة الدين في شي‏ء، أقرب شي‏ء شبها بالأنعام السائمة» (147 ح/ 595).

إن اللّه تعالى لم يخلق دابة شريرة في أصلها، فلم يخلق الشيطان شيطانا و إنما جنا كسائر الجان، ثم هو الذي شيطن نفسه بسوء صنيعه، كما لم يخلق الكافر كافرا، و كذلك سائر الدواب الشريرة، اللّهم إلّا شرا قاصرا هو قضية كون الكائن مخلوقا إذ لا يمكن أن يخلق ما هو خير مطلق كما اللّه.

ذلك، فالدواب الشريرة في حقل‏ «شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ» هي المقصرة في شرها فأين تقصير سائر الدواب و تقصير الصم البكم، فقضية خلق الإنسان في أحسن تقويم و الشرعة التي تقومه أكثر صاعدا في المعارج، ألا يعمل شرا أم يعمل أقل من سائر الدواب، فأما إذا يعاكس الإنسان أمره ارتدادا إلى أسفل سافلين فهو «شَرَّ الدَّوَابِّ» بصورة طليقة و كما يقول اللّه عنه‏ «حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا» مهما كان حمل الأمانة خيانة من سائر الكائنات كثيرة، فهو بجنب حمل الإنسان ضئيل قليل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 166

و التعبير عن الصم البكم بالدواب تعبير لهم بارتجاعهم إلى كيان الدواب الشريرة و أضل سبيلا، فلا يحق لهم اسم الإنسان أو الناس بل هم الدواب النسناس.

وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (23).

هنا «لو» تحيل أن يعلم اللّه فيهم خيرا إذ لا خير فيهم حتى يعلم، فهنا مساوات بين علم اللّه شيئا و واقعه، و بين عدمه و عدم واقعه لأنه بكل شي‏ء محيط.

فحين لا سمع لهم و هم صمّ بسوء فعالهم و اختيارهم، فلا يحق إسماعهم الحق الذي هم عنه معرضون، إذا- و الحال هذه- «و لو أسمعهم- اسمع قلوبهم و شرحها لما تسمعه آذانهم- لتولوا» عما أسمعو «وَ هُمْ مُعْرِضُونَ» عن الحق المرام.

«إذا أراد الله بقوم خيرا أسمعهم و لو أسمع من لم يسمع لولى كأن لم يسمع» «1».

فليس‏ «وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ» واردا مورد سمع القبول، و إلّا لاستحال التولي و الإعراض، إنما هو مورد سمع التمّنع لهؤلاء الدواب الصمّ البكم الذين لا يعقلون.

و قد قيل إنهم سألوا الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن يحيي لهم قصي بن كلاب و غيره من موتاهم ليخبروهم بصحة نبوته، و لكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون قولهم هذا إلا تعنتا و عنادا، فحتى لو أسمعهم كلام موتاهم تصديقا لهذه الرسالة «لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24).

«اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ» «وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 141 في أصول الكافي بسند متصل عن سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن و أحكامه و علم تغيير الزمان و حدثانه، إذا أراد الله ثم أمسك هنيئة ثم قال: و لو وجدنا أوعية أو مستراحا لقلنا و الله المستعان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 167

، «إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ» و كيف «لما» دون «إلى ما»؟ علّه كما الصراط المستقيم حيث يهداه أو يهدى له أو يهدي إليه، مثلث متدرجة الزوايا في حقل الهدى.

فهنا «لِما يُحْيِيكُمْ» لمحة إلى لزام الحياة لما يدعوكم بكل وصل:

أصل دون أي فصل فاصل.

و الحياة الموعودة هنا بالدعوة ليست- بطبيعة الحال- هي الحياة الحاصلة قبل الدعوة و الاستجابة، كالحياة الحيوانية و الإنسانية الفطرية و العقلية أماهيه من حياة معطاة قبل أي دعاء و استجابة.

ثم و ليست هي حياة طليق الإيمان أيضا حيث المخاطبون هم المؤمنون، إذا فهي فوق أصل الإيمان بدرجاته المتكاملة على ضوء الاستجابة في مختلف حقول الدعوة الربانية، كالحياة الحاصلة بالجهاد في سبيل اللّه و هي‏ «إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» (9: 52) قاتلا و مقتولا ف: «لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» (3:) 169) و هذه حياة متميزة عن سائر الحياة لأهل البرزخ.

هذا، و لكن لا تختص الحياة الموعودة بحياة الشهداء، كما لا تختص الدعوة لما يحييكم بالجهاد، بل هي الدعوة العامة القرآنية بكل حقولها.

ذلک و الأحياء بهذه الحياة: «أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» (58: 22)- «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ» (6: 122)- «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (16: 97): أطوار من الحياة بعد حياة الإيمان: تثبيتا للإيمان و مزيدا له و تأييدا بروح منه و سائر الحياة الطيبة علما و معرفة و إيمانا، «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17).

و بصيغة واحدة المجاهدة في سبيل اللّه هي التي تحييكم: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (61: 11).

إذا ف «استجيبوا إذا دعاكم لما يحييكم» و «إذا» هذه مستمرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 168

على مدار الدعوات الربانية بالقرآن و السنة، فانها تحييكم مهما اختلفت درجات إحياءها حسب درجات أحياءها و موادها، و قد شهد بحق هذه الحياة الرسولية و الرسالية المحمدية من غير المسلمين كثير «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول الشاعر الفرنسي (لامارتين) 1790- 1869 و هو من مشاهير الشعراء الفرنسيين و زعيم الحركة الرومنطيقية- يقول بحق هذا النبي العظيم:

«إن حياة مثل حياة محمد و قوة كقوة تأمله و تفكيره و جهاده و وثبته على خرافات أمته و جاهلية شعبه و شدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، و إيمانه بالظفر، و إعلاء كلمته، و رباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل- فهو فيلسوف، و خطيب، و رسول، و مشرع، و هادي الإنسان، إلى العقل، و ناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن و اللب، و مؤسس دين لا فرية فيه، و لا صور، و لا رقيات، و منشئ عشرين دولة في الأرض، و فاتح دولة روحية في السماء و تمتلئ بها الأفئدة- فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك، و أي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ» (أخرجه المهندس زكريا هاشم زكريا: المستشرقون و الإسلام ص 272- أنظر كتاب أحمد السيد (محمد نبي الإنسانية) دار الشروق ص 76.

و يقول ويل ديورانت- المؤلف الأمريكي، صاحب قصة الحضارة-: و إذا حكمنا للعظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي و الأخلاقي لشعب ألقت به دياجير الهمجية حرارة الجو و جذب الصحراء، و قد نجح في تحقيق هذا الفرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، و قل أن نجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به، و استطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة، و أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم. (قصة الحضارة- ترجمة محمد بدران- الجزء الثاني المجلد الرابع ص 6).

و في دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد»: محمد بن عبد اللّه مؤسس الدين الإسلامي- ولد في مكة عام 570 ميلادية و مات عام 632، و قليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد، لقد أحدث أثرا دينيا عميقا لا يزال منذ دعا إليه حتى الآن هو الإيمان الحي، و الشريعة المتبعة لأكبر من سبع سكان العالم. على أن أثره التاريخي يبدو بالأكثر عند ما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة منذ بدأ دعوته قوّض دعائم إمبراطوريتين عقيدتين و هما الإمبراطورية البيزنطية و الامبراطورية الفارسية، مؤسسا على أنقاضها حضارة جديدة- و لقد أرسى منذ جاء بدعوته- التي هي عقيدة و شريعة- قواعد بناء المجتمع الاجتماعية-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 169

ثم‏ «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» حيلولة صالحة لمن يستحقها بتلك الاستجابة الإيمانية، و طالحة جزاء وفاقا للذين زاغوا فأزاغ اللّه قلوبهم و على حد

المروي عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «يحول بين المؤمن و الكفر و يحول بين الكافر و الهدى» «1»

فلو أن قلب المؤمن حاول التقلب إلى الردى حال بينه و بينها، و يعاكس أمر الكافر إلى الردى.

ذلك، و مما يحييكم، الداخل في دعوة اللّه و الرسول، ولاية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و السياسية، و قد أعقب موته أن سجل خلفاءه الأحاديث التي رويت عنه، و أدق التصرفات و الأفعال التي قام بها، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراسا و مثلا أعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلا بعد جيل (أحمد السيد: محمد نبي الإنسانية- دار الشروق ص 72).

و جاء في كتاب (مختصر تاريخ الإنسانية) لمؤلفه ه. ج. ويلز: كان يمكن لأي متنبئ تاريخي يستعرض حياة بشر في مستهل القرن السابع الميلادي، أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتى تقع كل أوروبا و آسيا تحت سيادة المغول و التتار، فلم يكن في أوروبا الغربية أي إشارة تدل على إمكان قيام النظام فضلا عن الوحدة، و الامبراطوريتان البيزنطية و الفارسية كانتا في طريقهما نحو الانحلال و الدمار- و لكن هذا المتنبي كان سيخطئ في تقديره، فقد اشتعلت دنيا الصحراء و البدو بمائة عام من المجد عند ما بسط العرب سلطانهم و مدوا حكمهم و لغتهم من اسبانيا إلى حدود الصين، مقدمين للعالم ثقافة جديدة، و منشئين دينا لا يزال حتى اليوم أحد القوى الحيوية في العالم- و كان محمد بن عبد اللّه هو الذي أشعل الجزيرة العربية و دفعها لتحقيق ذلك كله، و الذي ظل حتى سن الأربعين لا يميز نفسه بشي‏ء غير عادي عن بقية معاصريه، (أخرجه أحمد السيد في: محمد نبي الإنسانية، المصدر نفسه ص 73).

(1). الدر المنثور 3: 176- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن هذه الآية «يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» قال:، و

فيه عن ابن عباس في الآية قال: يحول بين المؤمن و بين معصيته التي يستوجب بها الهلكة فلا بد لابن آدم أن يصيب دون ذلك و لا يدخل على قلبه الموبقات التي يستوجب بها دار الفاسقين و يحول بين الكافر و طاعته فلا يصيب من طاعته ما يستوجب ما يصيب أولياءه من الخير شيئا و كان ذلك في العلم السابق الذي ينتهي إليه أمر اللّه تعالى و تستقر عنده أعمال العباد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 170

علي بن أبي طالب (عليه السلام) كما يروى‏ «1».

و على أية حال: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (50: 16) فاللّه أقرب إلى قلوبنا منا إليها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يار نزديكتر از من بمن است‏ |  | وين عجب‏تر كه من أز وى دورم‏ |

ذلك، ف «كل ميسر صاحب النار ميسر لعمل النار و صاحب الجنة ميسر لعمل الجنة» «2»: إذ «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 20).

أجل، كلّ ميسر و ليس مسيّرا، و ليست الحيلولة الربانية بين المرء و قلبه مؤمنا أو كافرا، إلا بما يختاره صاحبه تيسرا لما يهواه، دون ما يختاره اللّه له أو عليه تسييرا خلاف هواه‏ «وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

فالحيلولة الربانية بين المرء و قلبه تحلق على كل مرء بقلبه، و لأن القلوب هي أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و ممن أورده و صححه الحافظ أبو بكر بن مردويه على ما في تفسير اللوامع و كشف الغمة (95)

روى باسناده مرفوعا إلى الإمام الباقر (عليه السلام) أن هذه الآية قد نزلت في ولاية علي بن أبي طالب،

و منهم الترمذي في مناقب مرتضوي (56) نقلا عن ابن مردويه في المناقب.

(2)

المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي غالب قال سألت ابن عباس عن هذه الآية قال: قد سبقت بها عند رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذ وصف لهم عن القضاء فقال لعمرو غيره ممن سأله من أصحابه: اعمل فكل ميسر قال: و ما ذلك التيسر؟ قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) صاحب النار.

و

في نور الثقلين 2: 141 عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية يقول: بين المؤمن و معصيته أن تقوده إلى النار و بين الكافر و بين طاعته أن يستكمل بها الإيمان و اعلموا أن الأعمال بخواتيهما،

و

فيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: يحول بينه و بين أن يعلم أن الباطل حق،

و

في رواية أخرى عنه (عليه السلام): لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبدا و لا يستيقن القلب أن الباطل حق أبدا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 171

و الحواس أئمة الأعضاء، فلا تفويض لعباد اللّه في أفعالهم كما لا جبر، و للّه تعالى الدور الأصيل في تحويل القلوب عدلا و فضلا، حيلولة بين إمام الأئمة و المأمومين في مخمس الكيان الإنساني في هذا الحقل.

و ليس‏ «اللَّهَ يَحُولُ» يعني انه بذاته يحول بين المرء و قلبه، فإنما هي علمه و مشيئته الحائلة بينهما، فصلا بين المرء و بين قلبه، فانه فصل بين قلبه كإمام الأئمة و بين المأمومين العقول و الأفكار و الحواس و الأعضاء.

فحين يحنّ قلب المؤمن خلاف هواه إلى شرّ أو يحن إلى ترك خير «اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» تقليبا له إلى خير أم ترك شر، و يعاكسه الكافر، قضية الجزاء العدل.

فرغم أن القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء «1»، رغم ذلك للّه المشية الحكيمة بين القلوب و سائر الخمسة تدبيرا صالحا على ضوء ما يقدمه المرء من معدّات و ما يعنيه في أصل التصميم الصميم خيرا أو شرا، و صالح الحيلولة الإلهية هو حيلولة العلم فإنه أقرب إلينا منا، و حيلولة القيومية، فإنه أقوم لنا منا، و حيلولة الإرادة إيجابيا أو سلبيا في صالحنا و طالحنا كما هو قضية العدل أو الفضل، توحيدا لربوبية التأثير، و حين يحول اللّه بين المرء و قلبه، فبأحرى له أن يحول بين المرء و كل قواته و مراداته، بين بصره و مبصره،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و بنقل آخر

في مستدرك نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة القلوب و القلوب أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء (مستدرك 176)

و لكن الآية تؤيد ما ننقله في المتن كرارا، حيث المحاور الأصيلة هي القلوب، و حصائل العقول و الأفكار و الصدور لما تدخل في القلوب تغربل و تخلص.

و قد يوجه الوجهان توافقا بينهما في وجهين، ان للعقول قوسا صعوديا و آخر نزوليا، فالصعودي إنها أسس الأفكار ثم الأفكار أسس القلوب ثم القلوب آمرة للحواس ثم الحواس آمرة للأعضاء.

و القوس النزولي ان القلوب تأمر العقول و العقول تأمر الأفكار و الأفكار تأمر الحواس و الحواس تأمر الأعضاء، فالآمرية الأخيرة إذا هي للحواس حيث تأمر الأعضاء، ثم بداية الصعود من العقول، ثم نزول الأمر من القلوب إلى العقول إلى الأفكار. تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 172

بين سمعه و مسموعه، بين ذوقه و مذوقه، بين حسه و محسوسه، و بين كل كيانه و ما يهواه، و حيلولته بين المرء و قلبه هي حيلولة بينه و بين كل كيانه، و هو القائل‏ «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» منه إلى نفسه و حياته ككل، و هذه الحيلولة الشاملة هي من قضايا ملكه الطليق للكائنات كلها.

و ليس يكفي للمرء أن يعقل صحيحا، فكثير هؤلاء الذين يعقلون ثم لا تطمئن قلوبهم بما عقلوه لأن قلوبهم مقلوبة مطموسة مركوسة فلا تستجيب.

ذلك، و بوجه آخر تعني هذه الحيلولة أن اللّه لا يغيب عن أي قلب مهما تناكر و تجاهل، فقد يغيب عن القلب أي حاضر أو غائب و لا يغيب اللّه عنه قضية الفطرة المجبولة على معرفة اللّه، فلا عاذرة في عدم استجابة اللّه‏ «إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ».

فقد تعرفه القلوب، و يعرف هو القلوب و ما في القلوب، و هو يقلبها كيف يشاء، فهو المرجع و الملجأ في تقلب القلوب فالعقول فالأفكار فالحواس فالأعضاء «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ».

و هذا المقطع القاطع من آية الاستجابة هذه يحلّق على جذور المعارف الربانية، قاطعا أعذار المتجاهلين المتكاسلين دعوة اللّه، قالعا غرة النفاق، و غرور الإيمان الوفاق، أن المؤمن- أيا كان- ليس ليستقل في إيمانه فتزول به نكبة الغرور نكسة للغرور، و هو عبارة أخرى عن‏ «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

ذلك، و من حيلولته تعالى بين المرء و قلبه قربه إليه أقرب من نفسه إلى نفسه، «نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (50: 16).

و منها أن ينسيه ما ذكره أو يذكره ما نسيه، فإن القلب بين أصبعي الرحمان، و منها أن يزيل عنه عقله و تميزه، حيلولة لإزالته، أم لتخفيفه، أم و لتثبيته، فلا فاعلية للقلب و لا عطلة إلا بإرادته تعالى حسب القابليات و الفاعليات، و هكذا يحول بين قلب الكافر و بينه تجميدا لصميم قصده السي‏ء الخطر، كما يحول بين قلب المؤمن و بين نفسه تأييدا له في فعل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 173

الخير و ترك الشر تكوينا، كما و يحول تشريعا بالأمر و النهي حيث الإيمان قيد الفتك.

و تلك الحيلولة المؤمنة تعني إمحاء ما يناحر الإيمان أو يضعفه و كما

يروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله تفسيرا لآية المحو و الإثبات:

يمحو الكفر و يثبت الإيمان، و يمحو النكرة و يثبت المعرفة، و يمحو الغفلة و يثبت الذكر، و يمحو البغض و يثبت المحبة، و يمحو الضعف و يثبت القوة، و يمحو الجهل و يثبت العلم، و يمحو الشك و يثبت اليقين، و يمحو الهوى و يثبت العقل على هذا النسق و دليله‏ «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» محوا و إثباتا «1».

حيلولات ربانية تناسب ساحة قدسه تعالى قضية وحدانيته الوحيدة غير الوهيدة فيما يحصل من خلقه أم لا يحصل.

و لعمر إلهي الحق إنها صورة رهيبة يتمثلها القلب بين أصبعي الرحمان- رحمة و غضبا- يقلبه كيف يشاء حسب المساعي صالحة و طالحة لأصحاب القلوب صورة تستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب و خفقاته و لفتاته، تحذرا من كل هاجسة فيه واجسة، تعلقا دائما باللّه، و استجابة له و لرسوله مخافة تقلبه في سهوة أو غفلة أو دفعة، ففرارا إليه مما سواه.

و

لقد كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على محتدة القمة عند اللّه يكرّر دعاءه: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»

فيكف بنا و نحن نحن المجاهيل الضعفاء الفالتون.

«اللهم داحي المدحوات و داعم المسموكات، و جابل القلوب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 395 عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 174

على خطريها: شقيها و سعيدها» (الخطبة 70)

ثبت قلوبنا على دينك.

فقلوب المؤمنين المطمئنين باللّه تتقلب إلى الرشد و النور، و قلوب من سواهم تتقلب إلى النار

«قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها، و كأن الرشد في إحراز دنياها» «1»

«فالصورة صورة إنسان، و القلب قلب حيوان و ذلك ميت الأحياء»

(85)-

«أين القلوب التي وهبت لله، و عوقدت على طاعة الله» (142)-

فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة، لزهقت نفسك شوقا إليها، و لتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالا بها، جعلنا اللّه و إياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته (163)

- و

«أخذ الله بقلوبنا و قلوبكم إلى الحق و ألهمنا و إياكم الصبر» (171)-

«و إن لسان المؤمن من وراء قلبه، و إن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيرا أبداه، و إن كان شرا واراه، و إن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له و ماذا عليه، و لقد قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، و لا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (174)-

«و لكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، و يتعبدهم بأنواع المجاهد، و يبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتكبر من قلوبهم، و إسكانا للتذلل في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 81/ 2/ 143. و كذلك التي تتلوها بارقامها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 175

نفوسهم، و ليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله، و أسبابا ذللا لعفوه، فالله الله في عاجل البغي، و آجل و خامة الظلم، و سوء عاقبة الكبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، و مكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبدا، و لا تشوي أحدا، لا عالما لعلمه، و لا مقلا في طمره، و عن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات و الزكوات، و مجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكينا لأطرافهم، و تخشيعا لأبصارهم، و تذليلا لنفوسهم، و تخفيضا لقلوبهم، و إذهابا للخيلاء عنهم» (190)-

«أحي قلبك بالموعظة، و أمته بالزهادة، و قوه باليقين، و نوره بالحكمة، و ذلله بذكر الموت، قرره بالفناء، و بصره فجائع الدنيا، و حذره صولة الدهر و فحش تقلب الليالي و الأيام، و أعرض عليه أخبار الماضين، و ذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين» (270)-

فيا للّه من ذلك القلب المتقلب الذي أحتل الإمامة الكبرى في كيان الإنسان ككل،

«لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه و ذلك القلب- بضعة من روحه- و له موارد من الحكمة و أضداد من خلافها، فان سنح له الرجاء أذله الطمع، و إن هاج به الطمع أهلكه الحرص، و إن ملكه اليأس قتله الأسف، و إن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، و إن أسعده الرضا نسي التحفظ، و إن ناله الخوف شغله الحذر، و إن اتسع له الأمن استلبته الغرة، و إن أفاد مالا أطغاه الغنى، و إن أصابته مصيبة فضحه الجزع، و إن عضته الفاقة شغله البلاء، و إن جهده الجوع قعد به الضعف، و إن أفرط به الشبع كظة البطنة، فكل تقصير به مضر، و كل إفراط له مفسد» (108 ح).

و

«إن للقلوب شهوة و إقبالا و إدبارا، فأتوها من قبل شهوتها و إقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي» (193 ح)

-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 176

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (25).

انها فتنة شاملة حاملة الذين عدلوا إلى الذين ظلموا، أو ليس هذا ظلما بالذين لم يظلموا أن يسوّوا بالذين ظلموا في هذه الفتنة؟ أم كيف تتقى و تقوى العدول هي خير وقاية، فإن كان هؤلاء غير متقين فهم من الذين ظلموا.

و إن كانوا متقين فكيف- إذا- يتقون؟ إنها فتنة و ليست- فقط- عذابا حتى لا يشمل غير الذين ظلموا، فتنة شاملة و اختبار هي للذين ظلموا شر و دمار، و لكنها لغير الظالمين فتنة عليهم أن يتقوها و يقوا أنفسهم منها حتى يتخلصوا عنها ناجحين، مهما هلكت فيها أبدانهم و فنيت أموالهم.

فالفتن الربانية أنماط و أشكال يتعاكس الأمر فيها للذين اتقوا على الذين ظلموا، فقد تكون فتنة خير وسعة، و أخرى فتنة شر و ضيق‏ «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً» (21: 35) فالذين آمنوا و اتقوا هم ناجحون و الذين فسقوا و طغوا هم ساقطون: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» (9: 49).

فمن جملة الفتن التي‏ «لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» فتنة الخلافة بعد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «1» و

عن النبي (صلّى اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 142 عن العياشي عن عبد الرحمن بن سالم عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: أصابت الناس فتنة بعد ما قبض اللّه نبيه حتى تركوا عليا و بايعوا غيره، و هي الفتنة التي فتنوا بها و قد أمرهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) باتباع علي (عليه السلام) و الأوصياء من آل محمد (عليهم السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 177

عليه و آله و سلم) قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل‏ «1» و فتنتهم في ليلة القدر هل هي ماضية أم مستمرة «2» و ما أشبه من فتن صعبة ملتوية تجعل المتوسطين في الإيمان حيارى، فضلا عن البسيطين كفتنة الرماة يوم أحد، و هنالك مجالة حق التقوى حفاظا على صالح الهدى.

و لقد تعترضكم فتن تزلزل فيها أركان الإيمان، ما ليس لها بقية إلّا بكامل التقوى و الإيمان: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى‏ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» (2: 214).

«يا أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة» (الخطبة 5)-

فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و في ملحقات أحقاق الحق 3: 546 عن النيشابوري تفسيره 9: 134 بهامش تفسير الطبري.

و

فيه 14: 399 عن الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 206 بسند متصل عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): من ظلم عليا مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي و نبوة الأنبياء قبلي، و عن الزبير بن العوام أنه قرأ هذه الآية فقال: ما شعرت أن هذه الآية نزلت فينا إلا اليوم، يعني يوم الجمل في محاربته عليا، و فيه عن ابن عباس في الآية قال: حذر اللّه أصحاب محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن يقاتلوا عليا.

(1). المصدر عن العياشي عن إسماعيل السرى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ..، و في تفسير الفخر الرازي 15: 149 عن السدي نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل و

روي‏ أن الزبير كان يساير النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوما إذ أقبل علي رضي اللّه عنه فضحك إليه الزبير فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): كيف حبك لعلي؟

فقال يا رسول اللّه أحبه كحبي لولدي أو أشد، فقال: كيف أنت إذا سرت تقاتله.

(2)

المصدر في أصول الكافي باسناده إلى أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن علي بن الحسين (عليهما السلام) حديث طويل و فيه: ثم قال في كتابه‏ «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً» في‏ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» يقول: إن محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يموت يقول أهل الخلاف لأمر اللّه عزّ و جلّ: مضت ليلة القدر مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فهذه فتنة أصابتهم خاصة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 178

قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة- زيادة- في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة (خ 23)-

و

«كن في الفتنة كابن اللبون- رضيع الناقة- لأظهر فيركب و لا ضرع فيحلب» (ح)

و

لا يقولن أحدكم: اللّهم إن أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا و هو مشتمل على فتنة، و لكن من استفاد فليستفد من مضلات الفتن فإن اللّه سبحانه يقول: «وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ» (93) ح).

أما بعد أيها الناس، فأنا فقأت عين الفتنة و لم يكن ليجترئ عليها غيري بعد أن ماج غيهبها، و اشتد طلبها، فاسألوني قبل أن تفقدوني، فو الذي نفسي بيده لا تسألونني عن شي‏ء فيما بينكم و بين الساعة، و لا عن فئة تهدي مائة و تضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها و قائدها و سائقها و مناخ ركابها و محط رحالها و من يقتل من أهلها قتلا و من يموت منهم موتا، و لو فقدتموني و نزلت بكم كرائه الأمور و حوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين، و فشل كثير من المسؤولين، و ذلك إذا قلّصت حربكم، و شمرّت عن ساق، و كانت الدنيا عليكم ضيقا تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتح اللّه لبقية الأبرار منكم- إن الفتن إذا أقبلت شبّهت، و إذا أدبرت نبّهت، ينكرن مقبلات، و يعرفن مدبرات، يحمن حوم الرياح، يصبن بلدا و يخطئن بلدا- ألا و ان أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة عمّت خطّتها، و خصّت بليّتها، و أصاب البلاء من أبصر فيها، و أخطأ البلاء من عمي عنها، و أيم اللّه لتجدنّ بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس، تعذم بغيها، و تخبط بيدها، و تزبن برجلها، و تمنع درّها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم، أو غير ضاربهم، و لا يزال بلاءهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه، و الصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشيّة، و قطعا جاهلية، ليس فيها منار هدى، و لا علم يرى،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 179

نحن أهل البيت منها بمنجاة، و لسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها اللّه عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفا، و يسوقهم عنفا، و يسقيهم بكأس مصبّرة، لا يعطيهم إلا السيف، و لا يجلسهم إلا الخوف فعند ذلك تود قريش بالدنيا و ما فيها لو يرونني مقاما واحدا، و لو قدر جزر جزور لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطوننيه‏ (الخطبة 92).

«فاتقوا سكرات النعمة، و احذروا بوائق النقمة، و تثبتوا في قتام العشوة و اعوجاج الفتنة، عند طلوع جنينها، و ظهور كمينها، و انتصاب قطبها، و مدار رحالها، تبدو في مدارج خفية، و تؤول إلى فظاعة جلية، شبابها كشباب الغلام، و آثارها كآثار السلام، تتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخرهم، و آخرهم مقتد بأولهم، يتنافسون في دنيا دنية، و يتكالبون على جيفة مريحة، و عن قليل يتبرأ التابع من المتبوع، و القائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، و يتلاعنون عند اللقاء، ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، و القاصمة الزحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، و تضل رجاء بعد سلامة، و تختلف الأهواء عند هجومها، و تلتبس الآراء عند نجومها، من أشرف لها قصمته، و من سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة، قد اضطرب معقود الحبل، و عمي وصية الأمر، تغيض فيها الحكمة، و تنطق فيها الظلمة، و تدق أهل البدو بمسحلها، و ترضهم بكلكلها، يضيع في غبارها الوحدان، و يهلك في طريقها الركبان، ترد بمر القضاء، و تحلب عبيط الدماء، و تثلم منار الدين، و تنقض عقد اليقين، تهرب منها الأكياس، و تدبرها الأرجاس، مرعاد مبراق، كاشفة عن ساق، تقطع فيها الأرحام، و يفارق عليها الإسلام، بريها سقيم، و ظاعنها مقيم» (الخطبة 151).

ذلك، و من واجهة أخرى لأن خطاب التحدير التحظير عام يعم كافة المؤمنين، إذا ف «فتنة» عامة تشملهم أجمع بما ظلم ظالمهم، كفتنة التفرق و التمزق من المفرقين بين المسلمين، و الاتقاء فيها درجات، منها التقوى عن الدخول في الفتنة مسايرة معها أم عملا أو عمالة لها، و منها الصد عنها نهيا عن نكيرها قدر المستطاع، ففتنة المنكر الجماعي تشمل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 180

غير الظالمين الذين ظلوا عنها ساكتين لا يقومون بواجب الأمر و النهي، و تشمل- شيئا ما- القائمين بهما إذا لم يتمسكوا بكامل التقوى إمساكا على إيمانهم، و كما تشمل القصّر العاجرين عن الأمر و النهي، و التقوى العامة المفروضة على الكل في هذه الفتن ألّا يسقطوا فيها، ثم المفروضة على الخاصة أن يزيلوها أو يقلّلوها.

ففي فتنة السلطات غير الشرعية زمنية و روحية تتساقط الشعوب بين أيديها قدر تخاذلها أمامها، تسايرا معها، أم تركا للمعارضة الممكنة ضدها، أم فسحا لمجال ظهورها في مظاهرها، و التقوى العامة المفروضة على كل المؤمنين في هذه الفتن أن يتقوا السقوط فيها تجاوبا معها، حفاظا على بقية الإيمان و بغيته، و معارضتها قدر المستطاع.

و هنا «لا تصيبن» نهي مؤكد بالثقيلة، لمحة إلى ثقل الفتنة الشاملة، و قد نفيت عن إصابة الظالمين خاصة، لأنها فتنة عامة تعني- بطبيعة حالها- المجموعة، و الواجب في حقلها درجات من التقوى قدر المستطاع إزالة إياها أم- لأقل تقدير- عدم السقوط فيها.

ذلك، و بوجه عام واجب المؤمنين أمام الفتنة الظالمة عامة و خاصة أن يصدوا عنها بداية و استمرارية، أم- لأقل تقدير- ألّا يسايروها و يتماشوا معها أو يسقطوا فيها.

فالجماعة التي تسمح لفريق منها بظلم في أية صورة من صورها، أو تسكت متجاهلا عنه، و لا تقف في وجهه، إنها جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين.

إذا ف «اتقوا» صدور فتنة، أم تزايدها، أم المزايدة فيها، أم السكوت عنها بعد ما حصلت، أم التأثر بها، فواجب التقوى أمام هذه الفتن العامة درجات حسب الإمكانيات، لا- فقط- الاتقاء عن التأثر بها.

«فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» لأنها فتنة عامة، أم شارك فيها غير الظالمين إلى الظالمين، فأصبحوا معهم من الظالمين المستحقين لها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 181

فهذه الفتن الجماهيرية هي مثلثة الجهات: الظالمين، و المقصرين أمامهم تركا لواجب الردع عن الظلم، و القاصرين الذين لا صيت لهم في حقل الظلم و لا صوت، فهي لهم فتنة غفرا و ارتفاع درجة، و للأولين فتنة جزاء لما ظلموا أصولا و أتباعا.

ذلك و

«ذمتي بما أقول رهينة، و أنا به زعيم، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات، ألا و ان بيتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم (صلى الله عليه و آله و سلم) و الذي بعثه بالحق لتبلبلن بليلة، و لتغربلن غربلة، و لتساطن سوط القدر، حتى يعود أسفلكم أعلاكم و أعلاكم أسفلكم، و ليسبقن سابقون كانوا قصروا، و ليقصرن سباقون كانوا سبقوا، و الله ما كتمت و شمة، و لا كذبت كذبة، و لقد نبئت بهذا المقام و هذا اليوم، ألا و إن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، و خلعت لجمها فتقحمت بهم في النار، ألا و إن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها و أعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة، حق و باطل، و لكل أهل، فلئن امر الباطل لقديما فعل، و لئن قل الحق فلربما و لعل، و لقلما أدبر شي‏ء فأقبل» (الخطبة 16).

وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26).

«و اذكروا» أيها المؤمنون‏ «إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ» كما في العهد المكي‏ «تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» النسناس نقمة إيمانكم و كفرهم «فآواكم» هجرة إلى المدينة «وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ» في حرب بدر و سواها «وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

هذا، و بصورة عامة قد يشمل الخطاب كافة الأميين قبل الإسلام حيث كانوا خطف الخاطفين من الروم و الفرس‏ «1»: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 177- أخرج الشيخ و أبو نعيم و الديلمي في مسند الفردوس عن ابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 182

حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» (29: 67) فآواهم اللّه بالإسلام، ثم آوى المهاجرين إلى المأمن المدني‏ «1» و من أشد الاستضعاف لقبيل الإيمان ما حصل في العهد المكي بشعب أبي طالب حيث كانوا حاسرين عن كل متطلبات الحرية و الحياة محصورين عن تحري الواجبات، و ذلك مشهد من التربص الوجل الوحل، حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة و الأيدي الممتدة الخاطفة، و القلة المستضعفة المسلمة في ارتقاب و توجّس، و من هذا المشهد الحرج المرج الهرج إلى مشهد الإيواء و التأييد و النصر و رزق الطيبات في ظل الضيافة و الإضافة الربانية العطيفة الحفيفة.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27).

هنا «وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ» كأنها حال من‏ «لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ» ف «أماناتكم» الربانية تحلّق على الفطرية و العقلية و سائر الآيات الأمانات أنفسية و آفاقية و أهمها منشور ولاية اللّه و هو كتاب اللّه، ثم امانة الرسالة و الولاية «2» ثم «أماناتكم» الرسولية و الرسالية هي التي يأتمنكم الرسول إياها بأمر اللّه في سنته، فكما انفصلت طاعة اللّه عن طاعة الرسول في صيغة التعبير اعتبارا بالكتاب و السنة، كذلك خيانة اللّه و الرسول في هاتين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- عباس عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و من الناس؟ قال: أهل فارس.

(1). المصدر أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن السدى في قوله: «فآواكم» قال: إلى الأنصار بالمدينة «وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ» قال: يوم بدر.

(2) في ملحقات إحقاق الحق 14: 564 عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل 1:

205 في العتيق روى عن يونس بن بكار عن أبيه عن جعفر بن محمد بن علي في قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ‏- في آل محمد- وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 183

الأمانتين، إلى سائر الأمانات الربانية المعنية بآية الأمانة «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا» (33: 72).

ذلك‏ «وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ» (8: 71) هي الأخرى الدالة على الأمانتين الربانية و الرسالية.

ذلك، و جزم «تخونوا» قد ينحّي احتمال حاليتها فإن قضيتها «و تخونون» فقد تعني الواو أصل العطف و عامل الجزم محذوف معروف من‏ «لا تَخُونُوا اللَّهَ» حيث تعني «و لا تخونوا أماناتكم» كضابطة ناهية عن خيانة الأمانات كلها، و هي- قضية الإضافة- تضم الأمانات الربانية عندكم- كأصل- و أمانات بعضكم عند بعض، و قد يعني الجمع من العاطفة- كأصل- و الحالية كفرع عليه، و الجزم هو قضية الأصل.

و لقد حصلت خيانات من المنافقين‏ «1» و البعض من بسطاء المؤمنين بحق اللّه و الرسول، فعفى اللّه عمن استعفى كأبي لبابة «2» و لم يكن ليعفوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 175- أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن جابر بن عبد اللّه‏ أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا و كذا فأخرجوا إليه و اكتموا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يريدكم فخذوا حذركم فأنزل اللّه‏ «لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ».

(2) المصدر أخرج سنيد و ابن جرير عن الزهري في الآية قال: نزلت في أبي لبابة بعثة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأشار إلى حلقه أنه الذبح فقال أبو لبابة لا و اللّه لا أذوق طعاما و لا شرابا حتى أموت أو يتوب علي فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما و لا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب اللّه عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك، قال: لا و اللّه لا أحل نفسي حتى يكون رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هو الذي يحلني فجاءه فحلّه بيده.

و

فيه أخرج عبد بن حميد عن الكلبي‏ أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بعث أبا لبابة إلى قريظة و كان حليفا لهم فأومأ بيده أي الذبح فأنزل اللّه هذه الآية فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لامرأة أبي لبابة: أ يصلي و يصوم و يغتسل من الجنابة؟-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 184

عن المنافق قضية عناده، فما خطاب الإيمان للمنافقين مع سائر المؤمنين إلّا بشامل الإقرار باللسان إيمان النفاق، و كما في التكاليف العامة للمقرين ككل حيث تشمل المنافقين إلى الموافقين.

و لأن أصل الخيانة ليس إلا من منافق ثم من ضعفاء الإيمان قد شملها الخطاب.

هذا و خيانة الأمانة هي بصورة عامة محظورة، فحتى إذا كانت خيانة بديلة خيانة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقالت: إنه ليصلي و يصوم و يغتسل من الجنابة فبعث إليه فأتاه فقال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و اللّه اني لأصلي و أصوم و اغتسل من الجنابة و إنما نهت إلى النساء و الصبيان فوقعت لهم ما زالت في قلبي حتى عرفت أني خنت اللّه و رسوله.

و

فيه أخرج ابن مردويه عن عكرمة قال‏ لما كان شأن بني قريظة بعث إليهم النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عليا رضي اللّه عنه فيمن كان عنده من الناس فلما انتهى إليهم وقعوا في رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و جاء جبريل (عليه السلام) إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على فرس أبلق فقالت عائشة فلكأني أنظر إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مسح الغبار عن وجه جبريل (عليه السلام) فقلت: هذا دحية يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: هذا جبريل، فقال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فكيف لي بحصنهم؟ فقال جبريل (عليه السلام) إني أدخل فرسي هذا عليهم فركب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فرسا معرورا فلما رآه علي رضي اللّه عنه قال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا عليك أن لا تأتيهم فإنهم يشتمونك، فقال: كلّا إنها ستكون تحية فأتاهم النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: يا إخوة القردة و الخنازير، فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت فحاشا، فقالوا: لا ننزل على حكم محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لكننا ننزل على حكم سعد بن معاذ فنزلوا فحكم فيهم أن تقتل مقاتليهم و تسبي ذراريهم، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): بذلك طرقني الملك سحرا فنزل فيهم‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» نزلت في أبي لبابة أشار إلى بني قريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ: لا تفعلوا أمانة الذبح و أشار بيده إلى حلقه.

(1).

نور الثقلين 2: 144 عن الكافي عن سليمان بن خالد قال‏ سألت أبا عبد اللّه-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 185

اللّهم إلّا إذا تجرد الاعتداء بالمثل عن ظاهرة الخيانة «1».

فحين يخونك من ائتمنته على مال ليس لك أن تخونه فيما أئتمنك على مثله من مال، اللّهم إلّا أن تعلن له أن هذا بهذا أم تنويه، دون أن تنكر أمانته كما أنكر هو أمانتك.

فهنا مال بديل مال، إذا لم يردّ عليك المؤتمن فلا ترد عليه ما ائتمنه عندك، و أما أن تنكر أمانته كما أنكر أمانتك بحلف و سواه، فلا يبرره شي‏ء، إنما المبرّر استنقاذ حقك المهدور قدر المقدور دون تعد آخر عليه.

ذلك، و بنظرة أخرى إلى الآية قد تعني‏ «وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ» إضافة إلى الحال- الماضية- و «أن تخونوا» اعتبارا بثالث ثلاثة من موارد النهي، خيانة اللّه و الرسول و خياناتكم فيما بينكم، فخيانة اللّه الخاصة هي خيانة آياته التكوينية و التشريعية، و خيانة الرسول هي خيانته في سنته، و هما أيضا من خياناتكم أنفسكم، ثم خيانة بعضكم بعضها أم خيانة أنفسكم و هما أيضا من خيانة اللّه، ثم الخيانات التي تعود بأخطارها و أضرارها إلى المجموعة المؤمنة هي مثلث الخيانة.

ثم‏ «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أنها خيانات و «تعلمون» أنها محرمات و «تعلمون» آثارها السيئة بنكبات، و «تعلمون» واجب الحفاظ على الأمانات‏ «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى‏ أَهْلِها» (4: 54).

كما «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أن خيانة اللّه و الرسول هي خيانة أنفسكم كما و خيانة أنفسكم هي خيانة اللّه و الرسول.

وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28).

«أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ» في خيرهما و شرهما، بكثرتهما و قلتهما و على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) عن رجل وقع لي عنده مال و كابرني عليه و حلف ثم وقع له عندي مال فأخذه مكان مالي الذي أخذه و أجحده و أحلف عليه كما صنع؟ فقال: إن خانك فلا تخنه فلا تدخل فيما عبته عليه.

(1).

المصدر عن أبي بكر الحضرمي قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام): رجل كان له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 186

أية حال لهما «فتنة لكم و إمتحان»،

قد اختبرهم اللّه بالمخمصة، و ابتلاهم بالمجهدة، و امتحنهم بالمخاوف، و مخضهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضا و السخط بالمال و الولد جهلا بمواقع الفتنة و الاختبار في موضع الغنى و الاقتدار فقد قال سبحانه و تعالى: «أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ» فإن اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم‏ (الخطبة 190).

ذلك و من فتنة الخير الولد الصالحون، و قد

كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يخطب على المنبر فجاء الحسن و الحسين (عليهما السلام) و عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران فنزل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من المنبر فحملهما و وضعهما على يديه ثم قال: صدق اللّه حيث قال: «أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ» «1».

و «انما» قد تحصرهما في امتحان، و هما من الأمانات الربانية من أداها كما أمر و قرر فقد نجح، و من خانها فقد سقط، «وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» على الحسنات التي تقدمونها بأموالكم و أولادكم و سواهما، فلتكن الأموال و الأولاد ذريعة لكم إلى يوم المعاد.

«لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ» (3: 186)- «وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى‏» (34: 37) إلا ما تقدمونه في اللّه لأنفسكم، «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ» (2: 223) «تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ» (61: 11).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

على رجل مال فجحده إياه و ذهب به ثم صار بعد ذلك للرجل الذي ذهب بماله مال قبله أ يأخذه منه مكان ماله الذي ذهب به منه ذلك الرجل؟ قال: نعم، و لكن لهذا كلام يقول: اللّهم إني آخذ هذا المال مكان مالي الذي أخذه مني و إني لم آخذ ما أخذت منه خيانة و لا ظلما.

(1). نور الثقلين 2: 145 في كتاب المناقب عن عبد اللّه بن بريدة قال سمعت أبي يقول: كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 187

أجل‏

«و ان المال و البنين حرث الدنيا، و العمل الصالح حرث الآخرة و قد يجمعهما الله لأقوام» (الخطبة 23/ 69)

و جمعهما أن تعمل صالحا فيهما.

«و لا حاجة لله فيمن ليس له في ماله و نفسه نصيب» (127 ح)

«يا ابن آدم كن وصي نفسك في مالك، و اعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك» (254 ح/ 612)

و

«لكل امرئ في ماله شريكان الوارث و الحوادث» (335 ح).

و

لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة- لأنه ليس أحد إلا و هو مشتمل على فتنة، و لكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فان اللّه سبحانه يقول: «وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ» و معنى ذلك انه يختبرهم بالأموال و الأولاد ليتبين الساخط لرزقه و الراضي بقسمه، و ان كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، و لكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب و العقاب، لأن بعضهم يحب الذكور و يكره الإناث و بعضهم يحب تثمير المال و يكره انثلام الحال‏ (الحكمة 91).

فقد يفتن الإنسان في ماله: أنى لك هذا؟ و أين صرفته؟ و إلى م وجهتك أموالك؟ و لم ادخرتها؟ و كيف أنفقتها؟ و فيم صرفتها؟ أماهيه من فتن حول الأموال.

و كذلك الأولاد، كيف رضاك عن ذكور دون إناث؟ أم إناث دون ذكور؟ أم جمعا بينهما و كيف ربيتهم؟ أم إلى م وجهتهم؟

فالأموال و الأولاد أمانات ربانية يجب رعايتهما في سبيل اللّه دون التهاء بهما عما يرضاه اللّه، فإلى تقوى اللّه في كل ما منحكم اللّه إياه أموالا و بنين و ما أشبه ف:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29).

«إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ» في أموالكم و أولادكم الفتنة، و في أنفسكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 188

«يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» بين الحق و الباطل، و الصالح و الطالح، و الفالح و الكالح، نورا تمشون به في ظلمات الأرض فتهتدون إلى خيرات، و إذا ما ابتليتم بسيئات فالتة أم خيرات فائتة «وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

«فاتقوا الله عباد الله، و فروا إلى الله من الله، و امضوا في الذي نهجه لكم، و قوموا بما عصبه بكم» (الخطبة 24).

أجل‏ «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ» (65: 3) فهنا على ضوء تقوى اللّه تقوى على إبصار الحق في خضمّ الباطل حيث يجعل اللّه لك مخرجا عن المضايق، و فرقانا لمعرفة الحقائق:

«و لو أن السماوات و الأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا» (الخطبة 128)

و إلى الفلاح مبلجا.

و هنا فرقانان بين الحق و الباطل، فرقان بما نحاول كإتقان اللغة و الأدب و البلاغة و الفصاحة ثم التفكير و التدبر الصالح في القرآن، و ما هو إلا كعصمة بشرية لا تطلق الإنسان إلى الصواب إلّا القدر المحدّد المحدود بالطاقة البشرية.

و فرقان ثان نحصل عليه بتقوى اللّه بما يجعل اللّه: «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» و هو المنضم إلى الفرقان الأول يطلق صاحبه إلى الصواب الطليق في تفهم القرآن، فكما العصمة الربانية حين تنضم إلى العصمة البشرية تتم العصمة و تطم، كذلك الأمر في الفرقان الرباني المنضم إلى الفرقان البشري.

صحيح أنه ما لم يكن فرقان أوّل لا ينتج فرقان ثان النتيجة المطلوبة، اللّهم إلا عرفانا باللّه و زائد الإيقان، و لكنه هو المحور الأصيل الذي ليس عنه بديل في تكملة الفرقان الأوّل.

فلأن القرآن نور مطلق، فلا يوصل إلى عمقه إلا بنور من اللّه و فرقان، فهنالك مجمع فرقانين، فرقان القرآن و فرقان الرحيم الرحمان لتفهّم القرآن‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

ففي مربع السلب و الإيجاب لمسرح فرقان و فرقان، نجد صاحب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 189

الفرقانين حاصلا على البغية الصالحة، الخليصة غير الخليطة، و لصاحب الفرقان الأول قدر ما يتقن من وسيلة الوصول إلى الحق، و لصاحب الثاني وصول أقوى، و لفاقدهما خواء و بواء، فطالما الفرقان الأول وسيلة غير طليقة و لكنما الثاني معه وصيلة طليقة كما وعد اللّه.

«و اعلم أنه من يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن و نورا من الظلم، و يخلده فيما اشتهت نفسه، و ينزله منزل الكرامة عنده، في دار اصطنعها لنفسه» (الخطبة 181)

-

«ألا فصونوها و تصونوا بها، و كونوا عن الدنيا نزاها، و إلى الآخرة ولاها، و لا تضعوا من رفعته التقوى، و لا ترفعوا من رفعته الدنيا» (الخطبة 189)

-

«أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم، و إليه يكون معادكم، و به نجاح طلبتكم، و إليه منتهى رغبتكم، و نحوه قصد سبيلكم، و إليه مرامي مفزعكم- فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم، و بصر عمى أفئدتكم، و شفاء مرض أجسادكم، و صلاح فساد صدوركم، و طهور دنس أنفسكم، و جلاء عشا أبصاركم، و امن مفزع جأشكم، و ضياء سواد ظلمتكم- فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها، و احلولت له الأمور بعد مرارتها، و انفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، و أسهلت له الصعاب بعد انضبابها، و هطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، و تحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، و تفجرت عليه النعم بعد نضوبها، و وبلت عليه البركة بعد إرذاذها» (الخطبة 196)-

أجل فالتقوى هي الزاد، عدة للطريق الملتوية الصعبة، حيث تحيي القلوب و توقظها و تستجيش فيها أجهزة الحذر و الحيطة و الوقاية، كاشفة منحنيات الطريق و دروبه مدّ البصر و البصيرة، دون غبش للشبهات الحاجبة للرؤية.

و إنها فرقان في كل خليط، كاشفة منعرجات الطريق، فطالما الهوى ينشر الغبش و تعمي المسالك و تخفي الدروب، فالتقوى هي متراس و نبراس تنير الدرب على السالكين، مزيلة كل غبش.

«فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، و اقترف فاعترف، و وجل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 190

فعمل، و حاذر فبادر، و أيقن فأحسن، و عبر فاعتبر، و حذر فحذر، و زجر فازدجر، و أجاب فأناب، و راجع فتاب، و اقتدى فاحتدى، و أري فرأى، فأسرع طالبا، و نجا هاربا، فأفاد ذخيرة، و أطاب سريرة، و عمر معادا، و استظهر زادا ليوم رحيله، و وجه سبيله، و حال حاجته، و موطن فاقته، و قدم أمامه لدار مقامه- فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له، و احذروا منه كنه ما حذركم من نفسه، و استحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز لصدق ميعاده، و الحذر من هول معاده- فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلا حواني الهرم، و أهل غضارة الصحة إلا نوازل السقم، و أهل مدة البقاء إلا آونة الفناء، مع قريب الزيال، و أزوف الانتقال، و علز القلق، و الم المضض، و غصص الجرض، و تلفت الإستغاثة بنصرة الحفدة و الأقرباء، و الأعزة و القرناء، فهل دفعت الأقارب، أو نفعت النواحب، و قد غودر في محلة الأموات رهينا، و في ضيق المضجع وحيدا، قد هتكت الهوام جلدته، و أبلت النواهك جدته، و عفت العواصف آثاره، و محا الحدثان معالمه، و صارت الأجساد شحبة بعد بضتها، و العظام نخرة بعد قوتها، و الأرواح مرتهنة بثقل أعباءها، موقنة بغيب أنباءها، لا تستزاد من صالح عملها، و لا تستعتب من سي‏ء زللها- أو لستم أبناء القوم و الآباء و إخوانهم و الأقرباء؟ تحتذون أمثلتهم، و تركبون قدتهم، و تطأون جادتهم، فالقلوب قاسية عن خطها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها، و كأن الرشد في إحراز دنياها» (الخطبة 82).

ذلك، و ليس «فرقانا» يختص بفرقان خاص، فانه ككل ما يفرق بين الحق و الباطل قرآنا و رسول القرآن و فاروق الأمة بعده و هو علي (عليه السلام).

فكما أن تقوى اللّه تستجلب فرقان اللّه بكل ما يعنيه، كذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 191

تستجلب فاروقا بعد النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يفرق بين الحق و الباطل في مضطرب الأحوال و تشتت الحال، و لذلك سماه الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيما تواتر عنه «فاروقا» «1» و هكذا «من فارق عليا (عليه السلام) فقد فارق الله» «2».

و من غريب الوفق العددي بين «الفرقان» و «بني آدم» أن كلا مذكور سبع مرات في القرآن، فنعرف مدى الوفق بين بني آدم و الفرقان شريطة تقوى اللّه، فكلما زادت التقوى زاد صاحبها فرقانا من اللّه و برهانا مبينا.

و ليس يختص «فرقان» لمن اتقى بحقل القرآن، بل هو فرقان في كافة الحقول و هذه ميزة ثانية لفرقان اللّه بطليق مفعوله، عن مصطلح الفرقان المختص بمعرفة معاني القرآن و السنة.

[سورة الأنفال (8): الآيات 31 الى 40]

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (32) وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (34) وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (37) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (40)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 4: 26- 31، 34- 35، 284، 331، 345، 369- 370، 386 و 7: 372 و 15: 283- 286، 292- 294، 305- 308، 431، 341- 345 و 20: 259- 261، 263، 298، 333، 459، 466، 472، 509، 546- 548.

(2) المصدر 4: 139 و 5: 291 و 6: 395- 400 و 16: 601- 605 و 21: 545- 549.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 193

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (30).

ذلك في دار الندوة، مجلس الشورى لصناديد قريش حيث اجتمع فيه أربعون منهم أو يزيدون، تشاورا في أمر الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كيف يعالجون موقفه الدعائي، صدا عن دعاياته المستمرة المتخلخلة المتجلجلة بين الناس بتزايد بالغ يشكل خطرا حاسما على قبيل الإشراك.

و حصيلة الآراء الأولى هي ثالوث‏ «لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ».

ثم توافقت على «يقتلوك» ثم النتيجة الحاسمة لذلك التصميم «يخرجوك» حيث نبهه اللّه بما مكروه من قتلهم إياه فخرج إلى غار الثور و بات علي (عليه السلام) على فراشه، ثم هاجر (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بعد ثلاثة أيام إلى المدينة.

و تلك الهجرة الهاجرة هي منقطعة النظير بين كل بشير و نذير بما فيها من خوارق عادات، حيث خرج أمام المهاجمين، آخذا بيده كفا من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 194

تراب، راميا إلى وجوههم بقوله: شاهت الوجوه، كما فعله في بدر الكبرى، متوجها إلى غار ثور، و حفاظا عليه، قطعا لاحتمال كونه فيه رغم ظاهر الأثر من أقدامه المباركة تؤمر العنكبوت أن يسدل ستارا ضخما على باب الغار ما يخيّل إلى الناظر أنه شغل سنين! و هكذا «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها» (9: 40).

في ذلك المسرح المنقطع النظير- إلا ما كان بحق المسيح (عليه السلام)- نرى للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) صاحبين بين أصحابه، صاحب ينام على فراشه مضحيا بنفسه نفس الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بما اختاره (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لتلك التضحية و هو الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) و قد نزلت بشأنه آية الشراء:

«وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (2:) 207) بصورة مستقلة.

و صاحب يصاحبه في الغار حالة الفرار من مكر الكفار، و لا تنزل بشأنه إلا «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» (9: 40).

فلقد بات علي (عليه السلام) على فراش الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الخطر هاجم، و صاحبه أبو بكر إلى الغار و الخطر ناجم، ثم نجد عليا (عليه السلام) مقدما بكل بدّ لتلك التضحية دونما تخوف، و لا نجد صاحبه في الغار إلّا متخوفا و معه الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قد يأتي نبأ الموقفين حين نأتي على تفسير آية الغار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 195

هنا الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و علي (عليه السلام) يتعانقان و لا يرضي عليا (عليه السلام) إلّا أن تسلم نفس الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بهذه التضحية، و

قد يروي عنه نظم في ذلك النظم: وقيت بنفسي خير من وطئ الحصا\* و من طاف بالبيت العتيق و الحجر محمد لما خاف أن يمكروا به\* فوقّاه ربي ذو الجلال من المكر و بت أراعيهم متى ينشرونني\* و قد وطّنت نفسي على القتل و الأسر و بات رسول اللّه في الغار آمنا\* هناك و في حفظ الإله و في ستر أقام ثلاثا ثم زمّت قائص\* قلايص يفرين الحصا أينما تفرى‏ «1»

و لقد ذاق الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الذين معه في أخريات سنيّه بمكة أشد ألوان الأذى بحجر أبي طالب سنين أربع، و لما صمموا على قتله بدار الندوة بدأت الهجرة المباركة مزودة بتسليات لخاطره القريح و قلبه الجريح منذ دخوله الغار «إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» و من ثم‏ «وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ» (47:) 13)- ثم له و للذين هاجروا معه: «وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (17: 42).

و لكيلا يحزن على ذلك الهجران في هجرته الهاجرة «يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» (29: 56) «وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا» (73: 10).

لقد اجتمعت قريش في دار الندوة مرتين بين اجتماعاتهم اللعينة، هما ألعنها، مرة للمعاهدة على حصره (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قال عبيد اللّه بن أبي رافع و قد قال علي (عليه السلام) يذكر مبيته على الفراش و مقام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الغار ثلاثا و في الدر المنثور بتفاوت يسير عن الحاكم عن علي بن الحسين عنه (عليهم السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 196

و الذين معه في شعب أبي طالب‏ «1» و أخرى إلى إثباته أو قتله أو إخراجه ثم اجتمعوا على قتله.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 19: 1- 4 ص: اجتمعت قريش في دار الندوة و كتبوا صحيفة بينهم ألا يواكلوا بني هاشم و لا يكلموهم و لا يبايعوهم و لا يزوجوهم و لا يتزوجوا إليهم و لا يحضروا معهم حتى يدفعوا إليهم محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيقتلونه و إنهم يد واحدة على محمد يقتلونه غيلة أو صراحا، فلما بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم و دخلوا الشعب و كانوا أربعين رجلا فحلف لهم أبو طالب بالكعبة و الحرم و الركن و المقام إن شاكت محمدا شوكة لاثبتن عليكم يا بني هاشم و حصن الشعب و كان يحرسه بالليل و النهار فإذا جاء الليل يقوم بالسيف عليه و رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مضطجع ثم يقيمه و يضجعه في موضع آخر فلا يزال الليل كله هكذا و يوكّل ولده و ولد أخيه به يحرسونه بالنهار فأصابهم الجهد و كان من دخل مكة من العرب لا يجسر أن يبيع من بني هاشم شيئا و من باع منهم شيئا انتهبوا ماله، و كان أبو جهل و العاص بن وائل السهمي و النضر بن الحارث بن كلدة و عقبة بن أبي معيط يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة من رأوه معه مرة نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئا و يحذرون إن باع شيئا منهم أن ينهبوا ماله و كانت خديجة رضي اللّه عنها لها مال كثير فأنفقته على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الشعب، و لم يدخل في حلف الصحيفة مطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد المطلب بن عبد مناف و قال: هذا ظلم و ختموا الصحيفة بأربعين خاتما ختمها كل رجل من رؤساء قريش بخاتمه و علقوها في الكعبة و تابعهم على ذلك أبو لهب و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يخرج في كل موسم فيدور على قبائل العرب فيقول لهم: تمنعون لي جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم و ثوابكم الجنة على اللّه و أبو لهب في أثره فيقول: لا تقبلوا منه فإنه ابن أخي و هو كذاب ساحر، فلم يزل هذا حالهم و بقوا في الشعب أربع سنين لا يأمنون إلا من موسم إلى موسم و لا يشترون و لا يبايعون إلا في الموسم و كان يقوم بمكة موسمان في كل سنة: موسم العمرة في رجب و موسم الحج في ذي الحجة فكان إذا اجتمعت المواسم تخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون و يبيعون ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني و أصابهم الجهد و جاعوا و بعث قريش إلى أبي طالب قصيدته اللّامية فلما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه و كان أبو العاص بن الربيع- و هو ختن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- يأتي بالعير بالليل عليها البر و التمر إلى باب الشعب ثم يصبح بها فتدخل الشعب فيأكله بنو هاشم و قد قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): لقد صاهرنا أبو العاص فأحمدنا صهره، لقد كان يعمد إلى العير و نحن في الحصار فيرسلها في الشعب ليلا و لما أتى على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الشعب أربع سنين بعث اللّه على صحيفتهم القاطعة دابة الأرض فلحست جمع ما فيها-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 197

و لقد باهي اللّه جبريل و ميكائيل بتضحية علي (عليه السلام) ليلة المبيت في الأخوة المحمدية العلوية (عليهما السلام) «1» و

قد يروى عنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من قطيعة و ظلم و تركت «باسمك النهم» و نزل جبرئيل على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأخبره بذلك فأخبر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أبا طالب فقام أبو طالب و لبس ثيابه ثم مشى حتى دخل المسجد على قريش و هم مجتمعون فيه فلما أبصروه قالوا: قد ضجر أبو طالب و جاء الآن ليسلّم ابن أخيه فدنا منهم و سلم عليهم فقاموا إليه و عظّموه و قالوا: قد علمنا يا أبا طالب إنك أردت مواصلتنا و الرجوع إلى جماعتنا و أن تسلّم ابن أخيك إلينا، قال: و اللّه ما جئت لهذا و لكن ابن أخي أخبرني و لم يكذبني أن اللّه تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم و ظلم و جور و ترك اسم اللّه فابعثوا إلى صحيفتكم فإن كان حقا فاتقوا اللّه و ارجعوا عما أنتم عليه من الظلم و الجور و قطيعة الرحم و إن كان باطلا دفعته إليكم فإن شئتم قتلتموه و إن شئتم استحييتموه فبعثوا إلى الصحيفة و أنزلوها من الكعبة و عليها أربعون خاتما فلما أتوا بها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه ثم فكّوها فإذا ليس فيها حرف واحد إلا «باسمك اللهم» فقال لهم أبو طالب: يا قوم اتقوا اللّه و كفوا عما أنتم عليه فتفرق القوم و لم يتكلم أحد و رجع أبو طالب إلى الشعب.

في بحار الأنوار 19: 39 روى‏ انهم ضربوا عليا و حبسوه ساعة ثم تركوه و أورد الغزالي في إحياء العلوم أن ليلة بات علي بن أبي طالب (عليه السلام) على فراش رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أوحى اللّه تعالى إلى جبرئيل و ميكائيل أني آخيت بينكما و جعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟ فاختار كل منهما الحياة و أحباها فأوحى اللّه تعالى إليهما: أ فلا كنتما مثل علي بن أبي طالب (عليه السلام) آخيت بينه و بين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه و جبرئيل ينادي بخّ بخّ من مثلك يا بن أبي طالب؟ يباهي اللّه بك الملائكة فأنزل اللّه عزّ و جلّ‏ «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ».

(1). و

فيه 46 ك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في جواب اليهودي الذي سأل عما فيه من علامات الأوصياء فقال فيما قال: و أما الثانية يا أخا اليهود فإن قريشا لم تزل تخيل الآراء و تعمل الحيل في قتل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حتى كان آخر ما اجتمعت في ذلك يوم الدار: دار الندوة، و إبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف فلم تزل تضرب أمرها ظهرا لبطن حتى اجتمعت آراءها على أن ينتدب من كل فخذ من قريش رجل ثم يأخذ كل رجل منهم سيفه ثم يأتي النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو نائم على فراشه فيضربونه جميعا بأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فإذا قتلوه منعت قريش-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 198

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رجالها و لم تسلمها فيمضي دمه هدرا، فهبط جبرئيل (عليه السلام) على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأنبأه بذلك و أخبره بالليلة التي يجتمعون فيها و الساعة التي يأتون فراشه فيها و أمره بالخروج في الوقت الذي خرج فيه إلى الغار فأخبرني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالخبر و أمرني أن اضطجع في مضجعه و أقيه بنفسي فأسرعت إلى ذلك مسرورا لنفسي بأن أقتل دونه فمضى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لوجهه و اضطجعت في مضجعه و أقبلت رجالات قريش موقنة في أنفسها أن تقتل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فلما استوى بي و بهم البيت الذي أنا فيه ناهضتهم بسيفي فدفعتهم عن نفسي بما قد علمه اللّه و الناس، ثم أقبل على أصحابه فقال: أليس كذلك؟ قالوا:

بلى يا أمير المؤمنين.

و

فيه 52 شي‏ء عن زرارة و محمد بن مسلم عن أحدهما (عليهما السلام) أن قريشا اجتمعت فخرج من كل بطن أناس ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإذا هم بشيخ قائم على الباب و إذا ذهبوا إليه ليدخلوا قال: أدخلوني معكم قالوا: و من أنت يا شيخ، قال: أنا شيخ من مضر ولي رأي أشير عليكم فدخلوا و جلسوا و تشاوروا و هو جالس و أجمعوا أمرهم على أن يخرجوه فقال: ليس هذا لكم برأي. إن أخرجتموه أجلب عليكم الناس فقاتلوكم، قالوا: صدقت ما هذا برأي، ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يوثقوه قال: هذا ليس بالرأي إن فعلتم هذا و محمد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم و خدمكم و ما ينفعكم أحدكم إذا فارقه أخوه و ابنه أو امرأته ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، يخرجون من كل بطن منهم بشاهر فيضربونه بأسيافهم جميعا عند الكتفين ثم قرأ الآية «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ».

و

فيه في قصة المبيت قول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي: إن الروح هبط علي بهذه الآية آنفا يخبرني أن قريشا اجتمعت علي المكر بي و قتلي و أنه أوحى إلي عن ربي عزّ و جلّ أن أهجر دار قومي و أن انطلق إلى غار ثور تحت ليلتي و انه أمرني أن آمرك بالمبيت على ضجاعي- أو قال:- مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثرى فما أنت قائل و صانع؟ فقال علي (عليه السلام): أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي اللّه؟ قال: نعم فتبسم عليّ ضاحكا و أهوى إلى الأرض ساجدا شكرا لما أنبأه به رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من سلامته فكان علي (عليه السلام) أوّل من سجد شكرا للّه و أوّل من وضع جبهته على الأرض بعد سجدته من هذه الأمة بعد رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فلما رفع رأسه قال له: امض لما أمرت فداك سمعي و بصري و سويداء قلبي و مرني بما شئت أكن فيه كمسرتك واقع منه بحيث مرادك و ان توفيقي إلا باللّه و قال: و إن ألقي عليك شبه مني أو قال: شبهي، قال: إن يمنعني نعم، قال: فأرقد على فراشي و اشتمل ببردي الحضرمي ثم إني أخبرك يا علي أن اللّه تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم و منازلهم من دينه فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل و قد امتحنك يا ابن أم-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 199

(عليه السلام) قوله في قصة المبيت: فأسرعت إلى ذلك مطيعا له مسرورا

فالكتاب و السنة- كلمة واحدة- متجاوبان في أفضلية الموقف المشرّف لمبيت الإمام علي (عليه السلام) على موقف أبي بكر في الغار، حيث المدار ليس هو الصحبة في المكان، إنما هو التضحية في الحفاظ على الصاحب‏ «1».

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31).

هنا «قَدْ سَمِعْنا» تعني سمع الأذن دون القبول بسمع القلوب و العقول- رغم ما حققوه ب «قد» كأنهم واعون ما سمعوا- إنما هو سماع للهزء بما يسمعون كذريعة لقيلتهم الغيلة: «لو نشاء» و لحصرهم آيات اللّه المتلوة عليهم بأساطير الأولين، و ترفّعهم- بزعمهم- عن الأساطير، يحيلون على أنفسهم أن يقولوا مثل هذا زغم إمكانيتهم ذاتيا لقوله كما يتقولون‏ «2» و كأنهم يترفعون أن يعارضوا هذه الأساطير بأساطير أمثالها إذ لا يعتبرونها مما يعارض لضالتها، و بعدهم عن الأساطير!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و امتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم (عليه السلام) و الذبيح إسماعيل (عليه السلام) فصبر صبرا فإن رحمة اللّه قريب من المحسنين، ثم ضمه النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى صدره و بكى إليه وجدا به و بكى عليّ (عليه السلام) جشعا لفراق رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و استتبع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أبا بكر و هند بن أبي هالة.

(1). المصدر 55 ما جماعة عن أبي المفضل معنعنا عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها و مكانه مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الغار فقال عبد اللّه بن شداد بن الهاد: و أين أنت من علي بن أبي طالب (عليه السلام) حيث قام في مكانه و هو يرى أنه يقتل؟ فسكتت و لم تحر جوابا.

(2) في الدر المنثور 3: 180 عن السدي قال: كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها و كلامهم فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و القرآن فقال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، و

فيه عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم بدر صبرا عقبة بن أبي معيط و النضر بن الحارث و كان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أسيري فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): كان يقول في كتاب اللّه ما يقول، قال: و فيه أنزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 200

ف «لو» هنا صد عن السؤال: قولوا مثل هذا، كما أن‏ «نَشاءُ لَقُلْنا» هدم لصرح الربانية لهذه الآيات البينات، و ما أنحسه مواجهة لآيات اللّه، و ما أضله البسطاء الذين لا يعقلون! و هنا يبقى سؤال، هل إن إبطال هذه الآيات أحرى للعاقل في محكمة العقل كما تدّعون، أو التورط فيما تستائون- زعم أنه من الأساطير- لذلك الإبطال حتى تتخلصوا عن عب‏ء هذه الدعوة المتلاحقة و يتخلص الآخرون؟ إذا فهذه و تلك هي من الدعاوي الهاوية الخواء الغاوية البواء، و ليست الدعوى بمجردها مهما كانت براقة، بالتي يواجه بها البرهان، فهي هيه من أساطير الأولين، دون آيات اللّه البينات التي تملك على صدقها من كافة البراهين، و إنما السكوت عن ردهم فيما ادعوا لظاهر بطلان دعواهم دونما نكير، حيث الدعوى المجردة و لا سيما هذه الطائلة الغائلة ليست بالتي ترد على آيات اللّه البينات التي هي بأنفسها أدلة لربانيتها مصدرا و صادرا.

ذلك، و قد وصل العناد من هؤلاء الأنكاد الأوغاد لحد تطلبوا لأنفسهم من اللّه الهلاك ان كان هذا هو الحق:

وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (32).

دعاء غريب يصور حالة راسبة من العناد ضد الحق المرام، إيثارا للهلاك على الإذعان بالحق، حيث فسدت جبلتهم بالكبرياء الجامحة، و أخذتهم العزة بالإثم فحسبهم جهنم و بئس المهاد.

هنا «إِنْ كانَ هذا» لا تختص بمشار إليه خاص، فقد تعني كافة المتعنتين القائلين هذا، الغائلين، سواء أ كان في مسرح الآيات الربانية الإسلامية- ككل- أم سواها، أم في مسارح خاصة في حقل الإسلام كولاية الأمر بعد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، أنهم- ككل- و دون أيّة هوادة يرجحون عذاب اللّه على تصديق آية من اللّه لا يهوونها، و هذه هي الخطوة الأخيرة الشيطانية التي يخطوهم بها الشيطان.

ذلك، و جوابا عن أمثال هذه الشطحات الزور و الغرور من أحابيل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 201

الغرور:

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33).

فكون الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيهم- رغم أنهم ناكروه- إنه صيانة لهم عن عذاب اللّه مقترحا و سواه، و صيانة أخرى على طول الخط- كان فيهم الرسول أم لم يكن فيهم- «وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» ف «ليعذبهم» محطّ لسلب محدّد ب «وَ أَنْتَ فِيهِمْ» و لكن «معذبهم» سلب طليق‏ «وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» سواء أ كنت «أنت فيهم» أم لم تكن.

فتلك هي الرحمة المحمدية العالمية أن اللّه لا يعذب الكافرين به ما هو فيهم، ثم يتوب عن ذلك‏ «وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» فقد

«كان في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و أما الأمان الباقي فالاستغفار» «1»

فقد كان مماته إلى حياته خيرا لنا «2» لهذين الأمانين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 153 و حكى أبو جعفر محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) أنه قال: كان قال اللّه جلّ من قائل‏ «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ».

(2) المصدر 151

في روضته الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إن لكم في حياتي خيرا و في مماتي خيرا، قال: فقيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أما حياتك فقد علمنا فما لنا في وفاتك؟ فقال:

أما في حياتي فإن اللّه عزّ و جلّ يقول: و ما كان اللّه ليعذبهم و أنت فيهم: و أما في مماتي فتعرض علي أعمالكم فاستغفر لكم.

و

في الدر المنثور 3: 181- أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أنزل اللّه علي أمانين لأمتي‏ «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

و

فيه 182- أخرج أحمد و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي سعيد قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إن الشيطان قال: و عزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: و عزتي و جلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني،

و

فيه عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: من أكثر من الاستغفار جعل اللّه له من كل هم فرجا و من كل ضيق مخرجا و رزقة من حيث لا يحتسب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 202

و ترى العذاب المنفي‏ «ما دُمْتُ فِيهِمْ» هو مطلق العذاب الشامل لقتلهم؟ و قد قتل جمع منهم في غزوات! إنه عذاب الاستئصال كما لم يعذبوا به ما كان (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيهم، ثم‏ «ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ» تعم إلى عذاب القتال عذاب البرزخ و القيامة.

ذلك، فقد يعذبون بعد ارتحال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عنهم و هم لا يستغفرون، بعذاب الاستئصال و ما أشبه، الواقع على سالفة الأمم المتخلفة عن شرعة اللّه.

و ليس عذاب القتال ينافي كونه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) رحمة للعالمين، فان فسح المجال للمكذبين الفاتنين ينافي أصل الرحمة الأصيلة المحمدية حيث يستأصل دعوته، و إنما هي الرحمة التي لا تشكل زحمة على الذين آمنوا.

أجل، إنها رحمة ربانية- إكراما لمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- تشملهم فتمهلهم فلا يأخذهم اللّه عجالة بعذاب الاستئصال الاستعجال، مهما يؤخذون بسائر العذاب قضية صدهم عن سبيل اللّه و عن المسجد الحرام، فصدهم بقتال و سواه عما يصدون، فليس ليصدهم عن ذلك العذاب ما يدعونه من كونهم ورثة إبراهيم و سدنة البيت الحرام، أم لأنهم أولياء اللّه، فإنهم أعداء اللّه و أعداء البيت الحرام و مغتصبوه، و ليس البيت الحرام ميراثا حتى لو كان ميراثا من إبراهيم، بل هو البيت العتيق عن كل اختصاص بوجه خاص، اللّهم إلا لأولياء اللّه المتقين.

ذلك فقد يعذبهم اللّه دون هذين الشرطين دون عذاب الاستئصال‏ «وَ أَنْتَ فِيهِمْ» «وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ»:

وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (34).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 203

فليس- فقط- لأنهم أميون‏ «أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ» و هم لا يتقون، «وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ» و لست أنت فيهم و لا هم يستغفرون اللّه «و هم» على كفرهم و تكذيبهم بآيات اللّه‏ «يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» دونما حق يحق لهم ذلك الصد.

ذلك! «و» الحال أنهم‏ «ما كانُوا أَوْلِياءَهُ» اللّه، و لا كانوا أولياء المسجد الحرام من قبل اللّه‏ «إِنْ أَوْلِياؤُهُ»: اللّه، و المسجد الحرام‏ «إِلَّا الْمُتَّقُونَ» فإنما لأولياء اللّه و أولياء المسجد الحرام من أولياء اللّه أن يصدوا من سواهم عن المسجد الحرام، «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا» (9: 28).

فالصادّون عن المسجد الحرام، المشركون باللّه، هم أصول الفتنة ضد الموحدين و شرعة التوحيد، فلا يسمح لهم بذلك الصدّ، بل و يعذبهم اللّه بأيدي المؤمنين حربا كما يعذبهم بما يشاء كيف يشاء حفاظا على العاصمة التوحيدية عن ذلك الصد الظالم الغاشم.

ذلك‏ «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» أنهم‏ «ما كانُوا أَوْلِياءَهُ» و «لا يعلمون» أنهم معذبون و «إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ».

أجل، «ألا إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها و اشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، و تركوا منها ما علموا انه سيتركهم، و رأوا استكثار غيرهم منها استقلالا، و دركهم لها فوتا، أعداء ما سالم الناس، و سلم ما عادى الناس، بهم علم الكتاب و به علموا، و بهم قام الكتاب و به قاموا، لا يرون مرجوا فوق ما يرجون، و لا مخوفا فوق ما يخافون» (الحكمة 422).

ذلك، و حين يصد اعداء اللّه أولياءه عن المسجد الحرام، فما هم فيه فاعلون؟

وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35).

تلك اللعينة هي صلاتهم باللّه إشراكا به، و بأهل اللّه صدا عن المسجد الحرام كفرا به، و هذه صلاتهم عند البيت‏ «مُكاءً وَ تَصْدِيَةً» تصغيرا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 204

و تصفيقا «1» هما من اللهو و اللغو المناسبين لمسارح الفسق و الرقص، و في أقدس مكان من أمكنة الوحي و العبادة، و ذلك ثالوث منحوس من مستحقات العذاب: تكذيب بآيات اللّه، و صد عند المسجد الحرام، و مكاء و تصدية فيه‏ «فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36).

و هذه طبيعة الحال النحسة لقبيل الكفر أنهم يصرفون كل طاقاتهم، و «يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» صدا للمؤمنين باللّه تضليلا لهم، أم وصدا عن تطبيق أحكام اللّه كما يصدون عن المسجد الحرام، و صدا للمستضعفين المتحرين عن الحق، أو الحائرين لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء، فكيانهم ككلّ هو الصد عن سبيل اللّه.

ذلك‏ «فَسَيُنْفِقُونَها» فيما يهوون و يشتهون‏ «ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» في الدارين، لا فقط «حسرة» بل‏ «ثُمَّ يُغْلَبُونَ» غلبا بعد الحسرة و قلة بعد الكثرة، هنا و في الأخرى، ثم مصيرهم إلى النار «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ».

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (37).

«إِلى‏ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» مع بعضهم البعض متميزين عن أهل الجنة «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» في ذلك الحشر كما تميزوا يوم الدنيا عن الطيبين‏ «وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ» ظلمات بعضها فوق بعض- «فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً» في ذلك الحشر الحاشد، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر 183- أخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له‏ أخبرني عن قوله عز و جلّ‏ «إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً» قال: المكاء صوت القنبرة و التصدية صوت العصافير و هو التصفيق و ذلك أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان إذا قام إلى الصلاة و هو بمكة كان يصلي قائما بين الحجر و الركن اليماني فيجي‏ء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه و الآخر عن شماله و يصيح أحدهما كما يصيح المكاء و الآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 205

فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ‏ أنفسهم و أهليهم يوم القيامة، فذلك التعبير القرآني يجسم الخبيث كأنه كومة من الأقذار لهؤلاء الخبثاء الأقذار، و عند ما يصل السياق إلى ذلك التقرير عن مصير الكفر، يتجه بخطاب إلى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ليقول لهم قولة الرحمة إن تابوا و انتهوا:

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38).

ضابطة فقهية كلامية هي بصيغة السنة: «الإسلام يجب- يهدم- ما- كان- قبله» «1» و مهما كانت هذه الرواية ضعيفة السند و محدودة الدلالة، فهذه الآية تجبر كسرها فيهما «2».

هنا «الَّذِينَ كَفَرُوا» طليقة تحلق على كل ألوان الكفر إلحادا و إشراكا و كتابيا، ف «إن ينتهوا» تعني الانتهاء عن الكفر أيا كان بكل مخلفاته، فهو الانتهاء المطلق دون مطلق الانتهاء، حيث المتعلق للانتهاء هنا هو الكفر، فان انتهى عن بعضه لم ينته عن كفره حيث الباقي أيضا كفر إذا فقد يعني الانتهاء عن الكفر بأسره و تمامه، انتهاء نهائيا عن أسره، ثم‏ «يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ» تحلق الغفر على كل‏ «ما قَدْ سَلَفَ» كتشجيع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 184- أخرج ابن أحمد و مسلم عن عمرو بن العاصي قال: لما جعل اللّه الإسلام في قلبي أتيت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقلت: أبسط يديك لأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال: مالك؟ قلت أردت أن تشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله و ان الهجرة تهدم ما كان قبلها و إن الحج يهدم ما كان قبله.

(2) أذكر حينما كنت بالنجف الأشرف في هجرتي إلى اللّه من شر الطاغوت: الشاه عليه لغته اللّه، و كنت أتردد إلى مجلس الاستفتاء للمرجع الديني الكبير السيد الخوئي، مشاورة في مختلف الفتيا، و أنا متكفل الجانب الفقهي القرآني إضافة إلى سواه، ذكر فيما كان يحققه في أسناد الروايات أنني وجدت حديث الجب غير مسنود فلا يصح أن يفتي به، فتلوت عليه هذه الآية قائلا: إذا كان حديث الجب ضعيفا فآية الجب قوية، فاستطار حيرة و قال: حقا نحن بعيدون عن كتاب اللّه، نفتش بعد ردح بعيد من الزمن عن سند حديث الجب، غافلين أن هناك آية الجب هي أقوى دلالة و أظهر، و لقد كانت أمثال هذه النبرات القرآنية مما يغيظ جمعا من الجاهلين بالقرآن، التاركين إياه إلى سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 206

على إيمان، و إمحاء لصدود قد تمنع عن الإيمان، و هل إذا يغفر للكافر ما قد سلف فبأحرى المؤمن الفاسق إذ لا يحرم المؤمن عما يمنح الكافر ترغيبا إلى إيمان، و لكن كفارات المؤمنين مقررة مفصلة، و لا يقاس المؤمن بالكافر، فالواجبات التي تركها حال إيمانه عليه أن يأتي بها، ثم المحرمات أن يستغفر عنها، و التعديات المالية و العرضية و النفسية أن يجبرها، حيث التوبة لها حدود محددة في الكتاب و السنة.

و ترى‏ «ما قَدْ سَلَفَ» تشمل إلى حقوق اللّه حقوق الناس؟ و الغفر عن حقوق الناس ظلم بحق الناس‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»! هذا الغفر ليس إلّا قضية الرحمة الواسعة الربانية، فقضيته ألا يشكّل زحمة للناس، فقد يختص بما هو حق اللّه تعالى فحسب، أم و يشمل حقوقا للناس لا سبيل للمنتهي عن كفره إلى إحقاقه، إذا فاللّه هو الذي يغفر له إرضاء لصاحب الحق يوم الحساب‏ «1».

فالأصل القرآني في حقل الانتهاء عن الكفر هو الغفر دون شرط، اللّهم إلا ما فيه ظلم بالناس و «أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

إذا «يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ» مخصصة بما يكون غفره ظلما بحقوق الناس، و ليست غاية ترغيب الكفار إلى الإيمان مما يبرر الوسيلة الظالمة، اللّهم إلا أن يحمّل المؤمنون الغفر عما لحقهم من الكفار حالة كفرهم من ظلم، فلصالح الإيمان ترغيبا إليه يتحمل المؤمنون غفرهم؟

و هو محدّد بما يدل عليه بصورة قاطعة و بينة، فإلى مظان هذه الأدلة و مقاطعها: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى‏ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ» (47: 2) و علّ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 154 في تفسير العياشي عن علي بن دراج الأسدي قال: دخلت على أبي جعفر (عليه السلام) فقلت له: إني كنت عاملا لبني أمية فأصبت مالا كثيرا فظننت أن ذلك لا يحل لي، قال (عليه السلام): فسألت عن ذلك غيري؟ قال: قلت قد سئلت فقيل لي: إن أهلك و مالك و كل شي‏ء لك حرام، قال: ليس كما قالوا لك، قلت: جعلت فداك فلي توبة؟ قال: نعم توبتك في كتاب اللّه‏ «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 207

من إصلاح بالهم ما يتكفله اللّه من جبر نقصهم فيما قصروا في حقوق الناس إلى حقوق اللّه.

«وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (5: 65) و لعل التكفير يختص بحقوق اللّه المتروكة، فقد كانوا مكلفين بالفروع كما الأصول، و لكن الإيمان يكفر كل تقصير في الفروع ما لم يكن ظلما بحقوق الناس.

و من ذلك التكفير ما وعد جمع من المؤمنين: «فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ» (3: 195).

كما و «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31)، فالذي يؤمن بعد كفره «يغفر له ما قد سلف» بصورة طليقة اللّهم إلّا ما يكون غفره ظلما بآخرين، و هكذا الذي يقتل في سبيل اللّه، و لكن الذي يجتنب كبائر المنهيات تكفر عنه- فقط- سيئاته، ثم هنا ما يكفر من السيئات دون كلها: «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (2: 271).

فمن الصالحات ما يكفر أسوء الأعمال: «وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ. لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ. لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ» (39: 35).

و منها ما يكفر كل السيئات كالإيمان و عمل الصالحات و التقوى و الشهادة في سبيل اللّه: «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» (8: 29) «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ» (64: 9).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 208

ذلك، و لكن تكفير السيئات عن المؤمن علّ نطاقه أضيق من‏ «يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ» للكافر، فالإيمان بعد الكفر يكفّر كل ما قد سلف، اللهم إلا ما لا يغفر من حقوق الناس حتى يغفره صاحبه، أو يحمله اللّه على ذلك الغفر، و التقوى و ترك كبائر المنهيات و فعل كبائر الحسنات و الشهادة في نطاق الإيمان يغفر بها كل السيئات و هي الصغائر دون الكبائر، و أما «الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ» «لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا» ثم و من الحسنات ما تبدل السيئات حسنات و ذلك فوق تكفيرها: «إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً» (25: 71).

ذلك، و بصورة عامة لا يعني غفر ما سلف، و تكفير السيئات كلا أو بعضا إلا غفر ما يجوز غفره بميزان العدل و الرحمة دون ما لا يجوز كحقوق الناس اللّهم إلّا ما يجبره تعالى كما يراه هنا أم في الأخرى و هذا بحاجة إلى قاطع الدليل فلا تكفيه عمومات أو إطلاقات الغفر عما سلف أم تكفير السيئات.

فالآيات بالنسبة للذين ينتهون عن كفرهم إلى إيمان، هي كلمة واحدة: «نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» و ما أشبه، و أوسع من الكل‏ «يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ» حيث تشمل كافة التقصيرات في ترك واجبات و اقتراف محرمات، ما يرتبط بحقوق اللّه، لا و حقوق الناس حيث الغفر عنها دون رضاهم ظلم.

ثم بالنسبة للمؤمنين المتقين- الشهداء في سبيل اللّه- التاركين كبائر المنهيات- العاملين كبائر الواجبات، لهم تكفير السيئات.

ثم لكامل التوبة حيث يتلوها العمل الصالح الذي أصلح ما أفسده تبديل لسيئاتهم حسنات.

و في إعطاء الصدقات تكفير لبعض السيئات دون كلها، و علها السيئات المالية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 209

ذلك، و لأن الذين انتهوا عن كفرهم ما كان تكليفهم بالفروع كما على المؤمنين، و لكيلا يصدهم عن الإيمان عب‏ء الإتيان بما سلف و الجبران لما تخلف، فالصالح في الرحمة الربانية و سياسة الجذب إلى الإيمان أن‏ «يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ» و لكنه محدد بما ليس من حقوق الناس، و ان كان منها فبما يجبره اللّه حتى يرضي المهضومين في حقوقهم.

ثم و على كتلة الإيمان التنازل عن حقوقهم المهضومة فيما يؤمن الهاضمون إياها إكراما للإيمان، و تنازلا عن مصالحهم الشخصية للمصلحة الجماعية لكتلة الإيمان.

ذلك، و كضابطة في غفر اللّه أيا كان و لأي كان، لا مجال له ككل إلا حقوق اللّه و أما حقوق الناس فلا إلا أن يدل دليل خاص عليه كأن اللّه يرضي المستحقين، أو أنه يريد منهم أن يرضوا، و لا نجد هذا أو ذاك بالنسبة لانتهاء الكفار عن كفرهم، فإنما يغفر لهم ما قد سلف من واجبات متروكة أو محرمات مفعولة في حقل حقوق اللّه فقط.

هذا، و مع كل ذلك فقد يحكم إطلاق‏ «ما قَدْ سَلَفَ» شمولا لحقوق الناس، استسماحا من الناس المؤمنين هنا و سماحا من اللّه في الأخرى كما يصح و يرضى، فإن غفر حقوق الناس محظور إذا لم يكن إليه سبيل و إن محتملا، و قد نجد مثله في مواضع كالتجهيز و ولاية اليتامى، و الدعوة إلى اللّه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و ما أشبه حيث المصلحة العامة العليا اقتضت هضم الحقوق المالية فيها رعاية للأهم الأعم، فقد يكون هكذا الأمر و بأحرى بالنسبة للذين ينتهون عن الكفر، فلا مقيد قاطعا لحقوق الناس في غفر ما سلف للذين آمنوا.

و حين يعمل مثلث‏ «تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً» تبديل سيئات المؤمنين حسنات، فبأحرى أن يغفر عن كل السيئات لمن انتهى عن كفره ترغيبا و تشويقا، لا سيما و أن تكليف الكفار بالفروع أخف من تكليف المؤمنين بها، فلتغفر لهؤلاء ما سلف بأحرى منهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 210

الحرب الخطوة الخطوة على مد الزمن حتى تنتهي إلى زمن صاحب الزمن حيث يخطو الخطوة الأخيرة من‏ «قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» إزالة الفتنة أو إخماد نائرتها قدر المستطاع، قتالا باردا صدأ عن الدعايات الكافرة، و آخر حارا حينما لا تنفع الباردة أم لا تكفي و لا تكافئ فتنتهم.

فذلك تقرير حاسم دائم للحركة الإسلامية السامية على مدار الزمن في مواجهة الفتنة أينما كانت و كيفما حصلت لتكون كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى.

فليس يكفي- فحسب- أن تكون أنت مسلما و الجو الفاسد بالدعايات المضللة يفتتن البسطاء عن الحق المرام.

لأن اللّه لا يكلف نفسا إلّا وسعها، فلا تعني «قاتلوهم» إلا قدر المستطاع الصالح للكتلة المؤمنة.

فأما إذا فنوا أو ضعفوا بقتالهم، أم يزول الأهم لهم بذلك و ما أشبه من محاظير القتال- إذا- فلا قتال، و كما لم يكن في العهد المكي.

ذلك، فالمأمور بذلك القتال الحاسم الجاسم كل الكتلة المؤمنة على مدار الزمن الإسلامي حتى يأتي دور صاحب الأمر دائرة على يديه دولة الإسلام شاملة كل المعمورات.

ذلك، و لأن ضمير الغائب في «قاتلوهم» راجع إلى‏ «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» فالقتال المفروض قدر الصالح و المستطاع يعم الكفار كلهم، و هم غير المسلمين ككلّ.

و لأن القصد من مقاتلتهم هو استئصال الفتنة تحقيقا حقيقا للا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 211

ذلك «إن ينتهوا» دون عود «وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ» في العائدين إلى كفرهم‏ «سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» فإنه ارتداد جاهر عن الدين، و له حكمه كما تقتضيه الحكمة العادلة الربانية.

ذلك، فعلى سواء أن يكون لحديث «الإسلام يجب ما قبله» سند صالح أم لا، حيث يؤخذ منه ما يوافق الآية و لأن أصل الجبّ هو احتزال السنام من أصله فكأنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) جعل الإسلام مستأصلا لكل ذنب تقدم الإنسان قبله حتى لا يدع له جناية يحذر عاقبتها، و لا معرّة يسوء الحديث عنها، بل تعفى على ما تقدم من السوءات، و تحثوا على ما ظهر من العورات، اللّهم إلّا ما يحتاج العفو عنه إلى مكفر زائد.

وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39).

«وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» (2: 193).

إن القتال الإسلامي لا ينحو منحى تفتّح البلاد توسعيا قضية القدرة الغالبة، و الزهوة المتآلبة، بل هو- فقط- دفاع سلبا لأيّة «فتنة» فإيجابا ل «الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» فلا يهدف- إذا- إلا تحقيق كلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

و لأن «الفتنة» هي‏ «أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» (2: 217) و «أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» (2: 191) فهي بأحرى منه سماحا و فرضا للقتال دفاعا عن الفتنة إذا كانت فتنة عن الدين بمختلف حلقاته و حقوله.

و لا تعني «قاتلوهم» مقاتلين خصوصا في زمان أو مكان خاص إذ لا يمكن إزالة الفتنة ككل و إيجاب الدين كله للّه لجماعة خاصة من المسلمين، اللّهم إلّا ما سوف يحصل بقوات صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، و أمر القتال هنا أمر الحال و ان شمل المستقبل، دون اختصاص بالاستقبال.

إذا فذلك أمر باستمرارية القتال على مدار الزمن الإسلامي كسياسة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 212

إله» ثم تثبيت دولة الحق تحقيقا ل «إلا اللّه» إذا فلا تعني قتال الكفار إلا تحقيق كلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» بحقها.

فالعلم الأحمر للقتال في سبيل اللّه لا يتبدل بالأخضر المصالحة التامة حتى يتحقق‏ «لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

فأما إذا لم ينتج القتال إلّا مزيد الفتنة، أم لا فتنة و لا سلب فتنة، أم‏ «جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها» أما في هذه الموارد فمواصلة القتال لا تبرّر بأيّ مبرر، و كما في كتاب الإمام علي لمالك الأشترّ: «و لا تدفعن صلحا دعاك الله عدوك و لله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك و راحة من همومك، و أمنا لبلادك، و لكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتعقل، فخذ بالحزم، و اتهم في ذلك حسن الظن».

ذلك ليرى اعداء الإسلام أنه ليس شرعة تفتح و تغلب، إنما هي شرعة رحمة و تطلب للحق، لينة الأريكة لمن استلان، و شديد المعركة على من يهاجم شرعة اللّه.

ثم القتال في سبيل اللّه إسلاميا غير مسموح إلا دفاعا عن النفس أو العقيدة، فالفتنة النفسية، ثم العقيدية التي هي أشد و أكبر من القتل، هاتان الفتنتان هما اللتان يسمح فيهما بالقتال لزاما، فلأن قتل من لا يقاتل و لا يفتتن عقيديا هو اعتداء دون مقابل، أم بمقابل أقل منه، فضابطة «فَمَنِ اعْتَدى‏ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى‏ عَلَيْكُمْ» تحصر سماح القتال في حقله بما فيه اعتداء بالمثل أم بأدنى كما في المقاتلين المفتتنين حيث «الفتنة أكبر- أشد من القتل».

إذا «قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ» لا تعني كل فتنة، إنما هي فتنة إن القصد من قتالهم هو إزالة الفتنة آمنوا أم لم يؤمنوا «وَ إِنْ تَوَلَّوْا»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 213

عن ترك الفتنة فإنما عليكم ما حمّلتم قدر المقدور، ثم‏ «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ» حيث يتولى أمركم أمام الفاتنين‏ «نِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ» فلا تكلفوا أنفسكم فوق طاقاتكم إحراجا.

نفسية أم عقيدية، ثم و لا مجال للقتال في الثانية إلا ألا يكون سبيل إلّا هيه، أن نرد عليهم فتنهم، و لكن الفتنة العقيدية آخذة مجالاتها في البسطاء الذين ما تعرق الإيمان المتقن في قلوبهم، و حتى المؤمنين الماكنين قد تأخذهم فتن عقيدية ماكرة حاكرة.

ذلك، و أما سائر الفتن التي هي دون النفس و العقيدة، فضلا عن الكفار غير الفاتنين، فلا مبر إسلاميا لقتالهم، حيث الحروب الإسلامية- ككل- هي كلها مصبوغة بصبغة الدفاع، و مسوقة بصيغة في سبيل اللّه، و لا تسمح سبيل اللّه و الدفاع عنها بالقتال دون أي دفاع.

ثم‏ «وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» لا تعني في أي زمان أو مكان ألا يطاع إلّا اللّه، فإن قسما من اليهود و النصارى حسب آيتي «أغرينا و ألقينا» مستمرون إلى زمن صاحب الأمر (ع) و إلى يوم القيامة الكبرى، فهل هم- بعد- دينهم دين اللّه؟

ثم و لا قتال الكتابيين- كما في آيتهم- إلّا المقاتلين منهم أو الفاتنين و قد اختصرت دركاتهم المسرودة في آيات البراءة ب «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» فلكي تخمد نار الفتنة عنهم لكيلا يسطعوا على إطفاء نور اللّه بأفواههم، نور الإيمان و نور المؤمنين، نقاتلهم‏ «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ» لم تبق لهم قوة لذلك الإطفاء بذلك الانطفاء، إذا فقتالهم محدد لحد انطفاءهم عن فتنتهم مهما لم يؤمنوا.

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (40).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 214

[سورة الأنفال (8): الآيات 41 الى 42]

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى‏ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (41) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى‏ وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى‏ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى‏ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (41).

في هذه الآية مسائل عدة في تساءلات و إجابات كما يهدي إليها الكتاب و السنة، و طالما قصرت الأقلام حولها أم طالت، فقد يحق بنا حق التنقير حولها بحق التفسير كما نستطيع، ابتداء بالاسئولة التالية:

1 هل الغنيمة هي التي تفوز به من مال أو حق من غير مشقة؟ «1» و الغنم هو إصابة الغنم و استعمل في كل مظفور به‏ «2» كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في لسان العرب.

(2) مفردات القرآن للراغب الأصبهاني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 215

«فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً» (8: 69) قد تعممها إلى مطلقها بمشقة أو دونها، حيث إن سماح الأكل مما فزت به بمشقة أحرى، فإن آية الأكل هذه آتية بعد آيات في القتال، و غنائم دار الحرب الحاصلة بمشقة أحرى بالحل مما سواها! و لكن مشقة الحرب ليست للغنيمة، إلّا أن الغنيمة الحاصلة بها هي الحاصلة بمشقة، سواء أ كانت هذه الغنيمة منوية أم لم تكن.

أم هي خاصة بغنائم دار الحرب لورود آية الخمس موردها؟ و مورد الحرب لنزولها في منزلها، حيث اللغة المستعملة في مورد من مواردها لا تتخصص به بذلك الاستعمال إلّا إذا حلّق استعمالها على كل الموارد، ثم‏ «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» تعمم الغنيمة إلى كل فائدة، فهي الفوز بفائدة في حرب و سواها، بمشقة و سواها، باكتساب و سواه، بعلم أم سواه، فهي كلما حصل عليه الإنسان من حق أو مال بحق في أي حقل من الحقول.

ذلك، و كما

«مانح كل غنيمة و فضل» (الخطبة 82)

ليست لتعني- فقط- غنيمة الحرب، ثم و «من شي‏ء» في استغراق الإيجاب تستغرق الغنيمة من كل شي‏ء دونما استثناء، و كذلك اللغة تشهد لطليق معناها في كل فائدة دونما اختصاص بحقل خاص.

فأصل الغنم هو الزيادة و النماء و فاضل القيمة «1» كما و هو إصابة الغنم و الظفر به، ثم استعمل في كل إصابة و كل مظفور به من عدو و غيره‏ «2».

إذا ف «ما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» لا تختص الخمس بغنائم دار الحرب، بل هي كل غنيمة و فائدة محلّلة تحصل عليها في أي محصل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في لسان العرب.

(2) كما في مفردات القرآن للراغب الإصبهاني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 216

النزول ليس ليخصص الآية بنفسه، و الغنيمة لغويا لا تختص بها من دار الحرب، فهل‏ «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» (4: 94) تختص أيضا بحقل القتال، و لا تعني‏ «إِلى‏ مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها» (48: 15) «وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها» «1» و «تأخذونها» (19 و 20) مما تختص المغانم بخصوص المحاصيل، صناعة و زراعة و تجارة و هبة أو هدية أماهيه، إلّا أن يدل قاطع الدليل على استثناء يتّبع.

و ترى «ما غنمتم» تختص بما بقي من الفوائد بعد استثناء مصارف الحصول عليها و مؤنة السنة؟

استثناء المصارف الأولى هو طبيعة الحال من «ما غنمتم» حيث الغنيمة هي الفائدة الخالصة، و هنا نصدق المروي أن الخمس بعد المؤنة.

ثم في استثناء المصارف الأخرى نظر فانها كالباقية مشمولة ل «ما غنمتم» و الرواية القائلة: «إن الخمس بعد المؤنة» لا تعني إلا مؤنة الحصول على الفائدة كما في الموارد الستة الأخرى التي يجب فيها الخمس، و لا نص على استثناء مؤنة السنة، و لو كان لم يكن يصلح لتقييد «ما غنمتم» بجزء ضئيل قليل منه، فحين تحصل على مائة ألف فائدة خالصة فتصرف تسعين ألفا منها في مؤنتك ثم تخمس الباقي فيطلع ألفين، فكيف يناسب الألفان أن يعنى ب «ما غنمتم» و قد غنمت خمسين ضعفا منه؟

إذا فالأقوى أن الخمس كما الزكاة يتعلق بأصل الفائدة مع رعاية المؤنة المتعودة حتى لا يصبح بتخميس ماله فقيرا يحتاج إلى الخمس حيث‏ «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» و منه الزيادة، و هي هنا الزيادة عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لكن‏ «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ» (48: 200) هي نفس المغانم التي عند اللّه في‏ «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» (4: 94) إلا أن شمول «مغانم كثيرة» ل «مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها» لا تجعل المغانم الثانية نفس الأولى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 217

المصارف المتعودة دون تبذير و لا إسراف، فلا خمس إذا من أصل المؤنة إلّا عفوا لا تحتاج فيه إلى شي‏ء من الخمس.

فإذا كانت فوائده شهرية فليصبر حتى آخر الشهر فإذا بقي شي‏ء يحاسب الخمس من أصل الفائدة، و إذا كانت سنوية أماهيه فليحاسب حسب الفائدة المراعاة فيها المؤنة.

3 هل‏ «فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» هي نصاب من أنصبة الزكاة فليس الخمس علما لصنف خاص من الضرائب الإسلامية، بل هو النصاب الأخير في واجب التأدية من كافة الغنائم، و قد نسخت الأنصبة المذكورة في السنة من ربع العشر إلى نصف العشر و إلى العشر، فهو الآن ضعف العشر كضابطة و قانون شامل، ثم في الحاجات الضرورية لمصارف الزكاة يأتي دور الضريبة غير المستقيمة و هي كل زائدة عن الحاجة الضرورية المتعوّدة بناء على آية العفو: «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (2: 219) كما في الخمس؟

أم إنه علم لمصطلح خاص لضريبة أخرى سوى الزكاة؟ «1» و ذلك غير معروف لغويا و لا شرعيا- إلا عند المتشرعة قضية الفتاوى الشهيرة- و آية الخمس لا تصطلحه كضريبة خاصة لمكان‏ «أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ».

أجل، قد يوحي اختلاف موارد الخمس عن موارد الزكاة في آية الصدقات- النازلة بعدها بسنين عدة- باستقلاله عنها كضريبة سواه، «إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (9: 60) فإن اللّه 1 و الرسول 2 و ذي القربى 3 و اليتامى 4 المذكورين هناك غير مذكورين هنا، و العاملين 1 عليها و المؤلفة قلوبهم و في الرقاب 3 و الغارمين 4 و في سبيل اللّه 5 و الفقراء 6 هنا غير مذكورين هناك، فالمشترك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

جامع الأحاديث 8: 526 قوله (عليه السلام) ما من ذي مال ذهب و لا فضة يمنع زكوة ماله أو خمسه إلا جسه اللّه عزّ و جلّ بقاع قرقر و سلط عليه شجاع أقرع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 218

بينهما ليس إلا المساكين و ابن السبيل.

و قد يقال إن «ابن السبيل» تشمل- و بأحرى- «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» لا سيما و أن «الله و الرسول» هما- دون ريب- أصلان لسبيل اللّه، و المساكين تشمل الفقراء بطريق أولى حيث الفقير أسوء حالا من المسكين، و «الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ» مشمولون للسبيل كفروع، و «لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏» غير المساكين منهم علهما زيادة على السالف ذكرهم في آية الصدقات، و لكنهما- أيضا- داخلان في‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

أو كما أن الأنصبة المقررة في السنة نسخت بآية الخمس، كذلك مواردها تحولت بها؟ و لكن لم يثبت نزول آية الخمس بعد آية الصدقات حتى يثبت تناسخ في البين، بل آية الصدقات نزلت بعدها حيث الأمر بأخذ الصدقات نزل في السنة التاسعة من الهجرة: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً» (9: 103) و آية الصدقات هي في نفس السورة، إذا فهي بعد آية الخمس بست سنين، فنسخ آية الخمس بآية الصدقات أحرى- لو كان هناك نسخ- فإذا تصبح أنصبة الصدقات هي أنصبة الخمس، و لكن دون إثباته خرط القتاد، إلا أن يقال آية الصدقات نسخت من موارد الخمس.

و هنالك في السنة لمحات صارحة أو تصريحات صارخة أن الخمس غير الزكوة و نموذجا منها ما

يروى عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث قال: «إن القرآن أنزل على النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) و الأموال أربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض، و الفي‏ء فقسمه على مستحقيه، و الخمس فوضعه الله حيث وضعه، و الصدقات فجعلها الله حيث جعلها» (270 ح/ 620)

إلا أن تعني الصدقات ما هو أعم من ضريبة الخمس، فهي من ذكر العام بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 219

الخاص.

و مما يؤيد أو يؤكد أن الخمس ضريبة بحيال الزكوة انه كان عادة جاهلية قبل الإسلام، و آية الخمس هذه تقرر أصله و تصلح تقسيمه الذي كان جاهليا غير عادل‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). جاء في التاريخ و السير كتاريخ قم (291) أن أبا مالك الأشتري قسم الخمس قبل نزول الآية، و

في (278) منه‏ أن مالك بن عامر المهاجري خمس قبل نزول الآية حيث غنم غنيمة في بعض الغزوات فقال له رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اجعل منه نصيبا للّه فقال مالك خمسة للّه،

و في بعض التواريخ أن أوّل خمس أدي قبل بدر ما أداه عبد اللّه بن جحش في سريته، أداه للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) (تاريخ أبو الفداء للواقدي و ابن خلدون و اليعقوبي).

و يقول القرطبي في تفسيره (8: 12) كانوا في الجاهلية يختصون ربع الغنيمة لقائد الجيش و كما يقول الشاعر الجاهلي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لك المرباع منها و الصفايا |  | و حلمك و النشيطة و الفضول‏ |

و في سيرة ابن هشام (4: 224) عن ثابت بن قيس الشماس يذكر مفاخر قومه في الجاهلية قائلا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| منا الملوك و فينا تقسم الربع‏ |  | و انا ابن الرابعين من آل عمرو |

و فرسان المنابر من خباب قول ابن هشام: كان من عاداتهم إذا غنموا أن يعطوا الرئيس ربع الغنيمة و يسمى المرباع، و فيه ص 230 من أشعار زبرقان بن بدر أنه قال إمام الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و إن لنا المرباع في كل غارة |  | نفير بنجد أو بأرض الأعاجم‏ |

و فيه (246) في قصة وفود عدي بن حاتم: و كنت أسير في قومي بالمرباع، و قال الأصمعي: ربع في الجاهلية و خمس في الإسلام و كان يأخذ بغير شرع و لا دين ربع الغنيمة، و في مسالك الافهام (2: 95) كان في الجاهلية ان الرؤساء منهم كانوا يستأثرون الغنيمة لأنهم أهل الرئاسة و الدولة و الغلبة.

ذلك، و قد قررت آية الخمس خلافا للقرار الجاهلي ما قررت.

و ذلك و للغنائم الحربية سوابق رسالية كما في تثنية التوراة (20: 0010) و التكوين (14: 20) و رسالة بولس للعبرانيين (7: 4 و سفر الأعداد (21: 9 و 11 و 18 و 26 و 31، و في أوّل تاريخ الأيام (26: 26- 27).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 220

إذا فالزكوة و الخمس ضريبتان اثنتان مستقيمتان قد تكون أولاهما على كل الغنائم قبل المؤنة و الخمس عليها بعد المؤنة إلا في أرباح التجارات و سواها، فالعوائد- إذا- هي بين ضريبتين اثنتين مستقيمتين، ثم الضريبة غير المستقيمة هي للحالات الطارئة من الحاجات الضرورية فردية و جماعية للكتلة المسلمة.

و أما أنصبة الزكوة الشاملة لكافة الأموال، فالمقررة منها للبعض منها تقرّر لأشباهها، فنصاب الغلات الأربع نصاب لكافة الغلات، و نصاب الأنعام الثلاثة نصاب لكافة الأنعام، و نصاب النقدين نصاب لسائر النقود و الأموال، حيث المنصوص من هذه الأنصبة لم تذكر إلا لنماذج من مواردها.

ذلك، إلا أن يخص الخمس بغنائم دار الحرب و لا دليل عليه مهما قيل لإثباته قيلات، فنحن نتابع النص ما لم ينسخه نص آخر يوازيه.

فقد يقال إن آية الخمس نزلت في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة، و قد نزلت بشأن الغنائم الحربية المختلف فيها بين المقاتلين، أو يقال انها نزلت بشأن غزوة أخرى، و لكننا لسنا لنتابع شؤون النزول حيث الأصل هو أصل النص: «أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» و هي أعم من الحرب، فلو كان القصد إلى خصوص الحرب لجي‏ء بخصوصها ك «في القتال» أماذا؟ لا سيما و انها الآية الوحيدة الآمرة بأداء خمس الغنيمة أمام عشرات من آيات الصدقات.

ذلك، و هنا أربع من الضرائب المستقيمة على مختلف الأموال، «الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ»: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ» (8: 1).

و الفي‏ء و هو هو لمستحقي الخمس: «وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 221

فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ. ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى‏ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» (59: 7).

فمقسم الخمس و الفي‏ء متشارك إلا في أربعة أخماس، و مقسم الأنفال فقط اللّه و الرسول، و قد يجوز للرسول بسند الرسالة أن يقسمه بين مستحقي الخمس، و مقسم الزكاة تلكم الثمانية، و لا اشتراك بينها و بين ست الخمس إلا في المساكين و ابن السبيل، فتبقى ستة من مقسم الزكاة غير مذكورة في مقسم الخمس، كما و أن أربعة من الخمس غير مذكورة في الزكاة، فالمقاسم إذا ثلاثة في هذه الضرائب الأربع، أو اثنان لدمج الفي‏ء في الخمس‏ «1» و قد يدخل الفي‏ء و الأنفال في‏ «أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» فإنهما من الغنائم الجماعية للمسلمين، و اختصاص الأنفال باللّه و الرسول لا ينافي أن للأربعة الباقية أنصبة منها.

و القول باختصاص الخمس بغنائم الحرب قد يستدل له بما يلي:

1 كون آية الخمس بين آيات القتال صراحة أو تلميحة أن «ما غنمتم» تعني في الحرب، و ان كانت الغنيمة لغويا تشمل كل فائدة، كأن يقول صاحب الصيدلية ضمن كلامه حول الأدوية: كل ما حصلتم عليه فاجعلوه في مكان كذا، حيث لا يفهم منه إلا ما يناسب الصيدلية من الأدوية، فلا يدخل في فهم أو و هم أنه يشمل اللحوم و الفواكه و الأسرجة و ما أشبه؟

و لكنه قياس فان مثله تعالى في قوله‏ «أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» إنما هو مثل من يبيع أو يشتري كل شي‏ء، فإذا كان يتحدث عن شي‏ء خاص ثم قال ما حصلتم عليه من شي‏ء فلا يعني الشي‏ء الخاص، فلو عناه لخص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للاطلاع على أبعاد الفي‏ء و الأنفال راجع الفرقان 28: 334- 240.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 222

اسمه بالذكر، و هكذا- و بأحرى- ما غنمتم من شي‏ء، لا سيما و «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» تعمم الغنيمة، و مما يبرهن على عموم الغنيمة أن القيد هو الذي يحدد موقفها، «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ» يحولها إلى غير دار الحرب، و «إِلى‏ مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها» تختصها بدار الحرب، و آية الخمس طليقة فتعم ما لدار الحرب إلى غيرها.

2 عدم أخذ الخمس في أيام الخلافة و السلطة الإسلامية من قبل الخلفاء و السلاطين دليل اختصاصه بغنائم دار الحرب، فلو عمت لكانوا أحرص عليه ممن سواهم؟

و لكن عدم أخذهم الخمس هو تعام عمليّ عن حق الخمس الخاص بأهل بيت الرسالة (عليهم السلام)، و قد نجد أوامر الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «1» و الأئمة عليهم بالخمس بصورة طليقة دون اختصاص بغنائم دار الحرب، و ان هذه شيطنة مدروسة ضد الأئمة (عليهم السلام) أن يحرموا من خمسهم، شيطنة مزدوجة في السلطتين الروحية و الزمنية.

3 الخمس للّه دون اقتسام إلى ستة أقسام لقوله تعالى‏ «فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» و مهما أضيف الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و غيره فإن اللّه لا يردف بخلقه في حق، ثم الروايات متواترة في صيغة «خمس الله» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتابه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى شرحبيل «و أعطيتم من المغانم خمس الله، و إلى عمرو بن معبد الجهني و اعط من المغانم الخمس، و إلى مالك بن أحمد» و أدوا الخمس من المغنم، و إلى عبد يغوث و اعط خمس المغانم في الغزو، و إلى جنادة و قومه «و اعط الخمس من المغانم خمس الله».

في كتبه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذه إلى رؤوساء القبائل و المشايخ و الولاة نجد الأمر بالخمس من المغانم و ليس الاختصاص بالغزو إلا في واحدة.

(2) فمن طريق السنة ما

أخرجه أسد الغابة 4: 175 و الإصابة 3: رقم 6960 و طبقات ابن سعد 1: 284 في كتابه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى فجيع بن عبد اللّه زتهل: و اعطى من المغنم خمس اللّه، و كذلك في نفس المصادر كتابه إلى جدين الطائيين نفس-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 223

ذلك، و لكن لا يعني «الخمس لله» خلاف نص الآية، إنما يعني انه يدفع في سبيل اللّه المقسمة في آية الخمس إلى ستة أقسام بأمر اللّه و جعل اللّه نفسه في عداد الستة لا يعني ردفه بهم، فإنما ذكر اسمه أولا كمحور لمصرف الخمس، ثم ذكر من يصرف الخمس و هم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ذووا القربى من عترة الرسول (عليهم السلام)، و من يصرف فيهم غير ما يصرف في الدعايات المثلثة و هم اليتامى و المساكين و ابن السبيل.

أ فليس صرف سهم من الخمس في سبيل تقوية الرسالة و الخلافة للّه، أو ليس صرف سهام أخرى في اليتامى و المساكين و ابن السبيل، للّه، إذا فكله للّه، بما أمر اللّه و صرف فيما أمر اللّه.

ذلك و حين نقر بفرض الخمس للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العبارة،

و كذلك في كتابه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى أهل اليمن كما

في رواية اليعقوبي 2: 64 في تاريخه و طبقات ابن سعد 1: 264، و كذلك في كتابه إلى نهشل بن مالك الوائلي، و إلى جنادة الأزدي و قومه برواية ابن سعد في طبقاته 1: 270 و كنز العمال 5: 320، و تاريخ الطبري 2: 381 و البداية و النهاية لابن كثير 5: 75 و فتوح البلدان ص 82 و سيرة ابن هشام 4: 258، و كذلك كتابه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى عمر بن حزم حسب رواية الطبري 2: 388 و البداية و النهاية 5: 76 و فتوح البلدان ص 81 و سيرة ابن هشام 43: 265 و كنز العمال 3: 186 و صبح الأعشى 10:

10 و الخراج لأبي يوسف ص 72، و في كتاب الأموال لقاسم بن سلام ص 19 كتابه إلى بني زهر بن حبش، و في كتاب الأموال 427 يجيب (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن السؤال حول الغنيمة: للّه سهم و لهؤلاء أربعة.

و كذلك‏

من طريق الشيعة في الفقيه كتاب الوصايا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) الوصية بالخمس لأن اللّه عزّ و جلّ رضي لنفسه بالخمس،

و

في المستدرك 1: 551 عن الجعفريات عنه (عليه السلام) انه كان يستحب الوصية بالخمس و يقول: إن اللّه تبارك و تعالى رضي لنفسه عن القسمة بالخمس-

و

في بصائر الدرجات عن الباقر (عليه السلام) قال: و اللّه لقد يسر اللّه على المؤمنين أرزاقهم بخمسة دراهم جعلوا لربهم واحدا و أكلوا أربعة حلالا،

و

في الوسائل باب وجوب الخمس ح 12 عن علي (عليه السلام) في الآية فجعل للّه خمس الغنائم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 224

و الأئمة من عترته (عليهم السلام) فهل نقر أيضا به لليتامى و المساكين و ابن السبيل للذرية؟ أم لهم ما لسائر المسلمين المحاويج؟ وجهان، و مما يدل على عدم اختصاص الذرية أحاديث تحليل الخمس للشيعة زمن الغيبة «1».

4 كيف تختص سهام ثلاثة من خمس غنائم دار الحرب بالثلاث من الذرية و يحرم غيرهم و ليس يقابله من الزكوة شي‏ء؟ و لا سيما على فرض اختصاص الزكوة بالتسعة على قيودها، فكيف يختص الخمس على كثرته حسابا و نصابا بالذرية القليلة- و لا سيما المختصة بطريق الآباء- ثم الزكوة على قلتها حسابا و نصابا تختص بغير الذرية؟

5 على فرض أن الخمس يتعلق بكل الفوائد، فالسهام الثلاثة الأول راجعة إلى تحكيم عرى الإسلام توحيدا و رسالة و خلافة، و الثلاثة الأخرى طليقة بين يتامى المسلمين و مساكينهم و أبناء سبيلهم دون اختصاص بذرية الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإن‏ «لِذِي الْقُرْبى‏» تعني ذريته، و الاستحقاق في الثلاثة الأولى عام لصالح المسلمين، و في الأخيرة خاص بالثلاثة، و تقسيم هذه الستة ليس على سواء بل حسب الحاجة الحاضرة.

لذلك اختصت الثلاثة الأولى باللّام‏ «فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏» دليلا على اختصاص خاص و هو الإختصاص بالكيان الإسلامي لا الاشتمال، فليس اللّه ليحتاج إلى نصيب و لا الرسول إلا لرسالته و لا ذوو القربى إلا لخلافتهم، و الكل بأيدي رؤوساء الدولة الإسلامية الصالحين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مما يدل على التحليل كما

في جامع أحاديث الشيعة 8: 526 رواية ابن سنان قوله (عليه السلام) على كل امرء غنم أو اكتسب الخمس مما أصاب لفاطمة (عليها السلام) إلى أن قال-: «إلا من أحللناه من شيعتنا لتطيب لهم به الولادة انه ليس من شي‏ء عند الله يوم القيامة أعظم من الزنا إنه ليقوم صاحب الخمس فيقول يا رب سل هؤلاء بما أبيحوا»

و

فيه رواية سليم بن قيس من باب (1) أن الخمس للّه و للرسول ما يدل أن اللّه تبارك و تعالى فرض الخمس إكراما للرسول و أهل بيته (عليهم السلام)

و

في رواية عمران قوله (عليه السلام) يسر اللّه على المؤمنين أرزاقهم بخمسة دراهم جعلوا لربهم واحدا و أكلوا أربعة أحلاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 225

و من الفارق بين مصاريف الخمس و الزكاة، أن نصف الخمس راجع إلى الثلاثة الأولى، و النصف الآخر إلى الثلاثة الأخرى، اثنان منها من ثمانية الزكاة، فالزكاة إذا هي الأصل الأصيل في الضرائب المستقيمة و قد أمر بأخذها و تقسيمها إلى ثمانيتها.

ذلك، و الآية من ناحية الدلالة، «ما غنمتم» فيها، الحق أنها تشمل كل الفوائد و العوائد من مال أو حق، و إنما جاءت هنا «غنمتم» الظاهرة في غنائم الحرب مهما شملت غيرها من الغنائم، لأنها نزلت في حقل الحرب، فبهذه المناسبة ناسبت «غنمتم».

ثم «فأن للّه» ليست اللام فيها لام الملكية العرضية فإن اللّه مالك ذاتيا، و إنما خوّلنا أموالا دون إخراج عن ملكه، فإنما تعني هنا اختصاصا بصرفه في شؤون الألوهية، كما «للرسول» في شؤون الرسالة «وَ ذِي الْقُرْبى‏» في شؤون الخلافة المعصومة، إن عنت ذا قربى الرسول، و إلّا فقد يكفي نصيب الرسالة للخلافة، ثم‏ «الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» تعم السادة و غيرهم، و حذف اللّام عنهم لعدم وجود الإختصاص، حيث قد يصرف مالهم في سائر سبل اللّه.

ثم هذه الأقسام ليست على حد سواء بل لكلّ قدر الحاجة.

و قد تلمح «ذي القربي» مفردة دون «ذوي القربى»- و أنها وجاه جموع ثلاثة- أنهم ذي قربى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كما «آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ» (17: 26) و 30: 38) و «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» (42: 23) كما و «بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ» 4/ 36، و مما يدل على اختصاص «ذي القربى» بذي قربى الرسول آية الفي‏ء: «ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى‏ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فإن «على رسوله» يخصص «ذي القربى» بذي قرباه، ثم المعطي هنا هو الرسول فكيف يعنى من ذي القربى غير ذي قرباه، ثم الآية التالية لها تفسّر الثلاثة الآخرين أنهم من عموم المسلمين‏ «لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 226

أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ‏ ... وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ» و تؤيده أحاديثنا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ففي تحف العقول 341 عن الصادق (عليه السلام) «في الغنائم» و أما قوله للّه فكما يقول الإنسان هو للّه و لك و لا يقسم للّه منه شي‏ء فخمّس رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الغنيمة التي قبض بخمسة أسهم فقبض منهم سهم اللّه لنفسه يحيي به ذكره و يورث بعده و سهما لقرابة من بني عبد المطلب و أنفذ سهما لأيتام المسلمين و سهما لمساكينهم و سهما لابن السبيل.

و

في روضة الكافي عن أبي حمزة عن الباقر (عليه السلام) أن اللّه جعل لنا أهل البيت سهاما ثلاثة دون سهام اليتامى و المساكين و ابن السبيل فإنها لغيرهم.

و

في الفقيه 158 و التهذيب 4: 134 في آية الفي‏ء عن الباقر (عليه السلام) فهذا بمنزلة المغنم كان أبي (عليه السلام) يقول ذلك و ليس لنا فيه غير سهمين سهم الرسول و سهم القربى ثم نحن شركاء الناس فيما بقي.

و

في التهذيب 4: 128 و الإستبصار 2: 56 عن ربعي بن عبد اللّه بن الجارود في الصحيح عن الصادق (عليه السلام) قال‏ كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا أتاه المغنم أخذ صفوة و كان ذلك له ثم يقسم ما بقي خمسة أخماس و يأخذ خمسة ثم يقسم أربعة أخماس بين الناس الذين قاتلوا عليه ثم قسم الخمس الذي أخذه خمسة أخماس يأخذ خمس اللّه عزّ و جلّ لنفسه ثم يقسم الأربعة أخماس بين ذوي القربى و اليتامى و المساكين و أبناء السبيل يعطي كل واحد منهم حقا و كذلك الإمام أخذ كما أخذ الرسول.

و

في مسند زيد بن علي بن الحسين (عليهما السلام) 356 بيروت باب الخمس و الأنفال سألت زيد بن علي بن الحسين عن الخمس قال: هو لنا ما احتجنا فإذا استغنينا فلا حق لنا فيه ألم تر أن اللّه قرننا مع اليتامى و المساكين و ابن السبيل فإذا بلغ اليتيم و استغنى المسكين و أبى ابن السبيل فلا حق لهم و كذلك نحن إذا استغنينا فلا حق لنا.

و

في ملحقات إحقاق الحق 14: 654 عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل 14:

653 بسند متصل عن علي (عليه السلام) في الآية قال: «لنا خاصة و لم يجعل لنا في الصدقة نصيبا كرامة أكرم الله تعالى نبيه و آله بها و أكرمنا عن أوساخ أيدي المسلمين».

و

فيه بسند متصل عن عكرمة عن فاطمة (عليها السلام) قالت: لما اجتمع علي و العباس و فاطمة و أسامة بن زيد عند النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: سلوني، فقال العباس: اسألك كذا و كذا من المال، قال: هو لك، و قالت فاطمة: اسألك مثل ما سأل عمي العباس، فقال: هو لك، و قال أسامة: أسألك أن ترد عليّ أرض كذا و كذا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 227

فهنا «ذى القربى» في الفي‏ء ليس إلا ذي قربى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإنه هي المعطي للفي‏ء الذي يختص به و باللّه، فلذي قربى الرسول من الخمس نصيب لا ميراثا و إنما خلافة للرسول كان للرسول نصيب.

فإن الخلافة الإسلامية هي استمرارية للرسالة، و هكذا رؤوساء دولة الإسلام و تقسم الأسهام قدر الحاجة، ثم هذه الجموع المحلّاة باللّام تدل على الاستغراق، دون اختصاص بالهاشميين منهم، و هم أقل بكثير من غيرهم، و هم عادمون زمن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

و ليست هنا روايات تدل على اختصاص نصف الخمس بالثلاثة من الذرية إلّا أحاديث ثلاث‏ «1» و ذرية الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تعم المنتسبين إليه من الأمهات إلى المنتسبين إليه من الآباء.

أجل، فلأن اختصاص الثلاثة الآخرين بالسادة ترجيح لهم على الآخرين بنصف الخمس و هم أقل منهم، و أن صفوة المال خاصة بالصفوة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أرضا كان انتزعه منه، فقال: هو لك، فقال لعلي (عليه السلام) سل، فقال: أسألك الخمس فقال: هو لك، فأنزل اللّه تعالى «و اعلموا» فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): قد نزلت في الخمس كذا و كذا، فقال علي (عليه السلام): فذاك أوجب لحقي، فأخرج الرمح الصحيح و الرمح المكسر و البيضة الصحيحة و البيضة المكسورة، فأخذ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أربعة أخماس و ترك في يده خمسا.

(1).

الوسائل 355: 1 و 356: 2 و 358: 8 فالثاني عن أحدهما (عليهما السلام) في الآية قال: خمس اللّه للإمام و خمس الرسول للإمام و خمس ذوي القربى لقرابة الرسول الإمام و اليتامى يتامى الرسول و المساكين منهم و أبناء السبل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم.

و الأول‏

عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: فأما خمس اللّه عزّ و جلّ فللرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يضعه في سبيل اللّه و أما خمس الرسول فلأقاربه و خمس ذوي القربى فهم أقرباءه وحدها و اليتامى يتامى أهل بيته فجعل هذه الأربعة أسهم فيهم و أما المساكين و ابن السبيل فقد عرفت أن لا نأكل الصدقة و لا تحل لنا فهي للمساكين و أبناء السبيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 228

الطاهرة دون مطلق الذرية، و أنه لا دليل يعتمد عليه على ذلك الإختصاص فهم أعم من السادة و سواهم.

و لأن الزكاة المأمور بأخذها إنما أمر بها بعد ستة أعوام، فهل يعقل أن نصف الخمس يختص بالسادة و ليس لغيرهم زكاة و لا خمس.

و لكن الزكاة كانت مفروضة قبل الخمس، و الأمر بها كائن منذ تشريعها بصيغ أخرى هي أوغل في الفرض ك «وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ» (41: 6).

و القول إن ذي القربى تشمل كل الذرية يطرد القول إن الثلاثة الأخرى منهم، ثم القرابة لا تخصص نصيبا من مال اللّه لأشخاص خصوص بل هو نصيب المقام كما للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، و كيف يصلح للرسول إلى العالمين أن يختص أموالا عامة بذريته إلى يوم القيامة مصرحا بذلك في أواسط عهده لما قويت شوكته و دولته في المدينة، لا سيما و ان غنائم دار الحرب لا تختص بالمحاربين من الذرية، بل لم يكونوا موجودين بعد زمن نزول الآية إلّا قلة قليلة.

و كيف يصح لرسول يقول‏ «لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» أن يحمّل الأمة مالا لذريته الخصوص، فهل هو أجر؟ أم هو أكل و إيكال بالباطل! و لأنه لم يكن من ذرية الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) زمنه يتامى و مساكين و ابن السبيل كان نصيبهم قبل أن يولدوا.

و الحق أن «ذي القربى» هنا هم ذوا القربى للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) دون من يؤتى الخمس و كما في آية الفي‏ء الذي هو للّه و للرسول و لذي القربى و.

فإن كان ذو القربى في الخمس ذا قربى المسلمين أنفسهم فلذي القربى سهمان اثنان فيما إذا كان المؤتي و المؤتى ذا القربى مع بعضهم البعض فلهم سهمان اثنان.

ثم ذي القربى إذا كان فقيرا فداخل في المساكين، أو يتيما ففي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 229

اليتامى أو ابن السبيل ففيهم و ليس عنوان ذي القربى بنفسه مما يستحق به الخمس اللّهم إلا في الإيتاءات المستحبة أو الواجبة الأخرى و لذلك لا نراهم في الزكوة.

ذلك و كما أن‏ «وَ آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ» يختص بذي قرباه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإن ذي القربى للمسلمين يعمهم كلهم للقرابة بينهم كلهم.

و إليكم آيات ذي القربى:

الفي‏ء للرسول كما في آيته- إذا- فللّه و للرسول و لذي القربى:

آيات الحشر.

أولوا القربى في كل موقف هم أولو قربى الواقع كحقل الإحسان:

و بالوالدين إحسانا و ذي القربى (2: 83) و آتي المال على حبة ذوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و السائلين و في الرقاب و أقام الصلاة و آتى الزكوة (2: 177) فالمال المؤتى هنا غير الزكوة.

و أما ذووا القربى الخاص: و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل (17: 36) لغير ذى قرباك لا ذا قربى المسلمين فإنه ليشملهم كلهم: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» (42: 23).

فلأن في آية الفي‏ء المؤتي هو الرسول فذو القربى هم ذو قربى الرسول، ثم الثلاثة الآخرون هم هنا كل المسلمين، و كذلك آية «ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ»، حيث يدل على الحق الخاص لهم، و القربى عن الفعلى أي ذا الصلة القربى، و هي هنا الصلة الروحية و النسبية المجموعتان في الثلاثة عشر فقط.

و أما أن الصدقة هي من أوساخ ما في أيدي الناس فلا تحل للذرية، دون الخمس ففيه:

1 ألّا رجاحة لبني هاشم على غيرهم حتى يختص بهم الصفوة ثم الأوساخ لغيرهم، فكيف للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) المرسل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 230

إلى العالمين أجمعين أن يختص صفوة المال بذريته ثم يعمم الأوساخ لغيرهم من المحتاجين، و هذه كرامة خاصة لا تختص إلّا بالأتقى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» فهل تحل الصدقة لأمثال سلمان و أبي ذر و اضرابهم و هي وسخ و لا يحل لهم الخمس، ثم يحل الخمس لسيد لا محل له من الإيمان و العلم و التقى؟

و ليس فضل الرسول بالذي يرثه ولده إلّا أن يرثوا فضله واقعيا، ثم انتقال الفضل لا يسبب انتقال فضل المال، فهل يجوز أن يرث الوارث الأفضل أكثر من غيره و هما مسلمان؟! فالقرآن ينص في آيات بينات ألا أولوية بالرسول لأحد إلا الأولى برسالته.

فلا نجد لمحة في القرآن تفضل أحدا على أحد في الضرائب الإسلامية مهما كانت التفاضلات للفضائل الروحية أو القرابات النسبية أو السببية، و أما في المحاصيل الشخصية فلكلّ ما سعاه، و أما الميراث فهو حق طبيعي للأقربين بالنسب و القريبين بالسبب دون تفاضل فيه بين الفاضل و المفضول.

ذلك في الأموال العامة و الخاصة، فكيف يعقل تقدم بني هاشم من طريق الآباء على سواهم رغم أنهم ليسوا على أكثر تقدير إلّا خمسة بالمائة من الفقراء و حقوقهم عشرة بالمائة من كل الإنتاجات.

و لكن لسواهم 6/ 100 من تسعة أشياء فقط و هم 95/ 100 من الفقراء، و بهذا القياس يصبح نصيب كل فقير غير هاشمي لا شي‏ء، في حين أن نصيب كل هاشمي كل شي‏ء.

فأين 6/ 100 من حوالي 10/ 100 من الأموال ل 95/ 100 بالمائة لغير السادة و 20/ 100 من 100/ 100 من الأموال ل 5/ 100 من السادة؟ و حتى إذا أصلحنا فحاسبنا الزكوة من كل الأموال و السادة أعم من طريق الأم فكذلك الأمر مع تنزل، فهو 6/ 100 من 100/ 100 من الأموال لحوالي 30/ 100 من الفقراء مقابل 10/ 100 من 100/ 100

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 231

من الأموال لحوالي 70/ 100 من الفقراء، فتزيد سهام الفقراء السادة عمن سواهم دائما، فإذا وجب دفع الزائد إلى غيرهم فالتقسيم في أصله- لو كان- فاسد.

فالأصل حسب القرآن و السنة و الواقع المعاش المحتاج هو التقسيم بالسوية حسب الحاجة، فسهم الإمام يصرف في صالح الدعوة الإسلامية، ثم السهم الثاني المشهور بسهم السادة يضم إلى الزكوة و يقسم بين كل الفقراء سادة و سواهم مع احتساب 1 العاملين عليها و 2 الغارمين و 3 في الرقاب و 4 في سبيل اللّه 5 و ابن السبيل 6 و اليتامى 7 و المؤلفة قلوبهم.

فحين لا معصوم بيننا ظاهرا حتى تحرم عليه الصدقة فهذا هو التقسيم الصالح.

و لأن الأحاديث متضاربة في اختصاص النصف الآخر ببني هاشم و سواهم فلتعرض على القرآن النادي بعدم الإختصاص و هي الروايات الثلاث (355: 1 و 356: 2 و 35: 5 و 358: 8) من الوسائل أبواب الخمس، و في الأخيرة و أما المنتسبون بالأمهات فقد قال اللّه: «ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ» و هم الأدعياء دون أبناء البنات و إلا لأصبح الحسنان (عليهما السلام) من أدعياء النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)! فهذا الحديث و أحاديث الأوساخ هي أوساخ و أدعياء مقحمة في أحاديثنا، تفرّق بين المسلمين بفوارق الجاهلية، أو لم يكن أئمة أهل البيت يشترون من هذه الأموال، و هذه الأحاديث هي 356/ 4 357/ 7 360/ 10.

و أما حرمة الصدقة فهي في 337/ 2 و هي تختص بأهل البيت دون كل السادة.

ثم إذا كان النصف الآخر ملكا للسادة فكيف وهب للشيعة منذ زمن الحضور إلى كل زمن الغيبة و كيف يحق للإمام أن ينسخ آية من القرآن اللهم إلا تأويلا كما بيناه.

و ليس (حقنا) المكرر في روايات من الخمس إلا النصف الأول الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 232

يصرف في الدعوة الإسلامية، و ليس تحليله إلا في الموارد التي لا يمكن إيصاله إليهم فلا يجوز دفعه إلى ولات الجور.

الخمس زكاة:

و مما يدل على أن الخمس نصاب للزكوة ح 5 ص 343

عن محمد بن علي بن أبي عبد اللّه عن أبي الحسن (عليه السلام) قال‏ سألته عما يخرج من البحر من اللؤلؤ و الياقوت و الزبرجد و عن معادن الذهب و الفضة هل منها زكاة فقال: إذا بلغ قيمته دينارا ففيه الخمس‏ و رواه المفيد في المقنعة عن الصادق (عليه السلام) مرسلا نحوه و رواه الكليني عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين و رواه الصدوق مرسلا و رواه في المقنع أيضا مرسلا

و ترك ذكر المعادن.

ذلك ثم الرسول الذي لم يسأل على رسالته أجرا إلا المودة في القربى كيف يسأل نصيبا أكثر من كل أحد لبني هاشم؟

و لو أن الصدقة محرمة على أولاد النبيين فكيف تطلب أولاد يعقوب من يوسف‏ «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ».

2 و لم يسبق للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لا لأحد من الأئمة من آل الرسول أن يختصوا من الخمس الهاشميين أو أن يزيدوهم من بيت المال بشي‏ء، بل كان بيت المال فيه كافة الأموال المستحقة لكافة المستحقين تقسّم بينهم بالسوية قدر الحاجة.

فقد كانت له من ولده فاطمة و لم يفضلها على غيرها من فقراء المسلمين فضلا عن أن يختصها بنصف الخمس!،

فعن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: «إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

في شرح النهج لابن أبي الحديد عن علي بن محمد ابن أبي الحيّف المدايني عن فضيل بن جعدة قال: آكد الأسباب كان في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أمر المال فإنه لم يكن يفضل شريفا على مشروف و لا عربيا على عجمي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 233

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و

من كلامه (عليه السلام) في عرض برنامج حكمه‏ ألا و أيما رجل استجاب اللّه و رسوله و صدّق ملتنا و استقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام و حدوده، فأنتم عباد اللّه و المال مال اللّه يقسّم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، و للمتقين عند اللّه غدا أحسن الجزاء و أفضل الثواب، لم يجعل اللّه الدنيا للمتقين أجرا و لا ثوابا و ما عند اللّه خير للأبرار

و

من كلامه في الفي‏ء الخاص باللّه و بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و أما هذا الفي‏ء فليس لأحد على أحد أثرة فقد فرغ اللّه من تقسيمه و أنتم عباد اللّه المسلمون و هذا كتاب اللّه به أقررنا و له أسلمنا.

و

فيما اعترض عليه طلحة و الزبير لماذا لم يفضلها على غيرهما يقول: و اللّه لا استأثر عليكما و لا عبدا مجدعا بدرهم فما دونه لا أنا و لا ولدي هذين الحسن و الحسين.

و

في الخطبة (125) من النهج و من كلام له (عليه السلام) لما عوتب على التسوية على العطاء: أ تأمرونيّ أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه، و اللّه لا أطور به ما سمّر سمير و ما أمّ نجم في السماء و لو أن المال لي لسويت بينهم فكيف و إنما المال مال اللّه.

و

في روضة الكافي (34 و الوسائل 2: 31) عن محمد بن مسلم عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لما وليّ علي (عليه السلام) صعد المنبر فحمد اللّه و اثنى عليه ثم قال: إني و اللّه لا أزرئكم من فيئكم هذا درهما ما قام لي غدق بيثرب فلتصدقكم أنفسكم أ فتروني مانعا نفسي و أعطيكم؟ فقام إليه عقيل فقال: و اللّه لتجعلني و أسود بالمدينة سواء؟ فقال: اجلس أما كان هاهنا أحد يتكلم غيرك و ما فضلك عليه بسابقة أو تقوى.

و

في البحار (8: 393) خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن آدم لم يلد عبدا و لا أمة و إن الناس كلهم أحرار و ليكن خول بعضكم بعضا، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمن به على اللّه جل و عزّ إلّا و قد حضر شي‏ء و نحن مسوّون فيه على الأسود و الأحمر، فقال مروان لطلحة و الزبير ما أراد بهذا غيركما، قال فأعطي كل واحد ثلاثة دنانير و أعطى رجلا من الأنصار ثلاثة دنانير و جاء بعد غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير فقال الأنصاري يا أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني و إياه سواء فقال (عليه السلام) إني نظرت في كتاب اللّه فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلا.

و

في البحار (8: 367) ابن الأثير في كامل التواريخ في بيعته (عليه السلام) بعد مقتل عثمان: و لما أصبحوا يوم البيعة و هو يوم الجمعة حضر الناس و جاء علي (عليه السلام) و صعد المنبر فقال: يا أيها الناس من ملأ و أذن إنّ أمركم هذا ليس لأحد حتى إلّا من أمّرتم و ليس لي أن آخذ درهما دونكم فإن شئتم قعدت لكم و إلّا فلا أحد على أحد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 234

ذلك، و أما حرمة الصدقات على بني هاشم لأنها أوساخ ما في أيدي الناس فمما يستدل به لها:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقالوا نحن على ما فارقناك عليه بالأمس فقال: اللّهم اشهد.

ثم يذكر قصة طلحة و الزبير أنهما قالا بشأن التسوية له (عليه السلام): خلافك عمر بن الخطاب في القسم إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا بخيلنا و ظهرت عليه دعوتنا و أخذناه قسرا و قهرا ممن لا يرى الإسلام إلا كرها فقال (عليه السلام): و أما القسم و الأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء قد وجدتكما و رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يحكم بذلك و كتاب اللّه ناطق به و هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، و أما قولكما جعلت فيئنا و ما أمأذته بسيوفنا و رماحنا سواء بيننا و بين غيرنا: فقد بما سبق إلى الإسلام قوم و نصروه بسيوفهم و رماحهم فلا فضّلهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في القسم و لا آثرهم بالسبق و اللّه سبحانه موفّ السابق و المجاهد يوم القيامة أعمالهم فليس لكما و اللّه عندي و لا لغير كما إلّا بهذا.

و

في مناقب ابن شهر آشوب (3: 111) في رواية عن أبي الهيثم بن التهيان و عبد اللّه بن رافع‏ أن طلحة و الزبير جاءا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) و قالا ليس كذلك كان يعطينا عمر قال: فما كان يعطيكما رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فسكتا، قال: أليس كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقسم بالسوية بين المسلمين قالا نعم، قال: فسنة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أولى بالاتباع عندكم أم سنة عمر؟

قالا سنة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، يا أمير المؤمنين لنا سابقة و عناء و قرابة، قال: سابقتكما أقرب أم سابقتي، قالا: سابقتك قال: فقرابتكما أم قرابتي؟

قالا قرابتك، قال: فعناءكما أعظم من عنائي؟ قالا: عناؤك قال: فو اللّه ما أنا و أجيري هذا إلّا بمنزلة واحدة و أومأ بيده إلى الأجير.

و

في نهج البلاغة (الخطبة 219): و اللّه لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا و اللّه لقد رأيت عقيلا و قد أملق حتى استماحني من بركم صاعا و رأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سوّدت وجوههم بالعظام و عاودني مؤكدا و كرّر عليّ القول مردّدا فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني و أتبع قياده مفارقا طريقتي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، و كاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل أ تئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه و تجرني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه أ تئن من الأذى و لا تئن من لظى؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 235

في التهذيب (4: 58) عن الصادقين (عليهما السلام) أن الصدقة أوساخ ما في أيدي الناس و أن اللّه حرم علي منها و من غيرها ما قد حرمه.

و لكنها خاصة بالمعصومين (عليهم السلام) كما

في الفقيه و التهذيب عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: أعطوا الزكاة بني هاشم من أرادها منهم فإنها تحل لهم و إنما تحرم على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و على الإمام الذي يكون بعده و على الائمة.

و

في المحاسن (1: 145) عن عبد اللّه بن عجلان‏ سألت أبا جعفر (عليهما السلام) عن قول اللّه عزّ و جلّ: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏ فقال: «هم الأئمة الذين لا يأكلون الصدقة لا تحل لهم».

هذه و أمثالها إنما تستثني أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فقط من الصدقات و علّها غير الزكوات فإنها كما الأخماس تخرج من مخرج واحد، و أما الصدقات غير المفروضة ففيها مهانة لا تناسب ساحة أهل البيت و سماحتهم.

و قد تظافر النقل عند إخواننا أن «آل محمد لا يأكلون الصدقة» «1».

ذلك، فأين حرمان الذرية ككل من الزكوات حتى لو أريدت من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن: بخ- ك 24 ب 57 و 69، ك 34 ب 74 ك 45 ب 6، ك 51 ب 7، ك 56 ب 188، ك 68 ب 14 و 17، مس- ك 12 ج 161- 167 بد- ك 9 ب 29، تر- ك 5 ب 25، نس- ك 23 ب 4 و 7 و 97 و 98، ك 27 ب 29، ك 34 ب 5، مى- ك 2 ب 2 و 4، ك 3 ب 16 و 3 ما- ك 29 ح 25 ك 58 ح 13، عد- ج 1 ق 2 ص 106، ج 1 ق 2 ص 106 ج 4 ق 1 ص 40 و 52 حم- أوّل ص 78 و 88 و 94 و 200 و 201 و 225 قا 281، ثان ص 183 و 193 و 279 و 302 و 305 و 317 و 338 و 406 2 و 409 و 444 و 467 و 492، ثالث ص 119 و 132 و 184 و 192 و 241 و 258 و 291 و 448 و 489 رابع ص و 166 و 186 و 189 و 348 خامس ص 2 و 4 و 5 و 354 و 439 و 443 سادس ص 8 و 10 و 390 ط- ح 972 و 1177 قا 1336 و 1999 و 2482 و 2600.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 236

الصدقات حيث النصوص تختص بهم دون سواهم.

ذلك، و هم يختصون نصف الخمس ببني هاشم و يختصون بني هاشم بالمنسوب من قبل الأب دون الأم فقط و هم قليلون جدا فكيف لهم نصف الخمس و لسائر الناس الزكوة، و الخمس عن كل العوائد و الزكاة تخصها بالتسعة أشياء.

و لو اختصت ذرية النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالمنتسبين إليه بالأب فلا ذرية- إذا- للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإن ذريته كلهم من فاطمة (عليهما السلام)، أو ليس الحسنان من ذرية النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لانتسابهما إليه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالأم! ذلك، و حتى لو اختص بذريته (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من فاطمة من علي فكل ولد فاطمة هم من علي، إذا فلا ذرية لرسول اللّه أبدا، فقد يختص نصف الخمس- إذا- بولد هاشم من ناحية الآباء! و هناك يظهر كالشمس في رايعة النهار أن اختصاص نصف الخمس بالسادة من طريق الآباء، إنه خطة جاهلية تسربت فينا بشعر جاهلي و رواية جاهلية لا يميز مختلقها بين الأدعياء و أولاد البنات، حيث يستند إلى آية الأدعياء، مما يبرهن أن مختلقها كان نفسه من الأدعياء الأشقياء، حيث ضم إلى نفسه أولاد البنات، و يعارض بذلك كتاب اللّه حيث ينسب المسيح (عليه السلام) إلى إبراهيم من مريم، و ينسب الحسنين إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في آية المباهلة، و قديما كان الحوار بين أئمتنا و الخلفاء الأمويين و العباسيين حيث كانوا يحتجون عليهم بهذه الآيات أنهم من ذرية الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

و كذلك حرمة الزكوة على هؤلاء الهاشميين الخصوص لأنها أوساخ ما في أيدي الناس، رغم أن مصدر الخمس و الزكوة واحد، فكيف اختصت الزكوة بأنها أوساخ و الخمس طاهر، فحرم كل فقراء المسلمين عن سهم السادة إلا المنسوبين بالآباء إلى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو سهم غزير، كما حرم السادة عن الزكاة و هو شي‏ء زهيد، فالكثير الكثير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 237

لهم أولئك القلة القليلة لأنه طاهر، و القليل القليل للكثرة الكثيرة لأنه من أوساخ ما في أيدي الناس، قسمة ضيزى في بعدين اثنين! و هكذا الأمر في اختصاص الزكوة بالتسعة الشهيرة، و امتصاص الخمس كل الأموال، و لأنه الطاهر الخاص بالمطهرين دون الزكوة الوسخة فهي للوسخين!.

شطحات جاهلية رغم‏

قول النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ألا إن كل شي‏ء من أمر الجاهلية تحت قدمي» «1»

حيث يقصد إذلال أمر الجاهلية و حط أعلامها و نقض أحكامها، كما يستذل الشي‏ء الموطوء الذي تدوسه الأخامص الساعية، و الأقدام الواطية، فلا يبقى منه مرفوع إلا وضع، و لا قائم إلا صرع.

لفتات هامة حول فلتات الخمس و الزكوة

: 1 لو اختصت الزكاة بغير بني هاشم الخصوص و اختص الخمس بهم، فلا يخلو من أن تكون الزكاة من كل الأموال و كذلك الخمس، أم الزكوة من التسعة و الخمس من الغنائم، أو الزكوة من التسعة و الخمس من الكل، أو الزكوة من الكل و الخمس من الغنائم، أم هما ضريبة واحدة كيفما كانتا.

فاختصاص الزكاة- على أية حال- بغير بني هاشم و اختصاص الخمس بهم- على أية حال- حتى إذا لم تختلف الأنصبة هو تفرقة بين فريقي المسلمين دون سبب، أم بسبب أن الزكوة من أوساخ ما في أيدي الناس و هذا ظلم على غير بني هاشم.

ثم على فروض الاختلاف فهو ظلم على الناقص نصيبه هاشميا و سواه.

فإن كان الخمس- فقط- من الغنائم و الزكاة من التسعة، لقل نصيب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 238

بني هاشم حيث الحروب قلة، إلّا أن نشجع دوما عليها لكيلا ينقص نصيبهم.

و إن كان الخمس من كل شي‏ء و الزكاة من التسعة أم و من كل شي‏ء لقل نصيب غير بني هاشم و هم الأكثرية الساحقة، و لا سيما إذا لم نحاسب المنسوب بالأم إليهم منهم.

فلا تخلو التفرقة بين فريقي المسلمين من الظلم على أية حال فكيف تفترى على الإسلام.

ثم الرسول الذي كان يسوى في القسمة من ماله نفسه فكيف يفضل بني هاشم من أموال المسلمين.

و لم يسبق و إن مرة يتيمة أن يقسم النبي أو أحد من الأئمة من دون تسوية، اللّهم إلّا أن يدفعوا من سهم أولي القربى لبعض السادة المحرومين عن حقوقهم.

و لقد نزلت آية أخذ الزكاة في السنة التاسعة من الهجرة «1» و الخمس في الثالثة، و لكن الزكوة كانت مفروضة منذ العهد المكي، فهل كان بنو هاشم محرومين عن الزكاة حتى الثالثة من الهجرة ثم اختصوا به منذ نزول آيته فجبر نقصهم بمئات الأضعاف؟

و مما ظلم فيه بنو هاشم تحريم الزكاة عليهم كما تقوله الشيعة و السنة «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في السيرة لابن هشام 4: 271 و تاريخ الطبري 2: 400 و تاريخ الكامل لابن الأثير 2: 199 و تاريخ اليعقوبي 2: 48 و ناسخ التواريخ مجلدة الهجرة 396.

(2) في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة 1: 623 عن مالك بن أنس، و فيه 626 عن الشافعي أن من شروط أهل الزكوة عدم كونهم من بني هاشم، و هذه سياسة شيطانية لتضعيف ساعد بني هاشم من قبل الفريقين، أما أهل السنة فلأنهم لا يعتقدون في الخمس لكل الأموال، و لا أن خمس الغنائم لهم، و أما الشيعة فلأنهم يختصون بهم الخمس من كل الأموال تقوية زائدة لساعد بني هاشم، فهم بين إفراط و تفريط.

و لقد كان اختصاص ذلك الخمس بهم من ردود الفعل غلوّا لهم حيث الحرمان المطلق-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 239

تلخيصة حول آية الخمس‏

: فاعلموا أن ما غنمتم من شي‏ء فأن للّه خمسه.

«فَأَنَّ لِلَّهِ» اختصاص باللّه كمحور في اتجاه الخمس مصرفيا، و لأن اللّه ليس يحتاج إليه فقد ذكر مصرفان اثنان تقوية لساعد الدين و الديّنين، مصرف أوّل تقوية القيادة الإسلامية رسولية و رسالية: «وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏» و مصرف ثان مساعدة أصول المحاويج‏ «وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ».

و لأولى قربى الرسول و هم الأقربون إليه نسبيا و روحيا شأن هامّ في القرآن العظيم، فكما اللّه قرر الأنفال للّه و للرسول و كذلك الفي‏ء، كذلك و على ضوءه لحلفائه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من بعده.

فآية عدم سؤال الأجر «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» من ناحية الودّ لهم روحيا، فإنهم مدينة علم الرسول، ثم ذكر حقهم الشامل للجانبين الروحية و المادية: «وَ آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ» (17: 36) م و 30: 38) فهنا حق خاص من الرسول إلى ذي القربى و هو الذي يكون من لوازم قيادتهم الروحية و الزمنية.

ذلك و كما نجد اليتامى و المساكين و ابن السبيل أصول المحاويج الأصليين في آيات، فهنا أصلان اثنان يقتسم الخمس لهما على قدر الحاجة أو الكفاية.

فإفراد ذي القربى، و أنه ليس لهم ككل ذي قربى المسلمين نصيب من الخمس و هنا احتمالات ثلاث في «ذي القربى» 1 ذي القربى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- المطبق كان على الهاشميين من قبل الحكومات الإسلامية، ففي كتاب الولاة و القضاة للكندي 198 يذكر من أوامر الخليفة: لا يقبل علوي ضيعه و لا يركب فرسا و لا يسافر من فسطاط إلى طرف من أطرافها و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد و إن كان بين علوي و بين أحد من الناس خصومة فلا يقبل قول العلوي و يقبل قول خصمه بدون بينة (الامام الصادق 1: 144).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 240

للمؤتي الخمس 2 ذي القربى المخصوصين بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) 3 و ذي القربى العامين للرسول، و الأوسط هو الصحيح.

نصيب ذي قربى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هم ذي الصلة القربى به كرسول روحيا، و كمحمد أبيهم و قريبهم نسبيا، ذلك النصيب هو قضية قيادتهم الرسالية خلافة عن القيادة الرسولية و كما

في تفسير القمي: يخرج الخمس و يقسم ستة أقسام (ص 1/ 17).

ذلك و أما «الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فليسوا هم فقط من الذرية و لا سيما المخصوصة بطريق الأب، حيث نراهم في كافة الحقول للإيتاءات واجبة و مستحبة أن لهم حقا، فهم يشاركون الوالدين في الإحسان: «وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ‏ ... وَ آتُوا الزَّكاةَ» (4: 36) و 2: 83) و كذلك في حقل الإيتاء «وَ آتَى الْمالَ عَلى‏ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ» (2: 177).

و في الإنفاق: «قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» (2: 215).

و في القسمة: «وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ» (4: 8).

و في الفي‏ء: «وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» (59: 7).

و لا نجد ذوي القربى في الإيتاءات الواجبة زكاة و خمسا، فلأن هؤلاء الثلاث يذكرون جمعا، فما الذي يخصصهم- بعد- بالذرية، و لا سيما التي هي بواسطة الأب؟!

رجعة أخرى إلى آية الخمس‏

: من مبعدات كون الخمس متعلقا بكل الأموال أن له آية واحدة و للزكوة التي هي أكثر نطاقا و لو تعلقت- فقط- بتسعة أشياء زهاء مائة آية بلفظ الزكوة و الصدقات و الإنفاقات و الايتاءات، و قد شملت آيات الزكوة العهدين منذ البداية إلى النهاية و آية الخمس نزلت ثالثة الهجرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 241

فلو أن الخمس يعم كل الإفادات فهو أهم من الزكوة موردا لاختصاص الزكوة- كما يقال- بالتسعة، و قدرا فانه 20/ 100 و لكن الزكوة من 5، 52 و 10/ 100 و الكسر المتوسط 6/ 100.

ثم لو كان الخمس عاما فلما ذا ذكر بلفظ الغنيمة التي لم تأت في القرآن إلّا في حقل الحرب، و في اللغة هو الإفادة من غير مشقة، فهو خاص بغنائم الحرب، و ليست مشقة الحرب محسوبة على الغنيمة إلّا إذا كانت لهدف الغنيمة و إذا ليست هي حربا إسلامية.

ثم القرآن لم يذكر الغنيمة إلّا في نطاق الحرب مما يرجح- لأقل تقدير- كونها ظاهرة في غنائم دار الحرب، فلو كانت هي الأعم منها لبدلت إلى ما يفيده ك «ما أفدتم- أو فزتم به أما أشبه» و الآيات الخمس التي فيها الغنيمة بصيغها تعني هي فيها غنائم دار الحرب.

و لم تأت الغنيمة في القرآن و إن مرة يتيمة لمطلق الفائدة و قوله‏ «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» 4/ 94 علها أو أنها المعنية بقوله تعالى: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ‏ 48/ 20.

و إذا شملت الغنيمة كل الفوائد فما فزت به دون مشقة أحرى، فقد تشمل الهبة و الصداق و الهدية و الميراث دون ريب! ثم لو كان الخمس مختصا بالذرية لكان معزولا حال أن بيت المال كان موحدا يرزق منه كل المحاويج دون عزل لبني هاشم عن غيرهم.

و على فرض أن الخمس يعم كل الفوائد أم غنائم دار الحرب فقط فليس تقسيم السته على السوية و إنما قدر الحاجة، و الحاجة الأولى هي إدارة شؤون الدولة الإسلامية ثم شؤون اليتامى و المساكين و ابن السبيل.

و هل الثلاثة الأولى ترجع زمن الغيبة الى مراجع الدين؟ طبعا نعم حيث القيادة روحية و زمنية لا تختص بالمعصومين، (عليهم السلام) ففي فرض دولة موحدة إسلامية بقيادة واحدة فهي راجعة إليه، للمصالح المصالح الجماهيرية، ثم و لا تختص بفقيه دون آخر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 242

فإنما يصرف النصف الأول في سبيل الدعوة الإسلامية، و الآخر في صالح المحاويج الثلاثة سادة و سواهم.

و لأن الخمس ضريبة ثابتة فلا يتحول إلى أقل أم إلى العدم على أية حال، فالنواب العامون للإمام (عليه السلام) لهم أن يأخذوا حقهم و يصرفونه فيما يحق لهم، في الدعوة الإلهية و الدعوة إلى الرسالة و الخلافة المعصومة، و أما أن يصرفوه في الدعاية لمرجعيتهم فلا.

و مما لا بد منه أن يقتسم الخمس إلى هذه الست حسب الحاجة «1».

خلاصة البحث حول الخمس‏

: آية الخمس هي الآية الأولى النازلة في ذلك الكسر و موارد التقسيم و التسهيم، و رغم أن آيات الزكوة نزلت قبلها و بعدها، و لكنها لم يذكر فيها كسرها من الأموال التي يزكى منها.

و إنما أمهل المسلمون لحد الآن عن نصاب الزكوة فأهمل، حيث الأوضاع الاقتصادية ما كانت بحد تتحمل كسرا للزكوة متعينا، و لا أمرا بأخذها، و المسلمون مهما كانت لهم أموال في مكة المكرمة فقد تركوها مهاجرين إلى المدينة، و المسلمون الأنصار كان عليهم مساعدتهم للحد الأقصى فلم يكن هناك دور لكسر خاص للزكوة و أخذها بصورة رسمية، مع أن الأنصار أيضا كانوا في الأكثرية الساحقة من الفقراء، فأبو أيوب الأنصاري مضيف الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لم يكن عنده إلّا بيت صغير فيه غرفتان فوق بعض، سكن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الغرفة الفوقانية و هو و أمه في التحتانية و لم يكن للأنصار الأخر حالة مالية أحسن منه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الوسائل 362: 1 و أحاديث الأوساخ أوساخ تخالف المحسوس و الضوابط الإسلامية و ما هي إلا ثلاث 356/ 4 و 357/ 7 و 360/ 10.

و حرمة الصدقة و الخمس بديلها 337/ 2 و أحاديث التحليل و هي ثلاثون مرفوضة إلا في دولة الباطل بالنسبة لسهم الإمام، و أما سهم الثلاث الآخرين فكيف يوهب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 243

و لقد كانت جهازات المسلمين يوم بدر فرسان و سبعة سيوف و سبعة آبال، و

كان (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يدعو يوم بدر: اللّهم إنهم حفاة فاحملهم اللّهم إنهم عراة فاكسهم اللّهم إنهم جياع فأشبعهم.

و قد يلمح اختلاف التعبير هنا في آية الخمس ب «و اعلموا» و هناك في آيات الزكاة ب «آتوا» ثم‏ «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ» أن ليس الخمس على حد الزكوة في مدى الفرض القاطع.

ذلك، و لأن الغنيمة قبل تقسيمها غير مملوكة لأحد فإنها مشاعة بين المقاتلين، فإذا قسمت ملكت.

و قد تلمح «و اعلموا» إعلاما لكسر الزكوة، و الزكوة تشمل كل ما يزكى الدافع و المدفوع إليه: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (9: 103) فالزكوة تزكي الدافع عن نفسية البخل و الحرص، و تزكى المجتمع عن تضاد الطبقات، و تزكى الدولة عن التضيق الاقتصادي، و تزكي سائر المستحقين عن دنس الفقر و الاستجداء، أو ليس ذلك من فاعلية الخمس، بلى بل هو أزكى لأنه أكثر مالا و أوسع مالا.

فكل إنفاق و إيتاء و إحسان و زكاة له فاعلية التزكية، و ليس الخمس إلّا ضريبة نهائية من ضرائب الزكوة.

و أما التعبير عن كل المنافع بالغنائم فلأنها تحصل نافعة للإنسان، و نفس إضافة الغنائم إلى دار الحرب تدل على أنها أعم منها، و لعل ذكر الغنيمة لكل تشمل غنائم دار الحرب، فلو قال: أفدتم، لخّيل إلينا أنها الفوائد المتعددة فتفلت غنائم دار الحرب عن الدور، ذلك و الأحوط الجمع بين سائر أنصبة الزكاة و الخمس.

أو يقال: أن «ما غنمتم» تختص بما أفدته دون مشقة متعددة كالكنز و المعدن و الغوص و الحرام المختلط بالحلال و غنائم دار الحرب، ثم تلحق بها أرباح التجارات بكل أشكالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 244

و مهما استعملت لفظة الغنيمة في القرآن في خصوص غنائم دار الحرب‏ «1» فليس هذا بالذي يصبح قرينة على أنها- فقط- معنى الغنيمة، فإن لفظة دار الحرب مما تقيّدها بنفسها، ففي إطلاقها الشمول لكل ما أفدته دونما استثناء، و يتأيد ذلك بمتظافر السنة.

فقصة الزكوة قصة عملية على علم بنصابها، و لكن قصة الخمس علمية اطلاعا على نصاب الزكوة الأخير، و بيانا لمستحقيه، ثم آية «إِنَّمَا الصَّدَقاتُ» تطوّر المصرف إلى طور أوسع مما كان حيث تمركزت قواعد الدولة الإسلامية قبل ارتحال الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بأشهر.

ثم‏ «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ» تربط ذلك العلم بالإيمان، حيث كان من الصعب ارتقاء الزكوة من أنصبتها الثلاث التي متوسطتها 6/ 100 إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد ذكر في الغنيمة اختصاصها بغنائم دار الحرب كما في التبيان 1: 797 على ضوء آية الخمس: أقول: «الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال و هي هبة الله للمسلمين» و في 3: 666 منه: الغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الإسلام و ما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الامام و مصرف ارتفاعه إلى بيت المال لصالح المسلمين.

و

في المجمع 4: 543: الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال و هي هبة اللّه للمسلمين‏ و هو المروي عن أئمتنا

، و هكذا نرى هذا المعنى في زبدة البيان حيث نقله عن المجمع و ارتضاه و كذلك في مسالك الإفهام أن الظاهر منها غنائم دار الحرب.

و المجلسي في مرآة العقول 1: 441 عن الأردبيلي أن المتبادر من الغنيمة ما هي لدار الحرب و يؤيد تفسير المفسرين.

و في زبدة البيان 209 و الذي ينبغي أن يذكر هنا من مضمون الآية أنها تدل على وجوبه على غنائم دار الحرب إلى ما يصدق عليه شي‏ء و أي شي‏ء كان منقولا أو غير منقول.

و أيضا يقول: إن شمول الخمس جميع الأشياء تكليف شاق و الزام شخصي بإخراج خمس جميع ما يملكه بمثله يشكل و الأصل و الشريعة السمحاء ينفيان و الرواية غير صحيحة و في صراحتها أيضا تأمل.

أقول و هي‏

رواية كليم بن مؤذن عن كليم بن عابس قال قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) الآية قال: هما و اللّه الإفادة يوما بيوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 245

20/ 100 و هي ثلاثة أضعافها.

ذلك، و لأنه لم يثبت كون الخمس هو الزكاة نفسها اعتبارا بنسخ آياته كسور الزكاة، كما لم يثبت اختصاصه بغنائم دار الحرب.

ثم لئن اختص الثلاث الأخيرة بالذرية، و ليست لتختص، فلا اختصاص بهم من قبل الآباء، حيث المنتسبين من قبل الأمهات هم ذرية كما هم على سواء، و إلّا لم يكن الحسنان (عليهما السلام) من ذرية الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ثم لم تكن ذرية للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإنهم ليسوا إلا من فاطمة (عليها السلام)! فالحق هو الحاق الخمس بالزكوة و تقسيمها حسب الحاجات الإسلامية بين المذكورين في آيتي الخمس و الزكاة، و هم متلائمون مع بعضهم البعض، مهما كان تفصيل مستحقي الزكاة أوسع نطاقا و رفاقا من مستحقي الخمس.

ذلك، و لأن اللام متكررة في الثلاثة الأولى: «لله و لرسوله و لذي القربى» دون الأخرى: «وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» نتلمح بذلك الفارق بين الفريقين أن الأولين هم الأساس في هذه السهام، و من ثم الآخرون.

ثم «للّه» ليست لتعني الملك الذاتي، فإن كل شي‏ء هوله ذاتيا دون جعل تكويني أو تشريعي، فقد تعني- إذا- اختصاص نصيب من الخمس في سبيل الدعوة التوحيدية، ثم «للرسول» دعوة لتحكيم عرى الرسالة الربانية، و من ثم‏ «لِذِي الْقُرْبى‏» تحكيما لعرى السلطة المستمرة العادلة بعد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

فهذه الأسهم الثلاثة- إذا- تصرف في تحكيم عرى الولاية الربانية و الرسولية و الرسالية، فإنها أثافيّ أصيلة للدعوات الإسلامية على طول الخط.

ثم الأسهم الثلاثة الأخيرة لكل اليتامى و المساكين و ابن السبيل سادة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 246

و سواهم فضلا عن المنتسبين بالأمهات إلى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، و تقسيم الخمس بين هذه الموارد الستة ليس إلّا حسب الحاجة و المصلحة الأخرى و الأولى، دون أن يكون على السوية، كما أن الزكوة كذلك لا تقسم في مصارفها الثمانية بالسوية.

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى‏ وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى‏ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42).

«يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ» و هو يوم بدر حيث فرق اللّه به بخارقة غلبة المسلمين على قلتهم عددا و عددا ظاهرية على المشركين بكثرتهم فيهما، فرق اللّه بين الحق و الباطل بصورة حسية ملموسة، و متى؟

«إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا» هي شفير الوادي و فيها الجدب و الأرض الرخوة الخوارة «وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى‏» و هي علياه و فيها الماء و الأرض الصلبة الفوارة «و الركب»: العير الذي كان عليه أبو سفيان‏ «أَسْفَلَ مِنْكُمْ» و هو الأدنى من العدوة الدنيا، فقد كنتم محاصرين في العدوة الدنيا بين ركبهم الأسفل منكم و سائرهم الأعلى منكم، و أنتم في مثلث من هندسة الانهزام، ثالثه موقعكم من العدو، و قد تغلبتم عليهم بإذن اللّه.

«وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ» أنتم على هندسة الحرب، هذه التي تقضي بطبيعة الحال في التليكات الحربية عليكم‏ «لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ» تجنبا عن السقطة الهائلة التي هي قضية طبيعية لهذه الحرب، «و لكن» كان ذلك عملية قاصدة ربانية و أنتم غافلون‏ «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً» من غلبكم عليهم‏ «كانَ مَفْعُولًا» على أية حال، و لكن تحقيقا ليوم الفرقان و «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ» ملموسة كهذه التي يعرفها كل ذو بصر مهما لم تكن له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 247

بصيرة، «وَ يَحْيى‏ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» كهذه الناصعة الناصحة لكتلة الإيمان‏ «وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ» مقالهم و مقالكم «عليم» بحالهم و حالكم.

فقد كانت المعركة شاخصة بمواقع فريقي الكفر و الإيمان، شاهدة بالتدبير القاصد الخفي، فقد خرج جيش الإيمان من المدينة و نزل بضفّة الوادي القريبة منها، و نزل جيش الكفر بقيادة أبي جهل بالضفّة الأخرى البعيدة عنها، و بين الفريقين ربوة تفصلهما و أمّا قافلة العير فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيشين، موقع الجيشين كصدفة و لكنها قاصدة ربانية بتلك الدقة و الضبط «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا».

لقد هلك جيش الكفر عن بينة و كما قالوا لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال و هم ذاهبون لوجه القتال: إن كنا نقاتل اللّه كما يزعم محمد فواللّه مالنا باللّه من طاقة و إن كنا نقاتل الناس فواللّه إن بنا على الناس لقوة، و اللّه نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور و تعزف علينا فيها القيان فإن بدرا موسم من مواسم العرب و سوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بهذه الواقعة «1».

فحين يهلكون بهذه الذكرى بالكفر فقد هلكوا- إذا- عن بينة، و هذه ضابطة ربانية أن كلا من الهلاك و الحياة الروحيين هما عن بينة من اللّه و كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 172 في قصة خروج المشركين من مكة لمقاتلة المسلمين:

فلما وردوا الجحفة بعث الحقاف الكناني- و كان صديقا لأبي جهل- إليه بهدايا مع ابن له فلما أتاه قال: إن أبي ينعمك صباحا و يقول لك: إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك و إن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت فقال أبو جهل: قل لأبيك جزاك اللّه و الرحم خيرا إن كنا نقاتل اللّه كما يزعم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 248

قال اللّه: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» مرتفع الخير و الشر بأعلامهما البينة الباهرة.

أجل‏

و لم يدع الخلق في بهم صمّا و لا عميا بكما، بل جعل لهم عقولا ما مازجت شواهدهم و تفرقت في هياكلهم، خفقها في نفوسهم و استعبد لها حواسهم، فقرر بها على أسماع، و نواظر أفكار، و خواطر ألزمهم بها حجته و أراهم بها محجته، و أنطقهم عما شهدته بألسن ذربة بما قام فيها من قدرته و حكمته و بين عندهم بها «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى‏ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ» شاهد خبير «1».

[سورة الأنفال (8): الآيات 43 الى 49]

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (43) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 160 في مصباح شيخ الطائفة الطوسي خطبة لأمير المؤمنين-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 249

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (43).

هنا و بالتأتي سرد لإعدادات روحية نوما و يقظة كسبب من أسباب هزيمة العدو العظيمة «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا» على كثرتهم فانجر إلى رؤيتهم في يقظتك قليلا «وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً» كما هم كثير «لفشلتم» في الأمر «وَ لَتَنازَعْتُمْ» في الأمر: أمر الحرب، لتثاقل الأقدام في الإقدام عليها قضية التكتيكة الحربية الظاهرة «وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ» لكم العدو، بما سلم لكم معدات الإنتصار، فسلم لكم الغلبة الباهرة الخارقة للعادة «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ».

فحين أراهم اللّه في منامه قليلا فهو (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يخبر المؤمنين بما رآه تشجيعا لهم على الخروج، فلو أراه إياهم كما هم فأخبرهم بما هم لفشلتم في التصميم و لتنازعتم في الصميم و لكن.

وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) خطب بها يوم الغدير و فيها «و لم يدع».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 250

لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44).

و هنا قلتان، قلة واقعية لكم في أعينهم لكي يستيهنوكم فلا يبالغوا في الاستعداد للمواجهة روحيا، و في سائر القوات فيقدموا على نضالكم برخوة و استهانة دون أية جدية ثم و قلة في الرؤية لهم في أعينكم لكي تستهينوهم فتقدموا على نضالهم دونما تخوف، و قد تعني «يقللكم» تقليل العدد عما هو فهو أقل من واقعه، أم و تقليل العدد عما هو، فكذلك الأمر «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا».

و هلّا تناحر بين‏ «يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ» هنا و بين‏ «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» (3: 13) إن كانت تعني بدرا كما عنته الأولى؟ كلّا حيث التقليل هنا «إِذِ الْتَقَيْتُمْ» و هو بداية الالتقاء، ثم‏ «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» بعدها «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا».

فلقد كان في هذا التدبير الرباني ما حرّض الفريقين بخوض المعركة، تشجيعا للمؤمنين بكل قواتهم، و إغراء للكافرين ألا يستعدوا لجدية قاطعة في المواجهة، فلقوة الروحية و التصميم عليها أثرها العظيم أمام ضعف الروحية و التصميم، و لقد رأى المسلمون الكفار قليلين في استمرارية المعركة و رآهم الكفار كثيرين‏ «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا» كما قضاه‏ «وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» و لا سيما هذا الذي قدر و سلم.

ذلك، فليست الغلبة فقط بكثرة العدد و العدد، بل و أهم منهما نصر اللّه، و الروحية القوية و التصميم في الصميم على لقاء العدو، و هكذا كان المؤمنون ينتصرون ما كانوا متوكلين على اللّه، مصممين على تحقيق أمر اللّه، غير مستكثرين طاقاتهم و إمكانياتهم الحربية، فأما إذا عكسوا الأمر كما في حنين: «إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ» فانهزامة عظيمة، و من ثم لمّا رجع الأمر إلى موقعه الصالح فغلبة عظيمة، و هكذا يثبتنا اللّه تعالى في معارك الشرف و الكرامة:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45).

آيات عدة تأمر المؤمنين برعاية سلبيات و إيجابيات في الحروب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 251

«لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» و تفلجون أعداءكم:

فهنا «إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً» قضية الإيمان و المسؤولية الإيمانية حيث ترون لقاء العدو أمرا من اللّه «فاثبتوا» قرارا دون فرار، ثباتا على إمضاء أمر اللّه، فهو الذي ينصركم كما يشاء «وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً» في هذا اللقاء و سواه‏ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» فتفلجون عدوكم إن شاء اللّه.

و هل الأصل للمؤمنين لقاء العدو، أو العافية التي فيها الأمن و الدعة؟ إنه ليس لقاء العدو إلا دفاعيا و اضطراريا و كما

نسمع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: «لا تتمنوا لقاء العدو و اسألوا الله العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا و اذكروا الله كثيرا فإذا جلبوا و صيحوا فعليكم بالصمت» «1».

و لأن ذكر اللّه يطمئن القلوب، و المؤمن في مهاوي الأخطار بحاجة ماسة إلى اطمئنان حتى لا يتزعزع، لذلك افترض اللّه ذكره عند أشغل ما تكون عند الضراب بالسيوف.

و هل إن «فاثبتوا» ثابتة على أية حال؟ و آية التحرف لقتال أو التحيز إلى فئة تختصها بغيرها! و لكن الثبات لا ينافيه تولي الدبر لأشخاص من الجيش لإثبات أكثر مما كان، إشخاصا لقوات إسلامية إلى أرض المعركة بأشخاص كأنهم يولون الدبر و هم في الحق مقبلون إلى حرب هي أقوى لهم و هي على العدو أنكى و أشجى.

و على أية حال فالثبات في اللقاء و الإكثار من ذكر اللّه هما من مجالات الإفلاح‏ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 189- أخرج عبد الرزاق في المصنف و ابن أبي شيبة و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

و

فيه أخرج عبد الرزاق عن يحيى بن كثير أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم ستبلون بهم و سألوا اللّه العافية فإذا جاءوكم يبرقون و يرجفون و يصيحون بالأرض الأرض جلوسا ثم قولوا اللّهم ربنا و ربهم نواصينا و نواصيهم بيدك و إنما تقتلهم أنت فإذا دنوا منكم فثوروا إليهم و اعلموا أن الجنة تحت البارقة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 252

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46).

هنا بعد الأمر بالثبات عند اللقاء و ذكر اللّه نؤمر بطاعة اللّه و رسوله، فليكن لقاء العدو بشكليته كأصله بطاعة اللّه و رسوله، دونما تخلف عن القيادة الحربية رسولية أو رسالية، حيث الطاعة الصالحة في الحرب هي من أسباب الفلاح‏ «وَ لا تَنازَعُوا» في حرب و سواها، فالتنازع في الحرب تشتت في القوات المسلحة و التصميمات الحربية الصالحة و فشل فيها و ذهاب ريح «و اصبروا» على كل حال حفاظا على أمر اللّه و لا سيما في الحرب، هضما لأنفسكم عن أي تشتت، و تبعثر، حيث الوحدة في القتال و هو بأمر اللّه و قيادة الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إنها رمز الغلبة و العزة.

ذلك، و لقد خلف التخلف عن أمر قائد القوات المسلحة الرسولية يوم أحد، خلّف انهزامه عظيمة في وسط المعركة، إذ لم يثبت الرماة على قواعدهم التي قررهم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فعصوا اللّه و عصوا الرسول و تنازعوا في ذلك التخلف فذهبت ريحهم و ما صبروا على المسؤولية المقررة لهم.

و هنا «ريحكم» هي ريح الإيمان و روحه و روحه، و هي عز الإيمان و سيادته، الريح التي تركم سحاب الرحمة و تمطر على المؤمنين، و تجمع سحاب العذاب و الزحمة فتمطر على الكافرين.

و صحيح أن المحور الأصيل هنا لهذه الأوامر و النواهي هو حالة الحرب، و لكنها طليقة على أية حال، فالثبات في إمضاء أمر اللّه، و ذكر اللّه كثيرا على كل حال، و طاعة اللّه و الرسول في كل حل و ترحال، و ترك المنازعة بين المؤمنين، و الصبر على النوائب في سبيل اللّه، و ترك البطر و رئاء الناس و الصد عن سبيل اللّه، هذه الثمانية أمرا و نهيا- عدد أبواب الجنة الثمان- هي كلها من مفاتيح الرحمة و الرضوان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

و هنا «لا تنازعوا» تحتل القمة الرئيسية بين زملائها، حيث التنازع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 253

و الاختلاف بين المؤمنين يفصم طاقاتهم، و تضعف قواتهم، و تجعلهم شذ مذر، مواطئ لأقدام الكفار، و مجالات لإقدامهم على محقهم و سحقهم في كل أقدامهم.

و التنازع هو التفاعل في النزع و هو بين محظور و محبور، فمحاولة كلّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير تحويلا له إلى نفسه أم إلى الفناء استئصالا فيهما أم استقلالا هو تنازع محظور.

ثم محاولة كلّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير استغلالا دونما استئصال محبور، فهما بين طرفي التضاد منهيا عنه أو مأمورا به، و من التنازع المحبور التشاور في معضلات الأمور إفادة و استفادة، و من المحظور التشاطر فيها أن يتبنّى كلّ شخصه و شخصيته دون ابتغاء للحصول على الحق المرام، فالحق ما يقوله هو مهما كان باطلا، و الباطل ما يقوله سواه مهما كان حقا، و إن جرى الحق على لسانه هو فهو الحق، و ان سبقه غيره فيه فمحاولة لإبطاله، و من مصاديق المحظور منازعة الرسول في الأمر: «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ» (22: 67) و من المحبور «يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (52: 23) استرواحا بمزاح، ثم عوان بينهما هو التنازع الذي ليس عن عداء، بل هو طبيعة الحال لقصور في المعرفة، فليردّ- إذا- إلى اللّه و الرسول: «فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ‏ءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ» (4: 59).

و هنا بين الفشل و التنازع تفاعل التجاوب، فالتنازع هو من عوامل الفشل كما هنا، كما الفشل هو من عوامل التنازع: «حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ» (3: 152).

فالفاشلون في العلم و المعرفة و صالح العقيدة هم المتنازعون، كما المتنازعون هم الفاشلون.

و لأن المنازعة بين المؤمنين محرمة فيما يؤول إلى البغضاء و العداء دون حصول على حق، فالمفروض- إذا- التجنب عن أسبابها و الاتجاه إلى أسباب التآلف و الوحدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 254

و هنا كتاب اللّه و سنة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هما قمة الأسباب الرئيسية للوحدة و الألفة، طالما الأصول الأخرى التي لا أصل لها في كتاب أو سنة، كالإجماع و الشهرة و القياس و الاستحسان و الاستصلاح، و دليل العقل مستقلا و جاه الكتاب و السنة، إنها كلها من أصول التنازعات.

فالارتكان على أدلة العقول في الفروع الأحكامية و ما أشبهها غير الكتاب و السنة، إنه ارتكان إلى ركن سحيق محيق غير وثيق، يخلف مختلف التنازعات بين المعتمدين عليها، و هنا كلمة حاسمة لهذه التنازعات: «فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ‏ءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ».

فالأصل الإيماني بين قبيل الإيمان ألا يتنازعوا على أية حال، فإذا تنازعوا لقصور في البال أم قضية الحال فإلى اللّه في كتابه، و إلى الرسول في سنته، فإذا بقيت بعد بقية من الخلافات حسب مختلف الاجتهادات و الاستنتاجات فلا تنازع بعد بل هو الإقرار لكلّ و الاستقرار على ما أدى إليه رأيه دونما تنازع و عداء، بعد تشاور و تحاور سليمين.

فالمحور الأول الذي يقضي على محور التنازع المحظور هو أن يطلب كل الحق المرام مهما كان عند منازعه، و أن يرفض كلّ الباطل مهما كان عنده.

ثم الثاني أن يمحور كل فطرته و عقليته السليمة على ضوء كتاب اللّه و سنة رسوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

و من ثم إذا بقيت خلافات فإلى شورى بينهم على ضوء هذين الأصلين الأصيلين، فقد لا تبقى إذا خلافات إلا قليلة ضئيلة هي معفوة مغفورة لأنها من قضايا عدم العصمة العلمية و المعرفية.

ذلك، فليست وجهات النظر المختلفة هي السبب الرئيسي للخلافات، إنما هو حين تكون القيادة للأهواء و الشهوات و الإنيات و الأنانيات، و إنما هو وضع الذات في كفة محادة لكفة الحق أم غير محايدة لها أم قابلة للحق إذا اتبع هواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 255

فإذا استسلم الإنسان لسليم الفطرة و العقلية بقيادة اللّه في كتابه، ثم قيادة الرسول في سنته فقد انتفت الأسباب الرئيسية للتنازعات، و بقيت بقية قليلة هي بالنهاية حصيلة عدم العصمة فاختلاف وجهات النظر رغم وحدة الأصل الصالح و رفض الأصل الطالح.

فإن كنت عادلا تتحرى عن الحق فلتكن عادلا في الإقبال إلى الحق و قبوله، فحين ترى الحق عند منازعك فتقبله و لا تفتكر أنك- إذا- مغلوب، بل أنت غالب على هواك في تقبّل الحق عند من سواك، إنما المغلوب هو مغلوب الهوى، و الغالب هو الغالب على الهوى.

فحين يكون الحق هو المحور المبتغى فأنت الغالب على أية حال، و حين تكون الهوى هي المحور المبتغى فأنت المغلوب على أية حال، فلا بد للسالك في سبيل الحق من التصبّر و الصمود أمام نزعات الهوى و نزعات الشيطان الذي يأمرها، فهو الزاد العظيم مع الإيمان باللّه في هذه الرحلة الطويلة المليئة بالأشلاء و الدماء و حرمانات الهوى.

وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47).

هنا المعنيون بهؤلاء هم المنافقون الذين خرجوا مع المؤمنين بظاهرة الجهاد في سبيل اللّه، و لكنهم خرجوا بثالوث منحوس من‏ «بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»! و هكذا المشركون الذين خرجوا في حرب المؤمنين «و ذكر لنا أن نبي الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال يومئذ: اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها و خيلاءها لتجادل رسولك، اللهم إن قريشا جاءت من مكة بأفلاذها» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 190- أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن قتادة في الآية كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم بدر خرجوا و لهم بغي و فخر و قد قيل لهم يومئذ ارجعوا فقد انطلقت عيركم و قد ظفرتم فقالوا: لا و اللّه حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا و عددنا و ذكر لنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 256

و هنا «رِئاءَ النَّاسِ» مما يؤيد أن المنافقين و الذين في قلوبهم مرض هم من المعنيين مع المشركين الرسميين، حيث المشرك يخرج قضية مبدءه فلا رئاء لخروجه، و قد يعني مع المنافقين جماعة من الذين ظلوا بعد الهجرة في مكة رئاء الناس المشركين و كأنهم منهم، أم خرجوا معهم في قتال المؤمنين كأنهم معهم.

ف «بطرا» هو الطغيان في النعمة، فهو هنا بطر الخروج بكل رعونة و تفرّح و تفرّج تبديلا لنعمة اللّه نعمة و نقمة: «وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ» و «رِئاءَ النَّاسِ» لكي يراهم الناس و هو شرك خفي مع جلية للمشركين و المنافقين، و خفي كما الجلي للذين في قلوبهم مرض من المؤمنين.

ثم‏ «وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» صدا ظاهرا جاهرا كالمشركين، أم صدا منافقا خفيا كغيرهم من هؤلاء الخارجين‏ «وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

و هنا «بطرا و» لهؤلاء الأنكاد الأغباش تقابل‏ «وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً» و «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا» هناك، و لا يخلو الخروج للقتال من كونه في سبيل اللّه أم في سبيل اللهو، فثالوث‏ «بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» هو سبيل اللهو، و مثمّن «فاثبتوا و لا تكذبوا» هو سبيل اللّه، و أين سبيل من سبيل؟

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (48).

هنا مسرح للشيطان صارح و هو صارخ، قائلا لجنده المشركين:

«لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» و إنما قال‏ «وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ» حيث ظهر بصورة سراقة و لكي يصدقوه فيما يقول‏ «1» و ذلك قبل أن تراءى الفئتان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 190- أخرج الواقدي و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما تواقف الناس أغمى على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ساعة ثم سرى عنه فبشر الناس بجبرئيل (عليه السلام) في جند من الملائكة ميمنة الناس و ميكائيل في جند آخر ميسرة-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 257

«فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ» و هم جنود الملائكة «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ» أن يعاقبني و يعجل في أجلي الموعود «وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ».

فلقد «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ» و منها إعمالهم كافة قدراتهم لمواجهة المؤمنين، زين بما ألقى في صدورهم ثم زوّده بقوله: «لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» خلافا لما أري رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و

قد يروى عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: ما رئي إبليس يوما هو فيه أصغر و لا أحقر و لا أدحر و لا أغيظ من يوم عرفة و ذلك مما يرى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و إسرافيل في جند آخر ألف و إبليس قد تصور في صورة سراقة بن جعشم المدلجي يجير المشركين و يخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو اللّه الملائكة نكص على عقبيه و قال إني برى‏ء منكم إني أرى ما لا ترون فتشبث به الحارث و انطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر و رفع يديه و قال: يا رب موعدك الذي وعدتني.

و

فيه أخرج الطبراني و أبو نعيم في الدلائل عن رفاعة بن رافع الأنصاري قال: لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر اشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث بن هشام و هو يظن أنه سراقة بن مالك فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه في البحر فرفع يديه فقال: اللّهم إني أسألك نظرتك إياي.

و

في نور الثقلين 2: 161 عن المجمع بعد ذكر القصة: فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال: و اللّه ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا: إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلما اسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان- عن الكلبي و روى ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (عليهما السلام).

و

عن تفسير العياشي عن عمرو بن أبي مقدام عن أبيه عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: لما عطش القوم يوم بدر انطلق علي (عليه السلام) بالقربة يستقي و هو على القليب إذ جاءت ريح شديدة ثم مضت فلبث ما بدا له ثم جاءت ريح أخرى ثم مضت ثم جائته أخرى كان أن يشغله و هو على القليب ثم جلس حتى مضى فلما رجع إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أخبره بذلك فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أما الريح الأول فيها جبرئيل مع ألف من الملائكة و الثانية فيها ميكائيل مع ألف من الملائكة و الثالثة فيها إسرافيل مع ألف من الملائكة و قد سلموا عليك و هو مدد لنا و هم الذين رآهم إبليس فنكص على عقبيه يمشي القهقري حين يقول: «إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 258

من تنزيل الرحمة و العفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر، قالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ما رأى يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة «1».

و قد تأبى نصوص من الآية أن يكون موقف الشيطان من المشركين في بدر كمواقفه الأخرى معهم بأن وسوس إليهم، لمكان: «و قال لا غالب لكم اليوم- و إني جار لكم- إني بري‏ء منكم- إني أخاف الله» حيث الوساوس الشيطانية عامة ليست فيها كهذه القالات الخاصة، ثم كيف ينكص الشيطان على عقبيه و هو غير ظاهر، فمم يخاف إذا حتى ينكص إلّا إذا كان ظاهرا في المسرح، و بكل مصرح من قاله و فعاله.

و هل ترى للشيطان هذه القوة القاهرة أن يتصور بصورة الإنسان فيضلّه و يدلّه؟ إذا فله أن يجند جنوده كما اللّه يجند الملائكة فيهزم المؤمنين! كلّا، فإن اللّه لم يخوّله من ذلك شيئا و لن، و هنا تصوّره بصورة الإنسان كان لطالح المشركين أن انغرّوا به، و لصالح المسلمين أن تغلّبوا عليهم، ثم هو حجة زائدة على المشركين حيث ظنوه سراقة ثم تبين أنه غيره‏ «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى‏ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ».

و لقد كانت هنا مقارنة في ثالوث: الشيطان- المشركين- و المنافقين:

إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49).

هنا المقابلة بين المنافقين و الذين في قلوبهم مرض تعني ذكر العام بعد الخاص، فالآخرون- إذا- هم المشركون، و المنافقون غير الرسميين من ضعفاء الإيمان، أم هؤلاء الذين أسلموا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم قائلين‏ «غَرَّ هؤُلاءِ» المؤمنين «دينهم» إذ يقابلون على قلتهم عددا و عددا هؤلاء الكثرة القوية من المشركين، و الجواب كلمة واحدة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه مالك في الموطأ بسند متصل عن طلحة ابن عبيد الله بن كريز.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 259

«وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» فقد ينصر هؤلاء القلة المؤمنة على هؤلاء الكثرة الكافرة كما فعل.

أجل و الفئة الكثيرة غير المتوكلة على اللّه ليست لتتغلب على الفئة القليلة المتوكلة على اللّه، «فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» يعز المتوكلين عليه «حكيم» يضع النصرة مواضعها الصالحة، فالمنافقون و الذين في قلوبهم مرض هم مع المشركين ليسوا ليدركوا أسباب الإنتصار و الهزيمة المستورة وراء الأستار، و إنما يرون مظاهر دون أن تهديهم بصيرة إلى مسايرها و مصايرها «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» فلا جرم- إذا- يظنون المؤمنين في مسرح بدر و ما أشبه مغرورين مخدوعين بالدين، واردين موارد الهلكة بتعرضهم لقتال المشركين.

[سورة الأنفال (8): الآيات 50 الى 63]

وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (50) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (51) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (52) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى‏ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (54)

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57) وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى‏ سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (58) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (59)

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ‏ءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (60) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 261

وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (50) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51).

هنا ملائكة العذاب يتوفون الذين كفروا، و هناك ملائكة الرحمة يتوفون الذين آمنوا: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (16: 32).

ثم و ملائكة العذاب و الرحمة يرأسهم كلهم ملك الموت‏ «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» (32: 11) و من فوقهم كلهم هو اللّه، «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» (39: 42).

«فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ. ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ» (47: 28).

و هنا ضرب الوجوه استقبال لهم بذوق من عذاب البرزخ، و ضرب أدبارهم استدبار بآخر منه، فهم بين الدنيا و البرزخ يدفعون إلى الموت بضرب الأدبار، و يستقبلون فيه بضرب الوجوه، فإنهم أدبروا عن الحياة الأخرى و اتجهوا- فقط- إلى الحياة الدنيا، فيقال لهم بعد الضربتين:

«وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» مما يدل- كما في عشرات من الآيات- على الحياة البرزخية، إذ لا مجال- إذا- ل «ذوقوا» إلّا إذا كان عذاب الحريق حاضرا، و «ذلك» الثالوث من عذاب الوجوه و الأدبار و عذاب الحريق‏ «بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ» من مستحق العذاب‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

و هنا «الذين كفروا» كمصداق حاضر، هم المشركون في بدر حيث ضربتهم الملائكة فتوفتهم، و

قد يروى‏ أن رجلا قال للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضرب فندر- سقط- رأسه، فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): سبقك إليه الملائكة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 162 عن مجمع البيان روى مجاهد أن رجلا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 262

و لماذا «لَيْسَ بِظَلَّامٍ» و هو ليس ظالما أبدا؟ علّه لكي يستأصل خرافة الجبر، أم و زيادة العذاب على المستحق فإنه ظلّامية في التعذيب، و لأنه‏ «بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ» فليس بظالم كما ليس بظلام للعبيد.

و ترى «لو ترى» تمنيا لرؤيته (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ذلك المرئى، أليس يجعل اللّه متمنيا و الرسول غائبا عن ذلك المرئى؟ إن غياب الرسول عن ذلك المرئى كسائر الغيّب ليس عليه عيبا حيث الضابطة له‏ «وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ» اللهم إلا ما يظهره عليه ربه، ثم «لو ترى» من اللّه بيان لموقف التمني، أنه مكانه و مجاله أن يرى الرسول إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة دون واقعه من اللّه.

و هكذا يكون دور الذين كفروا في مصيرهم لمسيرهم بما قدمت أيديهم، فهم كما يصفهم:

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (52).

دأبان اثنان: دأبهم أنفسهم في الكفر فإضافة إلى الفاعل، و دأب اللّه في جزاءهم الوفاق فإضافة إلى المفعول.

الدأب هو العادة المتعود عليها و السنة السائرة، و هنا «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» دأب الذين كفروا ككل في أخذهم بذنوبهم، «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» و هم فرعون و أتباعه‏ «وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من فراعنة التاريخ و نماردته‏ «كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ» آفاقية و أنفسية، تكوينية و تشريعية «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» هنا و في الأخرى، برزخا و أخرى‏ «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ» في موضع النكال و النقمة كما هو أرحم الراحمين في موضع العفو و الرحمة.

و

من إمام المتقين علي أمير المؤمنين (عليه السلام): «سبحانك خالقا و معبودا بحسن بلاءك عند خلقك، خلقت دارا، و جعلت فيها مأدبة: مشربا و مطعما و أزواجا و خدما و قصورا و أنهارا و زروعا و ثمارا- ثم أرسلت داعيا يدعوا إليها، فلا الداعي أجابوا، و لا فيما رغّبت إليه رغبوا، و لا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 263

أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها، و اصطلحوا على حبها، و من عشق شيئا أعمى بصره، و أمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، و يسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله، و أماتت الدنيا قلبه، و ولّهت عليها نفسه، فهو عبد لها و لما في يده شي‏ء منها، حيثما زال زال إليها، و حيثما أقبلت أقبل عليها، لا ينزجر من اللّه بزاجر، و لا يتعظ منه بواعظ، و هو يرى المأخوذين على الغرّة- حيث لا إقالة لهم و لا رجعة- كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، و جاءتهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، و قدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون- فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت و حسرة الفوت، ففرّت لها أطرافهم، و تغيرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجا فحيل بين أحدهم و بين منطقه، و إنه لبين أهله، ينظر ببصره و يسمع بأذنه على صحة من عقله و بقاء من لبّه، يفكر فيم أفنى عمره و فيم أذهب دهره، و يتذكر أموالا جمعها، أغمض في مطالبها، و أخذها من مصرّحاتها و متشابهاتها، قد لزمته تبعات جمعها و أشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، فيكون المهنأ لغيره و العب‏ء على ظهره، و المرء قد غلقت رهونه بها، فهو يعض يده ندامة على ما أضحر له عند الموت من أمره، و يزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، و يتمنى أن الذي كان يغبطه بها و يحسده عليها قد حازها دونه، يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، و لا يسمع بسمعه، يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم و لا يسمع رجع كلامهم، ثم ازداد الموت التياطا، فقبض بصره كما قبض سمعه، و خرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه، و تباعدوا من قربه، لا يسعد باكيا، و لا يجيب داعيا، ثم حملوه إلى محط في الأرض فأسلموه فيه إلى عمله، و انقطعوا عن زورته» (الخطبة 108).

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى‏ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53).

«لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 264

ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ» (13: 11).

فحين يغيّر المنعمون ما بأنفسهم و جاه اللّه و وجاه نعم اللّه، تبديلا للنّعمة نعمة، فقد يغير اللّه تلك النعمة نقمة، فالنعمة ابتلاء، إذا صرفت في مرضات اللّه ازدادت و نمت، و إذا صرفت عن مرضات اللّه فندت و نفت‏ «أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ذلك و

إن اللّه قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة «1»

«و ليس شي‏ء أدعى إلى تغيير نعم الله و تعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المظلومين و هو للظالمين بالمرصاد» «2»

«إياك و الدماء و سفكها بغير حلها فإنه ليس شي‏ء أدعى لنقمة و لا أعظم لتبعة و لا أحرى بزوال نعمة و انقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها» «3».

و

ليس فقط أن اللّه يغير النعمة نقمة إذا غيروا ما بأنفسهم كفرانا لنعمة، بل و يغير النقمة نعمة إذا غيروا ما بأنفسهم شكرانا لنعمة أم جبرانا لكفران، و أين غيار من غيار، شرّ إلى خير جزاء وفاقا «4».

فقد يملك الإنسان أن يستجلب نعمة اللّه لنفسه أو يستبقيها و يستزيدها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 163 في أصول الكافي عن أبي عمرو المدايني عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال سمعته يقول:

(2- 3) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

(4)

المصدر عن الكافي عن الجزري قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: إن اللّه عزّ و جلّ بعث نبيا من أنبياءه إلى قومه و أوحى إليه أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية و لا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون و ليس من أهل قرية و لا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون ...

و

عن الإمام الصادق (عليه السلام): «ما دام العبد يعرف نعم الله عنده فإن الله لا ينزع منه نعمة حتى إذا جهل النعمة و لم يشكر الله عليها إذ ذاك حري أن ينزع منه» (مجلة الفرقان العدد الثالث المجلد 61 ص 389).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 265

إذا هو عرف و شكر، كما يملك أن يزيلها عن نفسه أو ينقصها إذا هو أنكر و يطر، و انحرفت نواياه فانجرفت خطاه.

فهنا نعم أنفسية هي الفطرة و العقلية الإنسانية و الحس السليم و القلب السليم كما خلق اللّه، فحين يغيّر هذه النعم الأنفسية إلى عليين فاللّه يغيرها إليه و أعلى مما يعنيه، و يزداده نعما آفاقية تكوينية و تشريعية، و إذا كانت له نعم آفاقية فغيّر ما بنفسه من نعمة ازداده اللّه فيها، و يعاكسه إذا غير ما بنفسه إلى سفل فهو يسفله و يرذله كما فعل، و من ذلك الختم على القلوب و الغشاوة على السمع و الأبصار «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

و هذه سنة دائبة عادلة في التعامل بين الإنسان و نفسه و ربه و نعمه، حيث تنعكس عليه بكل خير أو شر في الأولى ثم الأخرى‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و تلك الضابطة الثابتة حقيقة كبيرة حقيقة بالتأمل التام في كافة الحقول الحيوية، جانب عظيم من التصور القرآني لحقيقة الإنسان، يبين تقديره عند العظيم القدير بذلك التدبير العادل الجدير، و كما يبين فاعلية الإنسان بقابليته في مصير نفسه و مصير الأحداث حيث يبدو الإنسان من خلال كل المساير و المصاير عنصرا إيجابيا في صياغة ذلك المصير بإذن اللّه و تقديره و تقريره لكل مسير و مصير من خلال حركته الصالحة و الطالحة على ضوء نيته و شاكلته.

فقد تنتفي عنه بذلك تلك السلبية الذليلة المفروضة عليه من المذاهب المادية، حيث تتصوره و تصوره عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة المتخيلة، كحتمية الإقتصاد و التاريخ و التطور و ما أشبه من سائر الحتميات المختلقة التي ليس للإنسان إزاءها حول و لا قوة، فلا يملك أمامها إلا الخضوع الطليق كالرقيق، ضائعا خائفا ذليلا ساقطا إلى مهوى سحيق.

و هكذا نتعرف إلى الإنسان أنه هو الذي يصنع التاريخ دون جبر و لا تفويض، و إنما هو أمر بين أمرين أمرّين‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» «وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» قالاتهم «عليم» حاجياتهم.

ذلك، و من أنعم النعم الربانية نعمة القرآن العظيم و الذكر الحكيم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 266

فلما غيرنا ما بأنفسنا و جاه القرآن فنبذناه وراءنا ظهريا، سلب عنا التوفيق في دراسته و حراسته فأصبحنا عنه بعيدين بعد الأرض من السماء، لحد خيل إلينا و إلى حوزاتنا بزعمائها و علماءها أن ليس القرآن كتاب دراسة و تعلم، فقد زين لنا الشيطان أحوالنا و أعمالنا لحد حسبنا كل دراسة حوزية هي صالحة لتبني الحوزات الإسلامية و إصلاح المسلمين إلا دراسة القرآن.

فلا و خزة أخرى و لا أخذة أقضى من رفع القرآن من بيننا و نحن أمة القرآن، لذلك لا نجد نعمة المعرفة و الإيمان بيننا الأقلة قليلة لتلك القلة العليلة أمام القرآن حيث اتخذناه مهجورا بكل مواضعه و مواضيعه اللّهم إلا قراءة بأجرة و دونها على الأموات أم استخارة أم تيمنا و تبركا في الأعراس و البيوت.

و قد تناسب هذه الآية القاصعة قصعة من الخطبة القاصعة تبينا أمينا لقصص من الأمم الماضية:

«و احذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلاث بسوء الأفعال و ذميم الأعمال، فتذكروا في الخير و الشر أحوالهم، و احذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، و راحت الأعداد له عنهم، و مدّت العافية فيه عليهم، و انقادت النعمة له معهم، و وصلت الكرامة حبلهم، من الاجتناب للفرقة، و اللزوم للألفة، و التحاضّ عليها، و التواصي بها، و اجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم، و أوهن منّتهم، من تضاغن القلوب، و تشاحن الصدور، و تدابر النفوس، و تخاذل الأيدي- و تدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلك كيف كانوا في حال التمحيص و البلاء، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء، و أجهد العباد بلاء، و أضيق أهل الدنيا حالا، اتخذتهم الفراعنة عبيدا فساموهم سوء العذاب، و جرّعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة، و قهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، و لا سبيلا إلى دفاع، حتى إذا رأى اللّه سبحانه جدّ الصبر منهم على الأذى في محبته، و الاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضايق البلاء فرجا، فأبدلهم العز مكان الذل، و الأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكا حكاما، و أئمة أعلاما، و قد بلغت الكرامة من اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 267

لهم، ما لم تذهب الآمال إليه بهم، فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، و الأهواء مؤتلفة، و القلوب معتدلة، و الأيدي مترادفة، و السيوف متناصرة، و البصائر نافذة، و العزائم واحدة،- ألم يكونوا أربابا في أقطار الأرضين، و ملوكا على رقاب العالمين؟

فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة، و تشتت الألفة، و اختلفت الكلمة و الأفئدة، و تشعبوا مختلفين، و تفرقوا متحاربين، قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته، و سلبهم غضارة نعمته، و بقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم- فاعتبروا بحال ولد إسماعيل و بني إسحاق و بني إسرائيل، فما أشد اعتدال الأحوال، و أقرب اشتباه الأمثال، تأملوا أمرهم في حال تشتتهم و تفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة و القياصرة أربابا لهم، يختارونهم عن ريف الآفاق، و بحر العراق، و خضرة الدنيا إلى منابت السيح، و مهافي الريح.

و نكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين، إخوان دبر و وبر، أذل الأمم دارا، و أجدبهم قرارا، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، و لا إلى ظل ألفة يعتمدون على غرها، فالأحوال مضطربة، و الأيدي مختلفة، و الكثرة متفرقة، في بلاء أزل، و أطباق جهل، من بنات موءودة، و أصنام معبودة، و أرحام مقطوعة، و غارات مشنونة- فانظروا إلى مواقع نعم اللّه عليهم حين بعث إليهم رسولا، فعقد بملته طاعتهم، و جمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، و أسالت جداول نعيمها، و التفّت الملة بهم في عوائد بركتها، فأصبحوا في نعمتها غرقين، و في خضرة عيشها فكهين، قد تربعت الأمور بهم في ظل سلطان قاهر، و آوتهم الحال إلى كنف عز غالب، و تعطفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت، فهم حكام على العالمين، و ملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، و يمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم، لا تغمز لهم قناة، و لا تقرع لهم صفاة- ألا و إنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، و ثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، و ان اللّه سبحانه قد أمتن على جماعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 268

هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، و يأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، و أجل من كل خطر- و اعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعرابا، و بعد الموالاة أحزابا، ما تتعلقون بالإسلام إلا باسمه، و لا تعرفون من الإيمان إلا رسمه، تقولون:

النار و لا العار، كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه، انتهاكا لحريمه، و نقضا لميثاقه الذي وضعه اللّه لكم حرما في أرضه، و أمنا بين خلقه، و إنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر، ثم لا جبرائيل و لا ميكائيل و لا مهاجرون و لا أنصار ينصرونكم، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم اللّه بينكم- و إن عندكم الأمثال من بأس اللّه و قوارعه، و أيامه و وقائعه، فلا تستبطئوا وعيده جهلا بأخذه، و تهاونا ببطشه، و يأسا من بأسه، فإن اللّه سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فلعن اللّه السفهاء لركوب المعاصي، و الحلماء لترك المناهي- ألا و قد قطعتم قيد الإسلام، و عطلتم حدوده، و أمّتم أحكامه».

«و أيم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، و لو أن الناس حين تنزل بهم النقم، و تزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم، و وله من قلوبهم، لرد عليهم كل شارد، و أصلح لهم كل فاسد» (176)- و «إن لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم» (425 ح).

و من ختام المسك هنا قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لبعض نساءه: «أحسني جوار نعم الله فإنها قل ما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (139).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 269

أجل، و النعم المتفاضلة على الإنسان بمنزلة الضيف النازل و الجار المجاور الذي يحب أن يعد قراه، و يكرم مثواه، و تصفى مشاربه، و تؤمن مساربه، فإن أخيف سربه و رنق شربه و ضيعت قواصيه و اعتميت مقاربه كان خليقا بأن ينتقل و جديرا بأن يستبدل- فكذلك النعم إذا لم يجعل الشكر قرى نازلها، و الحمد مهاد منزلها، كانت وشيكة بالانتقال، و خليقة بالزيال.

ذلك، و

في خبر آخر عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «أحسنوا جوار نعم الله فإنها وحشية» «1»،

و هنا يشبّه النعم بأوابد الوحش التي تقيم مع الإيناس، و تنفر مع الإيحاس، و يصعب رجوع شاردها إذا شرد، و دنوّ ناخرها إذا بعد.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (54).

ترى كيف يتكرر «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» بفاصل آية واحدة و المضمون نفس المضمون باختلاف يسير في تلحيقة التعبير؟

من مبررات ذلك التكرار اختلاف الموقفين كما تتكرر آية واحدة في «الرحمن» لمختلف المواقف، «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» في الأولى تنظير لهم ب «الذين كفروا» و «ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ» حيث‏ «فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً» (17: 103) و في الثانية «ب إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ» مع اختلاف يسير في التعبير قضية اختلاف في الموقف يسير.

ففي الأولى‏ «كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ» قضية أصل الألوهية، و في الثانية، «كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ» قضية ما غيروا بأنفسهم و جاه النعم الربانية، ثم العذاب في الأولى: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» قضية نفس الألوهية، و في الثانية: «فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» قضية ربوبيات منه إليهم في نعمه، اقتضت إهلاكهم، بصيغة المتكلم مع الغير حيث تعني جمعية صفات الجلال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 270

المقتضية لجمعية الإهلاك، ثم في الأولى‏ «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ» بنفس القضية، عقابا شاملا للذين من قبلهم آل فرعون، و في الثانية «وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ» تصريحا بنوعية العقاب لخصوص آل فرعون.

و أخيرا هنا «وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ» هؤلاء الذين كفروا بهذه الرسالة، و آل فرعون و الذين من قبلهم.

فهذه الثانية تأكيدة مع تفصيلة للأولى مع اختلاف الموقع و هامة الموضوع حيث يقتضي بنفسه التكرار فضلا عما بيناه و ما أشبه من مبررات التكرار.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (55).

و ترى كيف تتفرع «لا يؤمنون» على «كفروا» و هما سيان في عناية عدم الإيمان؟

«كفروا» تعني: ستروا، كما ستروا الحق عن أنفسهم و كما يقول‏ «أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ» (11: 68) فقد يعني «كفروا» الطليقة- هنا عن أي متعلّق- ثالوث الكفر، إذ: كفروا أنفسهم عن درك الحق، و كفروا الحق عن أن يدرك، و كفروا باللّه.

ذلك، و قد تترجم هذه الآية آية أخرى هي: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (8: 22) إذا فقد «كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» حيث السد لمنافذ الإيمان صد عن الإيمان فهم بطبيعة الحال «لا يؤمنون» بما ختموا على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة فختم اللّه عليها.

و هنا يعرف أن القصد من الكفر هو الكفر المطلق دون مطلقه، فقد يؤمن الكافر إذا لم يتعرق الكفر في نفسه، فالكافر المتحير غير المعاند للحق- فضلا عن متحريه- قد يؤمن حين تصله دلائله، و لكن المعاند المتعمد المتجرئ على الحق لا يرجى خيره، فالواجب إزالته حفاظا على كرامة الإيمان عن أن ينصدم بضلاله و إضلاله لمكان الفتنة التي هي أكبر و أشد من القتل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 271

فمن الدواب ما هي شرّيرة خلقة و قصورا، و منها ما هي شريرة تقصيرا دون أن يحلّق الشر عليها فقد يرجى أن تبوء إلى خير، و لكن الدابة المقصّرة التي حلّق الشر العاند العامد على كيانه ككل، فهذه هي‏ «شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ»: «الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ».

ليس هؤلاء متجردين عن الخصيصة الفطرية الإنسانية فحسب، بل و عن الفطرة البهيمية أيضا، فالبهيمة تنطلق على بهمها لو لا القيود المفروضة عليها و هم منطلقون رغم كل قيد و عهد:

الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (56).

فليس- فقط- انهم لا يؤمنون باللّه، بل و لا يؤمنون بعهودهم التي عاهدوها معكم حيث‏ «يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ»- «عاهَدْتَ مِنْهُمْ» ألا يبسطوا إليكم أيديهم و ألسنتهم بسوء «وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ»: أيّة تخلفة، و انطلاقة عن أية عهود و قيود، فلا يربطهم عن شماسهم أي رباط منكم و لا منهم أنفسهم في عهودهم، فلا علاج عن بأسهم إلا نقض عهودهم هذه التي هم ينقضونها في كل مرة، و إلا قتالهم و استئصالهم حتى يخلوا جو الإنسانية من بأسهم و تعسهم.

فإنما العهد الملتزم هو المستقيم الذي يطمئن، دون المنزلق المنحلق‏ «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» معاملة معهم بالمثل، فإن لم يستقيموا لكم فلا تستقيموا لهم، حيث الاستقامة مع غير المستقيم اعوجاج، و انخداع فانخلاع عن الأمنة إلى شفا جرف الهلكات.

و هنا قواعد حربية مستفادة من آيات عدة نحن أمامها، نعد منها عشرا:

1 الكفار الذين يعاهدون المعسكر الإسلامي معاهدات ثم تنقضون عهدهم في كل مرة، إذا:

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 272

فملاحقتهم على حذق إذا مفروضة لمقتاتلتهم حيث الثقف فضلا عن أكيده التثقيف هو الملاحقة اليقظة الحاذقة اللازقة دون فتور فظفر و إدراك بسرعة و حذق‏ «فَشَرِّدْ بِهِمْ» بعد تشريدهم أنفسهم «من خلفهم» فحين تشردهم قويا صارما دفعا عن أخطارهم قتلا لهم أم نفيا إياهم إلى البعيد، فقد شردت بهم من خلفهم‏ «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» ألا مجال لاختلاق الدوائر ضد المجموعة المؤمنة.

و هنا «تثقفن» تأكيد لواجب تثقيف العدو و تضييق كل المجالات عليه.

فهؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم، إنما جزاءهم هنا هو حرمانهم من كل ما حرموا غيرهم من الأمن، فتخويفهم و تشريدهم و الضرب على أيديهم لحد يرهب معهم من خلفهم من المتسامعين بهم.

و انها الضربة المروعة المرهبة للهروب و الشرود اتقاء عن أذاهم، كأقل ما يعامل معهم، و من ثم قتالهم و قتلهم باستئصالهم عن بكرتهم.

2 خوف الخيانة من المعاهد الذي تكررت منه حلّ المعاهدة فلا التزام بها بعد:

وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى‏ سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (58).

و هنا «تخافن» تأكيد للخوف، أن الخوف المتأكد المرتقب أكيدا من هؤلاء الخونة الناقضين عهودهم، ذلك الخوف يحل عقد معاهدتهم، فكما نبذوا إليكم عهدهم فتخافنهم، كذلك‏ «فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ» عهدهم «على سواء» نبذا كنبذهم دونما تعدّ طوره‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ» فكيف يصح لكتلة الإيمان أن تأتمنهم في عهدهم المنقوض كل مرة.

أجل‏ «فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ» عهدهم إلقاء إليهم بإعلام الإلغاء، فإن في اجتماع نقض العهد في كل مرة و تخوّف الخيانة من جرّاءه خطرا حاسما جاسما على المؤمنين، فلينبذ إليهم عهدهم كما نبذوا، إعلانا جاهرا بالقتال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 273

ذلك، فلا يجوز نقض عهدهم ما لم ينقضوا و لا تخافن منهم خيانة «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» و كما أن نقضهم عهدهم خيانة، كذلك نقضكم عهدهم قبل نقضهم، أم نقضكم و لمّا ينقضوا، و هم دائبون في النقض على تخوف من خيانتهم، إلّا أن تنبذ إليهم على سواء، فنقض عهدهم دون نبذ و إعلام بالنقض خيانة «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ» كفارا كانوا أم مؤمنين.

و قد نزلت الآية في بني قريظة حيث خوفته (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) خيانتهم و هم ينقضون عهدهم في كل مرة «1» و قد عاهدوا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ثم أجابوا أبا سفيان و من معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، و هنا لك حقل‏ «إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً» بعد نقض منافق للعهد، و أما النقض الجاهر فقد يترقب به نقض جاهر مثله، فلا مورد إذا للإعلام بنقضه، إنما المحتاج إليه ما لم ينقض جاهرا، و قد قاتل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أهل مكة لما نقضوا عهدهم جاهرا بقتل خزاعة و هم من ذمة النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

و هنا «على سواء» برهان قاطع لا مرد له أن النبذ إليهم ليس إلّا بعد نبذهم و تخوّف خيانتهم، فلكل نبذ نبذ مثله على سواء، دون أن يبرّر نبذ و لمّا ينبذ العدو مهما كان ينبذ في كل مرة، فانظر إلى السماحة الإسلامية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 191- أخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل (عليه السلام) على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: قد وضعت السلاح و ما زلنا في طلب القوم فأخرج فإن اللّه قد أذن لك في قريظة و أنزل فيهم‏ «وَ إِمَّا تَخافَنَّ»

و

فيه عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: لا تقاتل عدوك حتى تنبذ إليهم على سواء إن اللّه لا يحب الخائنين،

و

فيه أخرج ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن سليم بن عامر قال: كان بين معاوية و بين الروم عهده و كان يسير حتى يكون قريبا من أرضهم فإذا انقضت المدة أغار عليهم فجاءه عمرو بن عبسة فقال: اللّه أكبر وفاء لا غدر سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: من كان بينه و بين قوم عهد فلا يشد عقده و لا يحلها حتى ينقضي أمرها أو ينبذ إليهم على سواء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 274

السامية ألا تسمح للمؤمنين نقضا عمليا لعهد الناقض عهدهم، إلّا بإلقاء الإلغاء، دونما حيلة و غيلة و مباغتة، اللّهم إلا حيلة بحيلة و غيلة بغيلة.

و هنا

نسمع عليا أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول في حديث له طويل: فقدمت البصرة و قد اتسقت إليّ الوجوه كلها إلا الشام فأحببت أن أتخذ الحجة و أقضي العذر و أخذت بقول اللّه: «وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى‏ سَواءٍ» فبعثت جرير بن عبد اللّه إلى معاوية معذرا إليه، متخذا للحجة عليه، فرد كتابي، و جحد حقي في دفع بيعتي‏ «1».

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (59).

ليس الكفر ليسبق الإيمان و لا الكافرون ليسبقوا المؤمنين في ميادين السباق الحيوية، اللّهم إلا بظاهر من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون، و «إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ» اللّه و لا رسل اللّه و لا المؤمنين باللّه، فليس الباطل أيا كان ليعجز الحق مهما كان له جولة، فإن للحق دولة: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» (29: 4) فمهما نجوا من القتل في حرب و سواها متخلفين عن شرعة اللّه، فليس سبقا لهم‏ «لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178) فهل تراهم- إذا- سابقين في ذلك الميدان الميدان؟

«وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183)! فقد خسروا السباق بكل الرفاق، و اللّه هو السابق و عباده الصالحون.

فلا هم سابقون مشيئة اللّه في التكوين مهما تخلفوا عنها في التشريع إذ لن يضروا اللّه شيئا، و لا هم سابقوه في أي سباق آخر إعجازا له و إحجازا إياه عما يشاء.

3 إنه يجب على المؤمنين إعداد المستطاع من كافة القوات و الإمكانيات أمام أعدائهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 164 في كشف المحجة لابن طاووس عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 275

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ‏ءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (60).

«و أعدوا» خطاب هام عام موجّه إلى المؤمنين في الطول التاريخي و العرض الجغرافي على مدار الزمن الرسالي الإسلامي، كما و «لهم» تعني‏ «شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ» و هم الكفرة الناقضون لعهودهم- إن كانت لهم عهود- الذين تخافن منهم خيانة على الهيكل الإسلامي السامي.

و قد تعني «لهم»- دون عليهم- أصل المواجهة، أن اعدوا لمواجهتهم، بما أن في هذه القوات الحربية صالحهم حيث تصدهم عن مهاجمة المؤمنين فلا يقتلون و لا يستحقون عظيم النكال أم هم يؤمنون.

ثم‏ «وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ» خطرا و خيانة، أو معرفة بهم فيهما «لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» فالأصل هو الحصول على القوة الرهيبة الإرهابية العادلة في كافة الميادين الحيوية، ثقافية و عقيدية و اقتصادية و سياسية و حربية أماهيه من قوات يحاول أعداءنا أن يسبقونا فيها سنادا لسيادتهم و سيطرتهم علينا.

ف «من قوة» تحلق على كافة القوات، مهما أشارت‏ «رِباطِ الْخَيْلِ» و فسرت الروايات‏ «1» تلك القوة بقوات الحرب و لا سيما السابقة، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 192 عن عقبة بن عامر الجهني قال سمعت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول‏ و هو على المنبر «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ألا إن القوة الرمي، قالها ثلاثا عنه قال: سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أن اللّه يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير و الذي يجهز به في سبيل اللّه و الذي يرمي به في سبيل اللّه، و قال: ارموا و اركبوا و أن ترموا خير من أن تركبوا، و قال: كل شي‏ء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة: رميه عن قوسه و تأديبه فرسه و ملاعبته أهله فإنهن من الحق و من علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها.

و

فيه‏ أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مر على ناس ينتضلون فقال: حسن اللهم مرتين أو ثلاثا ارموا و أنا مع ابن الأدرع فأمسك القوم قال: ارموا و أنا معكم جميعا فلقد رموا عامة يومهم ذلك ثم تفرقوا على السواء ما يضل بعضهم بعضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 276

المدار هو طليق «قوة» تعم كافة القوات الإيمانية.

و

قد يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله في القوات الحربية: من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني‏ «1»

و

«من تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدها» «2».

و مهما كان الرمي يومئذ بالنبال قضية الظروف و الإمكانيات، فهو اليوم- و بعد توسع الأسلحة- يعم كل رمي بري و بحري و جوي بمختلف وسائله المستطاعة أتوماتيكية و سواها، حيث القصد هو رمي العدو إرهابا و قضاء عليه، فكيف يكتفى برميه بما هو مجهز بأقواه فإنه أغواه! و لأن الأكثرية الساحقة أو المطلقة من البشرية سائرة سيرا كالسا فالسا معاكسا لشرعة اللّه، فهم- إذا- يعارضونها جهلا أو تجاهلا و عداء بمختلف أساليب المعارضة كيلا يقعوا في ذلك الفخ أم لا يصطدموا به، لذلك فعلى المجموعة المؤمنة إعداد قوات إرهابية و لا سيما الحربية المكافحة للحفاظ على كيانها و كونها، و كيف تختص «من قوة» بقوة الأسلحة الحربية و الحاجة إلى سائر القوات أكثر حيث الفتنة أشد من القتل و أكبر، فهل يؤمر المسلمون بإعداد القوة الحربية دون الأخرى منها و الأهم حفاظا على كيان الإسلام في المسلمين؟، و مجرد وقوع الآية بين الآيات الحربية لا يحصر آية القوة الطليقة فقط بتلك القوة مهما كانت هي البارزة منها في المظهر، و لكن غيرها و لا سيما العقيدية هي البارزة في المحضر، المفروضة للحفاظ على الكيان الإسلامي.

و من مخلفات هذه القوة الإرهابية العادلة- الأصيلة- امام الإرهابات الباطلة إرهاب عدو اللّه و عدوكم، فلا يجرءون على الميل إليكم و النيل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

فيه أخرج القراب عن عقبة بن عامر قال: لا أترك الرمي أبدا و لو كانت يدي مقطوعة بعد شي‏ء سمعته من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني.

(2) و فيه أخرج البزاز عن أبي هريرة أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال:-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 277

منكم، و لا إعانة سائر الكفار عليكم حيث يعيشون يأسا من الغلب عليكم فتعيشون أنتم على رغد الأمن و الكرامة.

و كما ترهبون به الأعداء الرسميين المعروفين، كذلك‏ «آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ» من منافقين أم سائر الكافرين.

فإعداد ما في الطوق من الطاقات الذاتية و سواها فريضة دائبة على كل المجموعة المؤمنة، طمأنة للذين يدخلون في دين اللّه، و ترغيبا لمن يحيدون عنه، و ترهيبا لمن يتربصون به الدوائر، فلا يفكروا يوما في الوقوف في وجه المدّ الإسلامي، و لكي ينطلق لتحرير الإنسان عن عبودية العباد إلى عبودية خالق العباد.

ذلك، و كما على المؤمنين برسالة السماء أن يعدوا ما استطاعوا من قوة و من رباط الخيل حفاظا على الثغور و الأقطار الإسلامية، كذلك و بأحرى عليهم أن يعدوا ما استطاعوا من قوة الثقافة الحيوية و العقيدة الإيمانية و الأخلاق الحميدة و السياسة الصالحة و الإقتصاد الصالح و الحضارة السليمة، حتى لا ينغرّ جاهلون بما عند الكفار من مظاهر، فليجدوا في المؤمنين قوات من كل الحيويات مكافحة صالحة للسيطرة على ما عند الكافرين.

فأعداء المسلمين بكل الطاقات الحيوية المكافحة فرض جماهيري، سدا لكافة المنافذ التي ينفذ منها الكفار، تسربا إلى المجموعة المسلمة فترسبا فيها فتحويلا لها عن الحيوية الإسلامية إلى غيرها.

أجل إن القوة المكافئة ضرورة لا محيد عنها للمسلمين، و لكن القوة المكافحة هي التي تجعلهم سادة الأمم و قادتها، بيدهم أزمة أمورهم و أمور الناس و كما يفعله الإمام المهدي (ع).

إذا فهذه الآية ترسم مسيرا حيّا للحياة الإسلامية تضم في خضمّه كافة الصالحات، التي هي رسوم صالحة لصالحة الحياة في كل النشآت، فرضا لما يصلحها و يفلحهم فيها، و رفضا لطالحها التي تفلجهم فيها.

و هنا «عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ» له عوان هو عدو محمد و عترته المعصومين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 278

(عليهم السلام) و كما

يروى متواترا عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «عدوي عدو الله» «1»

و

«عدوه عدوي» «2»

و

«من عاداه فقد عادى الله» «3»

«اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» «4».

و لأن أعداء الطاقات المكافحة بحاجة إلى أموال و ما أشبه كما هي بحاجة إلى سائر الاستعدادات، فليكن المؤمنون على نبهة و يقظة دائمة أن الإنفاق في هذه السبيل مفروض قدر الحاجة المكافحة، و هو يوفّى إليهم عاجلا هنا و آجلا في الأخرى: «وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ‏ءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أيا كان ذلك الشي‏ء، من شي‏ء المال و الثقافة و العقلية الإيمانية أماهيه‏ «يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ» فمادة الإنفاق- إذا- أيّا كان هي منكم و إليكم على أية حال.

ذلك إعلان المحاربة من الضفة الإيمانية إلى الضفة الكافرة بكامل الإعدادات إن هوجموا نفسيا أو عقيديا، فالحرب الإسلامية- إذا- ليست إلا وقائية دفاعية و لذلك:

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61).

فإذا جنح فريق من الكفار إلى مسالمة المعسكر الإسلامي و موادعته فإن على القيادة الإسلامية أن تجنح لها:

أجل‏

«و لا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك و لله فيه رضى فإن في الصلح دعة لجنودك و راحة من همومك و أمنا لبلادك، و لكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 4: 49 و 6: 406 و 16: 613- 614 و 20: 226.

(2) المصدر 4: 49- 50 295- 297 و 6: 406- 417 و 16: 613- 614 و 20:

226.

(3) المصدر 5: 41.

(4) المصدر 2: 426- 465 و 3: 322- 327 و 6: 225- 304 و 7: 53- 56 و 16:

559- 587.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 279

بالحزم، و اتهم في ذلك حسن الظن، و إن عقدت بينك و بين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء، و ارع ذمتك بالأمانة، و اجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شي‏ء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهواءهم و تشتت آراءهم من تعظيم الوفاء بالعهود» «1».

و الجنوح هو الميل، و السّلم هو الصلح السليم و «إن جنحوا» هؤلاء الكفار الخونة «للسّلم» معكم، تركا للصّدام نفسيا و عقيديا، و تركا لأية فتنة «فَاجْنَحْ لَها» كما جنحوا دونما تعلل و تخلخل و تململ بما هو طبيعة الحال من مخابئ الخيانات للكافرين الذين ليس لهم مبدء سليم يسندون إليه، و هم ينقضون عهودهم في كل مرة، مجرّبون في نقض العهد، فحقل الاعتداء و السلم لا يعامل فيها إلّا بالمثل.

و إن خطر لك خاطر من هذا القبيل من كذبهم و نقضهم‏ «تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» في تطبيق أمر اللّه، و لكي يعرف العدو و يعرف معه آخرون أن ليس الأصل في كتلة الإيمان المقاتلة و الاستئصال لأعداء الدين، إنما هو الدفاع عن النواميس و الحفاظ على كيان الإيمان‏ «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» قالات الأعداء و قالاتكم «العليم» بكل الحالات، فإن لم تجنحوا للسّلم عند ما جنحوا فقد تتطاول ألسنتهم عليكم أنكم تؤججون نيران الحروب التوسعية و لا تريدون سلما إضافة إلى ظاهرة التخلف عن الاعتداء بالمثل، فإن رفض الجناح للسّلم رغم جناحهم للسلم نقض لقاعدة الاعتداء! أجل، و الصبغة الإسلامية و صيغتها السليمة هما السّلم ما سلم المسلمون عن كيد الكفار و ميدهم، فليس لهم إلا الدفاع عن نواميسهم الخمسة دون أي هجوم بدائي لتفتّح البلدان، اللّهم إلّا تفتحا للقلوب بالحكمة و الموعظة الحسنة و جدالهم بالتي هي أحسن، ثم إذا شكّلوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 292 فيما أمر به أمير المؤمنين (عليه السلام) مالك الأشتر النخعي لما ولاه مصر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 280

خطرا على الضفّة المؤمنة فالدفاع الذي هو حق لكل حي عن حياته و حيويته.

وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63).

«إن يريدوا» لأسوء الاحتمالات في جنوحهم للسّلم فجنوحك لها «إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» و ليس هو قوتك و استمرارك للحرب دون تقبّل للسّلم المتوقّع، «حَسْبَكَ اللَّهُ» الذي يأمرك بذلك الجنوح‏ «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ» دون سبب ظاهر في بدر و حنين و سواهما «وَ بِالْمُؤْمِنِينَ» الصامدين مثل علي أمير المؤمنين (عليه السلام) «1» و من أشبه، و هم من السبب الظاهر، نصر حاضر ملموس «بالمؤمنين» و نصر غائب بملائكة أم دونهم، كما «وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏» و «وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» في ذلك التأليف الأليف‏ «ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ» حيث القلوب بيد اللّه يقلبها كيف يشاء لما يشاء، فطالما النعمة تكفّر و الرحم يقطع، و لكن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 199- أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي محمد عبدي و رسولي أيدته بعلي و ذلك قوله: هو الذي أيدك بنصره و بالمؤمنين.

و في ملحقات إحقاق الحق 3: 194 الگنجي في كناية المطالب (110) بسند متصل عن أبي هريرة مثله، و

فيه عنه روى أبو نعيم الحافظ بسنده عن أبي هريرة عن أبي صالح عن ابن عباس عن جعفر الصادق رضي اللّه عنه في هذه الآية قالوا: نزلت في علي (عليه السلام) و ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: و روى مثله، و فيه عنه روى في كتاب الشفا روى ابن قانع القاضي عن أبي الحمراء مثله، و فيه 14: 585 و رواه الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 223 بعدة طرق عن أنس و جابر و أبي الحمراء عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 281

اللّه إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شي‏ء، «وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» «وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ» فيما يفعل «حكيم» لا يغفل و لا يجهل.

ذلك، و هذا التأليف الأليف كان بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مهما لم يكن من الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فحين تؤلف قلوب بنصيب من الزكاة للمؤلفة قلوبهم فبأحرى منها النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن يؤلف اللّه به القلوب:

فقد

«بلغ رسالات ربه فلم به الصدع و رتق به الفتق و ألف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور، و الضغائن القادحة في القلوب» «1».

«المؤمن غر كريم و الفاجر خبث لئيم و خير المؤمنين من كان تألفه للمؤمنين و لا خير فيمن لا يألف و لا يؤلف» «2».

ذلك، و لأن الدار هي دار التزاحم، و لكلّ طموحات غير محدودة تقتضي التحسد على أصحاب النعم التي هو يفقدها، فلا يمكن إزالة البغضاء و العداء اللذين هما الخلفية الطبيعية، أن تزال بما في الأرض من نفس هذه النعم، اللّهم إلّا بعناية ربانية على ضوء الإيمان باللّه مهما كانت بسبب أرضى كالأموال، أم سماوي كالرسول (صلّى اللّه عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نهج البلاغة قال (عليه السلام): «و بلغ رسالات ربه».

(2)

نور الثقلين 2: 166 في أمالي الشيخ الطوسي باسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: المؤمن غرّ كريم، قال (عليه السلام): و سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: شرار الناس من يبغض المؤمنين و تبغضه قلوبهم المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للناس العيب أولئك لا ينظر اللّه إليهم و لا يزكيهم يوم القيامة ثم تلا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 282

و سلم).

فطالما حاول كثير من أولي النعمة أن يؤلفوا قلوب المعدمين بأموال فازدادوا بغضاء و عداء، إذ لا صلة لهذه العطيات بمرضات اللّه و عناياته الخاصة، فالرحمة الربانية هي الأصيلة في أية وسيلة هي وصيلة للتأليف:

«وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (11: 119).

فهنا تأييدان اثنان ربانيان: 1 «أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ» الخاص دون أسباب ظاهرة، سواء أ كان بالملائكة أم دون أي سبب خلقي، 2 «وَ بِالْمُؤْمِنِينَ» و هم من الأسباب الظاهرة و لكن شرط تأليف قلوبهم، و ليس هو أيضا إلا من اللّه، إذا فالنصر واحد هو من عند اللّه دون فارق في أصله أنه من عند اللّه.

فلقد وقعت المعجزة الربانية التي لا يقدر عليها إلّا اللّه، أن استحالت هذه القلوب النافرة المستنفرة، و هذه الطباع الشّموس المستنكرة، استحالت إلى هذه الكتلة المتراصّة المتآخية الذّلول، المتحاثّة بعضها بعضا في تحكيم الألفة و المحبة بذلك المستوى المنقطع النظير في تاريخ أي بشير و نذير.

إنها بالفعل عجيبة أن تستحيل قلوب متنافرة إلى مزاج عريق من الحب و الألفة الإيمانية التي تليّن جاسيها، و ترقق حواشيها، و تندي جفافها، فإذا نظرة العين و لمسة اليد و نطق اللسان و خفقة القلب، هي ترانيم من التعارف و التعاطف الوطيد العتيد و السماحة و الهوادة، التي لا يعرف سرها إلا الذي ألف بينها.

و لمثل هذه القلوب‏

يقول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إن من عباد اللّه لأناسا ما هم بأنبياء و لا شهداء يغبطهم الأنبياء و الشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللّه تعالى، قيل: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تخبرنا من هم قال: هم قوم تحابوا بروح اللّه بينهم على غير أرحام بينهم و لا أموال يتعاطونها، و اللّه أن وجوههم لنور و إنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس و لا يحزنون إذا حزن الناس‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه أبو داود عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 283

و ترى حين لا يتمكن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن يؤلف بين قلوبهم و هم مؤمنون و لو بأن ينفق ما في الأرض جميعا، فما هو دور المؤلفة قلوبهم في حقل الزكوة؟

الجمع هنا أن ليس الإنفاق بالذي يؤلف بين القلوب إن لم يشأ اللّه، ثم اللّه يؤلف بين القلوب بمؤلفات و منها الزكاة.

ثم هنا التأليف بين قلوب المؤمنين و هناك تأليف قلوب الكافرين إلى الإيمان، فالمؤلفة قلوبهم إلى الإيمان هم الذين تكمكت الدعوة الصالحة لهم إلى الإيمان، ثم تزوّد جاذبية الدعوة بذلك الإنفاق فيؤلّفون إلى الإيمان بإذن اللّه.

«الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» إلى الإيمان هم الذين ألفت قلوبهم قبل الإنفاق، ثم يكمل للدخول في ربع الإيمان بالإنفاق.

و أما المؤمنون المختلفون فقد يؤلف بين قلوبهم بما يريد اللّه و بصالح الدعوة الرسالية.

[سورة الأنفال (8): الآيات 64 الى 75]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66) ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى‏ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (68)

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى‏ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى‏ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ (73)

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (75)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 285

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64).

«حَسْبُكَ اللَّهُ» أصلا في كل حسب و حساب، «وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بأمر اللّه و نصره لهم، فهم أيضا من حسب اللّه حسب أمر اللّه و تقديره، و حساب اللّه و تدبيره.

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (65).

تكتيك عددي حربي إلى عدد لها عرفناها من ذي قبل:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 286

«و أعدوا» و هو أمر مرحلي في ظروف حاسمة خطرة تقتضي مواجهة الواحد من المؤمنين بعشرة من الكافرين، قضية كثرتهم أولاء و قلتهم هؤلاء و «بأنهم» أولاء «قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ».

فقد أمر المؤمنون القلة أمام الكافرين الكثرة أن يقاتلوهم و يغلبوهم و هم معشارهم: «عشرون صابرون يغلبوا مأتين- و- مائة يغلبوا ألفا».

و ترى إذا كان القصد من العشرين أمام مأتين واجب تحمل المعشار من المؤمنين أمام عشرة أضعافهم من الكافرين، فلما ذا- إذا- البداية ب «عشرين»؟

لأن المعشار غير مفروض فيما دون العشرين و قد كافت سرايا الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لأقل تقدير العشرين، و لأكثرها قد تكون مائة فلذلك إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا، تأكيدا لواجب المعشار و تبينا للحالة الحاضرة، كما و قد ابتدأ في الآية الثانية بالمائة مما يلمح أن المائة حينذاك كان أقل تقدير في أكثرية الأحيان ثم الألف.

لأن الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب و الكفار لا يعلمون غائب الكون بحاضره لا مبدء و لا معادا و لا ما بين المبدء و المعاد، و إنما «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) فهم لا يبصرون بالدنيا ما وراءها و إنما يبصرون إليها كأصل و ختام للحياة، فهم- إذا- حريصون على الحياة الدنيا، و المؤمنون حريصون على الآخرة، فهم أولاء يضحون في سبيل اللّه و لا يبالون أن يقتلوا فيها، و الكافرون حريصون على الدنيا حائطون عليها بكل حائطة، و طبيعة الحال بين هؤلاء و هؤلاء، الصابرين في سبيل اللّه و الذين لا يفقهون إلا اللهو، أن يغلب الأولون على الآخرين، اللّهم إلّا إذا تخلف فريق عما شرط له أو عليه.

ذلك، فالمؤمن الفقيه الصابر إنما يقدم في الجهاد قضية إيمانه الفقيه الصابر، و هو هو القوة التي لا قوة فوقها يساميها أم مثلها فيساويها، فالشجاعة و الجرأة و الاستقامة و الطمأنينة و الثقة باللّه و أنه يتربص إحدى الحسنيين، هي التي تعدل- لأقل تقدير- عشرا من القوات الكافرة الخاوية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 287

عن تلكم القوات الإيمانية.

فحينما المؤمن يطير و يستطير بهذه القوى، ليس الكافر ليطير إلا بالهوى، فما اتفق الكافر و غايته الغاوية الهاوية و هي الحفاظ على الحياة الدنيا و زينتها، فهو مقدام عليه دون أية هوادة، فأما أن يموت في سبيل هذه الحياة فلا، و لكن المؤمن يموت في سبيل حياة هي أحيى و أبقى‏ «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏».

فالصبر و الفقاهة المستصحبان للإيمان هما رمز الغلبة على أصحاب الفشل و السفاهة المستصحبان للّاإيمان، و هذه سنة مستمرة بين المتناحرين، أن الأقوى منهم روحية و تصميما و غاية هو الأقوى في النضال على أية حال.

فمعشار المؤمن من الكفار مغوار يقتل عشرة منهم بطبيعة الحال، «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها» تقرر أقل تقدير لغا علية الحسنة، فلأن الجهاد حسنة فمجاهد واحد بجهاده في سبيل اللّه له عشر أمثاله من قبيل الكفر أن يغتالهم أو يقتلهم أو يغلبهم دونما تزعزع و فتور.

ثم «يغلبوا» مرتين في النص هي بصورة الجزاء خبرا عن الشرط و لكنه أمر لأمور عدة: منها أن في كونها خبرا كذبا حيث غلبوا و يغلبون مرارا و تكرارا، و منها أن التخفيف لا مجال له في الخبر إلا كذبا و «الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ» تخفيف من المعشار المغوار إلى ضعف في واجب القرار و محرم الفرار.

ذلك و لكن الإخبار هنا معني بضمن الإنشاء و بينهما فارق تحليق عناية الإنشاء على كافة الموارد كضابطة، و لكن صدق الإخبار يكفيه حصول المخبر به بطبيعة الحال، و مهما تخلف أحيانا فإنه لملابسات مضادة لشروط الغلبة.

و هنا «يغلبوا» دون يقاتلوا دليل واجب الغلبة بواجب المعشار فضلا عما فوقه، و لأن اللّه لا يكلف نفسا إلا وسعها، فإذا فلت فالت دون تقصير من معشار المؤمنين فلا بأس به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 288

فإيجابية العدد المعشار في المؤمنين هي لأمور منها أنهم «صابرون» و سلبية القوة للكافرين بأضعافهم العشرة «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» فما هي الصلة بين عدم الفقه و أنهم يغلبون؟

الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66).

ترى و لماذا يعبر هنا عن المعشار و النصف بهذه الطائلة المفصلة، و ما هو اختصاص «عشرون و مائة و ألف و ألفان»؟

علّه كما أسلفناه- لأن سراياه ما كانت تقل عن عشرين و لا هي أكثر من مائة «1» فقضية واقع الحال أن يعبر عما هو، فقد فرض عليها الاصطبار حتى الغلبة في نطاق معشار المؤمنين من الكفار، ثم و لم يكن المعشار إلا في نطاق العشرين و ما زاد، فلا يجري الحكم في الأقل من العشرين، كما لا يجري في الأقل من المأتين في الحكم الثاني‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير الفخر الرازي 16: 194 روى‏ أنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان يبعث العشرة إلى وجه المائة بعث حمزة في ثلاثين راكبا قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب و أرادوا قتالهم فمنعهم حمزة و بعث رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عبد اللّه بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي و كان في جماعة فابتدر عبد اللّه و قال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) صفه لي فقال: إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان و وجدت لذلك قشعريرة و قد بلغني أنه جمع لي فأخرج إليه و اقتله، قال: فخرجت نحوه فلما دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي: من دخل؟ قلت له من العرب سمعت بك و بجمعك و مشيت معه حتى إذا تمكنت منه قتلته بالسيف و أسرعت إلى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ذكرت أني قتلته فأعطاني عصا و قال: أمسكها فإنها آية بيني و بينك يوم القيامة.

(2)

نور الثقلين 2: 166 في تفسير العياشي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول في آخره: و قد أكره علي بيعة أبي بكر مغضبا اللّهم انك تعلم أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قد قال لي: إن تموا عشرين فجاهدهم و هو قولك في كتابك: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين و سمعته يقول: اللّهم فإنهم لم-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 289

ذلك، و لمّا شق على المؤمنين ذلك التكليف قلة في اصطبارهم و علة في قرارهم ضعفا في كثير منهم مهما صمد القليل، خفف اللّه عنهم المعشار إلى الضعف‏ «1» قضية الضّعف.

و ترى ذلك الضعف هو في العدة و العدة الحربية؟ و لا يسبب هذا الضعف تخفيفا عن التكليف حيث الفرض فيه واقع ذلك الضّعف! إنه ضعف في الفقه و الاصطبار أمام العدة و العدة الزائدة للعدو، و هو قضية الحال و طبيعتها حين يكثر المؤمنون و الصادقون فيهم- بالطبع- قلة، و في الكثرة علة، و هذا مما تعنيه: «فِيكُمْ ضَعْفاً» دون أنتم ضعفاء، إنما فيكم، في ظرف الكثرة العددية يكون لأكثركم، ضعفا في الإيمان بفقهه و صبره.

و هنا «علم» بين علم حاضر لحضور و حدوث معلومه أن حدث فيهم ذلك الضعف، و بين علم سابق معه بسابق ضعفهم و أنهم سوف لا يتحملون ذلك التكليف العضال.

ف «الآن» و هو بطبيعة الحال بعد ردح من زمن التكليف الأول و تطبيعه فيه‏ «خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ» غور المعشار «و» حال أنه «علم» بأحد الوجهين أم كليهما «أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً» لا يجبر لضعف الفقه و الصبر في الأكثر.

«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها» و حينما الأكثر في الأكثر ليس لهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يتموا عشرين حتى قالها ثلاثا ثم انصرف، أقول: استدلاله (عليه السلام) بالآية مما يدل على أنها غير منسوخة بالثانية نسخا رسميا، إنما هو نسخ أحيانا حسب مختلف الإعدادات و الاستعدادات الإيمانية و الملابسات الحربية.

(1). قال عطاء عن ابن عباس: لما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون و قالوا: يا رب نحن جياع و عدونا شباع و نحن في غربة و عدونا في أهليهم و نحن قد أخرجنا من ديارنا و أموالنا و أولادنا و عدونا ليس كذلك. و قال الأنصار: شغلنا بعدونا و واسينا إخواننا فنزل التخفيف، و قال عكرمة: إنما أمر الرجل أن يصبر لعشرة و العشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف اللّه تعالى عنهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 290

ذلك الصبر و الصمود الذي كان في القلة المؤمنة الصابرة، إذا فليخفف في التكليف.

ذلك و لا حاجة إلى تأويل العلم هنا بما تعوده المتأولون من خلاف الظاهر الباهر، إنما هو العلم بما هو حاصل من المعلوم بعد تحويل القلة إلى الكثرة، فقد كان يعلم من القلة الصابرة القوة فكلفهم كما يستطيعون، ثم كان يعلم من الكثرة غير الصابرة ضعفا في الصمود و الثبات المقدام فخفف المعشار إلى النصف.

أجل و ان اللّه تعالى‏

عالم السر من ضمائر المضمرين و نجوى المتخافتين، و خواطر رجم الظنون، و عقد عزيمات اليقين، و مسارق إيماض الجفون، و ما ضمنته أكنان القلوب و غيابات الغيوب، و ما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع، و مصايف الذرّ، و مشاتي الهوامّ، و رجع الحنين من المولهات، و همس الأقدام، و منفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام، و منقمع الوحوش من غير ان الجبال و أوديتها، و مختبأ البعوض بين سوق الأشجار و ألحيتها، و مغرز الأوراق من الأفنان، و محطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب، و ناشئة الغيوم و متلاحمها، و درور قطر السحاب في تراكمها، و ما تسقي الأعاصير بذيولها، و تعفو الأمطار بسيولها، و عوم بنات الأرض في كثبان الرمال، و مستقر ذوات الأجنحة بذرى شناخيب الجبال، و تغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، و ما أوعبته الأصداف و حضنت عليه أمواج البحار، و ما غشيته سدفة ليل، أو ذرّ عليه شارق نهار، و ما اعتقبت عليه أطباق الدياجير و سبحات النور، و أثر كل خطوة، و حس كل حركة، و رجع كل كلمة، و تحريك كل شفة، و مستقر كل نسمة، و مثقال كل ذرة، و هما هم كل نفس هامّة، و ما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرار نطفة، أو نقاعة دم و مضغة، أو ناشئة خلق و سلالة، لم يلحقه في ذلك كلفة، و لا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، و لا اعتورته في تنفيذ الأمور و تدابير المخلوقين ملالة و لا فترة، بل نفذهم علمه، و أحصاهم عدده، و وسعهم أعدله، و غمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله‏ (الخطبة 89).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 291

ذلك و لقد

خرق علمه باطن غيب السترات، و أحاط بغموض عقائد السريرات، (106)-

«كل سر عنده علانية، و كل غيب عنده شهادة» (107).

و ترى أنها تنسخ الأولى لمكان‏ «خَفَّفَ اللَّهُ»؟ و الحكمان تابعان لموضوعيها و هما القوة و الضعف في الإيمان، فلا نسخ- إذا- و إنما هو التخفيف الأحيائي حين يفقد الموضوع الثاني شرط الأول، و لضعف الإيمان- بعد- مرزءته و مسئوليته‏ «1».

فالمسئولية العامة الهامة أولا و أخيرا هي‏ «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» حيث تعني إلى جانب القوات الحربية الظاهرة، قوات التصبّر و الإيمان و الفقه الباهرة، و لكي تتحقق- لأقل تقدير- المكافحة: لا غالب و لا مغلوب، و لكنه كفرض دائب: غالب و لا مغلوب، اللّهم إلّا إذا خرج عن المستطاع‏ «الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً».

و الأصل في النسبة هنا يتراوح بين عشر و نصف في قبيل الإيمان‏ «2» رعاية لمختلف حالات الضعف و القوة في مختلف المجالات، ثم الأصل الثابت الضابط في هذا البين واجب إعداد القوة قدر المستطاع فرادى و جماعات، و لكي يترجح كفة الإيمان و ضفته على ضفة الكفر بكفته، تترجح و لا تتأرجح، رغم الأقلية الدائمة لقبيل الإيمان، و الأقلية الفقيهة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع إلى حاشية (2) من ص (288)

(2)

نور الثقلين 2: 167 في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: أما علمتم أن اللّه عزّ و جلّ قد فرض على المؤمنين في أول الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولي وجهه عنهم و من ولاهم يومئذ دبره فقد تبوء مقعده من النار ثم حولهم رحمة منه لهم فصار الرجل منه عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفا من اللّه عزّ و جلّ للمؤمنين ففسح الرجلان العشرة.

و

في تفسير العياشي عن الحسين بن صالح قال: سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: كان علي (عليه السلام) يقول: من فر من رجلين في القتال من الزحف فقد فر من الزحف و من فر من ثلاثة رجال في القتال من الزحف فلم يفر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 292

الصابرة فيهم أنفسهم.

فآية العشرين- إذا- برزخ بين كونها منسوخة و ثابتة، فليست منسوخة بمعنى النسخ المصطلح حيث قد تفرض الملابسات الحربية و الإعدادات و الاستعدادات الإيمانية واجب غلبة المعشار من المؤمنين على الكافرين، و لا ثابتة على أية حال حيث سمح للنقلة إلى الصف حين يضعف المؤمنون في إيمانهم و صبرهم و فقههم رغم واجب الاستمرار في مثلث: الإيمان الفقيه الصابر.

ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى‏ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67).

«ما كان» هنا كما فيما أشبه تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي‏ «أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى‏» يأسرهم‏ «حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» إغلاظا على العدو و سيطرة عليه: «فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها» (47: 4).

فليس التكليف إذا رسوليا- فحسب- بل هو رسالي موجّه إلى كافة القيادات الحربية و القوات المسلحة الإسلامية، ألا يأسروا من عدوهم حتى يثخنوا في أرض المعركة، و يذلوا العدو، فهنا لهم أن يكون لهم أسرى، فالأسر قبل الغلبة ممنوع بأسره، و هو بعدها أسر بحصر علامة الغلبة، و تقليلا من قوات العدو، و لكنه قبلها اشتغال عن أصل الحرب فاشتغال للعدو و أكثر بها.

ذلك، فأما الذين يريدون عرض الدنيا العارض المعترض، فهم عاجلون في الآجل، فيأسرون استرقاقا و غنما قبل وصوله أجله، و فيه فت لعضد الحرب و ثلّم في صميم التصميم عليها، اشتغالا بأسرى و غنائم قد ينحي إلى أسرهم أنفسهم بحصرهم و غلبهم بعد ما غلبوا شيئا يسيرا دونما إثخان للعدو في أرض المعركة.

«تريدون» أنتم المستعجلون لأخذ الأسرى قبل أوانه، «عرض»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 293

«الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» فالأصل في الحرب هو الغلبة، و ليس الأسر و الغنم إلا بعدها و إلا فسوف تغلبون و كما حصل في أحد لما ترك الرماة قواعدهم ناحين منحى الغنائم و لمّا يحن حينها.

و هنا يبرز أن جماعة من المسلمين تطلبوا إلى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن يكون له أسرى و غنم قبل أن يثخن في الأرض بغية الحياة الدنيا، فاستأصلت هذه الآية تلك البغية الباغية عن كل الرسل و الرسالات، فاتهام النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه بتلك البغية اقتحام عليه بالتخلف عن السنة الرسالية الثابتة كضابطة، ثم:

لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (69).

«فِيما أَخَذْتُمْ» نص على أن جمعا منهم أخذوا أسرى و غنيمة قبل الإثخان في الأرض و كما حصل في أحد، و هنا «كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» دليل على أنهم كانوا لو لا كتاب من اللّه «لمسهم عذاب عظيم».

و هكذا نعلم أن أخذ الأسرى قبل الإثخان في أرض المعركة هو من كبائر المنهيات في شرائع اللّه كلها، حيث إن «ما كان- و- عذاب عظيم» شاهدان اثنان على أممية ذلك الحكم الحاسم في حقل الحروب.

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69).

«مِمَّا غَنِمْتُمْ» ليست لتختص بغنائم دار الحرب، مهما كان الدور هنا دورها،

«الحلال ما لا يعصى الله فيه، و الطيب ما لا ينسى الله فيه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 389 عن الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 294

ثم و هذه الخاصة هي الغنيمة المحلّلة الخاصة بما بعد الإثخان في الأرض، و أما الغنيمة قبل الإثخان فمحظورة غير محلّلة و من الغنيمة غير المحظورة إضافة إلى سائر غنائم الحرب أخذ الفداء من الأسرى و كما خيّر النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في آية محمد «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً» و ليس قتل الأسرى واردا في شرعة اللّه، بل هم داخلون بعد الأسر في مدرسة داخلية إسلامية هي بيوت المسلمين، يعاملون فيها كما يعامل سائر الأهلين ليلمسوا الخلق الإسلامية المجيدة فينجذبوا إليه، فرواية التخيّر في قتلهم أو فداءهم لا تصدّق، لا سيما و أنها تخالف التخير بين المن و الفداء، إذا فاللّه و رسوله من أمثال هذه الروايات براء! ذلك، و مما يشهد صراحا لحظر قتل الأسرى الخطاب التالي:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى‏ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70).

ف «الأسرى» هنا كل أسرى الحرب من كافة الكفار مشركين و أهل كتاب، قل لهم: «إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً» و هو نور الهدى الفطرية غير المستورة بعد، القابلة للاهتداء إلى الحق في هذه المدرسة الداخلية الإسلامية السليمة، مما يدل أن خيرا في قلوب الأسرى الكفار يبشرهم بخير من اللّه فكيف- إذا- يقتلون.

«خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ» هو الهدى و المال، فقد أخذت منهم أموال فيؤتيهم اللّه أموالا بعد إيمانهم هنا و في الأخرى، و أخذت منهم حريتهم الكافرة فيؤتيهم اللّه بعد إيمانهم حرية مؤمنة «وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير الفخر الرازي 16: 204 قال ابن عباس‏ نزلت هذه الآية في العباس و عقيل بن أبي طالب و نوفل بن الحرث. كان العباس أسرا يوم بدر و معه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس و كان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر فلم تبلغه التوبة حتى أسر فقال العباس: كنت مسلما إلا أنهم أكرهوني فقال (صلّى اللّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 295

ذلك، و من أدنى الخير في قلوبهم ألّا يحاربوا المسلمين بعد، فهم ضيوفهم في بيوتهم على كفرهم، فقد أوتوا خيرا مما أخذ منهم فلا يبتلون بعد بمزيد الكفر و الإثم بمحاربتهم.

فهم بعد أسرهم آمنوا أم لم يؤمنوا قد أوتوا خيرا مما أخذ منهم من أموال و حريات، و هذه طمأنة لهؤلاء الأسرى تخفيفا لهم عن عب‏ء الأسر و العسر إلى راحة و يسر مهما ظلوا كافرين.

و هنا «إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ» تعني أن كان في قلوبكم خير، فإن علم اللّه و الواقع هما سيان لا يتخلف أحدهما عن الآخر، فإنه بكل شي‏ء عليم، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء، بل هو أوسع من الواقع في كل حال حيث كان يعلم قبل حصوله كما يعلمه بعد زواله.

فهذه لمسة لقلوب الأسرى المنكسرة تحيي فيها الرجاء، و تطلق فيها الأمل، و تشيع فيها النور تعليقا بمستقبل هو خير مما مضى، انفتاحا لنور الإيمان بعد نير الإثخان، رحمة إسلامية سامية منقطعة النظير في تاريخ الإحسان بالإنسان في حالة الحصر و الأسر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و سلم): إن يكن ما تذكره حقا فاللّه يجزيك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، قال العباس: فكلمت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن يرد ذلك الذهب علي فقال: أما شي‏ء خرجت لتستعين به علينا فلا، قال: و كلفني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية و فداء نوفل بن الحرث فقال العباس تركتني يا محمد أتكفف قريشا فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة و قلت لها: لا أدري ما يصيبني فإن حدث بي حادث فهو لك و لعبد اللّه و عبيد اللّه و الفضل، قال العباس: و ما يدريك؟

قال: أخبرني به ربي قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق و أن لا إله إلّا اللّه و إنك عبده و رسوله و اللّه لم يطلع عليه أحد إلا اللّه و لقد دفعته إليها في سواد الليل و لقد كنت مرقابا في أمرك فأما إذا أخبرتني بذلك فلا ريب، قال العباس: فأبدلني اللّه خيرا من ذلك، لي الآن عشرون عبدا و إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفا و أعطاني زمزم و ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة و أنا انتظر المغفرة من ربي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 296

فلا يعني استبقاء الأسرى بأيدي المسلمين في شرعة الإسلام تسخيرهم استغلالا و استذلالا لهم انتقاما، و إنما يعني ليلمس قلوبهم مكامن الخير و الرجاء و الصلاح فالإصلاح، و ليوقظ في فطرهم أجهزة الاستقبال للهدى في مدرسته الداخلية العالية.

و هنا «الأسرى» لا تختص بآسرة القرابة مهما نزلت بشأن بعض منهم‏ «1»، حيث النص ليس ليختص ببعضه، إنما هو «الأسرى» الشاملة لكل أسرى الحرب الإسلامية على مدار الزمن الإسلامي إلى يوم الدين.

هنا، و على ضوء الآيتين (70- 71) ينقسم الأسرى إلى من يعلم اللّه فيهم خيرا و من يريدون الخيانة، و الأسر للأولين خير لهم إذ «يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ» فقد أخذت عنهم الحرية في الكفر و غنائم، و خير منهما الحرية في الإيمان و أموال تؤتى لهم في حقل الإيمان، على ضوء التربية المتواصلة في المدارس الداخلية الإسلامية.

ثم الأسر للآخرين صد عن مواصلتهم في محاربة المسلمين‏ «وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ» أسرهم‏ «فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ» و الإمكان منهم في أسرهم أمكن منه قبل أسرهم.

و هكذا يعامل الإسلام مع الأسرى رعاية لمصلحة الجانبين، حتى بالنسبة لمن يريدون الخيانة حيث يصد عليهم سبيل الخيانة الجاهرة، و يمكن منهم حين تظهر منهم الخيانة، و من الطبيعي أن الخيانة على هذه الرقابة المحلّقة البيتية، و على ضوء التربية الإسلامية المتواصلة، هي أقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 168 في قرب الإسناد للحميري عن أبي جعفر عن أبيه (عليهما السلام) قال: أتي النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بمال فقال للعباس أبسط ردائك و خذ من هذا المال طرفا فبسط ردائه فأخذ منه طائفة ثم قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): هذا من الذين قال اللّه تبارك و تعالى‏ «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى‏.».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 297

بكثير من الخيانة في حرية الكفر بجوه و عند أهليه.

و هنا إجابة عن سؤال: كيف يسمح الإسلام أو يفرض استرقاق الأحرار مهما كانوا من الكفار فضلا عن المسلمين؟

نقول: لا يعني الاسترقاق إسلاميا إلّا الاسترفاق للطرفين، لهم أنفسهم لكيلا يستمروا في حربهم إذا ظلوا في أمة الكفر، و للمسترقين، علّهم في الحياة المنزلية الإسلامية ينتبهوا فيصبحوا مسلمين، أم يقل ضلالهم عما كان بما قرر من حسن المعاملة معهم.

و هنا نسأل ما هو قضية العدل و الفضل من قبل الجيش الغالب لمن غلبوا؟ هل يتركهم كما هم دون نيل من أنفسهم و أموالهم و قواتهم فيرجعوا لجديد الحرب و علّها أقوى مما كان و أغوى؟

أم يأخذوا منهم أسرى رجالا و نساء ثم يبيدوهم، أو يسجنوهم، أو يعطوهم كمال الحرية الطليقة في الوسط الإسلامي، و هذا ثالوث لا يرضاه العدل الإسلامي و مصلحية الحفاظ على الأصلح، فالإبادة مع رجاء الإصلاح ظلم، و السجن تعطيل للطاقات دونما مصلحة، إلا ثقلا و حملا على بيت مال المسلمين، و ضغطا على الأسرى فيرجعون إلى كفر أقوى و عداء أعدى و أغوى، و إعطاء الحرية لهم سماح للإفساد في الوسط الإسلامي و هو أخطر من بقاءهم بين أهليهم.

و هنا طريقة خامسة هي المثلى، و الصالحة للأسرى و الوسط الإسلامي، هي فرض الثقافة الصالحة في المدارس الداخلية الإسلامية و هي بيوت المسلمين الذين يسترقون هؤلاء الكفار، ففيها يغربلون فيقتسمون إلى مؤمنين أم قريبين للإيمان: «إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 298

خَيْراً»، أم يظلوا كفارا معاندين- لأقل تقدير-: «وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ».

ففي العشرة الإسلامية السليمة، الخليقة البارعة، إن فيها لتأثيرا عظيما في الأكثرية الساحقة من الكفار الأسرى، حيث يعاملون في هذه المدارس الداخلية كما يعامل مع سائر الأهلين بكل حنان و محبة، في رعاية و رقابة كاملة شاملة.

ذلك، و لما تخرجوا مثقفين بالخلق و العقيدة و الأعمال الإسلامية فهنا يأتي دور تحريرهم فرضا أو ندبا حسب مختلف المناسبات و الملابسات، و منها فرض الزكاة و سائر الإنفاقات و يجمعها النص: «وَ فِي الرِّقابِ» و كذلك في ديات و كفارات.

فلا يعني الاسترقاق في النظام الإسلامي عبودية إنسان لإنسان، و إنما هو النظام الإجباري الثقافي الصالح في هذه المدارس الداخلية الصالحة، سردا للثقافات و طردا للجهالات، و لذلك لا يسمح لأي حرّ أن يبيع نفسه، و إنما يسمح لاسترقاق أسرى الحرب استرفاقا بهم و بأنفسهم، صدا عن الشر و الضر، و حملا إلى الخير و البر.

و لأن للمالكين حقوقا على هؤلاء الرقيق أولا و أخيرا، فلهم من الناحية الاقتصادية حق الإبقاء عليهم دون تحرير و إن تحولوا مسلمين، اللّهم إلا فرضا أو ندبا في مواردهما المسرودة في الكتاب و السنة.

ذلك، و من المساحة الإسلامية التسوية في الحاجيات المعيشية بين الرقيق و سائر الأهلين، ففي حقل الإحسان: «وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ الْجارِ ذِي الْقُرْبى‏ وَ الْجارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ» (4: 36).

ثم إذا آمنوا يرغب في زواجهم: «وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى‏ مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» (24: 32). كما و ينهى عن ظلمهم فيما

يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 299

و يخاطب صاحبا له عيّر مسلما بأنه ابن أمه: «أعيرته بأمه؟ إنك امرء فيك جاهلية، إخوانكم خولكم- عبيدكم- جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان إخوة تحت يده فليطعمه مما يأكل و ليلبسه مما يلبس، و لا تكلفوهم ما يفلهم فإن كلفتموهم فأعينوهم».

و

يسأله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عبد اللّه بن عمر قائلا: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كم نعفو عن الخادم إذا أساء؟ فصمت برهة ثم قال: أعفو عن الخادم كل يوم سبعين مرة.

و

قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «إذا أتى أحدكم خادمه بطعام فليجلسه و ليأكل معه، كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته».

فلا تعني شرعة الرق في الإسلام إلا التثقيف إجباريا للأسرى الكفرة في بيوت المسلمين، و إلا التجنب عن الفوضى السياسية و الدينية إن ظلوا أحرارا فأضلوا كما ضلوا.

ذلك، فالاستعباد في النظام الإسلامي لا يعني الاستبداد و الملكية الظالمة و سلب الحرية الصالحة، إنما يعني تحرير الإنسان الكافر من عبودية الأصنام و الطواغيت، كما أن المدارس الداخلية التي تسلب حرّية ليست بحريّة للإنسان لتعطيه حرّية هي له حريّة أن يتعرف إلى ما يصلح له و يصلحه.

أجل، و إن الرقية في الإسلام استعباد للّه خروجا عن عبودية العباد، و أحسن به حرية حريّة بالإنسان أن يخرج من ظلمات الجهالات و الرجعيات فيعيش عيشة عالمة عارفة حريّة في التدرج إلى مدارج الإنسانية العالية الغالية.

ذلك، في حين نرى من هؤلاء الناقدين على الاسترقاق في الإسلام، أنهم يسترقون و يستعبدون جماهير الضعفاء و المستضعفين أمما بأجمعهم، مسيطرين عليهم في كل نواميسهم بكل الأبواب السبع الجهنمية: استكبارا و استعمارا و استثمارا و استحمارا، و استبدادا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 300

استضعافا و استخفافا، إفضاء للمستضعفين عن كافة الميزات الإنسانية بل و الحيوانية دون أية إفاضة، بين إبادة لهم و تشريد و إجاعة و سائر ألوان الظلم الساحق الماحق.

ذلك، و هنا حل وسط لمشكلة الأسرى تحلها آية محمد: «فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها» (4).

فمثلث الملابسات الحربية، المركّز على‏ «فَشُدُّوا الْوَثاقَ» يقتضي إحدى هذه الزوايا الثلاث، فأول الأدواء لداء الكفر في الأسرى هو المنّ، أن تمنوا على جنود الكفر فتحرروا أسرى منهم علّهم يفيقوا عن غفوتهم، و ينتبهوا عن غفلتهم بما يرون فيكم من هذه السماحة المنقطعة النظير، و ذلك إذا لم يشكّل تحريرهم خطرا على الجماعة المؤمنة، و كما حصل في فتح مكة المكرمة بما

قاله الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «اذهبوا فأنتم الطلقاء»

بل و لم يأسرهم أو يحصرهم بعد الفتح المبين الأمين، لأنه محمد الأمين.

و ثانيها هو الفداء، أن تحرروهم بفدية نفسية من أسراكم عندهم، أم فدية مالية، رعاية لنفس الحائطة.

و ثالثها الاستمرار في أسرهم حين لا سبيل أصلح منه، سدا لكل ثغور الخطر، و تثقيفا لهم في المدارس الداخلية المنزلية.

ذلك، ففي مسبع الطرق عند إثخان العدو، هذه الثلاث هي المحبورة حسب الترتيب المصلحي، المركز على إصلاحهم و سد الإفساد منهم، و تلك الأربع محظورة إذا لا تأتى بخير إلا شرا و فسادا.

ذلك، و لكي يأمن خيانة جمع من الأسرى فلا يبادر ببادرة عاجلة فيهم ف:

وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71).

فالأسرى الخونة لا يفلحون أو يفلجون حيث يمكّن اللّه منهم فيمكّن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 301

من النقمة منهم‏ «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» بما يحكم «حكيم» فيما يحكم، و من علمه و حكمته أمر النصح بشأن الأسرى، باحتمال التأثير فيهم و فتح منفذ من الهدى إليهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى‏ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72).

هنا الولاية المتقابلة مفروضة بين المؤمنين المهاجرين بإيمانهم المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّه، و كذلك المؤدين و المناصرين لهم بإحسان، و هي في نفس الوقت غير مفروضة ككلّ بينهم أولاء و بين المؤمنين غير المهاجرين حتى يهاجروا، و هذه المهاجرة بطبيعة الحال هي المستطاعة غير المحرجة، فالمؤمنون الذين لا يهاجرون بإيمانهم في سبيل اللّه، تفضيلا لراحة الوطن و الشغل و المال و العيال على صالح الإيمان‏ «ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا» و لكن مع الوصف‏ «وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» حيث الإنتصار للدين فرض المؤمنين على أية حال، «فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» لهم أولاء اللّهم‏ «إِلَّا عَلى‏ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ» فلا تنصروا هؤلاء المؤمنين غير المهاجرين عليهم فيما فيه نقض ميثاق اللّهم إلا ما فيه نقض إيمان أو نقصه، إذ لا يصح ميثاق بين المؤمنين و الكفار فيه نقض أو نقص للإيمان‏ «وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

ذلك، فلا استنصار لهم فيه واجب النصر فيما يخالف صالح الميثاق كأن يستنصروهم في حرب بادءة من المستنصرين، و أما الحرب المعتدية المفروضة عليهم من الكفار فليست النصرة فيها مما يخالف الميثاق، إذ إن ميثاق متاركة الحرب و عدم المهاجمة طليقة بالنسبة لكل المسلمين، و لا يحق لجماعة من المسلمين أن يعاهدوا محاربهم في متاركة حرب خاصة بينهم، حتى إذا حاربوا سائر المسلمين كانت نصرتهم باستنصاركم مخالفة لذلك الميثاق.

فا الإستنصار في الدين يفرض النصرة على أية حال، و قد يصح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 302

القول- إذا- إن الاستثناء في‏ «إِلَّا عَلى‏ قَوْمٍ» منقطع عن المستثنى منه‏ «اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ» فإذا كان الإستنصار في الدين فالنصرة محتمة على أية حال، و إذا لم يكن في الدين فلا نصرة فيما يخالف الميثاق.

ذلك، و ليست المهاجرة المأمور بها في القرآن لتختص بزمن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإن كل الزمن هي زمن الرسول في تحقيق رسالاته كلها.

أفترى‏ «قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها» (4: 97) ردا على‏ «كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ» تختص بالمهاجرة زمن الرسول؟

و الآية تندد بكافة المستضعفين المقصرين في ترك المهاجرة بإيمانهم.

فلا يتبلور الإيمان بشروطه و ظروفه و معداته إلا بالحركة المهاجرية، أن يهاجر المؤمن بإيمانه، حفاظا عليه، أم دعوة أوسع مما فيه إليه.

و ترى ما هي هذه الولاية المثبتة بالمهاجرة الإيمانية، المنفية في غير مهاجرة؟ هل هي ولاية المحبة و الإيمان‏ «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (9: 71)! أم ولاية النصرة و الأمان؟ «وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ»! إنها بعد ما لم تكن من هاتين، هي ولاية الوراثة إذ كانت قبل الهجرة بالإيمان، و بعدها بالهجرة و الإيمان، و من ثم ثبتت بأولي الأرحام في حقل الإيمان كما فصلناها في آيات الميراث.

فقد اختصت ولاية الميراث هذه بالمهاجرة ترغيبا فيها و ترعيبا عن تركها و من ثم تركزت و ثبتت في أولي الأرحام كما هنا و في آية النساء «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 205- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) آخى بين المسلمين من المهاجرين و الأنصار فآخى بين حمزة بن عبد المطلب و بين زيد بن حارثة و بين عمر بن الخطاب و معاذ بن غراء و بين الزبير بن العوام و عبد اللّه بن مسعود و بين أبي بكر و طلحة بن عبيد اللّه و بين عبد الرحمن بن عوف و سعد بن الربيع و قال لسائر أصحابه: تآخوا و هذا أخي يعني علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: فأقام المسلمون على ذلك حتى نزلت سورة الأنفال و كان مما شدد اللّه به عقد نبيه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قول اللّه تعالى: إن الذين آمنوا و هاجروا فأحكم اللّه تعالى بهذه الآيات العقد الذي عقد رسول اللّه (صلى اللّه عليه-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 303

و ذلك بعد فتح مكة إذ لم تبق للمهاجرة دور حتى تدور معها الوراثة.

ذلك، و الإستنصار في الدين كما المحبة فيه لهما دور ثابت جلي في حقل الإيمان و ان لم يهاجر المؤمن، اللّهم إلّا على قوم بينكم و بينهم ميثاق فليس هنا على المؤمنين المهاجرين أن ينصروا المؤمنين غير المهاجرين في مال و ما أشبه، و أما في الدين فهو ثابت لا مردّ له، حيث النصرة الدينية لا ينقضها أو ينقصها ميثاق، بل و لا يعقد ميثاق يناحر واجب النصرة في الدين، حيث الدين ليس لينقض نفسه أو ينقص من نفسه بإقرار قرار يعارضه.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ (73).

هنا موالات الكافرين و هناك موالات المؤمنين و بينهما برزخ الموالاة بين المؤمنين المهاجرين و غير المهاجرين، و كل ذلك حسب العقيدة و العملية الطالحة أو الصالحة أو العوان بينهما، و هنا «إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» في كل هذه‏ «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ» إذ يخرج عن الإسلام غير المهاجرين الذين هم من المسلمين مهما قصروا في الهجرة، و هذه فتنة و فساد كبير، كما «و إن لم تفعلوا» في ولاية الميراث ما أمرتم به‏ «تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ» لمكانة المهاجرة الهامة قبل الفتح، مهما اختلف فساد عن فساد قضية مختلف التخلفات عن هذه الفروض.

هذا، فضمير الغائب في‏ «إِلَّا تَفْعَلُوهُ» راجع إلى كل ما مضى من أمر أو نهي في حقل الولاية و الميثاق و النصرة، و لا سيما استنصار المؤمنين غير المهاجرين في الدين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) بين أصحابه من المهاجرين و الأنصار يتوارثون الذين تآخوا دون من كان مقيما بمكة من ذوي الأرحام و القرابات فمكث الناس على ذلك العقد ما شاء اللّه ثم أنزل اللّه الآية الأخرى فنسخت ما كان قبلها فقال: و الذين آمنوا من بعد و هاجروا و جاهدوا معكم فأولئك منكم و أولوا الأرحام و القرابات و رجع كل رجل إلى نسبه و رحمه و انقطعت تلك الوراثة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 304

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (74).

فالذين لم يهاجروا من المؤمنين أو لم يأووا و ينصروا فما أولئك بالمؤمنين حقا مهما كانوا من المؤمنين، ثم:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (75) فالإيمان و المهاجرة و المجاهدة في سبيل اللّه هي الإيمان حقا من قبل و من بعد، ثم‏ «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ» من هؤلاء المؤمنين حقا «بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ»- «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى‏ أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً».

فهنا و في النساء نسخت آية «أُولُوا الْأَرْحامِ» آيات الميراث بالأخوة و المهاجرة الإيمانية، فقد كان الميراث قبل الهجرة بالأخوة الإيمانية، ثم بدل بعد الهجرة بالمهاجرة مع الإيمان، ثم بعد فتح مكة بدل بالأرحام مهما بقيت الأخوة الإيمانية في الوارث على حالها و لكن شرط أن تكون في حقل الأرحام الأقرب فالأقرب إلى الميت‏ «1» و

قد يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «لا هجرة بعد الفتح»

إذ أصبحت مكة المكرمة بعد الفتح دار الإسلام، و لكن بقيت الهجرة- على طول الخط- من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام لها أحكامها إلّا ما يستثنى.

و هنا بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام و بعد فتح مكة المكرمة يعود الميراث إلى أولوية أولي الأرحام داخل النطاق الإسلامي العام، إلغاء شرط المهاجرة إذ لم يبق لها دور أم مضى دوره الهام، و كذلك شرط المجاهدة في سبيل اللّه، حيث يلبي تركيز الميراث على الأرحام جانبا فطريا عريقا عريفا في كل الحقول و العقول، فما دامت لا تعارض تلبية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 207- أخرج الطيالسي و الطبراني و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: آخى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بين أصحابه و ورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ» فتركوا ذلك و توارثوا بالنسب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 305

الفطرة أهم منها من تكاليف الكيان الإسلامي، فالفطرة تلبّى دون معارض.

ذلك، و في واجهة أخرى لآية «أُولُوا الْأَرْحامِ» و هي ولاية الأمر كما فصلناها على ضوء آية النساء نجد هذه الولاية ناصة خاصة في الأئمة الاثنى عشر (عليهم السلام).

و من ذلك‏

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) حصن الله» «1»

و

«هو الصراط المستقيم» «2»

و من القول الثابت ولاية علي (عليه السلام) «3» و

إن الناس لا يضلون و لا يهلكون و هم في ولاية علي (عليه السلام) «4»

و

«من لم يوال عليا لم يشم رائحة الجنة» «5»

«فليتمسك بولاية علي (عليه السلام)» «6»

و

«أوصي من آمن بي و صدقني من جميع الناس بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام)» «7»

و

«ولايته ولايتي و ولايتي ولاية الله» «8»

و

«تمام دين الله ولاية علي (عليه السلام) بعدي» «9»

و

«من لقى الله و هو جاحد لولاية علي لا يقبل الله من أعماله شيئا» «10»

و هو

«إمام أوليائي» «11»

و

«إمام أولياء ربي» «12»

«علي ولي الله» «13»

و

«ولي رسول الله» «14»

و

«ولي كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 7: 123 و 14: 522.

(2) المصدر 7: 125 و 14: 487.

(3) المصدر 14: 402.

(4) المصدر 16: 439.

(5) المصدر 7: 177- 178 و 17: 183 و 21: 361- 362.

(6) المصدر 4: 331 و 5: 108- 111 و 7: 386.

(7) المصدر 6: 435- 436 و 16: 619- 620 و 21: 313- 314.

(8) المصدر 2: 335 و 6: 436 و 17: 96- 97، 322 و 7: 122 و 16: 619 و 21: 360.

(9) المصدر 5: 35.

(10) المصدر 6: 409.

(11) المصدر 20: 246، 343- 344 و 15: 81- 83، 85، 86- 87، 190.

(12) المصدر 20: 320، 341، 344.

(13) المصدر 4: 128- 129، 130، 144- 148، 287، 281، 357، 489 و 5:

4 و 6: 442 و 7: 385 و 15: 88- 92 و 20: 250- 251، 328، 391، 435- 436.

(14) المصدر 4: 64- 65، 131، 134، 330، 357 و 15: 114، 123 و 17: 307-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 306

مؤمن» «1»

و

«من كنت وليه فعلي وليه» «2»

«من كنت نبيه فعلي وليه» «3»

«فهو أولي الناس بكم بعدي» «4»

و

«من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه» «5»

و

«من آمن بي فليتول عليا و ذريته» «6»

و

«من كنت مولاه فعلي مولاه» «7».

سورة التوبة مدنية و هي‏

[سورة التوبة (9): الآيات 1 الى 16]

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (2) وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِي‏ءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (3) إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (6) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى‏ قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (8) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (9) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10)

فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (16)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و 20: 345- 347.

(1). المصدر 4: 79، 99، 121، 135- 139، 230، 277، 330- 331، 358- 359، 387 و 5: 35، 37، 41- 42، 58، 98، 288، 304، 309، 15:

92- 114 و 16: 151- 152، 165 و 20: 348، 362، 553، 494.

(2) المصدر 4: 437 و 6: 369- 380 و 17: 325 و 16: 577- 578، 584 و 20:

353، 356 و 21: 398.

(3) المصدر 6: 380.

(4) المصدر 15: 124- 125 و 4: 388.

(5) المصدر 2: 361.

(6) المصدر 6: 436 و 17: 96- 97، 322 و 21: 359- 360.

(7) المصدر 2: 426- 465 و 3: 322- 327 و 4: 292 408- 410، 437- 443، 447- 450 و 5: 43، 60، 72، 77، 80، 89، و 6: 225- 304 و 16 559- 587 و 21: 1- 93.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 309

إنها «سورة التوبة» و البراءة، براءة ببازغة البراءة فيها «مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» و توبة أمرا لهم و لأضرابهم بها، و تقبّلا- بشروطها- لها، و لأن البراءة قد تبوء إلى التوبة، دون التوبة الصالحة حيث لا تبوء إلى براءة، فقد سميت بالتوبة تغليبا لها على البراءة، مهما بزغت تأليبا بالبراءة، و لذلك نراها تبدء دون بسملة، فإنها لكل أمر ذي بال و لا بال للبراءة إلا إذا آلت إلى توبة، و قضية الأمر بين أمرين ترك البسملة و أن تسمى بالتوبة و قد فعل.

نزلت تاسعة الهجرة بعد الفتح و بعد ما رجع النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من غزوة تبوك إنذارا للمشركين حتى يحسبوا كل حساباتهم بعد طائل هذه الهجرة الهاجرة و بعد عمرة الجعرانة.

و التشكيك في أنها و الأنفال سورتان أم واحدة لا مجال له، و قد جاءت فذّة بعد الأنفال في كافة القرائين‏ «1»، إضافة إلى العديد الجديد للآيات، و هو دليل سديد على استقلالها عن الأنفال، و هكذا تواتر الروايات عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أئمة أهل بيته (عليهم السلام) بصيغة «سورة التوبة» أو «البراءة» «2» و لا تسمى شطر سورة سورة.

و قد أصفق الفريقان‏ «3» دون اختلاف على نقل و تصديق رواية البراءة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 3: 208 عن عسعس بن سلامة قال قلت لعثمان يا أمير المؤمنين ما بال الأنفال و براءة ليس بينهما «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» قال: كانت تنزل السور فلا تزال تكتب حتى تنزل‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» فإذا جاءت‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» كتبت سورة أخرى فنزلت التوبة و لم تكتب‏ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» و فيه عن أبي عطية الهمداني قال كتب عمر بن الخطاب تعلموا سورة براءة و علموا نساءكم سورة النور.

(2)

المصدر أخرج الطبراني في الأوسط عن علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): المنافق لا يحفظ سور هود و براءة و يس و الدخان و عم يتساءلون.

(3) قد أخرج حديث البراءة فيمن أخرج- أن عليا (عليه السلام) هو المبعوث باذان البراءة- ثلاث و سبعون من أئمة الحديث و حفاظه بعدة طرق ذكرهم العلامة الاميني في الغدير كما يلي: ثم و آخرون ذكرهم في ملحقات إحقاق الحق (5: 368- 468) و (16:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 310

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

221- 236 و 2: 62 و 3: 427 و 14: 644) مما يبلغهم إلى نيف و مائة:

1- أبو محمد إسماعيل السدي الكوفي المتوفى (128) 2- ابن هشام البصري (218) 3- محمد بن سعد الزهري (230) 4- الحافظ أبو بكر ابن أبي شيبة العبسي الكوفي (235) 5- الحافظ أبو الحسن ابن أبي شيبة العبسي (239) 6- الإمام أحمد بن حنبل (241) 7- الدارمي صاحب السنن (255) 8- ابن ماجة صاحب السنن (273) 9- الترمذي صاحب الصحيح (279) 10- ابن أبي عاصم الشيباني (287) 11- النسائي صاحب السنن (303) 12- محمد بن جرير الطبري (310) 13- ابن خزيمة النيسابوري (311) 14- النيسابوري صاحب المسند (316) 15- البغوي صاحب المصابيح (317) 16- أبي حاتم التميمي (327) 17- ابن حبان التميمي (354) 18- الطبراني (360) 19- أبو الشيخ (369) 20- الدار قطني (385) 21- الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك (405) 22- ابن مردويه (416) 23- أبو نعيم الإصبهاني (430) 24- البيهقي صاحب السنن (458) 25- ابن المغازلي (483) 26- البغوي (516) 27- النسفي السمرقندي (537) 28- جار اللّه الزمخشري (538) 29- القرطبي صاحب التفسير (567) 30- موفق بن أحمد الخوارزمي (568) 31- ابن عساكر (571) 32- الأندلسي (581) 33- الإمام الرازي (606) 34- أبو السعادات ابن الأثير الشيباني (606) 35- أبو الحسن ابن الأثير الشيباني (630) 36- ضياء الدين المقدسي (643) 37- النصيبي (652) 38- ابن الجوزي (654) 39- ابن أبي الحديد (655) 40- الكنجي (658) 41- البيضاوي (685) 42- محب الدين الطبري (694) 43- إبراهيم الحموي (722) 44- التبريزي صاحب مشكاة المصابيح (737) 45- علي بن محمد الخازن صاحب تفسير الخازن (741) 46- أبو حبان الأندلسي صاحب التفسير (745) 47- الذهبي (748) 48- النيسابوري صاحب التفسير (748) 49- ابن كثير الدمشقي (774) 50- الهيثمي (807) المقريزي (845) 52- العسقلاني (852) 53- الصباغ المكي (855) 54- العيني (855) 55- السخاوي (902) 56- جلال الدين السيوطي (911) 57- القسطلاني (923) 58- الشيباني (944) الديار بكري صاحب تاريخ الخميس (966) 60- ابن حجر الهيثمي (974) 61- القرشي الهندي (975) 62- المناوي (1031) 63- العيدروس الحسيني (1041) 64- أبا كثير المكي (1047) 65- الزرقاني (1122) 66- البدخشي (1122) 67- الصنعاني (1182) 68- محمد بن الصبان (1206) 69- الشوكاني (1250) 70- الآلوسي صاحب التفسير (1270) 71- القندوزي (1293) 72- أحمد زيني دحلان (1304) 73- السيد مؤمن الشبلنجي صاحب نور الأبصار (1304).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 311

حيث يبعث رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالعشر الأولى من آي البراءة مع أبي بكر أذانا من اللّه تعالى و منه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى أهل مكة بما فيها من الأحكام المحدّدة إياهم، المهددة لهم، ألّا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا،

فلما غادر أبو بكر المدينة إلى مكة دعى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عليا فقال: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه و رجع أبو بكر فقال: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نزل فيّ شي‏ء؟ قال: لا، و لكن جبرئيل جاءني فقال:

لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك‏ «1»-

أجل-

فلما غادر أبو بكر المدينة إلى مكة جاء جبرائيل الأمين إلى الرسول الأمين (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قائلا: إن العلي الأعلى يقرؤك السلام و يقول لك يا محمد!: لا يؤدي عنه إلا أنت أو رجل منك- فابعث عليا (عليه السلام) ليتناول الآيات فيكون هو الذي يقرء الآيات، يا محمد! ما أمرك ربك بدفعها إلى علي و نزعها من أبي بكر سهوا و لا شكا و لا استدراكا على نفسه غلطا، و لكن أراد أن يبين لضعفاء المسلمين: أن المقام الذي يقومه أخوك علي لن يقومه غيره سواك يا محمد، و إن جلت في عيون هؤلاء الضعفاء مرتبته من أمتك‏ «2».

«فلما رجع أبو بكر إلى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) جزع- يبكي- «3»» و قال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إنك أهّلتني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج عبد اللّه بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) دعى أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال لي أدرك أبا بكر و رواه أنس و سعد بن أبي وقاص و أبو هريرة و ابن عمر و أبو سعيد الخدري و أبو رافع و ابن عباس و جابر و عروة.

(2) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) البحار 35: 297 ح 21 و لقد أخرج حديث البراءة (73) من الحفاظ و أئمة الحديث كما في الغدير (6: 338- 355).

(3) أخرجه ابن عساكر باسناده عن الحرث بن مالك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 312

لأمر طالت الأعناق فيه فلما توجهت رددتني عنه؟ فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): الأمين هبط إلي عن اللّه عزّ و جلّ أنه «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك و علي مني و لا يؤدي عني إلا علي» «1».

و جملة

المروي عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في سبب عزله أبا بكر عن هذه المهمة التي تمد إليها الأعناق جوابا عن سؤاله: هل نزل في شي‏ء؟ أنه: «لن تؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» «2».

«و لكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» «3».

«إنه لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني» «4».

«إنه لا ينبغي أن يبلغ عني إلا رجل من أهلي» «5» «من أهل بيتي» «6».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه الطبري و البلاذري و الترمذي و الواقدي و الشعبي و السدي و الثعلبي و الواحدي و القرظي و القشيري و السمعاني و أحمد بن حنبل و ابن بطة و محمد بن إسحاق و أبو يعلي الموصلي و الأعمش و سماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير و أبي هريرة و أنس بن أبي رافع و زيد بن نقيع و ابن عمر و ابن عباس.

(2) أخرجه عبد اللّه بن أحمد في زوائد المسند و الحافظ أبو الشيخ و ابن مردويه و السيوطي في الدر المنثور 3: 209 و كنز العمال 1: 247 و الشوكاني في تفسيره 2: 319 و الرياض النضرة 2: 147 و ذخائر العقبى 69 و تاريخ ابن كثير 5: 38 و مناقب الخوارزمي 99 و فرائد السمطين للحمويني و مجمع الزوائد 7: 29 و شرح صحيح البخاري للعيني 8:

637 و وسيلة المال لابن كثير و شرح المواهب اللدنية للزرقاني 3: 91 و تفسير المنار 10: 157- أخرجوه عن علي (عليه السلام) عن طريق زيد بن يشيع.

(3) تفسير الطبري 10: 46 و تفسير ابن كثير 2: 333 و خصائص النسائي 2 و الأموال لأبي عبيد 165.

(4) مسند أحمد 1: 3 و ابن خزيمة و ابن عوانة و الدار قطني في الأفراد كما في كنز العمال 1:

246 و الكنجي في الكفاية 125 نقلا عن أحمد و أبي نعيم و ابن عساكر و ابن كثير في تاريخه 7: 357.

(5) الترمذي في جامعه 2: 135 و البيهقي في سننه 9: 224 و الخوارزمي في مناقبه 99 و ابن طلحة في مطالب السئول 17 و الشوكاني في تفسيره 2: 319 و ابن أبي حاتم و الحكم و ابن مردويه و البيهقي، و ابن حجر في فتح الباري 8: 256.

(6) رواه أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري بسند متصل عن أنس عنه (صلّى اللّه عليه و آله-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 313

«إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» «1».

«إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو علي» «2».

«لا يذهب بها إلا رجل هو مني و أنا منه» «3»- «علي مني و أنا من علي و لا يؤدي عني إلا أنا أو علي» «4».

ذلك، و في حوار بينه و بين الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في سبب عزله و انتصاب علي (عليه السلام)

يقول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «كيف تؤديها و أنت صاحبي في الغار» «5»

لا! أنت صاحبي في الغار و لا يؤدي عني إلا أنا أو علي، مما يحث على التساءل كيف أخره صحبته مع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الغار! و أصحابه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و سلم) و أحمد بن حنبل من طرق جماعة منها عن أنس عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علي (عليه السلام) و جماعة آخرين.

(1). رواه محمد بن جرير الطبري بسند متصل إلى حارث بن مالك و أبو الصباح الكنائي عن الصادق (عليه السلام) و الحارث بن مغيرة النصري عنه و حريز عنه (عليه السلام) و أحمد بن حنبل في مسنده مرفوعا إلى أبي بكر عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الثعلبي في تفسيره و ابن مردويه عن أبي رافع عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن علي بن الحسين (عليهما السلام) و ابن مردويه و ابن حبان عن أبي سعيد الخدري عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(2) لقد تواتر النقل فيما يؤدي هذا المعنى أخرجه أرباب الصحاح و السنن، راجع (محمد و علي و بنوه الأوصياء) لنجم الدين الشريف العسكري رحمه اللّه.

(3) رواه ابن عباس و أخرجه كثير من أئمة الحديث و حفاظه في المسانيد بإسناد صحيح رجاله كلهم ثقات.

(4) مطالب السؤل 18.

(5) رواه حسن بن أشناس في كتابه بسند متصل عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) (البحار 35: 287، و أخرجه الطبري كما في فتح الباري للعسقلاني 8: 256 و يدل عليه من الروايات المتواترة ما

ورد في حديث البراءة من قول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أنت صاحبي في الغار، و رواه أكثر من روى حديث البراءة و نص الحديث هكذا، يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما كنت ترى أني مؤد عنك هذه الرسالة؟ أبى اللّه أن يؤديها إلا علي بن أبي طالب، كيف ذلك يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ كيف تؤديها و أنت صاحبي في الغار؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 314

ينادونه «صاحب الغار» كفضيلة كبرى و افتخار.

فهناك يختص الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) جدارة هذه الرسالة بنفسه أو عليّ لأنه منه، و هنا يقتسم صحبة بين الغار و بين أمثال هذه الرسالة التي لا يحملها إلا الرسول نفسه امن هو منه، أ فلا يدل ذلك على خلافته الرسالية بعده (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بعد ما هو خليفته معه؟! ذلك الأمر المؤكد لعلي (عليه السلام) أن يركب ناقته الغضباء و يلحق أبا بكر بسرعة فيجده في العرج أو في ذي الحليفة أو ضجنان أو جحفة، و حين يرجع أبو بكر غضبان أسفا يسمع الجواب كلمة واحدة:

«لا يؤدي عني إلا أنا أو علي» و ما أشبه، و أخرى‏

«كيف تؤدي عني و أنت صاحبي في الغار»

ثم و حين يعزل أبو بكر عن هذه الرسالة فمن هو أبو هريرة في روايته اليتيمة حتى يبلغ ذلك البلاغ؟! هذه و تلك مع هذه الملابسة الهامة هي ذات الدلالة العامة على محتد الإمام علي (عليه السلام) من الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أنه هو- فقط- المبلغ عنه بعده في حياته، أ فلا يكون مبلغا عنه- إذا- بعد مماته؟! و ترى ما هو القصد من‏

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «كيف تؤدي عني و أنت صاحبي في الغار»

أ لأن صحبته في الغار افتخار؟ فليؤد عنه لذلك! أم إنه عار؟ فلا يؤدي عنه.

و هل الجمع بين المنصبين محظور عدلا في التقسيم؟ فكيف جمع لعلي (عليه السلام) رسالة الأداء عنه إلى مقامه ليلة المبيت مقامه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو أعلى محتدا لصحبة الغار و كما يقول اللّه: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (2: 207) فالذي يضحي بنفسه إيّاه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) دونما تخوف، هو أحرى أن يؤدي عنه من صاحبه في الغار فرارا أم أنسا للغار على تخوّفه، و لا سيما في هذه الهامة العظيمة التي هي بحاجة إلى قوة في القلب و قمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 315

في الإيمان، فصاحب المبيت لم يخف عن الخطر الهاجم، و صاحب الغار خاف عن الخطر الناجم، و هو يرى كيف سدل ستار العنكبوت على باب الغار، و قد نهاه النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن حزنه: «لا تَحْزَنْ» ثم «أنزل‏ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» لا عليهما! و صاحبه كان أحوج إلى السكينة، و قد «أنزل‏ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (48:) 26) «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ» (9: 26) أو لم يكن صاحبه في الغار مؤمنا فتشمله السكينة النازلة على الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «إِذْ هُما فِي الْغارِ»؟ أم لم يكن بتلك الدرجة من الإيمان حتى يقرن بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في تلقي السكينة، إذا فليفرد بسكينة بعد الرسول كما قد أفرد المؤمنون بعد ما جمعوا معه‏ «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً» (48: 4)- «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» (48: 18).

إذا

«كيف تؤدي عنه و أنت صاحبي في الغار»؟

«إنما يؤدي عني أنا أو رجل مني»

-

«رجل هو مني و أنا منه»

و كما

تواتر عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «علي مني و أنا منه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

لقد تواتر عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذا الحديث بألفاظ عدة منها: «علي مني و أنا منه و لا يؤدي عني إلا أنا و علي» رواه حبشي بن جنادة و أخرجه عنه تسعة و ثلاثين من أعاظم المحدثين.

و الثاني حديث جابر رواه عنه جماعة من الأعاظم، و الثالث‏

حديث أبي رافع عن عشرة و نصه قال: لما قتل عليّ أصحاب الألوية يوم أحد قال جبرئيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إن هذه لهي المواساة فقال له النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إنه مني و أنا منه فقال جبرئيل: و أنا منكما يا رسول اللّه- أخرجه أحمد في المناقب،

و الرابع‏

حديث بريدة رواه عنه خمسة عشر من الأعاظم، قال فيه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): لا تقع في علي فانه مني و أنا منه و هو وليكم بعدي،

و الخامس‏

حديث عمران بن حصين عن إحدى و أربعين و فيه‏ ما لهم و لعلي إن عليا مني و أنا منه و هو ولي كل مؤمن بعدي،

و السادس‏

حديث زيد عن ستة و فيه قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام): أما أنت يا علي فختني و أبو ولدي و أنا منك و أنت مني،

و السابع‏

حديث هبيرة بن بريم عن علي (عليه السلام) عن ثمانية و فيه: و أما أنت يا علي فمني و أنا منك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 316

و لا يعني «رجل مني» فقط نسبة النسب أو السبب، فإن مكانة الرسالة الربانية لا تعرف نسبا و لا سببا و لا حسبا و ما أشبه، فإنما «مني» هو من عقيلتي الرسالية حتى يؤدي عني ما أنا مؤديه كرسول، و مما يشهد له‏

«و أنا منه»

و صحبة الغار- و لا سيما مع ذلك العار- ليست لتصحب معها الأداء عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، فمجرد

«لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني- أو علي- فإنه مني»

يكفي في أفضليته على أبي بكر و من سواه، فأما

«كيف تؤدي عني و أنت صاحبي في الغار»

فعلى كافة الاحتمالات تدل على عدم جدارته لذلك البلاغ‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و الثامن‏

حديث حسن بن علي عن ثلاثة و فيه: أما أنت يا علي فمني و أنا منك و أنت ولي كل مؤمن بعدي،

و التاسع‏

حديث عمر بن الخطاب عن ثلاثة و فيه قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام): أنت مني و أنا منك،

و قال عمر: توفي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو عنه راض، و العاشر حديث البراء عن تسعة و عشرين، ثم و حديث أبي ذر و أم سلمة و ابن عباس و غيرهم رواه عنهم جماعة.

ذلك و قد تواتر أيضا هذا الحديث ضمن حديث الأداء و منه حديث حبشي بن جنادة و البراء بن عازب و عمران بن حصين و أسامة بن زيد و أبي رافع و بريدة و علي (عليه السلام) و جابر و أنس و رافع بن أبي خديج و يتحد الكل في معنى‏

(علي مني و أنا من علي و لا يؤدي عني إلا أنا أو علي أم بإسقاط ذيله،

و القسم الأول ذكره المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي في ملحقات إحقاق الحق 5: 27- 317، و القسم الثاني ذكره في 16: 137- 167، و المجموع 73 صفحة فيها اسماء المخرجين و الرواة و الكتب و متون الحديث المتقاربة المعني.

(1). فهنا احتمالات تالية: ألا يحق الجمع بين منصبين اثنين لصحابي واحد؟ و الإمام جمع هنا بين هذا الأداء و أفضل من صحبة في الغار! أن صحبة في النار هي أفضل من هذا الأداء؟ و

«لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل من أهلي»

يفضل ذلك الأداء على كل المناصب، إن هذه الصحبة و هذا الأداء سيان؟ فلما ذا يحرم بعد نصبه عن منصب هو مثل صحبته في الغار! فلم يبق أن هذه الصحبة سلبت عنه تلك الجدارة، أو ليس الأجدر بالرسول في مثل تلك الرسالة في حياته أجدر به باستمرارية رسالته بعد مماته؟! أقول: و لا يعبأ باختلاف الروايات في أن المؤدي- بالأخير- كان هو أبا بكر أم و أبو هريرة بأمره، أم و حتى علي (عليه السلام) كان يؤدي تحت قيادته، حيث المتواتر الذي-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 317

و جوابا عن السؤال: كيف بعث أبا بكر أولا ثم عزله بعلي و هو «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏»؟ نقول: كان بعثه إياه و عزله كلاهما بوحي من اللّه، تدليلا على أنه لا يصلح مؤديا عنه بعد مماته حين لا يصلح أن يؤدي عنه في حياته، تذكارا للغافلين الذين سوف يرتئون خلافته لكونه صاحبه في الغار أم لكبر سنه و ما أشبه من حجج داحضة.

و قيلة البعض من المتعصبين لأبي بكر أن عادة العرب جارية في مثل هذه المواقف أن يبعثوا من أهليهم دون الغرباء، هي غيلة على الرسول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- لا شك فيه عزل أبي بكر، فكيف يأمر المعزول أبا هريرة أم عليا الذي هو المأمور بأخذ البراءة عنه؟

و لقد تشوشت الروايات قصدا أم إهمالا حتى يضل الحق في هذا البين، ففي عدد الآيات المبعوثة بين تسع و عشر و ست عشرة و ثلاثين و ثلاثا و ثلاثين و سبعا و ثلاثين و أربعين و تمام البراءة، اختلافا سداسيا فيها في عدد الآيات المبعوثة ثم في قصة بعث البراءة منها المتواترة أنه عزل و استرجع أبا بكر و بعث عليا مكانه فتساءل لماذا عزلتني فقال:

«لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني- أو علي- كيف تؤدي عني و أنت صاحبي في النار»،

و منها اليتيمة الدالة على أن أبا بكر ذهب لوجهه أميرا على الحاج، فأمر عليا و أبا هريرة أن يأذنا بما أرسل! خلافا للتواتر الأول! أجل، و كيف يبعث أبو بكر في هذه المهمة و هو صاحب الغار حيث هو المختار له في الأخطار، و كما تظافر النقل أن أبا بكر و عمر فرّا من بعض الغزوات كما عن تسعة من فطاحل العامة،

فقد روي‏ أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اختار أبا بكر و أعطاه الراية يوم خيبر فرجع منهزما، و في أخرى‏ أنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بعد فراره أختار عمر و هو اختار الفرار على القرار حتى فتح اللّه على يد الحيدر الكرار

و قد صرح بمثل ذلك جماعة من الأعلام مثل أبو داود الطيالسي في مسنده (8: 264) ينقل فرار عمر و عثمان، و الطبري في تفسيره (2: 199) ينقل فرار عمر في غزوة أحد و الهيثمي في مجمع الزوائد (9: 123) ينقل فرار أبي بكر و عمر و ان عمر كان يجبن أصحابه، و شارح المواقف (2: 475) ينقل فرارهما في غزوة حنين، و ابن قتيبة في كتاب المعارف (54) و الكاشفي في المعارج الركن الرابع (370) و الترمذي في المناقب المرتضوية (410) و المتقي الهندي في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد بن حنبل (44) ينقل فرارهما في غزوة خندق، و الطبري يحكي فرار عثمان في تفسيره (2: 203) و فرار عمر في غزوة خندق (2: 300).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 318

(صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه ترك أولا هذه العادة ثم عاد يحققها، و فيه تزييف لموقف الرسول و أبي بكر معا، تخطئة للرسول كيف بدأ بالغريب، و لأبي بكر كيف عزله بعد نصبه، ثم و لم تكن للعادات الجاهلية موقف في هذه الرسالة السامية حتى يوقف رسالة أبي بكر لها عن قصة البراءة، و قد كان ينسخ يوميا العادات الجاهلية و كما

قال يوم فتح مكة عند الكعبة المباركة: «ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت و سقاية الحاج»

ثم و لو كانت هي عادة عربية صالحة الإتباع في هذه الرسالة فلما ذا تناساها ثم ذكرها و فيه فضح أبي بكر على رؤوس الأشهاد، و لما يتساءل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا يسمع جوابا أمثال هذه المختلقات المتعصبة، بل هو كلمة واحدة

«لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني».

ذلك، و لأن المخرجين قصة حديث البراءة هم فوق التواتر طول القرون الإسلامية، و المخرج عنهم منهم علي (عليه السلام) و أبو بكر و ابن عباس و جابر بن عبد اللّه الأنصاري‏ «1» و أنس بن مالك و أبو سعد الخدري و أبو رافع و سعد بن أبي وقاص و أبو هريرة و عبد اللّه بن عمر و حبشي بن جنادة و عمران بن حصين و أبو ذر الغفاري، في المسانيد، و عشرات أضعافهم في المراسيل، فلا محيد- إذا- عن تصديقه و تقبّل معناه و مغزاه و لو كره الفاسقون.

و لقد ناشد الإمام علي (عليه السلام)- فيما ناشد- القوم حجاجا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري‏ أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حين رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب بالصبح فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره فوقف عن التكبير فقال: هذه رغوة ناقة رسول اللّه الجدعاء لقد بدا لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الحج فلعله أن يكون رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فنصلي معه فإذا علي (عليه السلام) فقال له أبو بكر: أمير أم رسول؟ قال: لا بل رسول أرسلني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ببراءة أقرؤها على الناس في مواقف الحج‏

أخرجه جماعة ذكرناهم فيما سبق من الهوامش.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 319

لإمرته بحديث البراءة دون نكير، و في حديث ابن عباس‏ «1» و أضرابه تصديقه، و كما تواتر- أيضا عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) حديث المناشدة يوم الشورى و سواه، فذلك إطباق من أئمة الإسلام و معظم الرواة و المصنفين و المفسرين على قصة حديث البراءة، فهم براء كلهم ممن تبرء من مضمونه.

و ذلك كله دليل على الهامة المتميزة لرسالة البراءة إلى المشركين، فما كانت هي رسالة يصح أو يسمح لحملها غير الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أو من هو منه، فمادة رسالة البراءة كانت أحكاما جديدة جادة لمّا تبلّغ إلى من يجب تبليغها إليه، و هذه تختلف عن الدعوة العامة إلى الإسلام، أو الكتابات المرسلة إلى الملوك و الرؤساء، فالفارق بينهما أن رسالة البراءة رسالة أصيلة غير مسبوقة بإعلام فهي من اختصاصات الرسول أو من هو منه، و تلك و ما أشبه هي رسالات عامة يحملها كل من يصلح لحمل الرسالات العامة المسبوقة بالإعلام، و لقد كفت «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» دلالة على ميزة رسالة البراءة هذه، و لا ينكرها إلا نكير عقله و ضميره.

على أية حال لقد أدى الإمام علي (عليه السلام) هذه الرسالة الهامة يوم الحج الأكبر، بازغا ب «بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» أذانا من اللّه و رسوله يوم الحج الأكبر «أَنَّ اللَّهَ بَرِي‏ءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ» مهددا إياهم بالعتل بعد الأشهر الحرم‏ «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

أخرج ابن عساكر باسناده من طريق الحافظ عبد الرزاق عن ابن عباس قال: مشيت و عمر بن الخطاب في بعض أزقة المدينة فقال: يا ابن عباس أظن القوم استصغروا صاحبكم إذ لم يولده أموركم، فقلت: و اللّه ما استصغره رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذ اختاره لسورة براءة يقرأها على أهل مكة، فقال لي: الصواب تقول و اللّه لسمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول لعلي بن أبي طالب: من أحبك أحب اللّه و من أحب اللّه أدخله الجنة مدلا (كنز العمال 6: 391 و شرح ابن أبي الحديد 3: 105).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 320

و من ذا الذي يجرأ على أداء هذه الرسالة في وسط من الإشراك- مهما فتحت مكة- دونما تخوف و مجارات إلّا الذي بات على فراش الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في وسط المشركين المهاجمين، دون الذي صاحبه في الغار عدة للفرار و هو مع ذلك خائف لحد يستحق النهي! تنزل هذه السورة قبل المائدة و بعد الفتح، معدة للمشركين أن يستعدوا للإسلام أو الاستسلام، بما تتضمن أحكاما نهائية في صلات و علاقات بين كتلتي الإيمان و الكفر، كما تضمنت تصنيف كلّ من الضّفتين.

فالسورة- إذا- ذات أهمية في بيان المنهج الحركي للإسلام، و التكتيكي لارتجاع عاصمة الإسلام كاملة بعد ما فتحت و بعد تأسيس دولته بعيدا عن العاصمة، و ذلك بكل حسم و مرونة، حسما في مجاله و مرونة في مجالته.

و هذه السورة بطبيعة حالها بعد الكل و قبل الأخيرة، هي في عرض الأحكام بين مرحلية و نهائية، مرحلية هي نهائية للمرحليات السابقة، و بدائية طليقة للمائدة.

نجد مقاطع ستة للسورة في دراسة عنها خاطفة، هي في الحق عرض لأخطر المواقف للدولة الإسلامية أمام أهليها بمختلف من فيها و ما فيها من أوساط حرجة مرجة لتخلخل جموع من مختلف الطوائف في هذا الدين الجديد، جادّين أم منافقين أم عوان بينهما.

في المقطع الأول- و هو ثمانية و عشرون من آيها- عرض لتحديد العلاقات النهائية و الوقائية بين المعسكر الإسلامي و جموع المشركين، فإنها قوية التحضيض و التأليب على قتالهم، لما في المرونة معهم عرونة للهيكل الإسلامي السامي.

و المقطع الثاني يضمن تحديدا و تجديدا للعلاقات النهائية بين المسلمين و أهل الكتاب بصورة عامة، من‏ «قاتِلُوا الَّذِينَ‏- إلى-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 321

فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ» (35).

فهي في مواجهة أهل الكتاب لما كان في نفوس مؤمنة من تهيّب و تردّد، و لا سيما الروم بما فيه من بأس و بؤس و سمعة تاريخية عريقة بين أهل الجزيرة.

و في المقطع الثالث و هو من الآية (36) إلى آية الغار (40) و النفر (41) يبدأ بالتنديد بالمتثاقلين المتكاسلين في الغزو، المتعاضلين عن واجب الدفاع و النضال بقية على الحوزة الإسلامية.

و في المقطع الرابع- و هي أطول مقاطعها- المستغرق زهاء نصفها، إلى‏ «وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ» عرض عريض لفضح المنافقين المتغلغلين في الصف الإسلامي بمختلف محاولاتهم و حيلهم المنافقة، تعريضا عريضا عليهم و تحريضا للمؤمنين أن يأخذوا حذرهم منهم، صونا عن تلاشي الهيكل الإسلامي بعد الفتح حيث عاد النفاق بعده بصورة أخرى متلفقة متلاحقة للأولى، فأصبح ركاما خطرا على الجماعة المسلمة.

و في المقطع الخامس تصنيف للجماعة المسلمة إلى درجاتها، مؤمنة مخلصة، إلى بسيطة، و إلى مسلمة غير مؤمنة مفلسة و إلى منافقة كالسة، و ذلك إلى آية الضرار و التقوى (108).

و المقطع السادس و الأخير يقرر طبيعة البيعة الإسلامية جهادا في سبيل اللّه، و واجب إتباع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، قائدا رسوليا للقوات المسلحة، و واجب المفاصلة مع المشركين و المنافقين.

ذلك، و الأحكام التي وردت في هذه السورة لحقل الجهاد و السياسة الإسلامية تجاه الأعداء، هي- بوصفها آخر ما نزل من هذه الأحكام- تمثل قمة الخط الحركي للمنهج الإسلامي.

فللحركة القرآنية ككلّ سمات و بصمات، كالواقعية الجديدة في منهجها، و الواقعية الحركية ذات المرحلية حسب مؤاتية الظروف و الملابسات، و أن هذه الحركة ذات البركة الدائبة، بوسائلها و مسائلها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 322

المتجددة الجادة، ليست لتخرج هذه الشرعة عن قواعدها الأساسية المحدّدة لها، و عن أهدافها المستمرة الثابتة المرسومة المرسولة فيها، و من ثم الضبط التشريعي الدقيق لكل العلاقات في مختلف الحقول بين الكتلة المسلمة و سائر الكتل.

فهذه قواعد أربع لصرح الإسلام، صارحة صارخة في كافة الميادين، و ثابتة لا تتزعزع.

ذلك، و في تقدمة ذلك الأذان البراءة إلى المشركين بعد الفتح و قبل حجة الوداع تعبيد لسبيل طهارة البلد الأمين عن هؤلاء المشركين، لكيلا يراهم المسلمون يؤدون المناسك الدخيلة الجاهلية مع المناسك الأصيلة الإسلامية، تخليصا لمناسك الإسلام بأصحابه، و تقليصا لمناسك الكفر و أصحابه، و كما

يروى عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» «1».

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1).

هذه «براءة» صارخة أيها المؤمنون «من اللّه» إخبارا و من «رسوله» إخبارا إلى إنشاء يعني أنها براءة مفروضة على الرسول، حاصلة بفرضها عليه قضية العصمة الرسالية، «إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أم «براءة» مبتدءة موصوفة ب «مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» و خبرها «إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ» و تنوين التنكير تهويل في هذه البراءة «براءة» حيث نقضوا عهودهم و ظاهروا عليكم، فليست البراءة هذه فوضى و من دون مبرر، إنما هي لنقضهم فنقصوا إذا من أصل المعاهدة «إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» «2» و

قد روي‏ أن النبي (صلى اللّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير في ظلال القرآن 4: 118.

(2) الدر المنثور 3: 211 عن الزهري في الآية قال: نزلت في شوال فهي الأربعة أشهر شوال و ذو القعدة و ذوا الحجة و المحرم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 323

و آله و سلم) لما خرج إلى غزوة تبوك و تخلّف المنافقون و أرجفوا بالأراجيف جعل المشركون ينقضون العهد فنبذ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) العهد إليهم‏ «1».

ذلك، و هذه البراءة التي من قضاياها ملاحقتهم و قتالهم أينما كانوا و أيان، ليست إلا بعد أربعة أشهر.

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (2).

سماح بعد البراءة أن يأخذوا حريتهم في مكة المكرمة و سواها خلال أربعة أشهر- فقط- و علّها «الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ»، شوال، ذوا القعدة، ذوا الحجة- محرم، فإنها الأربعة الحرم المعروفة الثابتة، مما قد يدل على أن هذه الآيات نزلت قبل شوال.

و لأن ذلك الأذان كان‏ «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» فقد تكون هذه الأربعة بادئة من يوم الحج الأكبر: الأضحى أم عرفة فعشرون من ذي الحجة، و تمام المحرم و صفر و ربيع الأول و عشرة من ربيع الثاني، فهذه أربعة أشهر؟ «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 217.

(2)

نور الثقلين 2: 182 عن تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن الفضل عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أمرني عن اللّه أن لا يطوف بالبيت عريان و لا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد هذا العام و قرأ عليهم «برائة» فأجل اللّه المشركين الذين حجوا تلك السنة أربعة أشهر حتى يرجعوا إلى مأمنهم ثم يقتلون حيث وجدوا،

و

فيه روى عاصم بن حميد عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: خطب علي (عليه السلام) و اخترط سيفه فقال: لا يطوفن بالبيت عريان و لا يحجن البيت مشرك و من كانت له مدة فهو إلى مدته و من لم تكن له مدة فمدته أربعة أشهر و كان خطيب يوم النحر فكان عشرون من ذي الحجة و محرم و صفر و شهر ربيع الأول و عشر من ربيع الآخر، و فيه عن العياشي عن زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (عليه السلام) مثله،

و

عنه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 324

إلا أن الأشهر الحرم المعروفة علّها هي المعنية بطبيعة الحال، ثم و لا يعبر عن أضغاث أيام من أشهر بأشهر! و ليس‏ «أَذانٌ مِنَ اللَّهِ» هو بداية الإعلان، إنما هو استمرارية البيان على رؤوس الأشهاد حتى لا تبقى أية حجة.

فقد يجوز أن آية «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» المحددة سيحهم المهددة إياهم قرأت عليهم قبل شوال أم أوله ليأخذوا عدّتهم إما إيمانا فأمانا أم سواه فسواه.

ثم قرأت آية الأذان يوم الحج الأكبر و هو على الأظهر يوم الأضحى أو عرفة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و سلم) من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة، قال: و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة و كانت سنة من العرب في الحج أنه من دخل مكة و طاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها و كانوا يتصدقون بها و لا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوبا و يطوف فيه ثم يرده و من لم يجده عارية و لا كرى و لم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عريانا

، فجاءت امرأة من العرب و سيمة جميلة فطلبت ثوبا عارية أو كرى فلم تجده فقالوا لها: إن طفت في ثيابك احتجت أن تتصدقي بها فقالت: كيف أتصدق و ليس لي غيرها؟ فطافت بالبيت عريانة و أشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها و الأخرى على دبرها و قالت شعرا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اليوم يبدو بعضه أو كله‏ |  | فما بدا منه فلا أحله‏ |

و كانت سيرة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قبل نزول سورة براءة أن لا يقابل إلا من قد قاتله و لا يحارب إلا من حاربه و أراده و قد كان أنزل عليه في ذلك‏ «فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» فكان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه و من لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم فتح مكة إلى مدة منهم صفوان بن أمية و سهيل بن عمرو فقال اللّه عزّ و جلّ: «براءة أربعة أشهر» ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد هذه أشهر السياحة عشرين من ذي الحجة و المحرم و صفر و شهر ربيع الأول و عشرا من ربيع الآخر،

فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى أبي بكر و أمره أن يخرج إلى مكة و يقرأها على الناس بمنى يوم النحر فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 325

و قد تقتضي قضية الحال في ذلك الإعلام و الأذان العام أن يكون يوم الحج الأكبر، حيث يجتمع فيه المشركون مع المسلمين من كل أنحاء الجزيرة- أم و سواها- دون أوّل رجب أم قبله، و لتتم الحجة على المشركين، فهذه الأربعة الحرم- إذا- هي غير الأربعة الشهيرة حيث يحرم فيها القتال، و قد يؤيده‏ «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» أولا منكرة، ثم و ظاهرها التتابع و لا تتابع بين الأربعة الشهيرة، و إن لحقتها «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ» حيث تعنيها منذ يوم الحج الأكبر.

و لأن «الشهر» هي حسب المتعود ثلاثون يوما، فالأربعة الحرم هنا مائة و عشرون يوما منذ عرفة أو الأضحى إلى العاشرة أو الحادية عشر من ربيع الثاني.

ثم الأربعة الحرم المعروفة لها حكمها على طول الخط لكافة المكلفين، دون هذه الأربعة الخاصة بذلك الموقف المخصوص بذلك الأذان.

إذا فالأرجح- على الأشبه- هو الأربعة الحرم البادءة- هنا- من يوم الحج الأكبر، دون الحرم العامة و هي «رجب- شوال- ذو القعدة- ذو الحجة».

ف «رجب» خاصة لخاصة العمرة و الثلاثة الباقية للحج، أم «المحرم» بديلا عن «شوال» و لكل رواية و على أية حال ف «تلك أربعة حرم» ظاهرة في المتواصلة و هي الأربعة الأخيرة.

فهذه الأربعة الحرم، أمان على طول الخط، اللّهم إلا للذين حاربوا فيها فواجب الدفاع قدره، و تلك أمان مؤقت لتلك الأربعة في تلك السنة الخاصة.

«فسيحوا» أيها المشركون الناقضون للمعاهدة «في الأرض»:

العاصمة و سواها حرما و سواه‏ «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» ثم‏ «وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» فيها أم في سواها «وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ» حيث لا يفلت عنه قالت و لا يفوت عنه فائت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 326

وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِي‏ءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (3).

تلك البراءة كانت موجهة- فقط- إلى المشركين الناقضين، و هذا الأذان إعلام عام «إلى الناس» موحدين و مشركين لكي يعرف كلّ واجبه و يحسب حسابه.

فما هو «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ»؟ «الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» علّه هو الذي بعد العمرة احتسابا لها بالحج الأصغر، و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: العمرة الحج الصغرى‏ «1»

، أم و لأن في ذلك الحج اشترك لمرة أخيرة المسلمون و المشركون معا «2»، ثم اختص الحج بالمسلمين على طول الخط.

و لأن الحج لم يسمّ بالأكبر إلّا هنا، ثم هو «الحج» مع العمرة في‏ «أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ» (2: 196) مهما كان‏ «حِجُّ الْبَيْتِ» (3: 97) و ما أشبه حيث تأتي دون عمرة تشملها معه.

إذا فالحج الأكبر قد يعني ذلك الحج المشترك بما فيه من موقف خاص و ملابسات هامة قد تنجر إلى حرب بين الفريقين، و يومه- ككل- يوم عرفة أو الأضحى‏ «3» و لكن من البعيد جدا أن يوصف الحج بالأكبر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ايات الأحكام للجصاص 3: 99.

(2)

نور الثقلين 2: 185 في العلل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) كنت أنا الأذان من اللّه و رسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ..

و إنما سمي الأكبر لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون و المشركون و لم يحج المشركون بعد تلك السنة.

(3)

المصدر (185) عن معاني الأخبار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) يقول: الحج الأكبر يوم النحر.

و في مفتاح كنوز السنة عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نقلا عن بخ- ك 58 ب 16، مس- ك 15 ح 435، بد- ك 11 ب 6، تر- ك 7 ب 110، ك 44 سورة 9 ح 3 و 4، عد- ج 2 ق 1 ص 132، حم- ثالث ص 473.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 327

لمشاركة المشركين فيه، إذا ففي منعهم بعد عامهم هذا يصبح الحج هو الأصغر، فالحج الأكبر هو الذي يقابل العمرة، و يومه البارز هو بين عرفة و يوم النحر، و لأن «الحج عرفة» و من فاتته فقد فاته الحج دون يوم النحر، فالأشبه أن‏ «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» هو عرفة.

هذا و قد سمي الإمام علي (عليه السلام)- بين أسماءه- بالأذان لأنه كان حامل ذلك الأذان كما في روايات عدة.

«فَإِنْ تُبْتُمْ» عن الإشراك باللّه توحيدا للّه‏ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» يقابل شرا لكم‏ «وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عن التوبة «فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» بإشراككم‏ «وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا» إشراكا و سواه‏ «بِعَذابٍ أَلِيمٍ» في الدنيا و الآخرة، و إذا كانت هذه بشارة لهم فما هو- إذا- إنذارهم؟

و ترى لماذا «رسوله» رفعا و هو معطوف على «اللّه» المنصوب ب «أن»؟

لأن «رسوله» جائز الوجهين أدبيا عطفا على المحل فرفعا أو اللفظ فنصبا، و الرفع أولى معنويا رفعا لساحة الربوبية في تلك البراءة، و جعلا لبراءة «رسوله» على الهامش و كما فصل «رسوله» عن اللّه بالخبر و ظرفه، لذلك فالأرجح هنا كما هو رفع «رسوله». فلا بد- إذا- من الاستكفاء بالقرآن:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و في تفسير الفخر الرازي 15: 221 يوم الحج الأكبر يوم عرفة و هو قول الشعبي و النخعي و السدي و إحدى الروايتين عن علي و قول المغيرة بن شعبة و سعيد بن جبير، و

عن علي (عليه السلام) أن رجلا أخذ بلجام دابته فقال ما الحج الأكبر، قال: يومك هذا

و

عن ابن عمر ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) وقف يوم النحر عنه الجمرات في حجة الوداع فقال: هذا يوم الحج الأكبر،

و

عن المسور بن مخرمة عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: خطب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عشية عرفة فقال: أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر.

و في ملحقات إحقاق الحق 427- 439- أخرج حديث الأذان لعلي (عليه السلام) عن ستة و أربعين من إخواننا السنة فراجعه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 328

و

«من استكفى بالله من القرآن من المشرق إلى المغرب كفي إذا كان بيقين» «1».

ذلك، و

حين يسأل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): حدثنا بما لنا فيه نفع، يقول: «إن أردتم عيش السعداء، و موت الشهداء، و النجاة يوم الحشر، و الظل يوم الحرور، و الهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن، و حرز من الشيطان، و رجحان في الميزان» «2».

و

«يقول القرآن- يوم القيامة لأهله-: أنا الذي أسهرت ليلك و أنصبت عيشك، سمعت الأذى و رجمت بالقول في، ألا و إن كل تاجر قد استوفى تجارته و أنا وراءك اليوم» «3».

و

«حملة القرآن، المخصوصون برحمة الله، الملبسون نور الله، المعلمون كلام الله، المقربون عند الله، من والاهم فقد والى الله، و من عاداهم فقد عادى الله» «4».

و

«إن أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النبيين و المرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم بأن لهم من الله لمكانا عليا» «5»

و

«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» «6».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مشكلات الأخبار (2: 260) عن أبي إبراهيم (عليه السلام).

(2) المصدر (9) عن معاذ بن جبل قال: كنا مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في سفر فقلت: حدثنا.

(3)

المصدر (10) عن الكافي 2: 436 عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: تعلموا القرآن فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق و الناس صفوف عشرون و مأة ألف صف، ثمانون ألف صف أمة محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أربعون صف من سائر الأمم.

(4) المصدر (25) الوسائل 4: 831- الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) في تفسيره عن آباءه عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

(5) المصدر (25) عن الكافي 2: 441 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

(6) المصدر (27) المستدرك 1: 288 عن شهر بن حوشب قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 329

و

آيات القرآن خزائن العلم فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها «1».

ذلك هو القرآن الذي نؤمر باتباعه على مدار الزمن، و ما أظلمه و أجهله من يفترى عليه التحريف و التجديف، و إليكم رواية عن عالمين علمين ينقلان قصة رثّة مزرءة عمن ألف كتابا حول تحريف القرآن و عوذا منه و من أضرابه باللّه ما أجهلهم و أغفلهم عن ناموس الإسلام و عصمته‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر (64) عن الكافي 2: 446 عن حفص بن غياث عن الزهري قال سمعت علي بن الحسين (عليهما السلام) يقول:

و

فيه (66) عن الشهيد الثاني في أسرار الصلاة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لابن مسعود: اقرأ علي، ففتحت سورة النساء فلما بلغت: «فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى‏ هؤُلاءِ شَهِيداً» رأيت عيناه تذرفان من الدمع فقال لي: حسبك الآن و قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم و لانت عليه جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرؤنه».

(2) أحدهما المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله، قال لي: إن المرحوم حيدر قلي خان المعروف ب «سردار كابلي» و هو من أعاظم العلماء الجامعين بين الدراسات الإسلامية و العصرية، طلب منه المغفور له المرجع الأعظم السيد البروجردي أن يأتي إلى قم ليستفاد منه في الحوزة حول العلوم العصرية و الكتب السماوية و ما أشبه فأجابه، و في يوم من أيامه الأولى أتى إلى بيتي، و لأنه كان من تلامذة الحاج ميرزا حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل، بهذه المناسبة سألته، ماذا حمل أستاذكم على تأليف كتابه: (فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب) الذي هو مزرءة مخجلة بالكتاب العزيز، و ذريعة للنقد و التهجم عليه من قبل المعاندين؟ فمكث هنيئة يبكي، فقلت له:

هل أسأت الأدب في سؤالي هذا؟ قال: لا، و لكن خطر ببالي خاطرة خطيرة مزعجة عن سبب تأليف هذا الكتاب، و هي أنني كنت ممن يساعد الشيخ في جمع المسانيد لكتابه:

مستدرك الوسائل، فإذا حضر سيد معمم هندي و سلم عليه و قال: أيها الشيخ الجليل هل كان اسم إمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام) في القرآن؟ قال: نعم و لكنهم حذفوه عنه، قال: أ فهكذا يظلم إمامنا و أنتم ساكتون؟ أترجّى منكم بكل إصرار أن تكتبوا لي كل يوم صفحة مما جرى على ضوء رواياتنا حول ما نقص عن القرآن حتى تثلج صدورنا بما كان-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 330

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فيه من فضائله (عليه السلام) و نزداد له حبا، فأجابه الشيخ و كان يأتيه كل يوم و يأخذ صفحة مما كان يجمع الشيخ من موارد التحريف و يستنسخها و يرد الأصل إليه حتى تم الكتاب باسم «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» ثم غاب و لم يرجع، و اتفق لي أنني راجعت السفارة البريطانية في بغداد لأخذ تأشيرة السفر إذ كانت العراق يومذاك تحت السلطة البريطانية، فرأيت واحدا من أعضاء السفارة ينظر إلي نظرة قاصدة متكررة، فأصبحت أنظر إليه و تلمّحت أنني رأيته من ذي قبل، فسلّم علي و قال لي:

أ تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا السيد الهند الذي كنت آتي بيت الشيخ و آخذ منه يوميا صفحة من كتاب‏ «فَصْلَ الْخِطابِ» قلت: كيف غيرت زيّك و ملابسك، قال: أنا بريطاني أشتغل في السفارة البريطانية كما تراني و قد كنت مأمورا بما حصلت عليه من الشيخ فحصل المقصود تماما، يقول السردار كابلي: و لما أنتشر خبر هذا الكتاب- و قد أخذه الشيخ رضا المكتبي المسجد شاهي في سفرته إلى النجف ليطبعه- أخذت الهجمات تتوارد على الشيخ بكل تشنيع و تقبيح من علماء العراق و إيران، و قد طبع الكتاب وقتئذ، فاضطر الشيخ أن يطلب من رئيس الوزارة الإيرانية وقتذاك «أتابك» أن يمنع عن نشره و فور وصول الخبر أمر أتابك أن تحبس نسخ الكتاب في غرفة و تسكّر حتى يفنيها عن آخرها، فصادف بعد أيام أن قتل أتابك ثم اغتنم الشيخ رضا الكتبي الفرصة ففتح الغرفة بحيل و رشى فنشرها، حرصا على متعة الحياة الدنيا.

و ثانيهما المغفور له صاحب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» الشيخ آغا بزرگ الطهراني و هو من أكابر العلماء المحدثين، سألته يوما ما- حيث كنت أراجعه في بيته لاستعارة كتب حول التفسير و غيره عند ما نزلت النجف الأشرف بعد ما تخلصت عن السجن المكي عام 134- فقلت ماذا حمل أستاذكم على تأليف كتاب «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» و كان مما استعرته منه نفس الكتاب بخط الشيخ النوري؟ قال: و أنا ممن سألته عن ذلك فأجاب: رأيت روايات أهل البيت (عليهم السلام) منتشرة في مختلف الكتب فأحببت أن أجمعها في مؤلف واحد رغم أنني لا أتأكد تحريف الكتاب، قلت: كيف يجمع الشيخ ما لا يتأكد من صحته، فهل كان يسمح الشيخ لنفسه أن لو انتشرت بين الناس فرية على زوجته أن يجمعها في مؤلف يطبع و هو لا يتأكد، بل و يتأكد من أن هذه الفرية؟! ثم قلت: أنه كرس شطرا من عمره في جمع هذه الأحاديث من مثل بستان المذاهب و سواه من المختلقات الزور، و اجتهد في نقل متونها بأسانيدها و الكتب المنقولة هي عنها، و لكنه لا يستدل بآية الذكر ردا على من يستدل بها بصيانة القرآن عن التحريف يكتبها هكذا «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» ثم يقول: من الذكر المنزل الرسول لقوله-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 331

إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4).

تلكم البراءة الربانية و الرسولية خاصة بالذين نقضوا عهدهم من المشركين، أما القائمون بعهدهم إلى مدتهم، غير الناقضين له و لا المظاهرين عليكم عدوا «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» و من التقوى أن يتقى نقض عهد غير منقوض مع المشركين فضلا عمن سواهم! إذا فمن الطغوى نقض العهد أو نقصه، فالعهد الصالح أيا كان لا ينقض و لا ينقص من قبل المؤمنين مهما بلغ الأمر فيه، ما لا ينقضه أو ينقصه المعاهد: «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» فمن الخيال الخاوي و الاستهواء الواهي سماح نقض العهد منّا مع المسلمين لصالح الدولة الإسلامية! فهل من صالح الإسلام أن ينقض حكم من أحكامه و فيه انقضاض ظهره و انفضاض المدعوين إليه عنه؟! فالعهد الإسلامي محترم على أية حال مع غير المسلمين فضلا عن المسلمين، و هو مخترم مع الذين ينقضون عهدهم‏ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (8: 56).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- تعالى: «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا» رغم أن الآية هي‏ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» تأكيدات تسع حول الحفاظ على الذكر المنزّل- لا المنزل- إذ إن «نزلنا» تعني تدريجية النزول فلا تعني الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه بل هو القرآن حيث تدرج نزوله عليه؟ قال: نعم، و لكنه لم تكن له فرصة تتيح له أن يراجع القرآن، قلت: أجل كانت فرصة متاحة لجمع هذه الأساطير نقضا لعصمة القرآن، فلم تبق له فرصة لمراجعة القرآن حتى ينقل الآية التي يعني نقض دلالتها على صيانة القرآن كما هي في القرآن!!! قال صاحب الذريعة فهو على أية حال ما كان قائلا بتحريف القرآن و قد كتب كتيّبا حول صيانة القرآن عن التحريف و ذكر فيه انني ما أرضى أن يطالع‏ «فَصْلَ الْخِطابِ» قبل إلا أن يطالع رده، فقلت له: وا فضيحتاه من اعذار الشيخ و أفاعيله!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 332

و كل عهد على ضوء شرعة اللّه هو عهد اللّه‏ «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ. وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى‏ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (16: 92)- «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» (7: 102).

و لأن ذلك الاستثناء راجع إلى «براءة»- أوّلا- المستثنى منه، إذا فلا براءة إلى المعاهدين غير الناقضين و لا غير المظاهرين علينا عدوا، و أما غير المعاهد فتشمله البراءة مهما كانت أخف من المعاهد الناقض، و النص هذا يختص البراءة هذه- الخاصة- ب «الَّذِينَ عاهَدْتُمْ» إعلانا جاهرا بحرب ضارية لا مردّ عنها.

و قد يعم ذلك الاستثناء كلا من «براءة- فسيحوا- و اعلموا- و أذان» فالمشرك المعاهد المتعهد خارج عن كل هذه الأربعة، فلا براءة من اللّه إليه، و لا سيح محدودا في الأرض أربعة أشهر عليه، و لا تنديد به و لا إخافة و إنذار، و إنما «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ» و «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ».

ثم و «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ» يختص بناقضي العهد المظاهرين، أم و يعم غير المعاهدين أيضا إذا أصروا على مواصلة الكفر الضاري المفتتن.

و ترى النقض المستنكر المهددّ به هنا يختص بنقض الصلح أن يحاربوهم صراحا؟ و «شيئا» بعد «عاهدتم» تستغرق التهديد بأي نقض لأي جزء من العهد، حربا أم تخلفا آخر كدعاية ضد الإسلام و هي أنقض النقض، و استمرار لتطبيق سنن الجاهلية في البيت الحرام.

و مظاهرة عدو كنقض عهد تشمل كافة ألوان المظاهرات، حربية و دعائية أماهيه من مظاهرات تضعف ساعد الإسلام أو مساعده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 333

إذا فقد ينقض العهد بنقض أو نقص شي‏ء منه مما قل منه أو كثر، حيث يدل على عدم الالتزام بالهدنة المقررة.

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5).

هناك «إلى مدتهم» تحدد سلبية البراءة للمعاهدين، فمن مدتهم‏ «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» المقررة لهم، كما منها المدد الأخرى التي علّها كانت مقررة لهم، و لكن‏ «فَإِذَا انْسَلَخَ» تختص المدة المقررة بالأشهر الحرم.

«فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ» و هم أعم من المعاهدين إلى مدة ناقضين و غير ناقضين، و من غير المعاهدين، حيث‏ «الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ» هي المدة المقررة لهم أجمع، و لأنهم كانوا ملزمين منذ الفتح بالإسلام استسلاما و سواه، إذا فبارز الإشراك باللّه بعد الفتح محظور يهدد صاحبه بالقتل بعد انسلاخ الأشهر الحرم.

و هنا حصار مربع عليهم في حقل التضييق عليهم لا لفتة عنها و لا فلتة منها:

«فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» في الحرم و سواه مهما كان كونهم في الحرم أحرم.

«و خذوهم» حين يفلّون عن المآخذ، ثم 3 «و احصروهم» في المحاصر لكي تقتلوهم، و أخيرا 4 «وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» تضييقا عليهم كافة مجالات الحرية و لا سيما في البلد الحرام، و كل ذلك إلزاما عليهم بما التزموا به منذ الفتح من إسلامهم ثم نقضوه، «فَإِنْ تابُوا» عن إشراكهم باللّه و إن في ظاهر الحال، ثم‏ «وَ أَقامُوا الصَّلاةَ» كقمة من الصلات مع اللّه قضية ظاهرة التوحيد، «وَ آتَوُا الزَّكاةَ» صلة مع أهل اللّه في الصدقات، إذا «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» دونما نقمة عليهم لما سبق منهم، «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» لهم «رحيم» بهم، حيث القصد من هذه التضييقات هو توبتهم إلى اللّه و قد حصلت، مهما كانت توبة إسلام الاستسلام نفاقا، أم لمّا يدخل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 334

الإيمان في قلوبهم، فضلا عن داخل الإيمان، حيث إن سبيل الإيمان هي الخطوة الخطوة.

ذلك، و لقد هددهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حيث‏

«افتتح مكة ثم انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة ثم ارتحل غدوة و روحة ثم نزل ثم هجر ثم قال: أيها الناس إني فرط لكم و إني أوصيكم بعترتي خيرا موعدكم الحوض و الذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة و لتؤتن الزكوة أو لأبعثن عليكم رجلا مني أو كنفسي فليضربن أعناق مقاتلهم و ليسبين ذراريهم فرأى الناس أنه يعني أبا بكر و عمر فأخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: هذا» «1».

إذا فإقام الصلاة و إيتاء الزكاة هما أصلان أصيلان من فروع الدين، بعد أصوله الأصيلة، فكما لا يخلى سبيل المشرك عن ضابطة «اقتلوا و» كذلك تارك الصلاة أو الزكوة، فقد «حرمت هذه دماء أهل القبلة» «2» و قد يأتي نبأه الفصل بعد حين.

هنا «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» و هناك‏ «قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ» (2: 193) تحكمان بأن هنا للإسلام سيفا

«شاهرة لا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها و لن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أمن الناس كلهم في ذلك اليوم» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 213- أخرج الحاكم و صححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: افتتح رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مكة و

فيه أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري و كانت له صحبة قال: بعث رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): اذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه.

(2) المصدر أخرج أبو الشيخ عن الحسن‏ «فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ» قال:

حرمت و فيه أخرج أبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: فإنما الناس ثلاثة نفر، مسلم عليه الزكوة و مشرك عليه الجزية و صاحب حرب يأتمن بتجارته إذا أعطى عشر ماله.

(3)

نور الثقلين 2: 187 في تهذيب الأحكام عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سأل-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 335

أجل «اقتلوا» حين لا علاج لهؤلاء المفتتنين إلّا القتل، فآخر الدواء الكي، قتلا عاقلا عادلا للحفاظ على الأهم في قسطاس الحق بين الجماهير، و «حيث» هنا تعم قتلهم إلى كل مكان حتى الحرم، و كل زمان حتى الأشهر الحرم المعروفة.

ذلك، و في الحق لا يعني القتال في حقل الإسلام إلا الدفاع عن الحق و الوقاية له، رعاية لعادلة السنة الإسلامية في القتال، فقد

«كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا بسم الله و بالله و في سبيل الله و على ملة رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لا تغلوا و لا تمثلوا و لا تغدروا و لا تقتلوا شيخا فانيا و لا صبيا و لا امرأة و لا تقطعوا شجرا إلا أن تضطروا إليها و أيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين فهو جار يسمع كلام الله فإن تبعكم فأخوكم في الدين و إن أبى فأبلغوه مأمنه و استعينوا بالله عليه» «1».

ثم و ليس قتال المشركين إلّا بعد الدعوة الظاهرة الجاهرة المقنعة لحدّ تقطع الأعذار، فإن تمنّعوا عن قبول الدين الحق فهم- إذا- معاندون مفتتنون، فهنالك الدفاع عن الحق ذودا عن الفتنة المعاندة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رجل أبي عن حروب أمير المؤمنين (عليه السلام)- و كان السائل من محبينا- فقال له أبي: إن اللّه تعالى بعث محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بخمسة أسياف ثلاثة منها جاهرة لا تغمد إلى فيومئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، و سيف منها ملفوف و سيف منها مغمود سلّه إلى غيرنا و حكمه إلينا، فأما السيوف الثلاثة الشاهرة فسيف على مشركين العرب قال اللّه تبارك و تعالى‏ «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ‏ ... فَإِنْ تابُوا» يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين، فهؤلاء لا يقبل منهم إلّا السيف و القتل أو الدخول في الإسلام، و ما لهم في ذراريهم سبي على ما أمر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإنه سبى و عفا، و قبل الغداء.

(1).

المصدر في الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار قال: أظنه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: كان نور رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 336

و ليست الحروب الإسلامية- على أية حال- لتعني تفتّح البلاد، أو حمل أهليها إكراها على الدين، إذ «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ» هي ضابطة عامة لا تستثنى، و إنما تعني تفتّح القلوب، أو الذود عن فتنة المؤمنين باللّه أو المستضعفين، «و الفتنة أكبر- أشد- من القتل» فالفتنة التي هي أشد و أكبر من القتل هي من حقوق الدفاع، و بأحرى من فتنة القتل.

و

من وصايا الإمام علي (عليه السلام) في سنة الحرب: «لا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم و الإعذار إليهم» (الخطبة 251)

و

«لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، و ترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم» (253)

-

و لقد ضربت أنف هذا الأمر و عينه، و قلبت ظهره و بطنه، فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء به محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، (43)-

«فو الله ما دفعت الحرب يوما إلا و أنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، و تعشو إلى ضوئي، و ذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها و إن كانت تبوء بآثامها» (55).

و

يقول لابنه الحسن (عليه السلام): «لا تدعون إلى مبارزة، و إن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي باغ و الباغي مصروع» (233 ح) «1».

ذلك، و هنا «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» مشروط بمثلث التوبة و إقام الصلاة و إيتاء الزكوة، إذا فهلا نخلّي سبيلهم عن القتال إن تابوا و لم يصلوا أم لم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و يكتب إلى أهل الأمصار إعذارا لقتال في صفين: «و كان بدء أمرنا أنا التقينا و القوم من أهل الشام، و الظاهر أن ربنا واحد و نبينا واحد و دعوتنا في الإسلام واحدة، و لا نستزيدهم في الإيمان بالله و التصديق برسوله و لا يستزيدوننا، الأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان و نحن منه براء، فقلنا: تعالوا نداو ما لا يدرك اليوم بإطفاء الثائرة و تسكين العامة حتى يشتد الأمر و يستجمع، فنقوى على وضع الحق مواضعه، فقالوا: بل نداويه بالمكابرة، فأبوا حتى جنحت الحروب و ركدت، و وقدت نيرانها و حمست، فلما ضرستنا و إياهم و وضعت مخالبها فينا و فيهم أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه فأجبناهم إلى ما دعوا، و سارعناهم إلى ما طلبوا، حتى استبانت عليهم الحجة و انقطعت منهم المعذرة» (297).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 337

يزكوا؟ و قتال تارك الصلاة أو الزكوة غير وارد في الإسلام على المسلمين.

قد تكون الصلاة و الزكوة- و هما ركنان ركينان بين فروع الدين- أمارتين لصادق الإيمان، حيث القصد من التوبة هو صالحها و واقعها دون الإقرار- فقط- بالشهادتين.

إذا فهل نخلّي سبيل التائب التارك لهما حين نتأكد التوبة؟ و هذا خلاف النص المقيّد تخلية سبيلهم بكل هذه الثلاثة! أم نقاتله؟ و هو غير وارد إسلاميا! و قد يقال إن ملاحقة التائب التارك لهما أو لأحدهما هي قضية مفهوم الشرط و لا حجة فيه؟ و لكنه- أولا- إذا كان مفهوما فهو حجة لكونه مفهوما من وجه الخطاب، ثم «اقتلوا» لم تستثن إلا في وجه ذلك المثلث، فهو إذا تمسك بالعموم لا المفهوم.

و لكن‏ «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ» تضيّق نطاق القتل بحالة الإشراك، فإذا تابوا عنه فلا إشراك حتى يعمه «اقتلوا»، إذا «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» بعد الشرطين الأخيرين هي التخلية الكاملة، ألا تتعرضوا لهم بشي‏ء، فهي دونهما تقتسم حسب انقسام الثلاثة، تخلية عن قتلهم بالتوبة عن إشراكهم، ثم تخلية عن سائر التعرض لهم إن‏ «أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ».

فقد نلاحقهم لا فقط لإشراكهم، بل و لتركهم هامة الفروع، فلنخل سبيلهم عند التوبة في ملاحقة القتل، ثم سائر السبيل عند إقام الصلاة و إيتاء الزكوة في سائر الملاحقات المحلّقة على تاركي المفروضات و فاعلي المرفوضات.

فقد انقسمت تخلية سبيلهم حسب أقسام التوبة، تخلية لسبيل الحياة بالتوبة، و تخلية لسائر الحرية فيها بالأخيرين، فإن تركوا الأخيرين أو أحدهما تبقى الملاحقة لغرض الحمل عليهما باقيا، فهذه الثلاث بالنسبة لمن ظل مشركا ملاحقة للقتل، ثم لمن تاب و هو تارك للعمودين ملاحقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 338

لسائر المضايقات حملا عليهما من باب الأمر بالمعروف المفروض بمراتبه.

ثم و قتل المسلم لتركه الصلاة أو الزكوة يحتاج إلى قاطع الدليل‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 213- أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري و كانت له صحبة قال: بعث رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه،

و

في آيات الأحكام للجصاص 3: 101 روى معمر عن الزهري عن أنس قال‏ لما توفي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ارتدت العرب كافة فقال عمر يا أبا بكر أ تريد أن تقاتل العرب كافة، فقال أبو بكر إنما قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا شهدوا أن لا إله إلّا اللّه و أن محمدا رسول اللّه و أقاموا الصلاة و آتوا الزكوة منعوني دماءهم و أموالهم، و اللّه لو منعوني عقالا مما كانوا يعطون إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لقاتلتهم عليه‏

، و

فيه روى مبارك بن فضالة عن الحسن قال: لما قبض رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ارتدت العرب عن الإسلام إلا أهل المدينة فنصب أبو بكر لهم الحرب فقالوا: نشهد أن لا إله إلّا اللّه و نصلي و لا نزكي، فمشى عمر و البدريون إلى أبي بكر و قالوا: دعهم فإنهم إذا استقر الإسلام في قلوبهم و ثبت أدوا، فقال: و اللّه لو منعوني عقالا مما أخذ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لقاتلتهم عليه و قاتل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على ثلاث: شهادة أن لا إله إلا اللّه و إقام الصلاة و إيتاء الزكوة و قال اللّه تعالى: «فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» و اللّه لا أسأل فوقهن و لا أقصر دونهن، فقالوا له: يا أبا بكر نحن نزكي و لا ندفعها إليك، فقال: لا و اللّه حتى آخذها كما أخذ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أضعها مواضعها، و روى حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين مثله،

و

فيه روى الزهري عن عبيد اللّه بن عبد اللّه عن أبي هريرة قال: لما قبض رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و استخلف أبو بكر و ارتد من ارتد من العرب بعث أبو بكر لقتال من ارتد عن الإسلام فقال له عمر يا أبا بكر ألم تسمع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على اللّه؟ فقال: لو منعوني عقالا مما كانوا يؤدونه إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لقاتلتهم عليه-

و

فيه 13 عن أنس بن مالك قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): من فارق الدنيا على الإخلاص للّه و عبادته وحده لا شريك له و إقام الصلاة و إيتاء الزكوة فارقها و اللّه عنه راض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 339

و ليس، و قد يبعده- إضافة إلى ذلك- أن أهل الكتاب غير داخلين في «اقتلوا» و هم تاركوا الصلاة و الزكوة و كل الواجبات الإسلامية؟ فكيف يقتل المسلم لتركه إياهما؟

و لكن المرجو من المسلم غير المرجو من غيره كتابيا و سواه، إلا أنا نجدد السؤال بالنسبة لمن هو مسلم يقيم الصلاة و يؤتي الزكوة ثم يتركهما فهل يقتل بذلك؟ و دون إثباته خرط القتاد! ذلك، و قد يعني‏ «وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ» بعد أن «تابوا» الإعتقاد بوجوب الصلاة و الزكوة، ثم و تطبيقهما دليل ذلك الإعتقاد، فالذي يتوب عن الإشراك ثم لا يقيم الصلاة و لا يؤتي الزكوة، لا يعلم منه أنه- حقا- تاب، إذ ليست لفظة التوبة هي التوبة، إنما هي الرجوع عن عقيدة الإشراك، ثم يعلم ذلك الرجوع بإمارة هامة لتلك العقيدة هي إقام الصلاة و إيتاء الزكوة كرأسين أصليين لزوايا الإيمان عمليا.

فقصارى المستفاد من الآية وجوب قتال المشركين، و من تاب عن إشراكه هو خارج عن «المشركين» فلا قتل إياه، ثم‏ «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» المشروط «بإقام الصلاة و إيتاء الزكوة» لا يختص بالتخلية من قتلهم، بل و سائر المذكورات معه ك «خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» فهذه الثلاثة الأخيرة هي أعم في التائب التارك للصلاة و الزكوة، من القتل، فيستثنى القتل لخروجه عن الإشراك، و يبقى الباقي لترك العمودين، حيث المفروض أخذ تاركهما بكل مأخذ و حصره و قعود كل مرصد له حتى يقيم الصلاة و يؤتي الزكوة، فإنّ‏ «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» تعني تحريرهم عن كل ما ذكر، فلم يقل «لا تقتلوهم» حتى تختص التخلية بترك قتلهم، إنما هو تحريرهم طليقا، و ليس يحرّر طليقا تارك الصلاة و الزكوة أيا كان.

ثم و هذا النص قصاراه أنه كان يواجه واقعا متميزا في مشركي الجزيرة يومذاك، فما كان أحدهم ليعلن توبته و يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة إلا و هو يعني الإيمان بالإسلام كله، إذا فالتارك لهذين العمودين-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 340

حينذاك- مع ظاهرة التوبة، لم يك يعرف منه صالح التوبة، فقد يكون نفاقا أم وفاقا غير صالح.

إذا فالأشبه أن ترك الصلاة و الزكوة دون هذه الملابسات التي تدل على نكرانهما لا يبرّر قتل تاركهما على أية حال، و ما يروى من قتال تاركي الصلاة و الزكاة محمول على مواضع النكران لهما، دون تركهما على إيمان و تصديق تساهلا فيهما و تكاهلا.

ذلك، ثم المشركون الأفراد الذين لا يجمعهم تجمع جاهلي تصديا للإسلام و تعرضا بأهله قتلا أم إضلالا، لا يتصدى لهم الإسلام حرب إبادة، بل و يكفل لهم الأمن ترغيبا لهم ليسمعوا كلام اللّه ثم يبلغوا مأمنهم تروّيا يمنعهم عن التردي، و كما يأمر اللّه سبحانه رسوله بمثل الأمر التالي:

وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (6).

هنا استجارة المشرك المرفوع عنه الأمان عند الملاحقة للقتال هي موضوع لواجب الإجارة، لا فحسب، بل و «حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ» حيث الاستجارة قد تلمح بأنه متجرّ عن الحق المرام، و لا فحسب أيضا بل‏ «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» عند أهليه و ربعه، و طبعا في غير المعسكر المعادي فإنه ليس مأمنا، و «ذلك» المثلث من الرحمة الرحيمة للمشركين المستجيرين‏ «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ» فعن جهل هم مشركون و ان كان جهلا مقصّرا، و الجهل القاصر المطلق لا يتصور في الإشراك باللّه و لذلك‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) ثم الجهالة العامدة ممن‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» غير مغفور هناك و لا معذور هنا فلا يشمله «استجارك» حيث الإجارة هنا إجارة لعاند عامد لا يرجى منه خير، اللّهم إلّا إذا احتمل خيره أم- و لأقل تقدير- دفع شره، فهو أيضا داخل في الإجارة.

و حين تجب إجارة أحد من المشركين عند استجارته، فبأحرى استجارة المجموعة الشركية، و لأن «استجارك» طليقة، فكذلك «أجره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 341

حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه ما منه».

فلا تفتكر أنه قد يخدعك باستجارتك كاذبا فلا تأجره، بل تأسره، اللّهم إلّا بأكيد الكيد الخطر اللعين المكين، حيث يعني خطرا على الصف المسلم، فالأصل- إذا- هو الإجارة بالاستجارة، إلا فيما يستثنى حفاظا على الأهم من صالح المجموعة المسلمة.

و لكن‏ «أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أيا كان، و هو في إجارة قيادة القوات المسلحة، لا يخشى منه خطر على فرد فضلا عن المجموعة، فلكي تكون حجة الحق هي العليا قد نجيره لمّا يستجير، آمنين عن كيده و ميده، ثم‏ «أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» حيث الموضوع هو طليق الاستجارة فله طليق الإجارة و إبلاغ المأمن.

ذلك، فاحتمال أن أحدا من المشركين يستجير لكي يستنير يمنع عن ملاحقته، حيث القصد منها دفع نائرة الفتنة القاطعة، فحين يرجى زوالها جرا إلى الإيمان و الرحمة فلما ذا بعد استمرار الملاحقة «1»، بل و إذا لا نحتمل فعلّ الواقع الخارج عن الاحتمال يحتمل تحرّيه أو تنبّهه، بل و إذا نتأكد ألّا خير فيه و لا شرّ.

و هنا «حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ» قد تفسر المعني من هذه الاستجارة أنها تقصد التحري عن الحق المرام، و لكن‏ «حَتَّى يَسْمَعَ» ليس جزاء للشرط، إنما هو من الغايات الصالحة للجزاء.

ثم إذا يسمع كلام اللّه لا ينتظر منه فور الإيمان، بل‏ «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» ليجيد التفكر و يعيد النظر إجالة له دون عجالة حتى يرتكن الإيمان في قلبه، و هذه العناية الأدبية هي غاية ما يمكن رعايته منها، تحريا عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير الفخر الرازي 15: 226 نقل عن ابن عباس انه قال: إن رجلا من المشركين قال لعلي بن أبي طالب (عليه السلام): إن أردنا أن نأتي الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام اللّه أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي (عليه السلام): لا- إن اللّه يقول: «وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 342

مواضع الاسترشاد فالرشاد، دون رفض للمستجير زعم أنه كاذب أو محتال، فالأصل- على حائطة- صدق المستجير، ما فيه محتمله‏ «فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ».

و هل هذه الإجارة تختص بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ أم و من يخلفه في القيادة الحربية؟ أم تعم كل المؤمنين المحاربين حين تكون الإجارة صالحة لا تحمل خطرا على جيش الإسلام.

«أجره» بعد خطابات جامعة تصلح خطابا لكل فرد فرد من المؤمنين و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «من استجاركم فأجيروه» «1»

و «يجير على المسلمين أدناهم» «2» حتى «النساء و العبيد» «3».

و هنا «كَلامَ اللَّهِ» الطليق في صيغته، لا يعني طليقا منه في محتواه، إنما هو «كَلامَ اللَّهِ» الذي يهديه هديا صالحا إلى اللّه، فتلاوة آيات الطلاق و العدة و ما أشبه ليست لتنفع المشرك، إنما هي الآيات المبرهنة لتوحيد اللّه و صدق هذه الرسالة، حاملة الحكمة و الموعظة الحسنة، فإن لكلّ مجال مقالا و لكل مقال مجال.

فقد خصصت هذه الآية- آية: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» و خصتها بالمعاندين الذين ليسوا ليسمعوا كلام اللّه تحريا عن الحق، فإنما هم فاتنون ضالون مضللون صادّون عن سبيل اللّه حيث يبغونها عوجا، و لأن الفتنة أكبر و أشد من القتل‏ «قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ» (2: 193) و على ضوء هذه الآية تعرف الحقائق التالية:

1 السمع الصالح لكلام اللّه للتحري عن الحق يكفى حجة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن حم- ثان ص 99.

(2) المصدر عن حم- ثان ص 215 و 365، رابع ص 197، خامس ص 250، هش- ص 469، قد- ص 339.

(3) المصدر بعنوان «إجارة النساء و العبيد» عن بخ- ك 58 ب 9، بد- ك 15 ب 155، تر- ك 19 ب 26، مى- ك 17 ب 58، عد- ج 8 ص 21.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 343

للحق، مما يدل على حجة القرآن البالغة، الدالة على ربانية آياته، و أنها دون أي مساعد آخر يرشد السالكين المتحرين عن الحق إليه، فقيلة أن القرآن لا يفهم إلّا بدلالة و تفسير السنة كأصل، إنها غيلة و حيلة على القرآن الذي هو بيان للناس، و لأن المعدات و القابليات مختلفة فعلى القيادة الحربية إسماعه كلام اللّه لحدّ يقنعه تماما دون أي خفاء لكيلا يبقى له عذر في رفض الحق.

2 الاستجارة لسمع الحق تفرض على أهله عندها الإجارة الصالحة له، و إتاحة الفرصة بعده حتى يتروى فيما سمع- كما تشير له «ثم» المراخية لإبلاغه مأمنه- مما يبرهن على أن معرفة أصول الدين ليست إلّا بالاجتهاد قدر الجهد و الإمكانية الذاتية، ثم الاستعانة الاستجارة بمن يعرف الحق بصورة مقنعة، فلا تعني الاستجارة هنا فقط فسح المجال بين المستجير و بين سماع كلام اللّه لمكان القصور الذاتي أو الحالي للبعض من المستجيرين، فعلى أهل اللّه أن يبينوا كلام اللّه قدر ما يقنع المستجير.

3 و بطبيعة الحال لا تعني‏ «حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ» مجرد السماع لمجرد الكلام و إن لم يفهم معناه و مغزاه كالذي لا يعرف لغة القرآن، أو يعرفها و لكنه لا يعرف مغازي الكلام لحد تنتجه صالح النتيجة.

4 و لأن هذه الآية تحمل فرضا فطريا عقليا صالحا للدعوة الربانية الصالحة التي لا مرد لها و لا حول عنها، لذلك فلا تتحمل النسخ حيث‏ «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» و لا ملاحقة قبل بيان الحجة و تمامها، فليست أمثال‏ «قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» مما تنسخ هذه الآية.

5 و لأن الخطاب هنا يخص الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في‏ «اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ» فقد نتلمح قرن البيان الرسولي إلى بيان القرآن، الرسالي، و لمكان‏ «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» مما يفرض المحاولة الصالحة المقنعة لكامل السمع لكلام اللّه، دون مجرد الكلام أيّا كان و من أيّ كان مهما يحمل كل القرآن، إنما هو «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 344

بَلِيغاً» يبلغ إلى شغاف أنفسهم، فعلى قيادة الجيش الإسلامي هذه الرعاية الشاملة الكاملة الكافلة لإسماع حجة الحق على ضوء كلام اللّه.

6 و لأن «استجارك» تفرض السماح لسماع كلام اللّه، فكذلك في بدء القتال و الملاحقة من المفروض الدعاء الحق قبله بما يقنع ثم القتال، «إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» الذين لم يسمعوا إلى كلام اللّه، أم سمعوا و التهوا، أم على أية حال لم يقتنعوا أم تمنّعوا عن سماعه ثم استجاروا «فأجره» حيث القصد من القتال توجيههم إلى اللّه بداية أم نهاية و على أية حال، «لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى‏ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى‏».

ذلك، فمجرد احتمال أن المشرك في طريق التحري، ليس فقط ليحرم ملاحقته قتلا أو حصرا، بل و يسمح للاستغفار له و كما فعله إبراهيم لما سمع آزر يقول‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» فاستفاد من ذلك أنه يعني مهلة للتفكير فاستغفر له، «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ. وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» (9: 114).

ذلك، و هل تختص هذه الاستجارة بما تعني سماع كلام اللّه لمكان‏ «حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ»؟ طليق «استجارك» يطلقها إلى غير هذا المعنى، فقد يعني ذلك الإطلاق اغتنام الفرصة في هذا المجال لإسماعه كلام اللّه، حيث الاضطرار يحمل الناكر للحق أيا كان ليسمع كلام اللّه حفاظا على صالحه المقصود من استجارته، فإذا سمع كلام اللّه سمع التدبر لا الإدبار «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» إذ لا يعني من «يسمع» إلّا سمع التفكر و الاهتداء دون سواه من سمع لا يغني سامعه شيئا حيث لا يعني الاستنارة به.

فالمشرك المستجير عند الملاحقة يجار على أية حال‏ «حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ» سواء أ كانت استجارته لذلك أم لسواه، فإنما القصد هنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 345

اغتنام هذه الفرصة المتيحة لنا لنسمعه كلام اللّه، فإن سمع مؤمنا فإلى جيش الإسلام، و إن سمع مترددا مترويا «فأبلغه مأمنه» و إن سمع غير سامع فلم تحصل- إذا- الغاية المعنية من إجارته و هي‏ «حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ» فلا إبلاغ إلى مأمنه، بل هو كسائر المشركين غير المستجيرين، اللّهم إلا إذا لا يشكل خطرا على الصف الإسلامي، فمجرد استجارته يفرض إجارته.

فالحملة الإسلامية على المشركين ليست حملة إبادة، بل هي حملة هداية ما وجدت إليها سبيلا، أم إيقافا لفتنة المشركين.

ذلك، فقد تشمل‏ «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» المستجير الذي سمع كلام اللّه و لم يؤمن، و لكنه لا ينوي محاربة المسلمين على أية حال، فهذا أيضا «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» فإنما هنا مسرح واحد لقتالهم هو قتالهم أو اغتيالهم أو تضليلهم المسلمين، و إلّا فلا ملاحقة إلا لاهتدائهم إلى الحق، و إلا فلا سلب- إذا- معهم و لا إيجاب، حيث القتال إنما يعني إزالة الفتنة، نفسية و دعائية، و لو عني من الاستجارة الاستهداء أم مجال التحري لجي‏ء بلفظه الخاص، دون الاستجارة العامة، فمجرد الاستجارة لأي هدف كان إلا الحيلة الخطرة على المسلمين، إنه موضوع واجب الإجارة «حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ».

فيا لهذه الإجارة الرحيمة من قمة عالية و همة غالية، حراسة على المشرك لحد إبلاغه إلى مأمنه و هو بعد مشرك، ما لم يشكّل خطرا على كيان الإسلام و المسلمين، سواء سمع كلام اللّه سمع قبول فإيمان، أو سمع التحري و التروي، أو سمع الخوف دون تقبل و تروّ، و لكنه بهذه الاستجارة يعني ابتعاده عن كافة الحزازات ضد الحوزة الإسلامية، و كل‏ «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ» فالعالمون حق الإسلام المعارضون إياه لا إجارة لهم.

ثم مبدء الإشراك من قضاياه و رزاياه عدم الالتزام بالعهد، فعلى المسلمين أن يأخذوا حذرهم منهم حالة الصلح كما في حالة الحرب حتى لا يؤخذوا على غرّة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 346

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7).

«كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ» عليكم‏ «عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ» دون أن تعاهدوهم، و ليس لهم مبدء صالح يلزمهم على عهد صالح لصالح المسلمين، اللّهم‏ «إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» حاسبين حسابكم في معاهدتهم، و هنا «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ» في تلك المعاهدة «فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» معاملة بالمثل عادلة، قضية تطبيق المعاهدة الإسلامية السليمة «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» إياه عن أية تخلفة في معاهدة و سواها، فلا يحب- إذا- الناقضين عهودهم و إن مع المشركين القائمين بشروطات المعاهدة، المستقيمين لكم فيها.

فحين يعهد المشركون لكم عهدا أنتم غير قابليه فلا عهد لهم عند اللّه و عند رسوله، فضلا عما لا يعهدون، و أما إذا عاهدتموهم‏ «عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» أم سواه، فاستقيموا لهم ما استقاموا «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» و هنا ضمير الجمع راجع إلى «المشركين» دون خصوص‏ «الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» لأن‏ «فَمَا اسْتَقامُوا» ضابطة لا تنحصر في الآخرين، و أن الأولين هم ركن الكلام.

و غير صحيح أن غيرهم إذا استقاموا لم تجب الاستقامة لهم لأن معاهدتكم إياهم ليست عند المسجد الحرام، فلا أن صالح المعاهدة يختص بالمسجد الحرام، و لا أن رعاية العدالة خاصة بهؤلاء المعاهدين في ذلك المكان الخاص، و هنا المقصود صلح الحديبية فقد عنى المسجد الحرام كله.

ذلك و من قبل‏ «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ» يسلب الاستقامة لعهدهم حين لا يستقيمون، ثم يفرضها حين يستقيمون كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فالعهد المستقيم لزامه الاستقامة قدرها دون حول عنها أيا كان و من أي كان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 347

و ترى‏ «فَمَا اسْتَقامُوا» تتجزء في أقدار الاستقامة بأجزائها؟ ففيما يستقيمون فاستقيموا و فيما ينقضون فانقضوا إذا كان للمعاهدة بنود.

و لكن‏ «إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» قد تنافي التجزؤ، اللّهم إلّا أن «أتموا» و جاه‏ «لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً» جمع قبال جمع، فإذا أتموا أتموا، ثم «ما اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» كما و أنه قضية العدالة و المقابلة بالمثل، ثم قد تعمم‏ «فَمَا اسْتَقامُوا» فرض «فاستقيموا» و إن بعد موتهم، حيث الأصل لسماح أو فرض قتالهم هو فتنتهم، فحين يستقيمون بعهد و دون عهد فواجب الاستقامة لهم قائم، بل و بأحرى بعد تمام مدتهم، حيث إن الالتزام بالمعاهدة بعد تمام مدتها أدل على سلمهم طيلة المدة.

إذا «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ» قد تعني إلى مدة عهدهم مدة الالتزام بالمعاهدة، أم لا مفهوم له أن قاتلوهم بعد تمام المدة و إن كانوا ملتزمين بما التزموه في نفس المدة.

و هنا «ما» في‏ «فَمَا اسْتَقامُوا» إما شرطية مضمّنة الزمان و هي الأشبه، أم زمانية، و على أية حال ف «ما» تطلق شرط الاستقامة بجزاءها إلى مدتهم بعد موتهم.

ثم ترى بعد «إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» حصر للوفاء بالمعاهدة فيهم؟ و لا حصر واقعيا فيهم! ذلك حصر فيمن يستقيمون، و هؤلاء كانوا مثالا للاستقامة لمكان‏ «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ» فليس للمسجد الحرام و الذين عاهدوكم عنده ميزّة في ذلك الاستثناء إلّا مصداقية بارزة لهم دون حصر، فما هذا الاستثناء استثناء بموضوع يفيد الحصر، بل بمصداق بيّن منه كما في الإيمان عند رؤية الناس: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (1: 98).

ثم و ضابطة «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» محكّمة لكل هؤلاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 348

الذين يستقيمون في عهودهم، سواء أ كانوا من المعاهدين عند مسجد الحرام أم سواه.

فالمبدأ الأول للمشركين أنه ليس لهم عهد عند اللّه و عند رسوله، فإنهم ناقضوا عهد اللّه بإشراكهم به، و ناقضوا عهد رسول اللّه بنكرانهم له، فكيف يكون- إذا- لهم عهد عند اللّه و عند رسوله للجماعة المؤمنة باللّه و برسوله، فذلك استفهام إنكاري يوقظ المسلمين بأن الأصل فيهم أولاء الأنكاد الأنكاث هو نقض العهود فلا يوثق بهم أبدا، فعليهم اليقظة الدائمة أمامهم حياطة على النقض المرتقب منهم دائما.

ذلك لأنهم كأصل يكمنون لكم العداء العارم دون رغبة فيكم و لا رقابة عليكم، فالأصل في معاهدة المسلم المحارب عدم النقض فإذا نقض انتقض، ثم الأصل في معاهدة المشرك المحارب النقض، فإذا لم ينقض لم ينتقض، فلا تجوز بدار النقض منا لعهد المشرك قبل نقضه، فإنه- إذا- حجة علينا و اعتداء بغير مثل.

و هكذا يلزمنا الإسلام بالوفاء بالعهود مع المشركين فضلا عن المسلمين، و لكن علينا أن نحتاط أمام المشركين المعاهدين إذ ليس لهم عند اللّه و لا عند رسوله عهد.

و إذا كانت الاستقامة للمعاهدات الإسلامية مع المشركين بهذه المثابة فما ذا ترى في المعاهدات الإسلامية مع بعضهم البعض، فهل يجوز نقضها من طرف واحد بأي سناد؟ كلّا و حتى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ليس له ذلك النقض فضلا عمن سواه مهما بلغ به الأمر.

فلا يبرّر نقض العهد إلّا نقضه قدره، دون أي مبرر آخر دونما استثناء.

و هنا «عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» قد يعني إلى صلح الفتح بمكة صلح الحديبية إذ لم يسبق لهم معاهدة قبل الفتح إلا فيها مما يوسع نطاق المسجد الحرام إلى الحرم كله، و «عند» هنا لأن الحديبية هي على أشراف الحرم و شفيره فإن بعضها في الحرم و بعضها في الحل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 349

كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى‏ قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (8).

«كيف» يكون لهم عهد و هم لا يراعون عهدا عاطفيا إنسانيا بقرابة و ما أشبه فلا يرقبون‏ «فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً» عهدا بمعاهدة، فهم خلو عن كل عهد «إلّا» بقرابة و «ذمة» بقرار، فكيف يوثق بهم و هم لا عهد لهم من هذا و ذاك.

فالإل هو كلما يقابل الذمة مما تجب رعايته و رقابته من 1 تحديد فطري أو عقلي أو عرفي، 2 أم صفاء و لمع إنساني، أم 3 جوار أم 4 قرابة نسب أو سبب، فقد جاء الإل بمعاني عدة لا تناسب هنا إلا هذه الأربعة، و أما العهد فهو المعني ب «ذمة» ثم «اللّه» ليس ليعبر عنه بالإل، و أما «ذمة» فهي العهد الذي يذم على نقضه، فهو العهد اللزام المذموم نقضه.

إذا ف «لا يرقبون» حراسة و رقابة «فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا» قرابة أم صفاء و لمعا إنسانيا، أم فطرة أو عقلية أو عرفية أماهيه من رقابات أصيلة هي قضية أصل الإنسانية، ثم «و لا ذمة» بمعاهدة و ذمام، فهو- إذا- خواء عن أية مراقبة لمؤمن فكيف يكون لهم عهد؟! فقد فسدت إنسانيتهم و كسدت حيث حجبت فطرهم و عقولهم و حلومهم و علومهم عن لمس الحقائق فهم إذا شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون.

«يرضونكم» في إل أو ذمة «بأفواههم» مداهنة لا مهادنة حيث‏ «تَأْبى‏ قُلُوبُهُمْ» عن أية رقابة لأي إلّ أو ذمة، و على الجملة كأصل‏ «أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ» متخلفون عن كل وثاق و وثيقة، مهما كان لأقلهم إلّ أو ذمة كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

«أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ» هنا لا يعني مطلق الفسوق فإن كلهم فاسقون عن طاعة اللّه و شرعته، فإنما حكم الأكثرية هنا يختص بحقل رقابة إلّ أو ذمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 350

فهؤلاء لا يسالمونكم أو يعاهدون إلا مضطرين‏ «وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ» غلبا في المعركة أم في القوة «لا يرقبون في مؤمن إلا و لا ذمة و أكثرهم فاسقون» خارجون عن أي إل أو ذمة.

فهم- إذا- لا يقفون في التنكيل بكم لحد حتى المتعارف في أية بيئة إنسانية، متجاوزين كافة الحدود و الأعراف، و هم أولاء الأنكاد الأغباش:

اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (9).

«اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ» أنفسية و آفاقية، رسولية و رسالية، هذه الآيات المرئية لهم المعروضة عليهم، اشتروا بها «ثَمَناً قَلِيلًا» من متعة الحياة الدنيا، و كل ثمن أمام آيات اللّه قليل.

و بالنتيجة «فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» أنفسهم و سواهم، فأصبحوا في قالهم و حالهم و فعالهم صدا عن سبيل اللّه على أية حال، في كل حلّ و ترحال، فهم يحملون أصول الفتن و أثافي المحن و الفتنة أكبر و أشد من القتل، فقاتلوهم يعذبهم اللّه‏ «إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ».

هناك «لا يرقبون فيكم» اللامحة لخصوص المؤمنين الحضور، و هنا «في مؤمن» طليقة تشمل كل مؤمن على مد الزمن إلى يوم الدين، انتقالا عن خاص إلى عام كيلا يخيّل إلينا أن هذه العداوة خاصة بجماعة خصوص من المؤمنين.

هنا «فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» و أمثالها لها نطاق واسع يعم إلى «الذين‏ اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا» كل هؤلاء الذين يصدون عن سبيل اللّه، و أفضل سبل اللّه هو القرآن و على ضوءه رسول القرآن.

فقد يصد عن القرآن تكذيبا له و تزييفا لموقفه، و هذا هو الكفر الجاهر المستهتر، أم يصد عنه بطرق ملتوية تنقبا بنقاب الحفاظ على حرمة القرآن، و الحياد عن المسّ من كرامة القرآن كالقيلات الغيلات التالية:

1 القرآن ظني الدلالة و قطعي السند، و الحديث قطعي الدلالة و ظني السند.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 351

2 في أن ظواهر القرآن حجة أم لا اختلاف بين العلماء، فكيف يستدل بما فيه خلاف.

3 آيات القرآن مجملات هي بحاجة إلى تبيان بالحديث، فالأصل هو الحديث حيث يفسر القرآن! ذلك و ما أشبه من هرطقات تعني أن القرآن ليس بيانا و لا تبيانا، بالرغم من أنه في أعلى قمم الفصاحة و البلاغة، فهو يحمل أبين بيان و أفضل تبيان، ف: «هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (3:) 138)- «فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ» (6: 157).

أو ليس نكران أن القرآن بياس للناس، و جعله في بوتقة النسيان، و إبعاده عن أمته و حوزته، أليس ذلك صدفا عنه أن يجعل في زاوية منعزلة عن ناسه بأساسه.

ثم و كتمان أن القرآن بيان للناس و تبيان يستجر لعنة ربانية على الكاتمين‏ «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (2: 159).

فليس يختص كتمان الآيات البينات أن تكتم عن بكرتها، بل و كتمان أنها بينات بدعايات كالتي سلفت و ما أشبه، إنه كتمان كسائر الكتمان مهما اختلفت دركاته.

فالقرآن بنفسه بينة قضية قمة الفصاحة و البلاغة البيانية، المنقطعة النظير، ثم و يصرح في آيات أنه بينة من اللّه كافية «وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ» (2: 99).

فكما أن الكفر بهذه الآيات فسق كافر، كذلك الكفر بكونها بينات مع الاعتراف بكونها آيات، إنه كما هو فسق فاسق، مهما اختلف فسق عن فسق، «وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ» (22:) 16) «لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 352

(24: 34) «فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» (65: 11).

إذا فهؤلاء الذين يفصلون بين القرآن و بين حوزته و أمته، انهم‏ «يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» و هم «الفاسقون» و الصادون عن سبيل اللّه و يبغونها عوجا، و هم الظالمون:

«لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً» (11: 19) و هم أولاء في ضلال بعيد: «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ» (14: 3) «وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ» (28: 87).

أجل، إن كتمان أن القرآن بيان كتمان للقرآن، و «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» (2: 174).

لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10).

«أولئك» 1 الذين ليس لهم عهد عند اللّه و رسوله 2 «وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا 3 يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى‏ قُلُوبُهُمْ 4 وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ» 5 «اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا»، 6 «فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» 7 «وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ».

هؤلاء الأنكاد البعاد عن كل شؤون الإنسانية، الحاصلون على هذه الدركات السبع الجهنمية، كأنهم‏ «هُمُ الْمُعْتَدُونَ» فقط لا سواهم، حيث ركزت فيهم جذور الاعتداء، و استأصلت جذور الاهتداء، فكيف يكون- إذا- لهم عهد عند اللّه و عند رسوله؟

و هم على هذه الأوصاف النكدة علّهم لهم منفذ إلى رحمة اللّه حيث تستقبلهم بشارة اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 353

فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11).

فطالما الأخوة في الدين هي التي بين المؤمنين، فقد تشمل هؤلاء المشركين شريطة التوبة، و إقام الصلاة و إيتاء الزكوة كما فصلناها من ذي قبل، و هي الأخرى بين المؤمنين و أدعيائهم غير المعروف آباءهم: «وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ‏ ... ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ» (33: 5) ثم لا رابع إلّا اليتامى، و لكنهم لأنهم صغار غير مكلفين لم يصرح لهم بالأخوة في الدين:

«وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى‏ قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ» (2: 220) و لكن نسبتهم إلى المؤمنين في الأخوة قد تجعلهم إخوة في الدين، ما تتطلبه هذه الأخوة وراء التكاليف الخاصة بالمكلفين، فعليهم أن يراعوهم بأخوة في الدين، و ليس عليهم أولاء لصغرهم فرض في حقل الأخوة الدينية، اللّهم إلّا ما يفرض على أولياءهم من تأديبهم و تدريبهم على الدين.

و حين تثبت الأخوة في الدين بين المؤمنين ككل‏ «1» و حتى بالنسبة للقاصرين فهلّا تثبت بين فريقي المسلمين شيعة و سنة أماهيه من الفرق، و هم ككل حاصلون على هذه الثلاثة، و حتى التاركين منهم للصلاة و الزكوة، المصدقين لهما، هم غير خارجين عن هذه الأخوة الشاملة ربع الإيمان، فقد تثبت حرمة اغتيابهم بعضهم بعضا بنص آية الحجرات منضمة إلى هذه الآيات‏ «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» و «وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ».

فقيلة حلية اغتياب أهل السنة غيلة على وحدة الأخوة الإسلامية، و حيلة لوهدتها أعاذنا اللّه من سوء الفهم و العصبية الجاهلة العمياء!، فإنما «نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير العياشي جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) «فَإِنْ تابُوا» يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين.

-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 354

فحين يصبح المؤمنون الجدد- على سوابقهم المزرية- ثم الأدعياء غير المعروف آباءهم، حين يصبح هؤلاء و هؤلاء و معهم يتاماهم إخوانا لهم في الدين، أ فلا يكون سائر المسلمين إخوانا لنا نحن الشيعة الإمامية، زعم أن الإيمان فالأخوة الإيمانية تختص بنا، ويكأن آيات الإسلام و الإيمان و الأخوة الإيمانية تخاطبنا فحسب دون سوانا؟! و هكذا الغلطة المغلّظة بين جمع من إخواننا السنة حيث يرفضون إخوتنا الإيمانية، أم و يفضلون اليهود و النصارى علينا! و هكذا نزغ شيطان الاستعمار و الاستحمار بيننا لحد جعلنا شذر مذر، تاركين لوحدة الاعتصام بحبل اللّه هابطين لوهدة الانقسام عن حبل اللّه، عاملين على بث الخلافات و حثّها فيما بيننا، و هذه هي بغية أعداءنا لكي يكونوا علينا- المتفرقين المفترقين- ظاهرين قاهرين! و القول إن إخواننا فاسقون في عقيدة الدين متجاهرين، فهم ممن يحل اغتيابهم؟ غول من القول، حيث الفسق المتجاهر به في حقل حلّ الاغتياب هو الذي يعترف صاحبه بأنه فسق، ثم لا يبرّر سائر الفسق المستور أن يغتاب فاسد العقيدة فيه، و الأكثرية المطلقة من إخواننا قاصرون و إن كان عن تقصير، فليسوا هم يعاندون الحق فينكرونه لعنادهم، بل هم حسب بيئتهم و ملابساتهم ظلوا في تلكم العقائد، و على الدعاة إلى اللّه أن يدعوهم بالحكمة و الموعظة الحسنة و يجادلوهم بالتي هي أحسن.

و لو حلت الغيبة بين فرق المسلمين لفرقت بينهم أكثر مما هم متفرقون، و هم مأمورون بالوحدة قدر المستطاع، اعتصاما بحبل اللّه جميعا دون تفرق و تمزق، فكيف يجوز اغتيابهم فيما هم غير متجاهرين من فسوق، أم هم غير مقتنعين أنه فسوق، فمن شروط الأمر و النهي ثم جواز الاغتياب، أن يكون الواجب و المحرم واضحين للمأمور و المنهي وضح النهار، فإن تخلف بعد فأمر أو نهي، ثم إن أصر و جاهر فإصرار في الحمل على شرعة اللّه و جهار في عرض مآسيه عله ينتهي.

وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 355

الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12).

هنا نكث اليمين و الطعن في الدين يردفان عطفا مما يدل على أن ذلك العهد المؤكد باليمين كان على المحايدة تجاه الدين، ألا يحاربوا المؤمنين في الدين، و لا يطعنوا طعنة أخرى في الدين كالدعاية ضده أو مظاهرة عدو على المؤمنين، فعند نكثهم و طعنهم‏ «فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» الناكثين الطاعنين، «إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ» قاتلوهم‏ «لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» عن كفرهم، أم- لأقل تقدير- عن نكثهم و طعنهم.

و هنا تبرز من ملامح الحرب الإسلامية أنها فقط حرب دفاعية أمام الهجمة الكافرة على نفوس المؤمنين أم على عقائدهم و سائر نواميسهم، فحين ينتهون عن الطعن في الدين فلا قتال، كما لا قتال حين لا يقاتلونكم.

و لأن الأصل في نكث اليمين و الطعن في الدين بين جموع الكافرين، هو من أئمة الكفر دون المأمومين لهم، لذلك‏ «فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» و طبعا بمن يساندهم من هؤلاء الأتباع الأغباش‏ «لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» و القصد الأصيل في ذلك القتال ليس هو الانتقام، بل الانتهاء عن النكث و الطعن في الدين، ثم علياه هي الانتهاء عن الكفر.

و قد تشمل‏ «أَئِمَّةَ الْكُفْرِ»- جريا- كل من يحمل راية الضلالة و المتاهة كأصحاب الجمل و من أشبه حيث يشكّلون على الإسلام خطرا علّه أخطر ممن سواهم من الكفار الرسميين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 188 في قرب الإسناد للحميري عن حنان بن سدير قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة و الزبير فقلت لهم: كانوا من أئمة الكفر، إن عليا (عليه السلام) يوم البصرة لما صف الجمل قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني و بين اللّه و بينهم فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون علي جورا في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفا في قسم؟ قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي و لأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمت فيكم الحدود و عطلتها في غيركم؟ قالوا: لا، قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 356

ذلك، ففرض قتال أئمة الكفر طليق على أية حال، فإنهم بطبيعة حالهم الشريرة يؤمّون الكفر بكل بنوده السلبية للإيمان و الإيجابية لنفسه، قتلا للأنفس و طعنا في الدين بكل ما يملكونه أو يمّلكون من طاقات و إمكانيات في مؤاتية المجالات.

فالقادة الأئمة هم بين أئمة الإيمان و أئمة الكفر، فلا بد لأئمة الإيمان بربعهم أن يقاتلوا أئمة الكفر بربعه: «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ» (2: 251) «أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» هنا ظاهرة بديل ضمير: «فقاتلوهم» عبارة قاصدة لموضوعية إمامة الكفر لفرض القتال مهما لم يكن نكث لأيمان و سواها.

و هنا «لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» تعني- لأقل تقدير- الانتهاء عن إمامة الكفر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فما بال بيعتي تنكث و بيعة غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر أنفه و عينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثم ثنى إلى أصحابه فقال: إن اللّه تبارك و تعالى يقول في كتابه: «وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ»، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): و الذي فلق الحبة و برء النسمة و اصطفى محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية و ما قوتلوا منذ نزلت، و رواه العياشي عن حنان بن سدير عنه (عليه السلام)

أقول: مغتصبو الخلافة هم من أهل هذه الآية و لكن الملابسات منعت الإمام عن القيام بالسيف أمامهم.

و

في أمالي المفيد باسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) حين خرج طلحة و الزبير على قتاله: عذرني اللّه من طلحة و الزبير، بايعاني طائعين غير مكرهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية، و رواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن و أبي الطفيل و الحسن البصري مثله، و رواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن و في حديثه قال بكير: فسألت عنها أبا جعفر (عليهما السلام) فقال: صدق الشيخ هكذا قال علي هكذا كان‏

و

فيه عن العياشي عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) على هذا المنبر و ذلك بعد ما فرغ من أمر طلحة و الزبير و عائشة، صعد المنبر فحمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ثم قال: يا أيها الناس و اللّه ما قاتلت هؤلاء إلا بآية تركتها في كتاب اللّه، إن اللّه يقول: «وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ» أما و اللّه لقد عهد إليّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قال: يا علي لتقاتلن الفئة الباغية و الفئة الناكثة و الفئة المارقة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 357

فتنة و إفسادا على المؤمنين و سائر المستضعفين، ثم انتهاء عن أصل الكفر، و إذا فهم إخوانكم في الدين.

ثم‏ «لا أَيْمانَ لَهُمْ» بعد «إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ» تعبير قاصد إلى أن أيمانهم لم تكن أيمانا قاصدة صادقة، فإن طبيعة حال الأيمان هي الوفاء دون النكث، فالأيمان المنكوثة ليست في الحق بأيمان، و إنما هي قالتها دون حالتها و فعالتها، و صرف القالة في اليمين قالة غائلة.

هؤلاء أئمة الكفر و هم دركات، كما و أئمة الايمان درجات علياها الأئمة من آل الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، الأعزة عند الرسول و على‏

حد تعبيره (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش» «1»

و «الأئمة من المهاجرين» «2».

و ترى «إن نكثوا» تختص واجب قتال أئمة الكفر- فقط- بما إذا نكثوا و طعنوا، فغير المعاهد الطاعن لا يقاتل؟ «أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» موضوعا ل «قاتلوا» تكفي دليلا أن لها الموضوعية التامة الطامة في حكم واجب القتال، فسواء في ذلك المعاهد الناكث و غير المعاهد ما دام الطعن في الدين بإمامة الكفر قائما، فذلك- إذا- حكم يحلق على كافة أئمة الكفر الطاعنين في الدين للطول التأريخي و العرض الجغرافي.

ذلك، و من أبرز النكث للإيمان فالطعن في الدين هو نكث يمين الإيمان المدعى ارتدادا عنه جاهرا، مما يفت عضد الدين و يضعف ساعد اليقين حيث يخيّل إلى بسطاء المؤمنين أنهم ارتدوا عنه بما وجدوا فيه من خلل فجحدوه لهذه العلل و ما نجدوا، و هو طعن في الدين و قلوب الديّنين، طعنا عمليا يعمل في إضلال البسطاء سراعا، و دليلا باهرا على الشمول إضافة إلى ظاهرة العموم، أن «نكثوا» هنا بعد «فَإِنْ تابُوا»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة بخ- ك 93 ب 51 و مس- ك 33 ح 5- 10 وتر- ك 31 ب 46 و حم أول ص 398 قا 406، خامس ص 86 و 87 و 93 و 94 و 95 و 96 و 97 و 98 و 99 و 100 و 101 و 106 و 107 و 108 و ط- ح 767 و 1278.

(2) المصدر ط- ح 926 و 2133.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 358

فهو في الأصل نكث بعد التوبة، ثم يشمل كل نكث، ثم كل إمامة للكفر، و قد سبق ذلك النكث ما يعممه تماما، فسابق‏ «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ» مع «إن تابوا» مرتين، دليل باهر لذلك التعميم.

فلا تختص‏ «أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» بمن يطعنون في الدين و هم كفار جاهرين، بل و أنحس و أنكى منهم كبراء بزعم الناس، يظهرون الإيمان مضمرين الكفر ثم يرتدون، و ذلك كاف في زعزعة إيمان البسطاء المستضعفين.

إذا فنكث الأيمان يشمل نكث الإيمان- و بأحرى- لأنه أيضا يمين من الأيمان، بل و أحرى مما سواه من أيمان، فقضية طليق‏ «أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» بنقض الأيمان و الطعن في الدين هي وجوب قتال كل من يحمل مشعل الضلالة و الطعن في الدين، ملحدا أو مشركا أو كتابيا أم و مسلما يحمل ما يحملون بل هو أخطر و أنكى، فأصحاب البدع الجاهرة، الذين يبدعون خلاف الضرورة من شرعة الحق هم من أئمة الكفر، و ترى إذا انتهى المرتد عما فعل و أبرز الإيمان، فهل يثبت قتاله بعد أم لا؟ «لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» حيث تنهي قتالهم لغاية انتهاءهم، دليل نفيه عندئذ، اللّهم إلّا أن يدل قاطع الدليل على استثناء المرتدين.

و هل للكافر يمين لمكان‏ «نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ» حيث النكث لها دليل واقعها؟ أم لا- ل «إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ»؟ إن لهم يمينا ما لم ينكثوا، فحين نسمع منه يمينا لا نتأكد كذبه فقد نعامله معاملة صادق اليمين على حذر لأنهم- كأصل- لا أيمان لهم، إذ لا مولى لهم به يحلفون.

أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13).

هذه الآية بما بعدها تواجه ما حاك في نفوس ضغيفة لم يتعرق الإيمان بعد فيها، من تردد و تهيّب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة الجاسمة القاصمة، و من تعلل و رغبة و تعلّة في أن يفي‏ء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل، و من خوف على نفوسهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 359

و مصالحهم، ركونا إلى أيسر وسائلهم في مسائلهم.

فالقرآن يواجه هذه المشاعر بملابساتها الملبّسة على أصحابها، و التعلّات و المخاوف المحلقة عليها، استجاشة لقلوب المؤمنين بذكريات و أحداث و رغبات صالحة، تذكرة بنقض المشركين عهودهم بعد إبرامها و سائر ما افتعلوه بحق الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الذين معه.

و هنا سرد مختصر غير محتصر لثالوث أئمة الكفر: «نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ»- «وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ» «وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» و كل واحدة من هذه الثلاثة تكفي في فرض قتالهم فضلا عن الثالوث كله.

و «أَ لا تُقاتِلُونَ» استفهام إنكاري ممن يتهاون و لا يتعاون في قتال هؤلاء الناكثين البادئين في الحرب و قد «هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ» مما يدل على مدى تعرق الكفر في نفوسهم النحيسة البئيسة.

1 «نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ» مع الرسول- كما هو شيمتهم الشنيعة-: نقضا لعهد الحديبية ف «إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش و عهدهم و ثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و عهده ليلا فقاتلوهم للضغن على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)» «1» و كان (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قد قبل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 215- أخرج ابن إسحاق و البيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم و المسور بن مخرمة قالا: كان في صلح رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم الحديبية بينه و بين قريش أن من شاء أن يدخل في عقد النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و عهده دخل فيه و من شاء أن يدخل في عهد قريش و عقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: ندخل في عقد محمد و عهده، و تواثبت بنو بكر فقالوا: ندخل في عقد قريش و عهدهم فمكثوا في تلك المداهنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرا ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش و عهدهم و ثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و عهده ليلا بماء لهم يقال له الوتير قريب مكة فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هذا الليل و ما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع و السلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ركب عمر و ابن سالم عند ما كان من أمر خزاعة و بني بكر بالوتير حتى قدم-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 360

شروطهم ما حسبه الخليفة عمر قبولا للدنية! ثم وفى لهم أحسن الوفاء و أدقّه، و لكنهم نقضوا عهده (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و خاسوا به بعد عامين لأول فرصة سانحة.

2 «وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ» مرات عدة، يوم الندوة، و يوم الشعب، و ليلة الفراش التي انتهت إلى الهجرة، ثم و كل أيامهم كانت تحمل هما بالغا قالا و حالا و فعالا لإخراج الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن عاصمة الدعوة، و ذلك أنحس و أنكى ما حصل منهم طول همومهم بخصوصهم و عمومهم، ثم و لم يكونوا يكتفون إخراجه بإخراجه عن مكة، بل و هموا بإخراجه أيضا عن المدينة لما أقدموا عليه من المشورة و الاجتماع على قصده بالقتل، فهمهم لإحراجه في المدينة همّ لهم لإخراجه عنها كما أخرجوه عن مكة المكرمة.

3 «وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» بدء بالقتال و النكال منذ بزوغ الدعوة، و من ثم بعد الهجرة خلال بضع أشهر، في حرب بدر التي أصبحت- خلاف قصدهم- بادرة القوة الإسلامية ضدّهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المدينة على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بأبيات أنشده:

اللّهم إني ناشد محمدا\* حلف أبينا و أبيه الا تلدا كنا والدا و كنت ولدا\* ثمت اسلمنا و لم نزع يدا فانصر رسول اللّه نصرا اعتدا\* و ادعوا عباد اللّه يأتوا مددا فيهم رسول اللّه قد تجردا\* إن شئتم حسنا فوجهه بدر بدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا\* إن قريشا أخلفوك الموعدا و نقضوا ميثاقك المؤكدا\* و زعموا أن ليس تدعو أحدا فهم أذل و أقل عددا\* قد جعلوا لي بكداء رصدا هم بيتوا لنا لهجير هجدا\* و قتلونا ركعا و سجدا فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): نصرت يا عمرو بن سالم فما برج حتى مرت غمامة في السماء فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب و أمر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الناس بالجهاد و كتمهم مخرجه و سأل اللّه أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 361

فلقد بيتوا عليه في بيت اللّه الذي يأمن فيه القاتل و السارق، فمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا أمان له في ذلك البيت الأمين لأنه يدعو إلى الهدى، و يردهم عن الردى، بيتوا عليه على حريته و على دمه دونما تحرّج و لا تذمم، و بكل تهرّج، حتى أخرجوه عن مكة بعد كل ما أحرجوه، ثم أصروا على إبادته في مهجره بقيادة أبي جهل في بدر، ثم قاتلوهم بادئين في أحد و الخندق، ثم جمعوا لهم في حنين و لا يزالون و كما قال اللّه:

«وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» مما يبين الطبيعة الشركية النكدة اللئيمة.

و كما هم بدءوكم في قصة خزاعة، و البادئ بالقتال يحق قتاله على أية حال.

«أَ لا تُقاتِلُونَ» هؤلاء الأنكاد البعاد؟ «أ تخشوهم» أنتم‏ «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ» فأتمروا بأمره‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» به‏ «وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 139).

و «من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء و من لم يخف الله أخافه الله من كل شي‏ء»، فلا يخاف في سبيل اللّه أيّ مخيف إلا اللّه الذي يأمرنا أن نسلك سبيله دون خوف ممن سواه.

قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15).

هنا «يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» دون «صدوركم» أو «صدور المؤمنين» ككل، مما يلمح بنزول الآية بشأن ناقضي عهد الحديبية حيث إن بني بكر وثبوا على خزاعة الداخلين في عقد رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و اثخنوهم قتلا و جرحا و تشريدا.

أجل «قاتلوهم» أولاء الناقضين، و بالنتيجة «يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ» القوية بالإيمان، و قلوبكم الندية بالإيمان ثم «و يخزهم» كما أخزوا فريقا من المؤمنين‏ «وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ» بصورة قاطعة لا قبل لهم بها، ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 362

«وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» مظلومين مهضومين‏ «وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ» الغائظة على تلك الحالة المخزية المزرية «وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ» منكم مقاتلين و من هؤلاء المظلومين المقتص لهم، ثم و من الناقضين الذين قد يتوبون إلى اللّه عما نقضوا و أبغضوا اللّه و رسوله حين يرون نصرا كمؤمنين، إحساسا لهم أنهم منصورون بغير ظاهرة القوة الحربية، فتفتح بصيرتهم على الهدى.

«وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» بكل ما حصل و يحصل و ما هو صالح أم طالح لكم و لمن سواكم «عليم» بالعواقب المخبوءة وراء هذه التقدمات، «حكيم» فيما يأمر و ينهى و يقضي و يقدر، «حكيم» يقدر نتائج الأعمال و الحركات و النيات.

ذلك، فطبيعة الحال تقضي بأن المؤمنين تغيظ قلوبهم بما يلمسون من مثل ذلك الكبت الشديد و النقض العنيد، فذلك العذاب بأيديكم المؤمنة و الخزي للناقضين و نصرتكم عليهم، إن فيها لشفاء لصدورهم عما جرحت و ضيقت و حرجت، و إذهابا- بالنتيجة- لغيظ قلوبهم.

و لقد تجري هذه الآية فيمن يدعي الإسلام، و هو ناقض لعهده مفض يديه منه حيث يعامل المسلمين كما يعامل الكافرون‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 190 عن تفسير العياشي عن علي بن عقبة عن أبيه قال: دخلت أنا و المعلى على أبي عبد اللّه (عليه السلام) فقال: ابشروا أنكم على أحدي الحسنيين شفى اللّه صدوركم و أذهب غيظ قلوبكم و أنا لكم على عدوكم و هو قول اللّه‏ «وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» و إن مضيتم قبل أن يروا ذلك مضيتم على دين اللّه الذي رضيه لنبيه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لعلي (عليه السلام)، و فيه عنه أبي الأغر اليمني قال:

إني لواقف يوصفني إذا نظرت إلى العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شاك في السلاح على رأسه مغفر و بيده صفيحة يمانية و هو على فرس أدهم إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم يا عباس هلم إلى البراز، قال: ثم تكافى بسيفهما مليّا من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته إلى أن لاحظ العباس وهيا في درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي و خرّ الشامي صريعا بخده و أمّ في الناس و كبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض فسمعت قائلا يقول: «قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ»-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 363

و ترى «يعذبهم» لا تنافي‏ «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ» و ان الدنيا دار عمل و لا حساب و الآخرة دار حساب و لا عمل؟

العذاب المسلوب كما قدمناه هو عذاب استئصال و ما أشبه بيد القدرة الربانية دون سيط الإنسان، ثم العذاب هنا ليس حسب الحساب المخصوص بالأخرى، إنما هو شطر ضئيل منها تتقدم هنا لتكون كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى.

و القتل و الحصر و التشريد و ما أشبه، كما الحدود و التعزيرات، هي عذابات مأمور بها بأيدي المؤمنين على المتخلفين عن شرعة اللّه تأديبا لهم و تأنيبا و ردعا و تقليلا للفساد.

ذلك «و قاتلوهم» هذا قد يمتد أمره إلى فتح مكة التي تجمع كل هذه المواصفات، فسائر الحروب الفاتحة لم تكن تحمل منها إلا يسيرا قصيرا، و إنما فتح مكة هو الذي حمل كل هذه المواصفات لقبيل الإيمان.

و هنا «غَيْظَ قُلُوبِهِمْ» في إذهابه رحمة عليهم خروجا لقلوبهم عن التغيظ التضيق بما أصيبوا من مكائد الكفار، فهي رحمة صالحة لهم، و هناك غيظ آخر في ذهابه رحمة عليهم و على الآخرين الذين يجب كظم الغيظ عنهم لكونهم مؤمنين، و هذا مجال‏

قول النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجرا عند الله من جرعة غيظ في الله» «1».

و القصد من جرعة الغيظ هنا الصبر عند الاهتياج، و اللظم عند الانزعاج، و ترك إتباع نوازع النفس إلى ما تدعوا إليه في تلك الحال من شفاء غيظ، أو تنفيس كرب، أو إطلاق عقال، أو فعل مراقبة للّه سبحانه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللّه بأيديكم و يخزهم و ينصركم عليهم و يشف صدور قوم مؤمنين و يذهب غيظ قلوبهم و يتوب اللّه على من يشاء فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين (عليه السلام) و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (96).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 364

تنجزا لثوابه، و احتجازا عن عقابه، فشبه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تلك الحال بالجرعة، كأن الإنسان بالكظم لها و الصبر عليها قد ضاق بها مرارة، و أساغ منها حرارة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (16).

«أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ» (23: 115) «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى‏ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» (2: 214) «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» (3: 14).

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا» لحالكم دونما ابتلاء و إمتحان و تمحيص‏ «وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ» علما و علامة بواقع الجهاد الذي هو علامة النجاح، كما أن تركه علامة السقوط، فلهذه المجاهدات المفروضة أبعاده، منها تميّز المجاهدين الواقعيين عن المدعين الجهاد «يقولون في المجالس كيت و كيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد».

و «جاهدوا» الطليقة هنا تعم الجهاد الأنفسي إلى الآفاقي و الآفاقي إلى الأنفسي، و جهاد النفس هو أعظم، و هو أتم مهاد لجهاد سائر الأعداء، و لا يعني جهاد النفس قتل النفس الأمارة بالسوء، إنما هو جعلها سليمة أمام العقلية الإيمانية، خارجة عن طيشها و عيشها المتخلف عن شرعة اللّه، فتفسير جهاد النفس بقتل النفس غلط رائج دارج لا يعبأ به! «جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا» أية وليجة تلج في صفوفكم و صنوفهم‏ «مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً» فالوليجة الربانية هي المعرفة التقية، و التقوى المعرفية أماهيه، الوالجة في قلوبهم و الحاكمة في صفوفهم، ثم من الوليجة الرسولية تقبل قيادته العليا من اللّه، و من ثم الوليجة الإيمانية و لوج المؤمنين بعضهم في بعض، مندغمين مع بعضهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 365

البعض صفا كأنهم بنيان مرصوص، و ليس ذلك الامتحان ليعلم اللّه الذين جاهدوا منكم إلّا علما لا علما «وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ».

«يا معشر الأحداث اتقوا الله و لا تأتوا الرؤساء، دعوهم حتى يصيروا أذنابا، لا تتخذوا الرجال ولائج من دون الله أنا و الله خير لكم» «1»

و

«إياكم و الولايج فإن كل وليجة دوننا فهي طاغوت- ند» «2».

و هكذا

فإن كل سبب و نسب و قرابة و وليجة و بدعة و شبهة منقطع إلّا ما أثبته القرآن‏ «3» و لأن «المؤمنين» درجات فأولج الولايج منهم و أبهج المناهج هم ولاة الأمر المعصومون (عليهم السلام)، فإنهم استمرارية كاملة شاملة لكيان الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بينهم‏ «4».

فكما الوليجة الرسولية هي- فقط- «رسوله» كذلك الوليجة الرسالية بعده و لوجا قياديا بينهم ليسوا إلّا خلفاءه المعصومين (عليهم السلام)، و من ثم الدرجات التنازلية لسائر المؤمنين قضية صالح الملابسات و المناسبات.

فمما لا مرية فيه أن الإنسان أيا كان لا يقدر أن يعيش عيشة صالحة بشخصه مهما كان شخيصا محيصا، اللّهم إلّا بوليجة ربانية تلج قلبه و فكره، مرشدا أو مناصرا ليكون على بصيرة و مسيرة فمصيرة صالحة لأمره في حياته.

فالمجاهدون من المؤمنين في مختلف حقول الجهاد هم الذين لا يتخذون وليجة في جهادهم و جهودهم إلّا «الله- و رسوله- و المؤمنين»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 191 في تفسير العياشي عن ابن أبان قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ثم ضرب بيده إلى صدره.

(2) المصدر عن أبي الصباح الكنائي قال قال أبو جعفر (عليهما السلام):

(3) المصدر عن أصول الكافي عن أحمد بن محمد بن خالد مرسلا قال قال أبو جعفر (عليهما السلام):

(4)

المصدر عن أصول الكافي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية يعني بالمؤمنين الأئمة (عليهم السلام) لم يتخذوا الولايج من دونهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 366

فوليجة اللّه- كالإخلاص له فيه- دائبة لا تنفصل إلا بانفصال الإيمان، و طالما الوليجة الرسولية منفصلة بانفصاله عنا و لكنها الوليجة الرسالية مستمرة معنا، في كيانه الرسالي بسنته (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الآخر المتمثل في عترته (عليهم السلام)، و من ثم الوليجة الإيمانية من المؤمنين على كتاب اللّه و سنة رسوله، فمتخلفة الولايج من المؤمنين مرفوضة، و الصالحة منها مفروضة، و لتكون هذه الولايج النيرة الربانية زادا صالحا في هذه السفرة الشاقة البعيدة المليئة بالأشلاء و الدماء، كما أن «في سبيل الله» راحلتهم التي ترحلهم.

فكما أن جهاد المؤمن محصور في سبيل اللّه، محسور عما سواها و سواه، كذلك وليجته في جهاده هي وليجة اللّه ابتغاء رضاه و رجاء لطفه تعالى في غناه، ثم و ما يرضاه من الرسول و المؤمنين، و ذلك هو الجهاد الصالح دون سواه، فقد انتقشت كلمة لا إله إلّا اللّه في زادهم «في سبيل الله» لا سواه، و راحلتهم‏ «وَلِيجَةً وَ اللَّهُ» لا سواها.

و عبارة أخرى عن «وليجة» هي «بطانة» «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» (3:) 118).

ذلك‏

«و قد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك و وصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة و الدعاة إلى النار بالزور و البهتان، فولوهم الأعمال، و جعلوهم حكاما على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، و إنما الناس مع الملوك و الدنيا إلا من عصم الله» «1».

فعلى المؤمن أن يتزود في قلبه و نيته وليجة اللّه، و في كيف يجاهد؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 208 عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 367

وليجة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فإنه الذي يدل إلى صالح الجهاد بوحي اللّه، ثم وليجة المؤمنين باللّه شرط الموافقة للأوليين كتابا و سنة، تعاونا معهم في سبيل اللّه، و ذلك المثلث يرسم له هندسة صرح الجهاد الصالح، فلا نكسة فيه و لا ركسة بإذن اللّه.

[سورة التوبة (9): الآيات 17 الى 24]

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (17) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى‏ أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18) أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21)

خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (24)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 368

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (17).

«ما كان ل» حظر حظير في موقف حذير سلبا للأهلية عن قالة أو حالة أو فعالة، كلما ذكرت فيه منها، و عمارة المساجد من هذه المحظورات للمشركين‏ «شاهِدِينَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» هنا «الكفر» يعمم التحريم من المشركين إلى سائر الكافرين، فذكر «المشركين» إذا يعني أنحس مصاديق الكفر.

و عمارة المسجد الحرام في ثالثة الآيات ك «مَساجِدَ اللَّهِ» هنا تعم إلى عمارة بنيانه عمارة الحضور فيه تطبيقا لطقوس كافرة أم أي حضور و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 369

بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» «1».

و «المشركين» هم أنحس مثال في ذلك الحظر، دون اختصاص له بهم، و قد يؤيده إضافة إلى «بالكفر» «أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» حيث الحبط يعم المشركين إلى كل الكافرين، فلا يسمح لهم ككل في عمارة مساجد اللّه ككلّ، إضافة إلى الحصر: «إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ» مهما كان حصرا في أرجح السماح لعمارة المساجد.

«أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» في الدنيا و الآخرة، فكما ليست لهم أعمال ينفعهم في الآخرة، كذلك ليست لهم أعمال تسمح لهم بعمار المسجد الحرام و سائر مساجد اللّه، و لا لهم أعمال في مساجد اللّه تنفعهم، بل و هي تضرهم لأنها تخلفات عن شرعة اللّه الحاضرة الناسخة لما سواها، ف:

إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسى‏ أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18).

إن بيوت اللّه خالصة للّه، خاصة بعباد اللّه في عبادة اللّه، فكيف يعمرها من لا يعمر قلوبهم بتوحيد اللّه، فما هي الصلة بين من يسجد للأصنام و مسجد اللّه لعباد اللّه؟! أم يسجد للمسيح أم سواه زعم أنه عبادة اللّه؟ فلا يصلح غير المؤمن باللّه أن يعمر مساجد اللّه، و إنما «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ» هم الصالحون لهذا الصدد المسدّد، ثم و أولئك الأنكاد هم الطالحون، إذا فما هو دور المؤمنين الفاقدين لهذه الشروط الثلاثة؟ إن عمارتهم للمساجد لا محظورة- إذ ليسوا بكافرين- و لا محبورة إذ ليسوا هكذا مؤمنين، فهم عوان بينهما، مسموحا لهم عمارة المساجد دون تشجيع.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 219- أخرج أحمد و عبد بن حميد و الدارمي و الترمذي و حسنة و ابن ماجه و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن خزيمة و ابن حبان و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 370

فالموقف الأوّل لعمارة المسجد الحرام و سائر مساجد اللّه إنما هو لمن جمع بعد الإيمان باللّه مثلثة الشروط «1»، ثم لمن آمن و جاء بالأهم منها، و من ثمّ لمن هو خاو عنها كلّها، درجات حسب الدرجات.

و «إِنَّما يَعْمُرُ» هي بين إنشاء و إخبار، إخبارا أن طبيعة حال المؤمن الحامل لهذه الشروط أن يعمر مساجد اللّه بنيانا و حضورا لإقام الصلاة، و إنشاء: ليعمر هكذا مؤمن مساجد اللّه في بعدي العمار دون سواه، فقضية الإيمان باللّه و الخشية من اللّه ثم إقام الصلاة و إيتاء الزكاة، هي عمارة مساجد اللّه، و بأحرى منها كلها «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ».

ف «عمار بيوت الله هم أهل الله» و

«من ألف المسجد ألفه الله» «2»

و

«من أدمن الاختلاف إلى المسجد أصاب أخا مستفادا في الله و علما مستظرفا و كلمة تدعوه إلى الهدى و كلمة تصرفه عن الردى و يترك الذنوب حياء و خشية، أو نعمة أو رحمة منتظرة» «3»

و

«من توضأ في بيته ثم أتى المسجد فهو زائر الله و حق على المزور أن يكرم الزائر» «4».

و إذا كانت عمارة المسجد في بنيانه هي قضية الإيمان‏ «5»، فالحضور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق (14: 482) ذكر الجبري الكوفي في تنزيل الآيات (12) مخطوط قال: نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام).

(2) الدر المنثور 3: 216- للأول أخرج البزار و أبو يعلى و الطبراني في الأوسط و البيهقي عن أنس بن مالك قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و الثاني عن أبي سعيد الخدري عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(3) المصدر أخرج الطبراني عن الحسن بن علي (عليهما السلام) قال سمعت جدي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول:

(4)

المصدر أخرج الطبراني بسند صحيح عن سلمان الفارسي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: و فيه عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: بشر المدلجين إلى المساجد في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفزع الناس و لا يفزعون، و قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): الغدو و الرواح إلى المسجد من الجهاد في سبيل اللّه.

(5)

المصدر أخرج أحمد عن عبد اللّه بن عمير قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 371

فيها هو بأحرى من قضاياه، حيث القصد من بنيان المسجد أن يسجد فيه دون بنيان هو خراب عن الحضور للصلاة.

و هنا قرن عمارة مساجد اللّه بما قرن دليلنا أن مساجد اللّه لا تصلح إلّا للعبادة لا سواها من أشغال الدنيا و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقا ذكرهم الدنيا و حب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة» «1».

و لأن‏ «مَساجِدَ اللَّهِ» هي محال الخضوع و السجود للّه فلا تزخرف بما تجلب الأنظار، و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «ما أمرت بتشييد المساجد» «2».

و لا تعني عمارة المساجد في بنيانها- فقط- إصلاح ما أشرف منها على خراب، بل و بأحرى أصل عمارها و هذا فرع عليه تشمله عمارة المسجد.

و هنا «لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» قد تعني الخشية في العبادة أنه لا يعبد إلا اللّه، حيث العبادة بصورة عامة هي قضية الخشية، و هي الحالة القلبية الظاهرة في مظاهر القال و الفعال، مهما كانت لها درجات أعلاها ل «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ» (33: 39).

فخشية اللّه على ضوء الإيمان باللّه تحمل صاحبها على إقام الصلاة للّه في بيت اللّه، و على إيتاء الزكاة و أفضله- كذلك- بيت اللّه لمكان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و سلم): من بنى للّه مسجدا بنى اللّه له بيتا أوسع منه في الجنة،

و

فيه عن أنس عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ابنوا المساجد و اتخدوها حمى.

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 10 عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

(2)

المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن يزيد بن الأصم قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و فيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إن اللّه سبحانه يقول: إني لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمار بيوتي و المحابين فيّ و المستغفرين بالأسحار صرفت عنهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 372

الحشد و الحشر العام فيه لعباد اللّه المحاويج.

«فَعَسى‏ أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

أو لمّا يكونوا هؤلاء الأكارم من المهتدين؟ فكيف «عسى»؟ أجل، إن الإيمان باللّه و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و خشية اللّه هي اهتداء إلى اللّه، و لكن الاهتداء الجماهيري الجمعي الشامل الكافل لإسعاد الحياة فردية عالية و جمعية غالية، إنما هو على ضوء تعمير مساجد اللّه بنيانا و حضورا و كما في رواية الإمام الحسن المجتبى عن جده رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، و حتى الاهتداء الفردي هو بحاجة إلى كمال الصلاة و الزكاة و الخشية، فليس لهم- إذا- إلّا رجاء الاهتداء.

ثم اهتداء آخر هو استمراريته بتكافل الجمع الحاشد في بيوت اللّه و لا سيما في مؤتمرات الحج و العمرة، و من ثم حسن العاقبة بذلك الاتصال الجماهيري في تحقيق عمودي الصلاة و الزكوة في بيوت اللّه، ثم الاهتداء إلى الجنة.

و من ناحية أخرى قد تنحو «عسى» نحو قطع آمال المشركين عن اهتداءهم دون سبب صالح، فإن السبب الصالح يوصل إلى الهدى ب «لعل و عسى» فضلا عن غير الصالح فلا «لعل» فيه و لا «عسى».

ف «عسى» هنا عساها تعني بعد الاهتداء الأوّل في مربعه سائر الاهتداء في الدارين التي هي من محاصيل تعميرات بيوت اللّه من كل الجهات و بكل الإمكانيات، و في أعلى قممها «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» حيث‏ «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» و «هُدىً لِلنَّاسِ» و «مَثابَةً لِلنَّاسِ» فالقيام الإسلامي السامي في ذلك المؤتمر هدى لا بديل عنها و كما فصلناها على ضوء آيات الحج.

ذلك، و في نظرة أخرى إلى الآيتين نستنتج أحكاما تالية:

1 تعمير مساجد اللّه في مثلث البنيان و الإصلاح و الحضور محرم على الكافرين باللّه، حيث المشرك نجس نحس، و الكافر- ككل- نجس، و تطهير البيت فرض‏ «أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ» ثم و دخول الكافر مظنة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 373

تلويث المسجد و هو حرام، و ان الكافر جنب أيا كان، و دخول الجنب في المسجد حرام لا سيما المسجد الحرام إذا كان مسلما فضلا عن الكافر:

«وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى‏ تَغْتَسِلُوا» إذ هم مكلفون بالفروع كما الأصول، ثم و إقدام الكافر لتعمير مساجد اللّه تعيير، كما يوجب منة على المسلمين.

إذا فدخول الكافر مساجد اللّه لغير عمارة، بل للاهتداء، ليس ذلك محظورا، و في دوران الأمر بين محظور الجنابة و محبور الهداية، لا ريب أن الهداية أولى و أرجح، بل و في حظر الكافر المتحري عن الهدى عن دخول مساجد اللّه حظر عن الاهتداء إلى اللّه! ذلك، و قد تلمح‏ «شاهِدِينَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» ان «المشركين» و الكافرين في ذلك الحظر لا تشملان من لا يشهد على نفسه بالكفر، حيث هو في سبيل الاهتداء ليسمع كلام اللّه في مساجد اللّه، فالشهادة على النفس بالكفر هي الاستقرار الصامد على الكفر، شهادة في القال و الفعال مع شهادة الحال.

هذا، و من شهادتهم على أنفسهم بالكفر طقوس الكفر التي يعملونها في مساجد اللّه، كالطواف عريانا حول البيت مكاء و تصدية و قولهم «لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه و ما ملك» و سائر طقوسهم الكافرة في سائر مساجد اللّه.

ثم‏ «أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» ككل و في مساجد اللّه، و الأعمال الحابطة بها خابطة، فيها مس من كرامة مساجد اللّه، كمن يصلي في مسجد دبر القبلة أم دون طهارة أماهيه من حبط للصلاة و خبط فيها.

و في نظرة أخرى إلى الآيتين نقول:

حظر عمارة المساجد- و منها دخولها- محصور في‏ «شاهِدِينَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» فما هي هذه الشهادة؟ و الكافر بصير بنفسه أيا كان! من شهادتهم على أنفسهم بالكفر حالة الصمود و الجمود فيه، فالكافر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 374

المتحري عن إيمان غير شاهد على نفسه بالكفر، لا عابرا متحريا في شك مقدس، فلا حظر عن عمارته المسجد.

و منها الالتزام في كفرهم بالطقوس الكافرة قالا و أعمالا إلى حال، فقالة الكفر و أعماله للداخل في مساجد اللّه إزراء بها و بالمؤمنين باللّه.

فأما إذا هو كافر لا يشهد هكذا على نفسه بالكفر، بل و يعمل عمل الإيمان ضمن المؤمنين لأنه محايد مهما لم يكن متحريا، فقد يجوز دخوله مساجد اللّه، إذ لا ضير فيه و لا مس من كرامة، و قد يجوز اهتداءه في خضمّ الجماعات الإيمانية بطقوسها.

فالكافر المتغيب كفره تحريا عن إيمان، أم دون تجر على إيمان، مسالمة و محايدة مع أهل الإيمان، قد يجوز له عمارة مساجد اللّه، و أما محظور الجنابة فقد يدخل في دوران الأمر بين الأهم و المهم و ما أشبه.

و الأصل من محظور عمارة مساجد اللّه هو الصدّ عن أن يذكر فيها اسم اللّه، أو يعارض بذكر اسم غير اللّه: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى‏ فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ» (2:) 114).

ذلك، و قد تعين «ما كان» هنا و هناك الإخبار إلى الإنشاء و الإنشاء إلى الإخبار، فبالنسبة للعمارة الروحية إخبار، و لغيرها إنشاء، و «ما كان» تضرب إلى أعماق الإخبار و الإنشاء.

و لأن الأصل في عمارة المسجد الحرام عمارة الإيمان الصالح، لا فقط عمارة البنيان و العامرون هم غامرون في الكفر، خراب عن الإيمان، لذلك تأتي النبهة الثالثة:

أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 375

فلقد كانت للمشركين‏ «سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» قاضية عن عمارة الإيمان- منقبة يفتخرون بها على المؤمنين باللّه و اليوم الآخر و المجاهدين في سبيل اللّه، فواجههم ذلك التنديد الشديد، و لكي يعرفوا أن الأصل في عمارة المسجد الحرام هو عمارة الإيمان، و إمارته على أهل الإيمان، فمسجد الضرار مسجد في عمارته كسائر المساجد، و لكنه يهدم و يحرق بأمر اللّه لأنه كان إرصادا لمن حارب اللّه و رسوله، «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى‏ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى‏ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ. أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ تَقْوى‏ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (9: 107- 110).

فالمسجد الحرام أسس على التقوى من أوّل يوم أحق أن تقوم فيه، ثم مسجد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ما أشبه، و لا مكانة لسقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام و إمارته للمشركين أمام عمارة الإيمان و إمارته، و حضور المؤمنين فيه تطبيقا لشعائر اللّه.

و مهما نزلت الآية- بين منازل النزول- في عباس و شيبة و علي (عليه السلام) ترتيبا عمليا بينهم: سقاية الحج و عمارة المسجد الحرام و من آمن بالله و لكنها طليقة بين الجانبين، ثم ظاهر المقابلة أن سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كانتا لمن هو يقابل الجانب الآخر مهما كان له إيمان، فقد

قيل‏ إن عليا (عليه السلام) قال للعباس يا عم ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟

فقال: أ لست في أعظم من الهجرة؟ أعمر المسجد الحرام و أسقي حاج بيت اللّه فنزلت هذه الآية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 194 في مجمع البيان قيل: إن عليّا (عليه السلام): .. و مثله في الدر-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 376

و هنا «سقاية و عمارة» مصدران تقابلان ب «من آمن»؟ و لا تقابل بين مصدر و فاعل!، علّ القصد منهما بصورة المصدر هو سيرة الفاعل لهما، أنهما أصبحا سقاية و عمارة حيث أصبح كيانهما ككل إياهما دون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- المنثور 3: 218 عن عبد اللّه بن عبيد قال قال علي (عليه السلام): و

فيه روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني باسناده عن ابن بريدة عن أبيه قال: بينما شيبة و العباس يتفاخران إذ مر بهما علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاج، و قال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام فقال علي (عليه السلام): استحييت لكما فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا، فقالا: و ما أوتيت يا علي؟ فقال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما باللّه فقام العباس مغضبا يجر ذيله حتى دخل على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قال: أما ترى إلى ما استقبلني به علي؟ فقال: ادعوا عليا فدعى له، فقال:

ما دعاك إلى ما استقبلك به عمك، فقال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) صدمته بالحق فمن شاء فليغضب و من شاء فليرضى فنزل جبرئيل (عليه السلام) و قال: يا محمد ربك يقرؤك السلام و يقول أتل عليهم‏ «أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ»

و

فيه عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) يا أمير المؤمنين أخبرنا بأفضل مناقبك، قال: نعم كنت أنا و عباس و عثمان بن أبي شيبة في المسجد الحرام، قال عثمان أعطاني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الخزانة يعني مفاتيح الكعبة، و قال العباس: أعطاني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) السقاية و هي زمزم و لم يعطك شيئا يا علي، قال: فأنزل اللّه‏ «أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ».

و

في الدر المنثور 3: 218- أخرج ابن مردويه عن الشعبي قال‏ كانت بين علي و العباس منازعة فقال العباس لعلي (عليه السلام): أنا عم النبي و أنت ابن عمه و إلى سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام فأنزل اللّه هذه الآية،

و

فيه أخرج مسلم و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الطبراني و أبو الشيخ و ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عنه منبر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج و قال آخر: بل عمارة المسجد الحرام و قال آخر: بل و الجهاد في سبيل اللّه خير مما قلتم فزجرهم عمر و قال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ذلك يوم الجمعة و لكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فاستفتيته فيما اختلفتم، فأنزل اللّه: أ جعلتم سقاية الحاج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 377

اعتبار لسواهما من منازل الكمال مكانة، و لكن من‏ «آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و إن لم يصبح كيانه ككل إياها فهو أفضل من الأولين، فالإيمان القليل أفضل من كثير السقاية و العمارة و عمارة المسجد الحرام ممن لا يؤمن، كما و أن الإيمان الأكثر دون سقاية و عمارة هو أفضل من الأقل بكل سقاية و عمارة للمسجد الحرام.

فما أحسنه تعبيرا قاصدا لمثل هذه العناية الأدبية الرقيقة المنبّهة لموقف الإيمان أمام سواه.

و نظيرة الآية في مقابلة الفعل بالفاعل‏ «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» (2:) 177).

ذلك‏ «لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ»: سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كأصل، و من آمن باللّه كأصل آخر، و إن كانا من المؤمنين، حيث الرجاحة دائما هي لأصل الإيمان قبال الكفر، و لفاضل الإيمان قبال مفضوله دون أية فضيلة أخرى و جاه الإيمان و لواحقه.

ثم‏ «وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» مهما كانوا سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام، و هو يهدي المؤمنين و إن لم يسقو الحاج و لم يعمروا المسجد الحرام.

و قد يدل قرن «من آمن» ب «سقاية» على عدم إيمان من نزلت الآية نكاية به‏ «1»، و كما «وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» تؤيده، أم يعنى معه كامل الإيمان أمام ناقصه تبيينا أن الإيمان بملحقاته هو- فقط- سند الفضيلة و الأفضلية بمراتبه أمام فاقديها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 218 عن ابن عباس قال قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام و الهجرة و الجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام و نسقي الحاج و نفك العاني فأنزل اللّه هذه الآية. و عن ابن عباس أن المشركين قالوا: عمارة بيت اللّه و القيام على السقاية خير من الإيمان و الجهاد فذكر اللّه خير الإيمان به سبحانه البيت و الجهاد مع نبيه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على عمران المشركين و قيامهم على السقاية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 378

إذا ف «أ جعلتم» تشمل إلى جعل المشركين جعل بسطاء من المؤمنين، هكذا جعل جاهل قاحل، و كما يتأيد كلّ بمختلف ملامح الآية و ما بعدها.

و قد أصفق الفريقان في روايتهم المتواترة أن الآية نزلت بشأن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) مثلا عاليا للإيمان و الجهاد، أمام من يفتخر بسقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام، نذكر منهم عجالة تسعة عشر من الفطاحل كنماذج عن عشرات‏ «1» بكلمة واحدة مشركة بينهم كما في الجمع بين الصحاح الستة من رواية الجمهور:

أنها نزلت فيه (عليه السلام) لما افتخر طلحة بن شيبة و العباس فقال طلحة أنا أولى بالبيت لأن المفتاح بيدي، و قال العباس أنا أولى أنا صاحب السقاية و القائم عليها، فقال علي (عليه السلام): أنا أولى الناس إيمانا و أكثرهم جهادا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في ملحقات إحقاق الحق 3: 124- 127، ممن أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في العهدة لابن بطريق (98) و الواحدي في أسباب النزول (182) و الخازن في تفسيره (3: 57) و البغوي في معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن (3: 56) و ابن المغازلي في مناقبه و ابن الأثير في جامع الأصول (9: 477) و الرازي في تفسيره (16: 10) و الگنجي في كفاية الطالب (113) و القرطبي في تفسيره (8: 91) و النيسابوري في تفسيره (10: 60) و ابن كثير في تفسيره (2: 241) و ابن الصباغ المالكي في فصول المهمة (106) و السيوطي في الدر المنثور (3: 218- 219) و في لباب النقول في أسباب النزول (115) و المير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (40) و الشبلنجي في نور الأبصار (105) و الشوكاني في فتح القدير (2:

303) و القندوزي في ينابيع المودة (92).

و في ملحقات الاحقاق 14: 194- 199 مستدرك عما في المجلد (3) هو: الزمخشري في ربيع الأبرار (484) و ابن المغازلي في المناقب (117) و الثعالبي في ثمار القلوب (543) و البغدادي في المنتخب من صحيح البخاري و مسلم (216) و الشافعي في المناقب (161) و ابن كثير في تفسيره (4: 359) و الأبشهي في المستطرف (1:

121) و ابن الصباغ في الفصول المهمة (106) و القنفوري في نزهة المجالس (2:

209) و اليزدي في شرح الديوان (177) و الزرندي في نظم درر السمطين (88) و الحمويني في فرائد السمطين (48 و 49) و الأمر تسرى في أرجح المطالب (64).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 379

فأنزل اللّه هذه الآية.

أجل و إنه لا مفاضلة و لا مفاصلة إلّا في مثلث: الإيمان باللّه، و اليوم الآخر، و الجهاد في سبيله، دون سائر المفاضلات و المفاصلات أو المعادلات المزعومة، و كما تعلمنا كلمة واحدة «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» و ترى كيف ترك هنا الإيمان بهذه الرسالة السامية و هي أصل للجهاد في سبيل اللّه؟

علّه لأن هذه الثلاثة لا تتم إلّا على ضوء هذه الرسالة، و لا سيما الجهاد في سبيل اللّه، حيث الأولان مستفادان من حجة العقل كخطوة أولى، و لكن سبيل اللّه فضلا عن الجهاد في سبيله لا تعرف إلا بوسيط الوحي الرسولي، و كما هو تكملة لوحي العقل الهادي إلى اللّه و اليوم الآخر.

ذلك، و إذا كانت سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام قضية الإيمان باللّه و اليوم الآخر و الجهاد في سبيله، فهي محبورة محسوبة بحساب الإيمان، فإنما المقابلة بينهما تعني مجردهما عن الإيمان قبال اللّاإيمان، أم مصحوبهما بقليل الإيمان أمام كثير الإيمان.

فللإيمان باللّه موضوعية ليست لسقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام إلّا على ضوء الإيمان قدره، فلا يقاس تفضيلا أو تعديلا بالإيمان إلا نفس الإيمان و هنا «لا يَسْتَوُونَ» سلب لأفضلية غير الإيمان بأحرى و أولى.

ذلك و

لما «أرادوا أن يدعوا السقاية و الحجابة قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لا تدعوها فإن لكم فيها خيرا» «1»

و لقد كان يطلب و هو في المدينة ماء زمزم ليشرب منه‏ «2» و ذلك كرامة للمؤمن الساقي و العامر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 219- أخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله: «أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ» قال: أرادوا.

(2)

المصدر أخرج عبد الرزاق و الأزرقي عن أبي جريج عن ابن أبي حسين قال: كتب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلى سهيل بن عمرو إن جاءك كتابي ليلا فلا تصبحن و إن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 380

دون سواه:

و يا لزمزم من بركة و رحمة و شفاء لا توجد لغيرها من عيون الأرض كلها، فطالما وردت عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الوصايا بشأنها «1».

و

«كان النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا أراد أن يتحف الرجل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جاءك نهارا فلا تمسين حتى تبعث إلى بماء من ماء زمزم فملأ له مزادتين و بعث بهما على بعير.

و

فيه أخرج الدار قطني عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: خمس من العبادة: النظر إلى المصحف و النظر إلى الكعبة و النظر إلى الوالدين و النظر في زمزم و هي تحط الخطايا و النظر في وجه العالم.

(1).

المصدر أخرج البخاري و الحاكم و صححه و البيهقي في سننه عن ابن عباس‏ أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بشراب من عندها فقال اسقني فقال يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إنهم يجعلون أيديهم فيه فقال اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم و هم يسقون و يعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح لو لا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه و أشار إلى عاتقه،

و

فيه أخرج ابن سعد عن علي (عليه السلام) قال‏ قلت للعباس سل لنا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ألا نأتيك بماء لم تسمه الأيدي؟ قال: بلى فأسقوني فسقوه ثم أتى زمزم فقال: استقوا لي منها دلوا فأخرجوا منها دلوا فمضمض منه ثم مجه فيه ثم قال: أعيدوه ثم قال: إنكم على عمل صالح ثم قال: لو لا أن تغلبوا عليه لنزلت فنزعت معكم.

و

فيه أخرج المستغفري في الطب عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ماء زمزم لما شرب له من شربه لمرض شفاه الله أو جوع أشبعه الله أو لحاجة قضاها الله.

و

فيه أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) خير ماء على وجه الأرض زمزم فيه طعام من الطعم و شفاء من السقم،

و

فيه أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن صفية عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: ماء زمزم شفاء من كل داء،

و

فيه عن ابن عباس قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): آية ما بيننا و بين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 381

بتحفة سقاه من ماء زمزم» «1».

الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22).

تتمة من المواصفات للمفضّلين على سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام، و هنا «أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ» بالنسبة لمن دونهم من المؤمنين حقيقة التفضيل، و لغير المؤمنين مجارات في التفضيل، أن لو كانت مجرد السقاية و العمارة فضلا فهؤلاء المؤمنون هم‏ «أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ» الذي تسقون حاجّه و تعمّرون بيته، ففي مثلث المتحملات بين الإيمان و شروطه و غير الإيمان هو أعظم من سواه، دون مساوات فضلا عن تفضيل اللّاإيمان على الإيمان، ثم الإيمان الأكمل أفضل من سواه مهما حمل سواه من فضائل متخيلة.

و هنا «رحمة و رضوان» قبل و قبال «جنات» تدل أنهما فوق هذه الجنات، فهي جنات معرفية «رحمة» لنا منا بفضل اللّه، و أخرى روحية من اللّه فينا «رضوان» «وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 72) «قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» (3: 15).

ذلك، فهنا «رضوان» بعد «رحمة» هو أفضل مصاديق الرحمة الطليقة، فالمعرفة هي سبيل الرضوان، فهو أصل الرحمة و أثافيّها، و هنا المعرفة للعبودية و العبودية هي سبيل الرضوان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

ثم و «خالِدِينَ فِيها» تعم هذه الثلاثة و بقمّتها «رضوان» من اللّه.

و هنا «نَعِيمٌ مُقِيمٌ» هو قضية فضله تعالى، فليس العذاب- إذا-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج أبو نعيم عن ابن عباس أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 382

مقيما لأنه قضية عدله حيث: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23).

فإنما الولاية هي ولاية اللّه بكل أبعادها اللائقة باللّه، ثم و في سبيل و مرضاته ولاية أولياء اللّه، و قضية الإيمان باللّه أن‏ «لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ» فولايتهم أولاء انتقاض للإيمان أو انتقاص من الإيمان‏ «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» المنتقضون الإيمان، أو المنتقصون من الإيمان.

و هنا «إِنِ اسْتَحَبُّوا» تعم إلى كفارهم منافقيهم حيث الاستحباب لا يعني مقولة اللفظ فقط، بل هو مقولة القلب ثم القالب له مظهر، فاستحباب الكفر في ثالوثه أم ضلع من أضلاعه استحباب، مهما كان الجمع أغلظ، فإنه للإيمان أرفض.

و ليس فقط «لا تتخذوا أولياء» بل و حاربوهم على ولاية اللّه كما تحاربون سائر الكفار دون تمييز، و كما

يروى عن الإمام علي (عليه السلام): «و لقد كنا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) نقتل آبائنا و أبناءنا و إخواننا و أعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا و تسليما و مضيا على اللقم و صبرا على مضض الألم وجدا على جهاد العدو» «1».

أجل و في مسرح الإيمان بآصرة القلب الواعي تتقلب سائر الأواصر من الدم و النسب و الحسب، و تبطل ولاية القرابة في أسرة و سواها، فللّه الولاية الأولى و على هامشها ولاية أولياء اللّه، قدر ما قدره اللّه، بعيدة عن ولاية اللّه نفسه حيث هي تخصه ربوبية، كما ولاية الخلق تخصهم عبودية دونما خلط و لا غلط.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة للسيد الشريف الرضى عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 383

قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (24).

رغبات ثمان تعرض بمسرح الحب أمام اللّه و رسوله و جهاد في سبيله، فقضية الإيمان هي أن الأحب إلى صاحبه هو اللّه أصيلا، ثم الرسول فصيلا لرسالته عن اللّه، و «جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ» وسيلا وصيلا لمرضاته.

فمخمس «آباءكم- أبناءكم- إخوانكم- أزواجكم- عشيرتكم» يحلّق على كافة الصّلات النسبية و السببية أماهيه من صلات حيوية، فإن «آباءكم» تشمل الوالدين، بل و الأعمام و الأخوال و العمات و الخالات، و «أبناءكم» تشمل البنات إلى الأولاد و الأحفاد منهما أو أحدهما، و «أزواجكم» تشمل إلى البعولة الزوجات في مثلثة الزواجات دائمة و منقطعة و أمة، ثم «و عشيرتكم» تعم كل الوصائل و الفصائل البعيدة نسبيا و سببيا و ودّيا.

و مثلث‏ «أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها- وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها- وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها» تعم كافة الرغبات المالية، حاضرة ك «أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها» و مستحضرة لمستقبل: «تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها» ثم أمكنة لكم بمن يتصلون بكم، أم لأموالكم، أم لتجاراتكم: «وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها».

فقد حلّقت تلك الثمانية على كل الرغبات الحيوية لنا حيث نعيشها و نعيّش بها، و نحن في وسط بينها أن نبصر إليها دون نفاذ عنها إلى مرضات اللّه فتعمينا: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» أو أن نبصر بها فتبصّرنا فإيمانا باللّه و هجرة في اللّه و جهادا في سبيل اللّه، و على‏

حد المروي عن الإمام علي (عليه السلام) بشأن الدنيا و «من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته».

هناك في حقل الولاية المحظورة يذكر فقط «الآباء و الإخوان» دون البقية المذكورة هنا، لأنهما- فقط- مسرح الولاية و النفاذ في أمور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 384

الإنسان دون الملحقين به العائشين على هامشه، و هنا في حقل الحب يأتي دور البقية مع الآباء و الإخوان.

و لأن الحب الأعلى هو للأغلى فليكن اللّه و رسوله أحب إلى المؤمن حتى من نفسه فضلا عما سواها، فحين يقول عمر: و اللّه لأنت يا رسول اللّه أحب إلي من كل شي‏ء إلّا من نفسي- يجيبه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» «1».

و لأن الحب ليس إلّا نحو الكمال فالمحبوب- إذا- ليس إلا الكمال بمن يحمله، فالأحب هو الأكمل، ففي مثلث حب الإنسان نفسه، و سواها من خلق، و ربه، لا ميزان لأصله و لا فصله إلا أصل الكمال و أكمله، إذا فحب من سوى اللّه أو ما سواه دونه إلحاد حادّ، ثم كون غير اللّه أحب إليك من اللّه إلحاد وسط بإشراك، و من ثم التسوية في الحب بين اللّه و سواه إشراك خالص، و التوحيد هو أن يكون اللّه أحب إليك مما سواه، و لكلّ دركات و لتوحيد الحب درجات‏ «وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» (2: 165) قالا و حالا و أعمالا، و التوحيد الحق في حب اللّه هو أن لا تحب إلّا إياه، ثم تحب ممن سواه من يحبه اللّه فتحبه في حب اللّه قدره، و أدنى درجات حب اللّه هو الرجاحة القلبية لحبه على من سواه، فالرجاحة العملية لحب من سواه أو ما سواه ضعف في مظهر الإيمان، كاشفا عن ضعفه في القلب.

و لأن المؤمنين بصورة طليقة تشمل إلى المعصومين العدول و الفساق الذين دخل الإيمان في قلوبهم، و الذين أسلموا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، بل و المنافقين، فالتنديد هنا موجه أولا إلى الأخيرين، حيث المنافق يحب غير اللّه أكثر منه علما و تقصيرا، و المسلم الساذج قبله يحب هكذا قصورا عن تقصير و جهالة، ثم إلى فساق المؤمنين حيث الفسق عمليا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 223- أخرج أحمد و البخاري عن عبد اللّه بن هشام قال كنا مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: و اللّه فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): لا يؤمن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 385

ترجيح لغير اللّه على اللّه في المظهر، كاشفا عن ضعف الإيمان.

و محور التنديد في مراتب الحب هنا أن يكون غير اللّه أحب إليك منه، لا لأن التسوية غير محظورة، و إنما لعناية مظاهر الحب بين اللّه و ما سواه، حيث الفسوق عمليا هو مظهر من مظاهر الترجيح لغير اللّه على اللّه، و أما الحب قلبيا فأقل درجاته في حقل الإيمان أقل رجاحة لحب اللّه على ما سواه و من ثم درجات إلى حب العصمة و عصمة الحب.

ذلك‏

«من الإيمان كون الله و رسوله أحب إلى المرء من سواهما» «1»

تقديما لحب اللّه و على ضوءه حب النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هكذا يكون‏

«حب النبي من الإيمان» «2».

ذلك حب اللّه أصالة و حب رسوله رسالة، و من لزامات ثاني الحبين حب الأئمة من أهل بيته (عليهم السلام) و كما

يروى عنه متواترا: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي» «3»

«حب علي براءة من النار» «4»

و

«من مات على حب آل محمد مات شهيدا» «5»

«أساس الإسلام حبي و حب أهل بيتي» «6».

و هذه الآية تنديدة شديدة مديدة بهؤلاء الذين ظلوا بعد الفتح بمكة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 2 ب 9 و 14، ك 78 ب 42، ك 89 ب 1، ك 93 ب 10، مس- ك 1 ح 66- 68، ك 45 ح 161- 165، تر- ك 38 ب 10، ك 34 ب 50، نس- ك 48 ب 2- 4، حم- ثالث ص 172 و 174 و 192 و 200 و 202 و 207 و 208 و 213 و 226 و 227 و 228 و 230 و 255 و 275 و 276 و 278 و 283 و 288 ط- ح 2131.

(2) المصدر نقلا عن بخ- ك 2 ب 8، ك 89 ب 1، ك 93 ب 10، مس- ك 1 ح 66- 70، تر- ك 34 ب 50 ك 38 ب 10، نس- ك 46 ب 3- 4 و 19 و 20، مى- ك 20 ب 29، حم- ثالث ص 172 و 174 و 177 و 192 و 200 و 202 و 207 و 208 و 213 و 226 و 227 و 228 و 230 و 255 و 275 و 276 و 278 و 283 و 288، رابع ص 233 و 236، خامس ص 170 و 233 و 236 و 293 ط- ح 2131.

(3، 4، 5، 6) هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كما في ملحقات إحقاق الحق فليراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 386

مصلحية الحفاظ على أموالهم و أهليهم خوف تهدّرهما رغم التهدّر من دينهم و استمرارية السلطة المشركة عليهم.

ذلك، ثم‏

«لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك و ولدك، فإن يكن أهلك و ولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه، و إن يكونوا أعداء الله فما همك و شغلك بأعداء الله» «1».

و هنا سير تنازلي في الولاية أمام اللّه، ألّا تولوا الكافرين من هؤلاء، ثم لا يكونوا أحب إليكم من اللّه و رسوله و جهاد في سبيله و إن كانوا مؤمنين، فالآية السابقة للأولى، و الأخرى للأخرى، توحيدا وطيدا لولاية اللّه و رسوله و حبه و الجهاد في سبيله، تفضيلا فضيلا له على من سواه من نفس أو نفيس، فإن كل متعلق دون اللّه نحيس بخيس.

ثم‏ «فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» توعيد بمن يحب غير اللّه أكثر من اللّه مهما كان مؤمنا، فضلا عن حب الكافرين من الأقارب أو تولّيهم فإنهم- إذا- حيّات و عقارب.

و «أمره» المتوعد هنا يعم أمر الحياة لهم إلى أن يأتي اللّه بقوم يحبهم و يحبونه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» (5: 54) «وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ» (9: 39).

و من هؤلاء- إلى الذين يأتون في آخر الزمان- هم الذين فتح اللّه بهم مكة المكرمة، فحين لم يهاجر جماعة من المؤمنين إلى المدينة تحببا إلى أموالهم و أهليهم و تحفظا عليهم فليتربصوا «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» بمن يفتح اللّه بهم عاصمة الدعوة و أنتم بعد لازقون بها مخلدين إليها لازمين، رغم كرور الأمر بالهجرة عنها.

و ذلك التجرد عن كل آصرة أمام حب اللّه يطالب به الفرد و الجماعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة (352 ح/ 636 عن الإمام علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏12، ص: 387

المؤمنة، أن يتصبّغوا بصبغة اللّه، فرغم أنه شاقّ حسب الطبيعة البشرية، و لكنه سهل يسير على المؤمن الذي يخشى اللّه، و لا يخشى أحدا إلّا اللّه.

فالتجرد في اللّه عن كل آصرة و وسيلة و وصيلة و فصيلة، عن كل نفس و نفيس، هو قضية الإيمان الصادق الأمين باللّه و رسوله، فجهاد في سبيله.